مقدمة

هذا هو العدد الخامس والعشرون من مجلة الإكليل، وهو ما يمكن أن يسمى بالعدد الفضي. فهو يكلل مسيرة طويلة من العمل ابتدأت سنة 1980م وأصابها التوقف التام حيناً 95-2000م والتوقف الجزئي أو عدم الانتظام أحياناً أخرى كثيرة. ولكن الإكليل كالعنقاء تبعث بعد ممات وتعود بعد غيبة، وفي كل مرة يكون فيها الجديد والجاد.

ومنذ عودها مطلع هذا العام 2001 رسمنا لها خطة محكمة تهدف إلى الحفاظ على انتظام صدورها، ووُضِعَ لذلك برنامج زمني دقيق تتدرج الإكليل فيه سلم الزمن رويداً رويداً حتى ينتظم صدورها مع مطلع كل فصل اعتباراً من العدد (28) للفصل السنوي يناير-مارس 2002 ويزداد حجمها إلى أربعمائة صفحة تقريباً وتقسم إلى ملفات ومحاور ذات حقل موضوعي متقارب.

بيد أن اهتمام الباحثين، وإقبال القراء، واهتمام ذوي العلم بها حملنا على تسريع وتيرة التطوير كماً ونوعاً.

فالكم في هذا العدد يزيد عن الخطة المرسومة بمقـــدار 100% والكيــف يدركه القارئ. فكل بحث قد عُرِض على محكَّم مختص في علمه ومشــهود لــه فيــه. وبذلك تُقَدِّم الإكليل خلاصة نقية مصفاة من جهد الباحثين وعملهم.

وكما أشرنا في العدد الماضي إلى أن هذا العام هو عام إعــادة التأســيس واكتساب الثقة، وأن التحول قادم لا محالة نحو الأفضل، وأن اليمـــن أرضــاً وإنساناً ستظل محور اهتمام المجلة وموضع أولويتها.

فهذا العدد يحتوي على جملة متنوعة من البحوث الرصينة في تاريخ مدارس العلوم الإسلامية في اليمن، والتاريخ السياسي المعاصر لليمـــن، والمخطوطــات النادرة، وقضية البيئة والفقر، والإعلام السكاني، وطرح نموذج إنمائي جديد.

كما أن ملفاً أولياً أخذ يتشكل في المحور المخصص للشعر الجــاهلي مـــن حيث صوره الفنية أو بعده الذاتي. وجاءت نافذة الترجمة لتطل على وكـــالات الأنباء العالمية من حيث أهمها وأكثرها تأثيراً في الإعلام الدولي.

أما القراءة والمناقشة فهي لكتاب هام عن "اليمن في بلاد ملكة سبأ" الذي صدر بلغات عدة منها العربية.

وبهذا نظن أننا قد أدينا الأمانة ووفينا بما تعهدنا به ونأمل استمرار المجلــة وتطور عطائها.

رئيس التحرير

د. حميد العواضي

alhamid21 @ yahoo.com

مدارس العلوم الإسلامية في اليمن

الجزء الأول

الأيوبيون والمدارس في اليمن

د. محمد علي العروسي(*)

نشأة وظهور المدرسة في العالم الإسلامي.

المسجد أول منشأة تعليمية ظهرت في الإسلام، تعلم فيه المسلمون الأوائل الصلاة والقراءة والكتابة، وفيه حفظوا آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، ودرسوا علوم الفقه والتفسير واللغة العربية من نحو وصرف ولغة وأدب، وغيرها من العلوم

(*) أستاذ الآثار الإسلامية المساعد بقسم الآثار، كلية الآداب، جامعة صنعاء.

المختلفة. ويعتبر المسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة أول مدرسة عرفها العالم الإسلامي، فقد كان وما يزال أهم مراكز نشر الدعوة والثقافة والعلوم الإسلامية، وحلقات الدرس التي بدأت فيه لأول مرة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، لم ينقطع انعقادها طوال العام في هذا المسجد المقدس حتى يوم الناس هذا. والمسجد الحرام بمكة المكرمة يعتبر ثاني مدارس العلوم الإسلامية التي ظهرت في العالم الإسلامي بعد المسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة، فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يجلس في مسجده بالمدينة ويأتي الصحابة، رضوان الله عليهم، يجلسون حوله مشكلين حلقة يستمعون إليه وهو يتلو عليهم آيات القرآن العظيم مرات عديدة حتى يحفظها الصحابة غيباً ويستمعون إلى أحاديثه الشريفة ويتعلمون منه أمور دينهم ودنياهم، وقد ظهر من بين هؤلاء عدد من حفظة القرآن الكريم بعث بهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى القبائل ليتعلم سكانها القرآن الكريم وتعاليم الدين الإسلامي الحنيف. ويعتبر القراء (حفظة القرآن الكريم) والمحدثون (رواة الحديث النبوي الشريف) والمفسرون الذين اشتهروا في بداية العصر الإسلامي أول علماء الإسلام .ففي القرن الأول الهجري/السابع الميلادي ظهرت في المسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة مجالس الأدب فكان الأدب أول ما يتعلمه الطفل في هذه المجالس، كما ظهرت في المسجد في نفس الفترة مجالس العلم وحدد العلماء عددا من الشروط لقبول طلاب العلم فيها، أهمها أن يكون طالب العلم من حفظة القرآن الكريم وقادرا على تفسير آياته وأن يكون عارفا بالأحاديث النبوية الشريفة وعاملا بها. وقد نبغ من هذه المجالس عدد كبير من الطلاب وقد تكونت منهم طبقة أهل العلم، الذين تبوأوا منذ بداية العصر الإسلامي مكانة عالية رفيعة، وأخذوا على عاتقهم نشر تعاليم الدين الإسلامي الحنيف وعلومه في المساجد التي بنيت في كل مناطق عالم الإسلام. كانت تلك المساجد مراكز لنشر الدعوة الإسلامية ونشر المعارف والعلوم المختلفة **[ياقوت الحموي معجم الأدباء، القاهرة، 1938م، الجزء الرابع، ص272، الجزء السابع ص 1105]**.

ومنذ بداية القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي ظهرت منشآت تعليمية مستقلة عن المساجد، تخصصت تلك المنشآت في تدريس علوم القرآن الكريم والحديث الشريف والفقه وقواعد اللغة العربية وآدابها وغيرها من العلوم المختلفة وتعتبر مدرسة الضحاك بن مزاحم (ت.سنة 105 أو 106هـ/723 أو 724م) في مدينة الكوفة أول مدرسة ظهرت في العالم الإسلامي. ويذكر ياقوت الحموي بأن الضحاك بن مزاحم كان عالماً في النحو والتفسير والفقه وكان عدد الأطفال الدارسين في مدرسته، التي أنشأها بمدينة الكوفة في نهاية القرن الأول الهجري/السابع الميلادي، يزيد عن ثلاثة آلاف طالب، وكان الضحاك ينتقل بينهم وهو راكب حماره **[ياقوت: معجم الأدباء، جزء 6، ص272-273]**.

ثم ظهرت بعد ذلك مؤسسات تعليمية بمسميات مختلفة لعل أهمهما بيت الحكمة التي أنشأها الخليفة العباسي المأمون (198-218هـ/813-833م) في مدينة السلام (بغداد) سنة 215هـ/830م. اشتملت بيت الحكمة تلك على قاعات للدرس ومكتبة عظيمة تزخر بنفائس الكتب، وقد تولى التدريس فيها عدد من العلماء الأكفاء، تخصص عدد منهم في مجال الترجمة. وتزامن مع ظهور هذه المراكز التعليمية ظهور عدد من المساجد التي تخصصت إلى جانب وظيفتها الدينية في تدريس العلوم الشرعية والفقهية، وقد جاء ظهور هذا النوع من المساجد في أعقاب نهاية المحنة التي بدأت في آخر سنة من أيام حكم الخليفة العباسي المأمون واستمرت حتى نهاية حكم الخليفة العباسي المتوكل(من سنة 218هـ/833م إلى سنة 234هـ/ 848م) و ظهور هذه المؤسسات التعليمية الجديدة لم يؤثر على دور المسجد الذي استمر في تأدية وظيفته كمنشأة تعليمية إلى جانب وظيفته الأساسية كمنشأة دينية. هذه الرسالة الدينية والتعليمية التي انطلقت من المسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة والمسجد الحرام بمكة المكرمة ظهرت في غالبية المساجد التي تم إنشاؤها بعد ذلك في مختلف مناطق العالم الإسلامي، وأصبحت بعض هذه المساجد من أشهر الجامعات الإسلامية،نذكر منها على سبيل المثال. الأزهر

الشريف بالقاهرة وجامع الأشاعر في مدينة زبيد وغيرها، كما زاد الإقبال على طلب العلم، وظهور عدد كبير من المؤسسات التعليمية المختلفة في القرون الهجرية الأولى، كالمعلامة أو الكتاب التي بنيت بجوار المسجد وتخصصت في تعليم أطفال المسلمين القراءة والكتابة والقران الكريم، وأدت بعض المنازل وظيفة المراكز التعليمية .كانت تلك المنازل في الأصل مساكن لعلماء وفقهاء تولوا التدريس فيها، وقام البعض الآخر منهم بتحويل منازلهم إلى مدارس للعلم .وتوالى ظهور المؤسسات التعليمية فظهرت دور الدعوة .ودور الحكمة ودور السنة .منها دار السنة التي أنشاها أحمد بن إسحاق بن أيوب الصبغي (342هـ953م) في نيسابور على باب الجامع .كما أنشأت بعض المدارس في القرن الثالث الهجري /التاسع الميلادي، منها مدرسة أبي حاتم البستي (المولود في سنة 277هـ890م) التي أنشاها في مدينته مرو، احتوت هذه المدرسة على مكتبة وغرف للسكن خصص منحاً مالية للطلاب القادمين للدراسة فيها من أقاليم أخرى في الدولة الإسلامية.

وفي القرن الرابع الهجري ظهر عدد من المدارس .نذكر منها بعض المدارس التي بنيت في نيسابور مثل مدرسة فارجك التي دمرها حريق سنة 325هـ 936م، ومدرسة أبي الوليد حسان بن القرشي (ت349هـ/960م). وكذلك مدرسة الفقه الشافعي التي أنشأها الشيخ النيسابوري (ت. سنة 349هـ/960م)، ومدرسة أبي الحسن علي بن الحسن الصبغي (ت سنة 350هـ/961م). يذكر المقريزي بان "المدارس ظهرت في العالم الإسلامي بعد المائة الرابعة من الهجرة النبوية وكان أهل نيسابور هم أول من بنى المدارس (المقريزي، الخطط، ج2، ص 263). كما أشاد المؤرخ المقدسي في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي بمدارس إيرانشهر الرائعة.

وفي الأيام الأولى من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي وجدت في نيسابور أربع مدارس عرفت بالمدارس البيهقية نسبة إلى منشئها البيهقي المتوفى سنة

458هـ/1066م وفي مدينة دمشق أنشأ رشأ بن نظيف سنة (370-440هـ) داراً للقراء عرفت بدار القرآن الرشائية، بنيت بالجهة الشمالية من الجامع الأموي بدمشق، وقد كانت دار القراء هذه في الأصل مسكناً أوقفه صاحبه رشأ بن نظيف على قراءة القرآن الكريم، استمرت هذه الدار عامرة حتى بنيت على أنقاضها في العصر المملوكي المدرسة الاخنائية، وتعتبر دار القراء هذه أول مدرسة مستقلة عن المسجد تظهر في سوريا (الريحاوي ،العمارة العربية الإسلامية، ص97).

انتشرت في العصر الفاطمي منشآت تعليمية عرفت بدور العلم، ومن أهمها دار العلم التي أقامها جعفر بن محمد الموصلي (ت سنة 323هـ/ 934م (في مدينة الموصل، كما أنشأ الوزير نصر سابور بن إردشير في سنة 381 أو 383هـ/991-993م دوراً للعلم في مدينة بغداد .وأنشأ الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (386-411هـ/996-1020م (دار الحكمة سنة 395هـ/1005م) وزودها بمكتبة سميت دار العلم وحوت الكثير من الكتب في العلوم المختلفة ،وكانت هذه الدار واحدة من أهم مراكز نشر المذهب الإسماعيلي في مصرفي عصر الخليفة الحاكم بأمر الله ،وقد أنشأ هذا الخليفة في بداية القرن الخامس الهجري (سنة401هـ/101م) داراً للعلوم السنية بمدينة الفسطاط. وكانت عبارة عن مدرسة لتعليم المذهب السني في مصر ألحق بها مكتبة وعين أبا بكر الانطاكي ناظراً للمدرسة ورتب فقهاء تولوا التدريس فيها وأجرى لهم أرزاقاً شهرية ثابتة.

اتخذ الفاطميون من دور العلم التي أنشاؤها مراكز لمحاربة المذاهب السنية ولنشر مذهبهم، المذهب الإسماعيلي، أحد المذاهب الشيعية.

ويبدو أن الخلاف الذي ظهر بين المذهب الشيعي بفرقه المختلفة وبين المذاهب السنية منذ منتصف القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي كان أهم الأسباب التي أدت إلى ظهور منشآت تعليمية ذات طابع مذهبي. منها دور الدعوة ودور الحكمة ودور العلم أولاً، وبالتالي ظهور أعداد كبيرة من المدارس السنية التي انتشرت انتشاراً كبيراً

منذ منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. وكان الهدف من إنشاء تلك المدارس إيقاف الانتشار السريع للمذهب الشيعي الذي بدأ منذ النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وزاد انتشاره بإعلان قيام الخلافة الفاطمية في نهاية القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي التي بسطت سيطرتها في أول الأمر على كل بلاد المغرب تقريبا ،ثم تلا ذلك نجاح جيوشها بقيادة جوهر الصقلي في فتح مصر وانتقال الخليفة الفاطمي المعز لدين الله من مدينة المنصورية في المغرب إلى مدينة القاهرة ،التي أسسها جوهر الصقلي سنة 385هـ/967م، بأمر من الخليفة المعز لدين الله الفاطمي. وقد أصبحت مدينة القاهرة، منذ ذلك الحين عاصمة للخلافة الفاطمية التي صارت تحكم منها معظم أرجاء الدولة الإسلامية غير أن نفوذ الوزراء الفاطميين وتنافس رجال الدولة على تقلد الوزارة واستعانة بعض الطامعين في الوزارة الفاطمية بأمراء الدول المجاورة ودخول قوات الفرنجة إلى مصر، أدى إلى انحسار المذهب الشيعي وفقدان الفاطميين السيطرة على مناطق كثيرة كانت خاضعة لحكمهم .وقد أدى ذلك إلى انحسار المد الشيعي وسهل بالتالي مهمة القوات السلجوقية أولا ثم الأيوبية في الاستيلاء على ملك الفاطميين وزوال دولتهم، وفقدت المؤسسات التعليمية الفاطمية كدور العلم ودور الحكمة مكانتها ومصادر الإنفاق عليها مما عجل في اندثارها في معظم المناطق التي وجدت فيها، خصوصا في منطقتي العراق وبلاد الشام حيث تمكن السلاجقة من الاستيلاء على السلطة في دمشق وبغداد وبالتالي تسنى لهم القضاء على نفوذ الدولة الفاطمية في بلاد الشام وأحدثوا فيها تجديدا في الحياة الفكرية والدينية، فظهرت في عهدهم مؤسسة ثقافية ومعمارية جديدة هي المدرسة (الريحاوي العمارة، العربية الإسلامية، ص99). وقد عمل السلاجقة منذ بداية حكمهم على نشر المذاهب السنية ومحاربة المذهب الإسماعيلي باعتباره الدعامة الفكرية التي استندت عليها الخلافة الفاطمية، ولتحقيق ذلك قام السلاجقة بإنشاء ونشر المدارس والإنفاق عليها وتعيين المدرسين وتخصيص المرتبات أو الجرايات السخية لهم، وتزويد تلك المدارس بكل ما

يشجع طلاب العلم على الإلتحاق بها،كتوفير الغذاء والسكن والمنح المالية أحياناً.

وازدهرت حركة بناء وانتشار المدارس في مناطق النفوذ السلجوقي وأصبحت تلك المؤسسات التعليمية في عصرهم شبه حكومية نظراً لإسهام حكامهم ووزرائهم الفعال في بنائها والإنفاق عليها وظهور تدخل الدولة المباشر في توجيه التعليم فيها، وتتمثل سياسة توجيه التعليم في العصر السلجوقي في تحديد المذهب أو المذاهب التي كانت تدرس في كل مدرسة، وتعيين المدرسين المؤيدين للحكام والمقربين منهم، ورصد الأموال الطائلة للإنفاق على تلك المدارس التي كانت أهم الأجهزة الدعائية لنشر المذاهب السنية في العصرين السلجوقي والأيوبي (****).

ويعتبر نظام الملك (وزير كل من السلطان السلجوقي الب ارسلان والسلطان السلجوقي ملك شاه للفترة من 456 إلى 485هـ/1064-1092م) أول من أدرك أهمية المدارس والمدرسين وإمكانية استغلال هذه المنشآت الحيوية في محاربة المذاهب الشيعية ونشر المذاهب السنية، فسارع إلى بناء عدد من المدارس في نيسابور وهوراة واصفهان والبصرة والموصل وبغداد وقد عرفت تلك المدارس بالنظاميات ،كانت أشهرها وأكبرها المدرسة النظامية التي أنشأها العالم الفقيه أبي إسحاق الشيرازي في مدينة بغداد حيث بدأ إنشاء هذه المدرسة سنة 457هـ/1065م، ويعتبر نظام الملك أول من رصد المنح المالية لطلاب العلم في المدارس. ازدهرت حركة بناء وانتشار المدارس في العصر الأيوبي في مصر والعراق وبلاد الشام .ففي مصر أنشأ صلاح الدين الأيوبي سنة 566هـ/1166م مدرسة لتدريس المذهب الشافعي وأخرى لتدريس المذهب المالكي. وقد توسعت حركة إنشاء المدارس لتشمل كل الأقاليم العربية الإسلامية، ويذكر ابن جبير (ت. سنة 580هـ/1184م.

"أن عدد المدارس في بغداد في القرن السادس الهجري/ 12م بلغ حوالي ثلاثين مدرسة، بنيت كلها في الجزء الشرقي من المدينة، وبلغ عدد مدارس دمشق سنة 480هـ/85-1184م عشرين مدرسة وست مدارس في حلب ومثلها في مدينة الموصل"

(رحلة ابن جُبير ص. 183، 205، 229)

وبلغ عددها في مصر نهاية العصر الأيوبي خمسا وعشـــرين مدرســـة. وفي ســـنة 579هـــ/4-1183م بنيت أول مدرسة في الحجاز، فقد قام حاكم عدن ببناء مدرســـة لأصحاب المذهب الحنفي في مكة المكرمة وأنشأ في السنة التالية مدرسة شافعية.

وظهرت المدارس كذلك في آسيا الوسطى في العصر السلجوقي، ويعـــود تـــاريخ بناء أقدم المدارس المعروفة هناك إلى القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي.

وكما ازدهرت حركة بناء ونشر المدارس في شرق العالم الإسلامي ،امتدت هـــذه الحركة لتشمل عدداً كبيراً من مناطق مغرب العالم الإسلامي ،فأنشئت المدارس في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي في بلاد المغرب العربي .ففي عصر الدولة الحفصيـــة (625-941هـــ/1228-1534م) بنيت في تونس عدد من المدارس، ذكر الزركشي أسمـــاء إحدى عشر مدرسة منها مدرسة المعرض التي تعتبر أقدم هذه المدارس في تونس.

وكذلك مدرسة الحلفائيين التي أمر بإنشائها في مدينة فاس ســـنة 684 الســـلطان المريني أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق سنة(656-941/1228-1286)وأنشئ بعد ذلـــك في العصر المريني عدد من المدارس بنيت في تونس .

أما اقدم المدارس التي أنشأت في المغرب، فهي كما يذكر ابن مـــرزوق، مدرســـة الصفارين وكذلك مدرسة في مدينة فاس ومدينة تلمسان وفي مدن مغربية أخرى، وقـــد اسف ابن خلدون (ت.808/1406) للتدهور والتلف الذي أصاب مـــدارس المغـــرب وتونس في عصره. وظهرت المدارس في بلاد الأندلس في كل من قرطبة وغـــر ناطـــة وطليطلة واشبيلية ومالقة وغيرها، قد بلغ عدد المدارس التي أنشئت في مدينة غر ناطـــة وحدها مائة وسبعة وعشرين مدرسة نذكر منها المدرسة العظيمة التي أنشأها النـــاصر يوسف أبو الحجاج في هذه المدينة سنة (750 /1349) (ابن خلدون المقدمة، فصـــل 5 القاهرة ؛1322 جرجي زيدان التمدن الإسلامي ج3 ص 204-1128).

وأنشئت المدارس في الهند الإسلامية وكانت عبارة عن مؤسسات للتعليم العالي تتمثل وظيفتها الرئيسية في تأهيل وإعداد كبار رجالات الدولة وبخاصة القضاة .

كانت تدرس في هذه المدارس العلوم الدينية المختلفة وكان يتم اختيار مدرسيها من بين العلماء الأكفاء .ويرجع تاريخ بناء أقدم المدارس في الهند إلى تاريخ قيام سلطنة دلهي سنة (1206/602) والتي جعلت من مدينة دلهي أهم مركز لدراسة العلوم الإسلامية .(E.I.P1130)

توالى بناء المدارس في العصر العباسي واستمرت حركة البناء حتى نهاية الخلافة العباسية، وتعتبر المدرسة المستنصرية التي أنشأها الخليفة العباسي المستنصر با لله في مدينة بغداد سنة (631 /1234) أشهر وأعظم المدارس التي بنيت في العصر العباسي .تخصصت هذه المدرسة في تدريس المذاهب السنية الأربعة: المذهب الشافعي والمذهب الحنفي والمذهب المالكي والمذهب الحنبلي، وقد عين الخليفة لكل مذهب مدرساً يدرس خمسة وسبعين طالباً، وعين مدرساً للقران الكريم وآخر للحديث: كما عين طبيباً وأنشأ داراً للشفاء ومكتبة ومطابخ وحمامات للاغتسال وحديقة اشتملت على منظر خصص لجلوس الخليفة لمشاهدة المدرسة منه. وكانت تعلو مدخل هذه المدرسة ساعة كبيرة (ناجي معروف، تاريخ علماء المستنصرية ج1،ص110) وفي العصر العثماني اهتم الولاة العثمانيون كذلك ببناء المدارس، ويرجع تاريخ أول المدارس التي بنيت في العصر العثماني إلى سنة761هـ/1361م وتعتبر المدارس الثماني التي أنشأها السلطان سليم الأول أشهر المدارس التي شُيدت في العصر العثماني (حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، ص266).

تصميم المدارس ومكوناتها المعمارية

لعبت المساجد منذ إنشائها دوراً هاماً في نشر التعليم وتوافدت أعداد كبيرة من الطلاب من مناطق مختلفة لطلب العلم في تلك المساجد. ولكي لا يواجه الطلاب القادمون للدراسة من المناطق البعيدة عن المدينة التي جاءوا لطلب العلم في مسجدها مشكلة عدم توفر السكن بنيت قريباً من تلك المساجد بيوت عرفت بالخانات وخصصت لسكن الطلاب الغرباء عن المدينة. ثم ظهرت المدارس بعد ذلك كمنشآت معمارية وطراز معماري جديد في العمارة الإسلامية جمع بين وظيفتي المسجد والخانات. فوفرت المدرسة لطلابها العلم ووفرت للغرباء منهم العلم ومكاناً يرتفقون به.

ظهرت المدرسة كمنشأة تعليمية في العصر الإسلامي في فترة متأخرة عن ظهور المسجد وتصميمها المعماري يختلف أحيانا عن تصميم المسجد، فقاعة الصلاة هي إحدى المكونات المعمارية الرئيسية في المسجد وفي أغلبية المدارس والتي يفترض عدم اشتمال قاعات الصلاة بها على منبر أو مئذنة ولا تقام فيها صلاة الجمعة والعيدين. وقد ظهرت المدارس والتي يتكون تخطيطها المعماري العام من أربعة إيوانات، ويتكون في البعض الآخر من إيوان واحد أو إيوانين، وقد اشتملت غالبية المدارس على قاعات للدرس وغرف لسكن المدرسين والطلاب وأجرت بعض المدارس رواتب لبعض الدارسين فيها ووفرت لهم الغذاء والكسوة والمسكن، كما اشتمل العديد منها على مكتبات زخرت بأعداد ضخمة من الكتب التي تتناول علوماً شتى ونظراً لأن المدارس التي أنشأت في العصرين السلجوقي والأيوبي أُقيمت بهدف وقف الانتشار السريع للمذهب الشيعي ونشر المذاهب السنية الأربعة فقد ظهر في غالبية مدارس تلك الفترة التخطيط الإيواني وفيه تتكون المدرسة من أربعة أواوين غير متساوية في المساحة، كان مذهب مؤسس المدرسة أو المذهب السائد في البلد الذي أنشئت فيه يدرس في أكبر أواوينها. كما أنشئت مدارس ذات تخطيطات معمارية مختلفة، خصصت لتدريس

مذهب واحد أو مذهبين، ومدارس لتعليم القران الكريم وبنيت مدارس أخرى لتعليم القراءات ومدارس للحديث والفقه والنحو وعلوم أخرى كالفلك والرياضيات والطب والكيمياء.

نشأة وظهور المدارس اليمنية

يلاحظ الباحث في موضوع المدارس اليمنية شحة في المعلومات التي وردت عنها في المصادر التاريخية وكتب التراجم والطبقات، وإنْ وجدت فهي في الغالب تتناول بعض الجوانب التاريخية وتزودنا ببعض المعلومات عن عدد المدرسين والطلاب في بعض تلك المدارس، فضلاً عن ذلك فإننا لا نجد في تلك المصادر أية إشارة إلى الوصف المعماري للمدارس وتخطيطاتها العامة وتكويناتها المعمارية والزخرفية وأنواع السقوف التي كانت تغطي تلك المباني وقت إنشائها، والمواد التي استخدمت في بنائها. كما أن مؤلفي هذه المصادر لم يذكروا من قام بتنفيذ أعمال البناء والفترة الزمنية التي استغرقتها عملية عمارة أي من هذه المدارس وإذا أشار بعضهم إلى عمليات التجديد أو الترميم التي أجريت على إحدى المدارس، فإنه يغيب دائماً ذكر الأجزاء التي تم ترميمها أو أعيد بناؤها. وإن تم القيام بأعمال توسعة في مبنى المدرسة وإضافة جزء أو أجزاء جديدة إلى البناء الأصلي، ففي أي اتجاه أو جانب تمت عملية التوسيع في البناء ؟ وما هي العناصر المعمارية الجديدة التي أضيفت إلى البناء الأصلي؟ هذا بالنسبة للمدارس التي نعرف مواقع إنشائها وأسماء المؤسسين لها وتاريخ إنشاء كل منها، لكن هناك عدداً من المدارس التي لم يرد سوى ذكر اسمها فقط في بعض تلك المصادر، وبالتالي لا نعرف متى وأين أنشئت تلك المدارس؟ ومن وأمر وأنفق على عمارتها ؟ كما أن أوقافها وتخصصاتها، وتخطيطاتها المعمارية ومن تولى التدريس فيها هي أيضاً من المعلومات التي ما تزال مجهولة حتى اليوم.

وفيما يخص الجانب التعليمي في المدارس لم تورد تلك المصادر أية معلومات تبين من كان يقوم باختيار الطلاب الراغبين في الإلتحاق للدراسة في أي من تلك المدارس ،وما الشروط الواجب توفرها لقبول الطلاب؟ ومن الذي كان يحدد ويضع تلك الشروط، هل المنشئ أم المدرس أم ناظر المدرسة؟ كما يواجه الباحث في موضوع مدارس العلوم الإسلامية في اليمن صعوبة كبيرة في الحصول على معلومات كاملة ودقيقة عن التدريس وتعيين المدرسين والمراحل أو المستويات الدراسية والمقررات أو الكتب التي كانت تدرس لكل مستوى وعدد ساعات الدراسة والانتقال من المستوى الأدنى إلى المستوى الأعلى والفترة الزمنية التي كان الطالب يقضيها بشكل عام في كل مستوى أو يحتاجها للحصول على الإجازة العلمية التي يحصل عليها بعد مشواره العلمي الشاق. وغير ذلك من الاستفسارات التي لا نجد لها إجابات شافية في كتب المؤرخين والرواة والرحالة. وتجدر الإشارة هنا إلى أن بعض المؤرخين الذين كلفوا بكتابة تاريخ الدولة والملوك الذين عاشوا في كنفهم كالمؤرخ الخزرجي (ت.سنة 812هـ/1410م) في العصر الرسولي وابن الديبع (ت 943هـ/1536م) في العصر الطاهري كتبوا في مؤلفاتهم عن المدارس والمنشآت المعمارية الأخرى التي بناها أولئك الملوك وأسهبوا في وصفها وصفا يفيدنا أحيانا في الإجابة عن بعض الاستفسارات المذكورة آنفا.

وقفيات هذه المدارس أو ما يعرف باليمن ببصائر الوقف، إن وجدت طبعا، ستجيب عن عدد كبير من هذه الاستفسارات ولكنها لن تجيب، في أي حال من الأحوال، عنها كلها.

هذا فيما يخص المصادر التاريخية والمعلومات التي أوردها مؤلفوها من مؤرخين ورواة ومؤلفي كتب التراجم والطبقات وغيرها عن مدارس العلوم الإسلامية في اليمن..

أما في العصر الحديث فلم تحظ المدارس في اليمن بالاهتمام والدراسات العلمية. دراستان فقط تم إنجازهما في القرن العشرين : الأولى كتاب "المدارس الإسلامية في

اليمن" تأليف القاضي العلامة إسماعيل بن علي الاكوع .تكمن أهمية وعظمة هذا الكتاب في المعلومات التاريخية والعلمية عن غالبية المدارس التي بنيت في اليمن منذ نهاية القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي وحتى بداية القرن العشرين، جمعها المؤلف من مصادر تاريخية مختلفة وأوردها في كتابه الذي لا غنى لأي باحث في موضوع المدارس اليمنية عن الاستعانة به .والدراسة الثانية، رسالة دكتوراه باللغة الفرنسية، تأليف كاتب هذه السطور بعنوان " تاريخ وعمارة مدارس مدينة زبيد في اليمن "، وهي عبارة عن دراسة تاريخية لجميع المدارس التي أنشئت في مدينة زبيد منذ القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي وحتى القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، وتضمن البحث دراسة علمية تفصيلية للتخطيط العام والمكونات والعناصر المعمارية والزخرفية لعشرين مدرسة. ما تزال قائمة حتى اليوم في مدينة زبيد.

يتضح مما أسلفنا، بأن كتاب المدارس الإسلامية في اليمن "وكتابي" مدارس العلوم الإسلامية في مدينة زبيد باليمن، هما كل ما تم إنجازه من بحث ودراسة في موضوع مدارس العلوم الإسلامية في اليمن، برغم أهميتها. ولعلنا من خلال إنجاز هذا البحث نستطيع أن نسلط الضوء على المدارس اليمنية بغية التوصل إلى معرفة تاريخ ظهورها في اليمن لأول مرة والتعرف على أنواعها و طرزها المعمارية والزخرفية ومراحل التطور التي مرت بها هذه المدارس والدور الذي لعبته لخدمة المجتمع في الجوانب الدينية والعلمية والثقافية. ولكن لا بد قبل الخوض في دراسة هذه المواضيع من معرفة تاريخ ظهور أول مدرسة في اليمن.

أحدث موضوع تحديد تاريخ نشأة المدارس في اليمن جدلا يجدر مناقشته وحسمه فقد ذكر بعض المؤرخين والرواة، منذ القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي وحتى العصر الحديث بأن المدارس في اليمن ظهرت ولأول مرة في نهاية القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي .ومن خلال دراستنا العلمية لهذا الموضوع وبحثنا الدقيق، في

نفس تلك المصادر التاريخية، وفي المصادر الأخرى الأكثر قدما منها، تأكد لنا عدم صحة ما ذكره أولئك المؤرخون والرواة الذين عاشوا فيما بين القرنين الثامن-العاشر الهجريين/ الرابع عشر- السادس عشر الميلاديين ومن نقل عنهم في العصر الحديث، بعد أن اكتشفنا بأن تاريخ ظهور المدارس في اليمن يعود إلى أقدم من التاريخ المذكور بمئات السنين .وأول ما لفت انتباهنا في هذا الموضوع ما ذكره العلامة القاضي إسماعيل بن علي الأكوع في كتابة " المدارس الإسلامية في اليمن " نقلا عن المؤرخ الجندي (ت732هـ/1331م)، وعن المؤرخ الخزرجي (ت سنة 812هـ/1410م) بأن تاريخ ظهور المدارس في اليمن يرجع إلى سنة 594هـ/1198م، حيث قام الملك المعز إسماعيل بن طغتكين بن أيوب، ثالث ملوك الأيوبيين في اليمن، بإنشاء المدرسة المعزية في مدينة زبيد والتي عرفت فيما بعد بمدرسة الميلين وهي نفس المدرسة المعروفة في وقتنا الحاضر بمدرسة الإسكندرية، نسبة إلى الأمير التركي اسكندر موز بن سولي الذي أجرى بعض التوسيعات والترميمات على هذه المدرسة في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي. أما المؤرخ ابن الديبع فيذكر بأن الملك المعز بنى في سنة 594هـ/1198م أولا المدرسة السيفية في مدينة تعز، وبنى في نفس السنة، في مدينة زبيد المدرسة المعزية المعروفة في عصر ابن الديبع بمدرسة الميلين .وبذلك تكون أول مدرسة أنشئت في اليمن، بحسب رواية الجندي والخزرجي، هي مدرسة الميلين في زبيد وبحسب رواية ابن الديبع المدرسة السيفية في تعز. الغريب في رواية ابن الديبع هو أنه كان يعرف بأن المدرسة السيفية في تعز كانت في الأصل منزلا للأتابك سنقر اشتراه الملك المعز وحوله إلى مدرسة نقل اليهارفاة والده ودفنه فيها !.

إذا افترضنا صحة ما ذكره الجندي والخزرجي، ومن نقل عنهم بعد ذلك، بأن تاريخ ظهور أول مدرسة في اليمن يعود إلى نهاية القرن السادس الهجري(سنة 594هـ/1198م)، فهل من المعقول أن يأتي ظهور هذه المنشأة الدينية التعليمية في اليمن،

التي تشكل جزءا هاما من الدولة الإسلامية، متأخرا عن ظهورها في بداية القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي في بقية مناطق العالم الإسلامي بحوالي خمسمائة عام؟ ولمعرفة مدى صحة هذه المعلومات من عدمه وإزالة هذا الغموض عن تاريخ ظهور مدارس العلوم الإسلامية في اليمن، كان لابد من الرجوع إلى مؤلفات المؤرخين اليمنيين الذين عاشوا قبل عصري الجندي والخزرجي وحتى قبل الاحتلال الأيوبي لليمن. إن القراءة المتأنية والتحليل الدقيق لبعض العبارات التي وردت في تلك المؤلفات تؤكد لنا عدم صحة ما ذكره الجندري والخزرجي بأن المدارس ظهرت في اليمن لأول مرة في نهاية القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي. [الجندي، السلوك، 2، ص536، الخزرجي العقود ص38، الديبع الفضل المزيد، ص84، 85].

فعلى سبيل المثال : المؤرخ عمارة اليمني، الذي قتله الأيوبيون في مصر في نفس السنة التي دخلوا فيها اليمن سنة 569هـ/1173م يذكر في كتابه تاريخ اليمن المسمي "المفيد في تاريخ صنعاء و زبيد" بأن الملك النجاحي جياش بن نجاح قال وهو يتحدث عن خروجه إلى المهجم لقتل الملك على محمد الصليحي سنة 473هـ 1080م.

"وكانت الأخبار قد سبقتنا للصليحي بخروجنا والأسماع يومئذ قد امتلأت في الجبال والتهائم أن هذا وقت ظهور سعيد الأحول بن نجاح حتى لا تكاد المساجد والمدارس والأسواق والطرقات تخلو من الخوض في ذكر ذلك".

هذا النص التاريخي يؤكد وجود عدد من المدارس في اليمن في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري أي قبل دخول الأيوبيين اليمن بأكثر من مأتي عام. وفي موضع أخر من الكتاب نفسه يذكر المؤرخ عمارة بأن الوزير أبا منصور من الله الفاتكي الذي تولى الوزارة في زبيد سنة 517هـ/1123م ومات في 524هـ/1129م تصدق على مدارس الفقهاء الحنفية والشافعية بما أغناهم عمن سواهم من الأراضي والمرافق والرباع. [عمارة المفيد، ص104]. وفي هذه العبارة تأكيد على وجود المدارس المتخصصة في تدريس المذاهب السنية في اليمن في السنوات الأولى من القرن السادس الهجري/الثاني عشر

الميلادي. ونحن بدورنا نرجح بأن تلك المدارس ومدارس أخرى كانت موجودة في اليمن في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. كما تدحض هذه العبارة فكرة الاعتقاد بأن المدارس اليمنية التي ظهرت قبل العصر الأيوبي كانت عبارة عن غرف ألحقت بالمساجد لارتفاق المدرسين وبعض الطلبة فيها.

وفي موضع آخر في نفس الكتاب يذكر المؤرخ عمارة بأن الشاعر المشهور بالغرنوق دخل المدرسة عند الفقيه ابن الأبار بزبيد، وقد تضايقت المجالس لكثرة طلبة العلم، ويورد أبياتا من الشعر قالها هذا الشاعر في الوزير مفلح الفاتكي(ت.527هـ/1132م)، والفقيه ابن الأبار هو أبو عبدالله محمد بن القاسم الأبار الذي يذكر عمارة بأنه قرأ المذهب(الشافعي) على يده وهو الذي كان رأس الشافعية في زبيد بل في اليمن، من ذلك يتبين أن الغرنوق دخل مدرسة الفقه الشافعي للفقيه ابن الأبار في مدينة زبيد وهي نفس المدرسة التي درس فيها عمارة اليمني المذهب الشافعي في النصف الأول من القرن السادس الهجري أي قبل مجيئ الأيوبيين إلى اليمن بحوالي خمسين سنة. استطعنا من خلال هذه العبارة التعرف، ولأول مرة، على مدرسة ابن الأبار كواحدة من أولى مدارس المذهب الشافعي التي أنشئت في مدينة زبيد. إلى نفس عصر عمارة اليمني، ينتمي المؤرخ ابن سمرة الجعدي (ت.سنة 586هـ/1190م) والذي يذكر أن الإمام زيد بن عبدالله بن جعفر بن إبراهيم اليفاعي (ت سنة 514هـ/1120م) كان مدرسا ومفتيا في مكة المكرمة، ثم عاد إلى الجند ودرس في مدرسته التي أنشأها هناك وبلغ عدد طلابها نحو ثلاثمائة، وكانت تلك المدرسة توفر لغالبية طلابها، خصوصا القادمين لتلقي العلم فيها من مناطق بعيدة، الغذاء والكسوة، وتخرج منها جماعة من المدرسين والفقهاء. [عمارة المفيد، ص104، 168، 170، 185. إبن سمرة، طبقات فقهاء اليمن، ص120، 121].

عدد طلاب هذه المدرسة يدل على أنها كانت من المدارس المشهورة في بداية القرن السادس الهجري.

ونعود الآن إلى المؤرخ الجندي في النصف الأول من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، حيث يذكر هذا المؤرخ أن الإمام أبا عبدالله الجماحي القرشي السهفني (ت.سنة 437هـ/1045م) أحد فقهاء المذهب الشافعي تولى التدريس وقصده طلبة العلم من جميع أنحاء اليمن "(السلوك، ص264-265).

من كل ماسبق ذكره هنا نستخلص النتائج التالية:

أولا : منذ بداية العصر الإسلامي وحتى القرن الرابع الهجري كان الأطفال في اليمن من ست إلى عشر سنوات يتعلمون القراءة والكتابة والقرآن الكريم في غرف صغيرة مربعة التخطيط وأحيانا مستطيلة ألحقت بالمسجد وكانت تعرف بالمعلامة (الكتاب)، أما طلبة العلم الذين تجاوزوا العاشرة من العمر فكانوا يدرسون العلوم الدينية المختلفة في حلقات الدرس التي كانت تعقد يوميا في المساجد خصوصا الجامعة منها أو في منازل بعض الفقهاء الذين فضلوا التدريس في منازلهم.

ثانيا : نرجح أن مدارس العلوم الإسلامية ظهرت في اليمن في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي وكانت عبارة عن منشآت تعليمية مستقلة تماما عن المساجد، مما يؤكد أن ظهور المدارس في اليمن تزامن مع ظهور المدارس في بقية مناطق العالم الإسلامي، فليس من المعقول أن تظهر المدارس في اليمن بعد مرور نحو خمسمائة عام على ظهورها في بقية مناطق العالم الإسلامي الذي يشكل اليمن جزءاً منه ويتأثر بكل مايدور فيه ولم يكن في معزل عنه، بل إن التواصل إستمر بين اليمن وبقية مناطق الدولة الإسلامية دون انقطاع حتى في فترات الدويلات اليمنية التي أعلنت استقلالها عن الخلافة العباسية في بغداد، منذ بداية القرن الثالث الهجري/ التاسع

الميلادي وحتى النصف الأول من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. فعلى سبيل المثال يذكر ابن قدامة أنه رجع إلى سجلات الخراج في بغداد فوجد أن ما تم تحصيله للعباسيين من خراج اليمن بعد سنة 204هـ/819م بلغ 600 الف دينار(ابن قدامة، الخراج، ص188). لقد كانت الدولة اليعفرية والدولة الزيادية ترسل الخراج إلى العباسيين رغم ضعف الخلافة العباسية وعدم قدرتها في تلك الفترة على إخضاع مناطق اليمن المختلفة لنفوذها وسيطرتها. وكان الهدف من إرسال تلك الأموال من ملوك وسلاطين اليمن إلى الخلفاء العباسيين هو الحصول على اعتراف الخليفة العباسي بسلطان هذا الملك أو ذلك السلطان على اليمن. ولسنا بحاجة هنا إلى التذكير بالعلاقة الحميمة التي ربطت بين الدولة الصليحية والخلافة الفاطمية، منذ قيام الدولة الصليحية وحتى زوال حكمها بوفاة الملكة سيدة بنت أحمد الصليحي سنة 532هـ.

ويتبين من خلال ما كتبه العلماء والرحالة المسلمون عن اليمن في القرون الهجرية الأولى كاليعقوبي والإصطخري وإبن قدامة والمسعودي وإبن حوقل والمقدسي وغيرهم، أن اليمن لم تكن بمعزل عن بقية مناطق العالم الإسلامي، بل كان التواصل قائماً بصورة مستمرة بين المناطق الخاضعة لحكم الخلافة العباسية وعاصمتها، واليمن التي كانت تتأثر بكل ما يحدث فيها. وكل ملك من ملوك اليمن كان حريصاً على أن توجد في عاصمة دولته وحاضرة ملكه كل المظاهر الحضارية والعمرانية التي تظهر في مقر الخلافة أو في أي مدينة إسلامية أخرى. أي منشأة أو طراز معماري جديد كان يظهر في عاصمة الدولة الإسلامية وبقية مناطق العالم الإسلامي كانت تظهر في اليمن، وربما تأخر ظهورها، في اليمن من عشر إلى عشرين سنة على الأكثر، أما أن

يأتي ظهور المنشأة أو الطراز في اليمن بعد مرور خمسمائة عام على بداية ظهورها فمبالغة غير مقبولة. فالمساجد مثلا ظهرت في اليمن بعد مرور أقل من عشر سنوات على ظهورها لأول مرة في المدينة المنورة، فقد بني الجامع الكبير بصنعاء في السنة الثامنة للهجرة النبوية 630م، أي بعد مرور ثماني سنوات على ظهور المساجد لأول مرة وبناء أول مسجد في العالم الإسلامي. كما ظهرت المعلامات أو الكتاتيب وحلقات الدرس في المساجد اليمنية في نفس الفترة التي ظهرت في بقية أقطار الدولة الإسلامية والمئذنة والمحراب والمنبر عناصر معمارية ظهرت في المساجد اليمنية في نفس الفترة التي ظهرت فيها في المساجد الأخرى في العالم الإسلامي، وربما تأخر ظهورها في اليمن بضع سنوات. وبالنسبة للمدارس تلك المنشآت التي يدرس فيها العلوم الدينية. كان المسلمون في كل مكان يتسابقون ويحرصون على وجودها في بلدانهم، فمن المؤكد هنا بأنها ظهرت في اليمن في نفس الفترة التي ظهرت فيها في العالم الإسلامي، فلم يكن أبناء اليمن أقل حرصا من غيرهم على طلب العلم من غيرهم.

ثالثا: وجدت المدارس المتخصصة: مدارس المذهب الحنفي، مدارس المذهب الشافعي... منذ النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي وتؤكد ذلك المنح المالية التي وهبها الوزير من الله الفاتكي(تولى الوزارة في سنة 517هـ/1123م ومات في 524هـ/1129م) لفقهاء المدارس الحنفية وفقهاء المدارس الشافعية [عمارة المفيد، ص155].

رابعا: عرفنا عن طريق البحث في موضع مدارس مدينة زبيد، اسم أول مدرسة من مدارس المذهب الشافعي، أنشئت في مدينة زبيد قبل سنة 527هـ/1132م

هـــذه المدرسة هي مدرسة الفقه الشافعي التي أنشأها الفقيـــه أبـــو عبـــدالله محمـــد بن القاسم بن الأبار.

خامسا : ورد في أهم المصادر التاريخية اليمنية ذكر مدرستين هما الاشرقية والجبيريـــة كانتا في مدينة تعز ويعود تأريخ بناء كل منهما إلى عهد الملك طغتكـــين والد المعز إسماعيل الذي خلف والده على حكم اليمن، وهذا دليل بـــأن الملك المعز ليس أول ملك أيوبي على اليمن بنيت في عصره المدارس.

ورد في مقالات ويعتقد بعض الباحثين في العصر الحديث أيضا بأن حركـــة بنـــاء وانتشار المدارس في اليمن إزدهرت في فترة حكم الأيوبيين لليمن .وهنا لا بد من إلقـــاء نظرة عامة وسريعة على هذه الفترة.الحقيقة أن اليمن لم تعش أثناء الحكم الأيـــوبي لها الذي استمر قرابة ستة وخمسين عاما (569-626هـ/1173-1229م).

" نوعا من الإستقرار السياسي والأمني وقد انعكس ذلـــك سـلبا علـــى جوانب الحياة المختلفة في اليمن ،حيث انشغل الملوك الأيوبيون ونوابهم بمحاولة إخماد حروب شبه مستمرة كانت تشتعل في عدد من المناطق اليمنية ومحاولاتهم الفاشلة في القضاء على الحركات والقوى اليمنية الـــتي لم تخضـــع للســـيطرة الأيوبية، وإن تمكن بعض الملوك من وقف نشاط تلك القوى لفترات قصـــيرة شهدت فيها اليمن نوعا من الهدوء السياسي، في فترة حكم كل من توران شـــاه (569-573هـ/1173-1177م) ثم في أيام طغتكين بن أيوب (579-593هـ/1183-1196م) وأخيرا في أيام الملك المسعود (612-625هـ/1215-1227م) أخـــر ملـــوك الدولة الأيوبية في اليمن _ (AL-ROUSI, Les madrasas, TOM 1,P 30)al) "

أما فترة حكم الملك المعز فقد تميزت بسياسة وانتهجها وقامت على البطش وسفك الدماء والإساءة إلى قادة الجند وقد أدى ذلك إلى حدوث انقسام في صفوف الجيـــش الأيوبي وكانت نتيجة هذا الانقسام انضمام عدد من قادة الجيش الأيوبي، إلى صفـــوف قوات الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة قائد أكبر قوة يمنية مناوئة للأيوبيين في اليمن.

إن وجود الاستقرار السياسي واستتاب الأمن من الشروط الضرورية لقيام أي حركة ازدهار وتطور في المجالات الاجتماعية و الاقتصادية والثقافية والعمرانية في أي مجتمع من المجتمعات .هذان الشرطان الأساسيان لم يتوفرا في عصر الحكم الأيوبي في اليمن وبالتالي لا وجود لنهضة حقيقية ملموسة ،والذين يتحدثون في العصر الحديث عن ازدهار حركة بناء ونشر المدارس في اليمن في العصر الأيوبي لا يملكون أدلة تؤيد اعتقادهم هذا ،بل على العكس من ذلك.فالمعلومات التي وردت في المصادر التاريخية تؤكد الدراسة التحليلية لها بأنه ليس للدولة الأيوبية وملوكها ونوابهم على اليمن دور فعال أو نشاط يذكر في بناء المدارس ونشرها في اليمن.

فالملك المعز إسماعيل ،الذي اعتقد الجندي والخزرجي ومن نقل عنهما ،بأنه أول من أحدث المدارس ونشرها في اليمن، لم ينشئ سوى مدرسة واحدة فقط هي المدرسة المعزية أو مدرسة الميلين في مدينة زبيد ،أما المدرسة السيفية في تعز فكانت كما أسلفنا عبارة عن منزلا إشتراه المعز وحوله إلى مدرسة وضريح أعاد دفن جثة والده الملك طغتكين فيه .فضلا عن ذلك يعتبر الملك المعز إسماعيل بن طغتكين الملك الأيوبي الوحيد الذي بنى مدرسة في اليمن.

هذه الأدلة الدامغة التي أثبتناها هنا تؤكد عدم صحة ما ذكره كل من الجندي والخزرجي ومن نقل عنهما من الكتاب حتى العصر الحديث .بأن الملك المعز إسماعيل بن طغتكين هو أول من أدخل المدارس إلى اليمن في نهاية القرن السادس الهجري /الثاني عشر الميلادي [العروسي، مدارس، ج1، ص38].

ولكن ما هي الأسباب التي جعلت بعض العلماء كالجندي والخزرجي يعتقدون بأن الملك المعز هو أول من بنى المدارس في اليمن سنة 594هـ/1198م ؟ وبأن المدرسة المعزية أو مدرسة الميلين بمدينة زبيد والمدرسة السيفية بمدينة تعز كانتا أولى المدارس ؟ هل كانت تلك المدارس تطابق واقعا آخر غير واقع المدارس التي كانت موجودة من قبل

والتي كانت عبارة عن مراكز تعليمية فقط ؟ نحن نرى بأن الملك المعز أراد، بإنشائه هاتين المدرستين الجديدتين المعزية والسيفية في مدينتي زبيد وتعز ،تحقيق مشروع سياسي يتمثل في توجيه التعليم داخل المدارس بما يخدم مصلحة الملك من جهة ،واستغلال هذه المؤسسات الحيوية الهامة في نشر نظريته السياسية وأفكاره الدينية من جهة أخرى: لقد كان الملك المعز صاحب شخصية غريبة متقلبة، وتصرفاته العجيبة فقد خرج عن مذهب السنة ،مذهب آبائه وأجداده، وإعتنق الذهب الإسماعيلي وساعد على نشره وزاد نفوذ الإسماعيلين في اليمن في عصره .كما أعلن الملك المعز استقلاله بحكم اليمن عن الخلافة العباسية في بغداد ونصب نفسه خليفة للمسلمين ولقب نفسه أمير المؤمنين سنة 597هـ/1201م ،كما إدعى بأنه هاشمي من آل بيت رسول الله .وتوضح ذلك بعض الأبيات الشعرية التي كتبها هذا الملك قائلا :

فإني أنا الهادي الخليفة والذي ... يقود رقاب الغلب بالضمر الجرد
ولا بد من بغداد أطوي ربوعها ... وأنشرها نشر السماسرة البرد
وأنشر أعلامي على عرصاتها ... وأظهر دين الله في الغور والنجد
ويخطب لي فيها على كل منبر ... وأحيي بها ما كان أسسه جدي

وقد وصف المؤرخون هذا الملك بأنه كان سفاكا للدماء وشاعرا فصيحا .أدرك الملك المعز صعوبة في نشر المذهب الإسماعيلي نظرا لقلة أصحاب هذا المذهب في اليمن في تلك الفترة،ولأن المذهب السني هو مذهب غالبية سكانها، لذلك قام بإنشاء مدرسة في زبيد وأخرى في تعز بهدف استغلالها في نشر مذهبه الجديد انطلاقا منها، معتقدا بأنها المكان الوحيد المناسب لذلك .وهي نفس الوسيلة التي اتبعها الأيوبيين ومن قبلهم السلاجقة منذ منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، حينما اهتموا اهتماما كبيرا ببناء ونشر المدارس، في كل المناطق التي خضعت لحكمهم، بهدف وقف، ومحاربة انتشار المذهب الشيعي فيها. وسخروا لتلك المدارس

كل الإمكانيات المادية الكفيلة بجذب طلبة العلم إليها من مختلف مناطق العالم الإسلامي [العروسي، مدارس، ص38].

إذا ليس الملك المعز هو أول من أنشأ المدارس في اليمن بل هو أول من جعل منها مؤسسات تعليمية وسياسية تابعة لدولته، يستخدمها في نشر أفكاره الدينية ويستطيع من خلالها أن يبرر السياسات التي ينتجها لحكم البلاد. ويدعم اعتقادنا هذا تلك الأموال العظيمة التي أنفقها الملوك والحكام في بناء المدارس والجرايات السخية لمدرسي تلك المدارس وإحاطتهم بالرعاية والاهتمام بهم. لا سيما وأن هؤلاء المدرسين كانوا في الغالب من الفقهاء المقربين إلى الملك ومن المؤيدين لنظام حكمه فضلا عن ذلك الأموال التي أوقفوها على تلك المدارس والامتيازات التي حظي بها طلبة العلم الدارسون فيها. وهروبا من هيمنة السلطة وتقييد حرية العلم والعلماء في المدارس التي بناها الملوك والأمراء والوزراء وقادة الجند، رفض بعض الفقهاء المشهورين تولي التدريس في المدارس وفضلوا التدريس في المساجد التي لم يكن التعليم فيها يخضع لرقابة وتوجيه الحكام ربما لأن أولئك العلماء والفقهاء كانوا يرون بأن مصادر الأموال التي كانت تصرف على المدارس ،كانت من الأموال التي يأخذها الملك أو الوزراء والأمراء، من الرعية بطرق غير مشروعة مثل الأموال المصادرة على بعض الفقهاء أو الرعية ممن غضب عليهم السلطان، أو الضرائب الباهضة التي يدفعها الرعية من قوت أسرهم وهم كارهون. وكان أولئك الفقهاء يرون كذلك بأن قبولهم التدريس في المدارس يعني الانصياع التام لأوامر الملك ورجال دولته والموافقة على معتقداته وسياسته وأسلوب حكمه حتى لو كانت خاطئة ومخالفة للشرع .كما كان يتحتم على هؤلاء المدرسين تولي نشر أفكاره بين الدارسين وتعليمهم الخضوع التام للملك وسلطانه وعدم معارضته أو الخروج عليه. أما التدريس في المساجد فعمل تطوعي يؤديه علماء وفقهاء يريدون كسب الأجر

– مدرسة ابن الأبار.

أنشائها في مدينة زبيد الفقيه أبو عبد الله محمد بن القاسم الأبار، وخصها لتدريس المذهب الشافعي وقد كان هذا الفقيه إمام الشافعية في زبيد ،بل في اليمن على قول المؤرخ عمارة اليمني الذي درس الفقه الشافعي على يد هذا الفقيه .ويبدوا أن هذه المدرسة كانت في بداية القرن السادس الهجري /الثاني عشر الميلادي أهم مدارس العلم في مدينة زبيد ويتضح ذلك من الإقبال الشديد على طلب العلم فيها وكثرة عدد الدارسين فيها ،يذكر المؤرخ عمارة بأن الشاعر الغرنوق دخل مدرسة ابن الأبار وقد تضايقت المجالس لكثرة طلبة العلم، وأورد بيت من الشعر قالها الشاعر في الوزير مفلح الفاتكي (ت. 527هـ/1132م).تعتبر هذه المدرسة أقدم المدارس المذهبية التي أنشئت في اليمن لم يرد ذكر هذه المدرسة في كتاب المدارس الإسلامية في اليمن. [أنظر عمارة، المفيد ص 155، العروسي، مدارس، ج1، ص37]

– مدرسة اليفاعي.

تقع قرية يفاعة بالقرب من مدينة الجند الواقعة إلى الشمال الغربي من مدينة تعز. يذكر الشرجي بأن مؤسسها الإمام زيد بن عبدالله بن جعفر بن إبراهيم اليفاعي كان إماما ورعا زاهدا ،تعلم الفقه في الجند وإرتحل إلى مكة المكرمة ودرس على يد جماعة من أهلها ثم رجع إلى الجند ونشر العلم هنالك ،وذاع صيته وانتفع به الناس وإرتحلوا اليه من مناطق عديدة. درس في مدرسته في الجند، ودرس قبل وفاته في منزله. توفي الإمام زيد سنة 512هـ/ (طبقات ابن سمره،ص120 ؛الخواص، ص 138).

– مدرسة ابن أبي النهى.

كانت في الشوافي في محافظة إب. باني هذه المدرسة هو الشيخ حسن بن عيسى بن عمران بن أبي النهى وليس كما ورد في كتاب المدارس للقاضي إسماعيل الأكوع بأن

الحسين بن علي بن عمر بن أبي النهى هو باني المدرسة [السلوك، ج 1 ،ص 392, 393؛ المدارس ص5، العروسي، مدارس، ج1، ص40].

تولى التدريس في هذه المدرسة الفقيه محمد بن إبراهيم بن الحسن ،كان مولده سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، أستقر في الشوافي وتفقه به عدد من الفقهاء، أو قف مجموعة من الكتب منها كتاب البيان .توفي في أخر المائة السادسة للهجرة /نهاية القرن الثاني عشر الميلادي (السلوك .ج1، ص393، 394). ودرس بها أيوب سليمان بن فتح .مولده في الربع الأول من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي (المدارس ،ص5).

– **مدرسة ابن أبي الأمان.**

أنشأها في مدينة جبله الشيخ أبو الحسن علي بن إبراهيم بن ابي الامان سنة 558هـ/1162م. [السلوك، ج 1، ص392، 392 ؛ المدارس ص، العروسي، مدارس، ج1، ص40].

ثانيا : مدارس العصر الأيوبي في اليمن(**).

المعروف لدينا حاليا من المدارس التي أنشئت في اليمن في العصر الأيوبي ستة عشر مدرسة : أنشئت في عهد الملك طغتكين بن أيوب كل من المدرسة الأشرفية والمدرسة المجيرية في تعز والمدرسة الياقوتية في ذي السفال ومدرسة قرية الساتي في يريم . وإبتنى الفقيه علي بن محمد غليس (ت6-597ه) ثلاث مدارس في عزلة بني شعيب في مديرية وصاب العالي في سنة 592هـ(المدارس، ص7،8،9،17). بعد وفاة الملك طغتكين خلفه على حكم اليمن ولده الملك المعز إسماعيل بن طغتكين وقد بنى في مدينة زبيد المدرسة المعزية أو مدرسة الميلين المعروفة في وقتنا هذا بمدرسة الإسكندرية.

وأنشأ فاتن المعزي، أحد موالي الملك المعز، مدرستين هما المدرسة الفاتنية في مدينة جبله .وبنى الأتابك سنقر بن عبد الله الايوبي (ت608هـ)، أحد مماليك الملك طغتكين، خمس مدارس: المدرسة الدحمانية والمدرسة العاصمية في مدينة زبيد والمدرسة الاتابكية في

قرية هزيم في الجنوب الغربي من مدينة تعز ،ومدرسة في مغربة تعز والمدرسة الأتابكية في مدينة خنفر بمحافظة أبين .وفقا لما ذكره الشرجي (ت893هـ) في كتابه طبقات الخواص (ص145)، مازالت هذه المدرسة عامرة (في أيام الشرجي) لكنها تعرف بجامع خنفر، وفي مدينة تعز أنشأ القاضي الرشيد ذو النون المدرسة الرشيدية (المدارس، 18،23،24،31، العروسي، مدارس، ج1، ص41). تعتبر المدرسة المعزية أو الميلين وهي المعروفة حاليا في مدينة زبيد بالمدرسة الإسكندرية هي المدرسة الأيوبية الوحيدة التي ما تزال عامرة حتى اليوم. سوف نتناولها بإيجاز في هذا البحث (العروسي، مدارس، ج1، ص40).

- مدرسة الميلين (حاليا الإسكندرية).

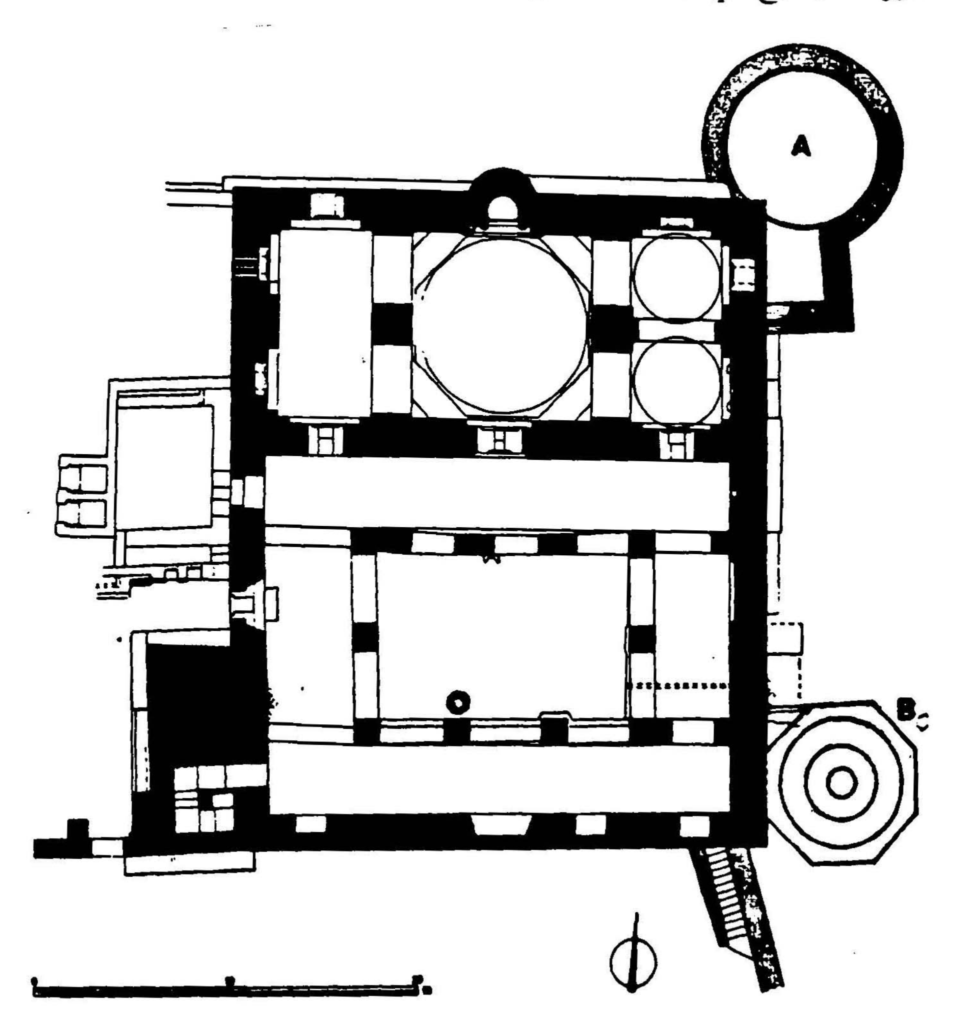
أنشئت لتدريس المذهب الشافعي وتعتبر من أجمل وأهم مدارس العلوم الإسلامية في مدينة زبيد .تقع مدرسة الميلين في ربع المجنبذ ،في الركن الشمالي الشرقي لمبنى قلعة مدينة زبيد، أنشأها الملك المعز إسماعيل بن طغتكين بن أيوب سنة 594هـ /1198م، وهذه المدرسة هي نفس المدرسة التي اعتقد بعض المؤرخين بأنها أول مدرسة ظهرت في اليمن، وقد أثبتنا عدم صحة هذا الاعتقاد.

التخطيط المعماري العام لمدرسة الميلين :

تتكون المدرسة في تخطيطها المعماري العام من فناء أول مكشوف يصل إليه عن طريق مدخل المدرسة (2 × 1.5م) الذي يفتح في الجزء الغربي من الجدار الجنوبي للفناء المذكور.

تقع بركة المدرسة وأماكن للوضوء وعددها إثنان .يؤدي هذا الفناء عن طريق باب في الجدار الذي يطل عليه من جهة الشرق إلى الرواق الغربي المطل على الفناء الرئيسي للمدرسة. وتحيط بهذا الفناء أربعة أورقة : يطل الرواق الشمالي على الفناء بواسطة ثلاثة

عقود مدببة ،والرواق الجنوبي بواسطة ثلاثة عقود فارسية الشكل ،ويطل الرواقين الغربي والشرقي على هذا الفناء بواسطة عقدين فارسيين في كل منهما .يلاحظ وجود فسقية صغيرة مضلعة بجوار العمود الثاني للرواق الجنوبي .تغطي جدران الأروقة الأربعة زخارف نباتية وهندسية وكتابية ملونة رائعة غاية في الجمال. ويصعد إلى السقف المسطح لهذه الأروقة عبر درج تلي الباب الذي يفتح في الزاوية الجنوبية الغربية للرواق الغربي.



مخطط مدرسة الإسكندرية ، الإكليل رقم ١، سنة 1985م

قاعة الصلاة (18.10 × 7.40م)

يفتح في منتصف الجدار الشمالي للرواق الشمالي باب يؤدي إلى قاعة الصلاة التي تنقسم إلى ثلاثة أقسام : المساحة الرئيسية المخصصة للصلاة وتتقدم المحراب ويتوسط جدارها الجنوبي باب خشبي يعلوه وردة سداسية ،وتظهر آثار زخارف ملونة تحيط بهذا الباب والبابين الجانبيين .وهذه المنطقة الرئيسية في بيت الصلاة عبارة عن مساحة مربعة الشكل تقريبا (7.40x7.35 م) ,تغطيها قبة كبيرة مقامة على طمبور مثمن تفتح فيه أربع نوافذ ونفذت مناطق الانتقال من الدائرة إلى المثمن ،ومن المثمن إلى المربع بواسطة ثمان حنايا ركنية في المستوى الأعلى وأربع حنايا ركنية في المستوى الأسفل ،تنتهي كل حنية من هذه الحنايا بعقد فارسي الشكل.

يكتنف هذه المساحة الرئيسية من الجانبين الشرقي والغربي إيوانان .يغطي الإيوان الشرقي قبتين صغيرتين، أما الإيوان الغربي فيغطيه سقف مسطح ،ويبدو أن السقف الأصلي لهذا الإيوان والذي كان عبارة عن قبتين مماثلتين لقبتي الإيوان الشرقي قد أستبدل أثناء عملية ترميم في فترة متأخرة عن إنشاء المدرسة بالسقف المسطح الموجود حاليا .تزين جدران هذين الإيوانين زخارف كتابية ونباتية وهندسية ملونة تؤطرها عقود زخرفية .يفتح كل إ يوان على مساحة الصلاة بعقدين فارسيين، ويفتح في الجدار الجنوبي لكل إيوان باب، ،يعلوه عقد مخصص إلى الرواق الشمالي جنوب قاعة الصلاة (العروسي، مدارس، ج1، ص185).

المحراب (العمق 1.45م ؛ العرض 2.70م):

يتوسط المحراب منتصف جدار القبلة وهو عبارة عن دخلة نصف دائرية الشكل محاطة بأربعة عقود فارسية الشكل ترتكز على تيجان واعمدة متداخلة .تتوج فتحة المحراب نصف قبة تزينها التجاويف من الداخل ،وثلاثة عقود فارسية الشكل وتؤطرها

ثنية (ناتئة زخرفية) مسطحة .وترتكز نصف القبة على شريط الزخارف الكتابية الملونة. يكتنف المحراب لوحتان من الرخام نفذت عليها بعض النصوص الكتابية.

يدور حول القبة شريط من الكتابات الكبيرة قوامها آية الكرسي (سورة البقرة، آية رقم 255. العروسي، المدارس، ج1، ص179).

المئذنة() : تقع المئذنة في الركن الشمالي الشرقي للمدرسة والقلعة في آن واحد،وتعتبرمئذنة هذه المدرسة أجمل مآذن مدينة زبيد، كما تعتبر ،من حيث البناء والزخرفة ،واحدة من أجمل المآذن اليمنية.تتكون هذه المئذنة من قاعدة مثمنة (6م تقريبا) (ختفي أحد أضلاعها في سور القلعة. يدور حول هذه القاعدة شريط من الكتابات تذكر تاريخ إصلاح المئذنة في سنة 742أو 747هـ/1341-1346م .وهذا النص الكتابي يدل ويؤكد على أن هذه المدرسة هي مدرسة الميلين ،وليست مدرسة الإسكندرية كما يزعم البعض .يعلو الشريط الكتابي إفريزين من الأوراق النخيلية .تعلوها تجاويف زخرفية تزين الجزء الأعلى من قاعدة المئذنة .يعلو القاعدة المثمنة بدن إسطواني الشكل ينتهي بشرفة مقامة على أربعة صفوف من العقود الزخرفية تليها حطات من المقرنص ،ويعلو الشرفة بدن مضلع (16ضلع (يعلوه بدن مثمن تفتح في كل ضلع من أضلاعه الثامنة فتحة معقودة بعقد فارسي الشكل، وينتهي هذا البدن المثمن بقبة صغيرة من الأجر ،تعد السقف الذي يغطي المئذنة ولهذه المئذنة مدخل يفتح في الجهة الجنوبية ،على سقف الرواق الجنوبي للمدرسة [العروسي، مدارس، ج1، ص 1-179].

أعمال الترميم

يبين التخطيط الحالي للمدرسة بأنها خضعت لعدد من الترميمات والتوسيعات ففي سنة601هـ /1204م أمر الأتابك سنقر بإغلاقها، ووزع الاموال التي أوقفت عليها على منشآت أخرى ،وقد قام آخر الملوك الأيوبيين في اليمن، الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن أيوب (1216-1225م) ،بترميم هذه المدرسة وأعاد فتحها . أما مئذنة المدرسة

الهوامش

(*) يلاحظ وجود المئذنة في كل المدارس اليمنية المعروفة ،ولبعض المدارس مئذنتين، وفي البعض الآخر يبنى جوسق صغير، عادة مايكون نموذجاً مصغراً للمئذنة بمكوناتها المعمارية الشائعة.

(**) قام الوالد العلامة القاضي إسماعيل بن علي الاكوع بجمع المعلومات التاريخية ،عن هذه المدارس وعن غالبية المدارس اليمنية ،من المصادر المشار إليها وأوردها في كتابه " المدارس الإسلامية في اليمـــن" ص5 و6 و7).

(***) يقول الفقيه الشافعي عمر بن عاصم (ت سنة 684هـ/ م(في ذم التدريس في المدارس وتفضيـــل القيام بذلك في المساجد :

بيع المدارس لـو علمـت بـدارس ... غـال وأخسـر صفقـةٍ للمشـتري

دعـها ولازم للمسـاجد دائمـاً ... إن شئت تظفـر بـالثواب الأوفـر

(****) السلاجقة :سلالة من الاتراك المسلمين من أصحاب المذاهب السنية، موطنـهم الأصلـي بـلاد تركستان أو بلاد ما وراء النهر ،ويعتبر طغرلبك أول سلاطينهم هو مؤسس الإمبراطورية السـلجوقية التي إتخذت من خراسان عاصمة، سنة 429هـ/1048م مقراً لها. وقد تمكن السلاجقة من الإسـتيلاء على مدينة بغداد، ونجحوا في السيطرة على العراق وبلاد الشام والإنـاضول ،وفرضـوا نفوذهـم وهيمنتهم على الخلافة العباسية وصار من يشغل منصب الخليفة العباسي في العصر السلجوقي لا يملك أي سلطة سياسية أو دينية (المقريزي ،ج4،ص192وحسن المحاضرة ،ج2، ص141،142).

المصادر والمراجع

- الأكوع (إسماعيل بن علي (،المدارس الإسلامية في اليمن ,بيروت ،ط2 ،1986م .
- ابن الديبع (عبد الرحمن بن علي ت.843/1536م,الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد ،تحقيق يوسف شلحد ،بيروت ،1983م).
- ابن المجاور (جمال الدين يوسف بن يعقوب ت.690هـ/1291م) ،تاريخ المستبصر ،تصحيح أوسكر لونفرين، ليدن، 1951م.
- الجندي (بهاء الدين محمد بن يوسف ت.732هـ/1331م) ،السلوك في طبقات العلماء الملوك ،تحقيق محمد علي الأكوع ،1989م .
- الخزرجي (علي بن الحسن ت .812هـ) ,العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ،تحقيق محمد الأكوع في جزأين ،مركز الدراسات والبحوث اليمني _ صنعاء 1983م.
- الريحاوي (عبد القادر) العمارة العربية الإسلامية _ خصائصها وآثارها في سورية ،دمشق ,وزارة الثقافة ،1979م .
- الشرجي (أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف ت.893هـ) ،طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص ،الدار اليمنية للنشروالتوزيع ،1986م.
- د.العروسي (محمد علي (مدارس مدينة زبيد في اليمن ،جزءان، رسالة دكتوراه باللغة الفرنسية ،جامعة بروفانس ،فرنسا،1994م.
- عمارة اليمني (نجم الدين عمارة بن علي اليمني ت. 569م1171م) تاريخ اليمن في أخبار صنعاء وزبيد، تحقيق محمد علي الأكوع ،ط3 ،1985م ،توزيع المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع .
- ناجي معرف مدارس قبل النظامية ،بغداد 1973م.
- ياقوت (شهاب الدين أبو عبدالله الحموي) ت سنة 626هـ، معجم الأدباء، 20 جزء، القاهرة 1938م.

من محاور الأعداد القادمة

- قضايا الترجمة والمصطلح.
- الديمقراطية وحقوق الإنسان.
- علوم الأرض الواقع والآفاق.
- مدينة زبيد... استعادة المجد.
- فن العمارة في الجزيرة العربية.
- الفن اليمني تاريخ الماضي وقضايا الحاضر والمستقبل.
- الفلاحة ومخاوف التكنولوجيا.

التعريف بمخطوطة يمنية نادرة من تراث المطرفية الزيدية

(القسم الثاني)(*)

د. محمد الحاج الكمالي

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فهذا هو القسم الثاني من التعريف بمخطوطة يمنية نادرة من تراث المطرفية الزيدية، كان البحث الأول يتضمن الدراسة التي اشتملت على التعريف بالمطرفية بشكل عام ثم

(*) نشر القسم الأول من هذا التعريف في العدد 24 من مجلة الإكليل، يناير-مارس 2001، ص ص 111-146.

وكنا قد وعدنا في الدراسة التعريف بالمخطوط بشكل خاص حسب المنهج العلمي . السابقة أن القسم الثاني من التعريف بالمخطوط سيتضمن الجانب العقائدي لفرقة المطرفية الزيدية . وهاهو الباحث يقدم للقارئ الكريم مأدبة من الغذاء الروحي الذي يريح النفوس ويثلج الصدور وذلك بمعرفة فرقة كبيرة كانت تعيش في سفوح جبال اليمن وأوديتها وحصل ما حصل من خلاف بينها وبين الأئمة الكبار حينها، كتب على جباه رجال المطرفية وعلمائها الفناء وظلت هذه الفرقة فترة طويلة من الزمن لا يستطيع أي إنسان أن يذكرها بلسانه. ولما قامت الثورة المباركة ووجد العلماء والمثقفون والكتاب تنفس الصعداء بدأوا في البحث عن هذه الفرقة والتنقيب عنها في ثنايا المخطوطات والمطبوعات وبدأت الكتابة عنها من قبل الكتاب والمثقفين أمثال الأستاذ عبد الله الحبشي والأستاذ الدكتور عبد العزيز المقالح مما شجع الباحث أيضا أن يبحث من جانبه عن أصول هذه الفرقة فكان حصوله على هذا المخطوط النادر الذي يمثل عقائد المطرفية بأكملها فرحة روحية وعقلية ليس لها مثيل . وكان لزاما على الباحث أن يعرف القراء والكتاب والمثقفين بعقائد هذه الفرقة التي كفرت وفسقت وأبيدت لا لشيء غير أنها عملت بمبدأ الخروج ومقاومة الظالم ، فكان جزاؤها الفناء . وإنني لأهيب بكل علمائنا وكتابنا ومثقفينا أن يطلعوا على البحثين معا (الدراسة والعقائد) وأن يوافوا الباحث بما يرونه من اقتراحات أو تكملة لنقصان أو تصحيح لخطأ تاريخي أو عقائدي مشفوعا بالدليل ، والباحث على استعداد للعمل بهذه المقترحات والتصحيحات طالما والغرض من ذلك المحافظة على المعارف وأهلها واحترام كل مذهب وأرائه والتعاون مع بعضنا البعض للوصول إلى الحقيقة بقدر الإمكان مع العلم أن الوصول إلى الحقيقة شبه مستحيل ولكن يكفي أننا قد فتحنا المجال لغيرنا وقد بدأنا .

أرجو من المولى عز وجل أن أكون قد وفقت في هذا العمل الشاق ، لأني ما أردت إلا الإصلاح ما استطعت وحسبي أني فعلت ، وإن لم أوفق فكلي أمل أن يعفو عني خالقي وأن يقومني زملائي المتخصصون في هذا المجال ولكل مجتهد نصيب وعلى الله التكلان .

تضمن المخطوط ثلاثة أقسام رئيسية، هي التوحيد والتعديل والتصديق جاءت على النحو الآتي:

1-التوحيد: وقد تضمن أربعة وعشرين بابا.

2-العدل: وقد تضمن ثلاثة عشر بابا.

3-التصديق: وقد تضمن ثمانية أبواب .

الباب الأول : القول في إثبات الصانع .

من أبواب التوحيد إثبات الصانع، وقد اشتمل هذا الباب على أربعة عشر ورقة مكونة من (أ،ب). افتتح المؤلف هذا الباب بقوله : القول في إثبات الصانع والذي يدل على ذلك أن هذه الأجسام محدثة، والمحدث لابد له من محدث وهذا الاستدلال في أن صفة الأجسام محدثة-يفتقر في صحته إلى بيان أمرين أحدهما المشاهدة والثاني الأحوال. وقد أثبت أن الأجسام محدثة من خلال ثمانية أوجه بعد أن أثبت حدوث أعراضها . وهو نفس الدليل الذي أثبته علماء الزيدية المخترعة كالإمام أحمد بن يحى المرتضى وغيره من علماء الكلام كالمعتزلة والأشاعرة. وخلاصة هذا الباب أن العالم محدث وهي نتيجة ضرورية لتلازم الأعراض والأجسام وماداموا قد أثبتوا حدوث الأعراض من خلال الحركة والسلوك والتغير فالأجسام لا محالة محدثة.

أما الوجه الثاني وهو أن المحدث لابد له من محدث، فقد استدل المؤلف بستة أوجه على إثباته، وكلها أدلة عقلية لموضوعات حسية مشاهدة من الواقع وهو جانب يقوي الاستدلال بها، ثم تطرق إلى قول الملاحدة الذين يرون قدم العالم دون حدوثه. وقد رد على ذلك بأدلة عقلية في غاية الدقة والروعة وليس هذا المقام سبيلا لسوق هذه الأدلة نظرا لحدود البحث المتواضعة . ويمكن للقارئ أن يرجع إلى نفس المخطوط للاستفادة من تلك الأدلة .

الباب الثاني: قدم الباري تعالى .

أثبت المؤلف في هذا الباب قدم الباري تعالى في خمس ورقات تضمنت الأدلة العقلية على إثبات القدم مشيرا إلى أقوال الإمام الهادي في إثبات قدم الله تعالى وكذلك تعرض المؤلف لهذا الموضوع من خلال القسمة الدائرة بين النفي والإثبات، والقسمة الدائرة بين النفي والإثبات لم يجز دخول متوسط بينهما بعكس القسمة الدائرة بين إثباتين يجوز دخول المتوسط بينهما مثلا: زيد إما أن يكون في المسجد أو في المنزل، ويجوز أن يكون في البستان أو غيره. كذلك القسمة الدائرة بين نفيين، يجوز دخول المتوسط بينهما كقولك: خالد ليس في المسجد ولا في المنزل، ويجوز أن يكون في غيرهما .

وخلاصة إثبات أدلة القدم كالتالي :

الأول: صحة حدوث العالم وان له محدثا .

الثاني : أنه تعالى لو لم يكن قديما لكان محدثا، ولو كان محدثا لتعذر عليه فعل الأجسام.

الثالث : أنا رأينا في الشاهد أن كل صانع متقدم لصنعته[1].

الباب الثالث : القول في الدلالة على أنه تعالى قادر .

وقد ساق المؤلف دليلين وناقش من خلالهما إثبات قدرة الباري تعالى كما يلي:

أحدهما: أن الفعل قد صح منه، والفعل لا يصح إلا من قادر .

الثاني : أنه لو لم يكن قادرا لكان عاجزا ولو كان عاجزا لتعذر عليه فعل الأجسام. أما الأول فالذي يدل عليه أنه قائم على قسمة دائرة بين النفي والآيبات، وكل قسمة هذا حالها لم يجز دخول متوسط بينهما لأن القادر من أمكن منه الفعل والعاجز من تعذر عليه الفعل ولا وساطة بين التعذر والإمكان لأن إثبات الوسطية في هذا الموضع يؤدي إلى فعل معدوم وموجود، أو لا موجود ولا معدوم وذلك محال[2].

الدليل الثاني : وهو أنه لو كان عاجزا لتعذر عليه فعل الجسم فالدليل عليه من وجهين:

أحدهما: أن العجز صفة نقص وصفات النقص لا تليق إلا بالمحدثين وقد صح أن الله تعالى قديم .

ثانيهما: أنه لو كان عاجزا لكان قادرا بقدرة ولو كان كذلك لتعذر عليه إيجاد الأجسام كما تعذر علينا إيجادها لأن العجز يوجب المماثلة، وذلك من حق كل مثلين، فوجب القضاء بأنه سبحانه قادر في جميع الأحوال .

الباب الرابع: القول في الدلالة على أنه تعالى عالم.

بدأ المؤلف في تعريف من هو العالم، ثم ذكر ثلاثة أدلة لإثبات صفة العلم للباري تعالى ساقها على النحو الآتي:

أحدها: إيجاده لمصالح الخلق قبل الحاجة إليها في جميع المخلوقين، دليل على علمه بما سيكون من فاقة المربوبين وقد استدل على ذلك بقصة آدم عليه السلام حيث علمه الله الأسماء كلها التي تشمل المنافع والمضار. قال تعالى: "وعلم آدم الأسماء كلها"[3].

ثانيها: أن الجهل صفة نقص، وصفات النقص لا تليق إلا بالمحدثين، والإجماع على ذلك ظاهر بين المقرين بالصانع، وهو تعالى قديم مخالف للمحدثات في الذات والصفات والأفعال.

ثالثهما: أن الفعل المحكم قد صح منه، والفعل المحكم لا يصح إلا من عالم، وقد حصل الفعل ووجد وهو لا يحصل ويوجد إلا بعد الإمكان، إذ لو كان مستحيلا لما وجد، وقد وجد على غاية من الإحكام والإتقان والانتظام وذلك ظاهر في ملكوت السماوات والأرض وما فيهما وبينهما من العجائب.

أن الفعل المحكم قد صح منه والفعل المحكم لا يصح إلا من عالم لأن الشاهد يؤيد ذلك فالبناء المحكم والكتابة البديعة لا تصح إلا من العالم بها[4].

الباب الخامس: القول في الدلالة على أنه تعالى حي .

بدأ المؤلف تعريف الحي بأنه من يجوز منه الفعل والتدبير مع ارتفاع الموانع ثم سلق ثلاثة أدلة لإثبات صفة الحياة للباري تعالى .

الدليل الأول: أنه تعالى عالم قادر والعالم القادر لا يكون إلا حيا، وبرهان ذلك أن الميت والجماد يستحيل كونهما عالمين قادرين .

الدليل الثاني: أنه سبحانه لو لم يكن حيا لكان ميتا ولو كان ميتا لتعذر عليه الفعل، لأن الميت في الشاهد لا يفعل لفقده الحياة .

الدليل الثالث: دوام التدبير وحسن اعتدال التقدير ، دليل على حياة الله تعالى[5].

الباب السادس: القول في الدلالة على أنه تعالى سميع بصير.

كالعادة يبدأ المؤلف في تعريف لفظ السميع والبصير فيقول إنه الحي الذي لا آفة به، وهي تسمية معدولة من سامع مبصر ، إذ لا فرق بين سميع بصير وسامع مبصر ، حامل لما يذهب إليه المعتزلة، وهي مشتقة من السمع الذي هو العلم ، لأن السمع لفظ مشترك بين معان متعددة[6] .

وقد ربط المؤلف بين السمع والبصر والعلم وأثبت ضرورة وجود السمع والبصر لأنهما يندرجان تحت مسمى العلم ، وإثباتهما ينفي الآفة عنه ، إذ الآفة لا تليق بـه ولا يجوز عليه، لأن مرجع الآفات فساد الجوارح والآلات ، وهو سبحانه ليس بذي جارحة ولا آلة، لأن هذه الأوصاف مختصة بالأجسام[7].

الباب السابع : القول في الدلالة على أنه سبحانه خلاف الأشياء .

ناقش المؤلف هذا الموضوع من سبعة أوجه أثبت من خلالها أن الذات الإلهية مخالفة لكل الأشياء على النحو الأتي:

أنه تعالى قديم وما سواه محدث ، فلو كان مشبها للأشياء لكان مثـلاً لهـا ، لأن القديم هو الذي لا أول لوجوده ، والمحدث ما لوجوده أول ، ومحال أن يكون ما لا أول لوجوده مشابهاً لما لوجوده أول.

لو كان مشابهاً لها لكانت مشبهة له ولكانت قديمة ، وقد قـامت الدلالـة علـى حدوثها .

لو كان مثلاً للمحدثات لشاكلها في كل ما يجب ويجوز و يستحيل، لأن ذلك مـن حق كل مثلين ، والذي يجب للأجسام الحدود، ويجوز عليها الرسوم، ولا يستحيل عليها العدم والخلو من الأعراض لأنها محدثة ، كذلك كان يجب أن يكون القديم مثلها وهـذا مخالف للعقل والمنطق[8].

أنه تعالى لو كان مثلا لها لتعذر عليه إيجادها كما تعذر علينا إيجاد أمثالنا، وقد صـح منه تعالى إيجادها، ولو أشبه الأشياء لكان متحيزا متجزئا وتلك أمارات الحدوث[9].

وقد نبه الله تعالى إلى هذا فقال " ليس كمثله شيء وهو السميع البصير "[10].

الباب الثامن : القول في الدلالة على أنه تعالى واحد .

فيما سبق يثبت المؤلف أنه تعالى مخالف لجميع المحدثات، وفي هذا البـاب يثبـت وجوب القضاء بأنه تعالى واحد لا تجوز عليه الكثرة والقلة لأنهما لا يجوزان إلا على من جازت عليه الزيادة والنقصان وهي صفات تتبع الأجسام وقد ثبت أنه تعـالى ليـس بجسم، ومعنى الواحد لدى المؤلف أنه الذي لا يتجزأ ولا يقارن، وقد ذكر المؤلف هـذا

احترازا من الأعراض، وقد أثبت واحدية الخالق بسبعة أدلة من العقل والنص وأتى بمناقشات واسعة يثبت من خلالها بطلان الاثنينية ويقيم الأدلة على صحة الواحدية[11].

وقد تجنبنا سياق هذه الأدلة لطولها وهي ليست جديدة وإنما هي الأدلة التي يثبتها المعتزلة وغيرهم في إثبات انه تعالى واحد.

الباب التاسع: في الدلالة على أنه تعالى غني.

أثبت المؤلف أن الغني هو الحي الذي ليس بمحتاج والسبب في إطلاق هذا المعنى أن المفهوم من إطلاق لفظة الحاجة هو الشهوة لما يوافق مزاج الحي والنفار عما لا يوافق مزاجه[12].

وهذه الصفات تختص بمن جازت عليه المنافع والمضار وهي الأجسام والله تعالى ليس بجسم.

وقد أثبت المؤلف دليلين على إثبات صفة الغنى لله تعالى فقال : إنه لو لم يكن غنيا لكان محتاجا والمحتاج محدث، وقد صح أنه تعالى قديم، أما الأول فإنه يدخل ضمن القسمة الدائرة بين النفي والإثبات، ودخول المتوسط بينهما محال .

وأما الثاني فلأن المحتاج هو كل من افتقر في وجوده أو بقائه إلى غيره ,ولأن الحاجة صفة نقص وصفات النقص لا تليق إلا بالمحدثين والله تعالى قديم[13].

انه لو كان محتاجا لم تخل حاجته من ثلاثة اوجه :

- إما أن تكون قديمة وهذا لا يجوز لأن القدم مختص بالله تعالى .
- و إما أن تكون محدثة وهذا لا يجوز لأنه تعالى سابق للمحدثات، وقد كان قبل إحداثها لا شيء معه في القديم . كما لا يجوز أن تكون معدومة إذ المعدوم ليس بشيء، وما ليس بشيء لا يجوز أن يكون علة لشيء، فصح انه غني من كل وجه.

الباب العاشر: في الدلالة على أنه تعالى لا يُرى بالأبصار.

هذا الموضوع من القضايا الحرجة التي طال النقاش فيها بين جميع المذاهب الإسلامية فمنهم من أثبتها كالأشاعرة ومنهم من نفاها كالمعتزلة، وقد أثبت المؤلف بالأدلة السمعية والعقلية أن الله لا يرى بالأبصار وهو مذهب المعتزلة المشهور وليس في هذا الموضوع أي جديد على ما طرح قبل ألف عام.

يرى المؤلف أن الأبصار لا تقع إلا على مكيف محدود وهي صفات تلحق بالأجسام والله تعالى ليس بجسم فالله لا يرى بالأبصار[14]. وقد أطال المؤلف الجدل والنقاش اكثر من أي موضوع آخر في مخطوطه هذا، ولا حاجة لنا بسياق هذه المناقشات لأنها متوفرة في جميع مصادر ومراجع المذاهب الإسلامية كلها .

الباب الحادي عشر: القول في الأسماء والصفات .

تضمن هذا الباب مناقشات مستفيضة في مسألة الأسماء والصفات وسبب ذلك أنها من المسائل الكبيرة التي احتدم من أجلها الصراع بين المطرفية والمخترعة.ومن الملاحظ أن هذا الباب بالذات وجد فيه أربع صفحات محذوف منها الكلام وتركت بيضاء لم يكتب فيها حرف واحد و لم يحذف من المخطوط أي شيء سواها مما يثير التساؤل حول هذا المحذوف وخاصة في موضوع وجود اشتقاق أسماء الله تعالى من عدمه وهل هي قديمة أم لا.

يرى المؤلف أن أسماء الله تعالى تنقسم إلى نوعين :

أحدهما : ما سمي به لأجل ذاته نحو عالم وقادر وحي وقديم .

ثانيهما : ما سمي به لأجل فعله كالخالق الباري المصور المحيي المميت الباعث الرازق. والفرق بينهما : أن ما سمي به لأجل ذاته يعبر عنه بالألف واللام وبغيرهما، تقول لم يزل العالم عالما والقادر قادرا .

وما سمي به تعالى من قبل فعله لم يجز إطلاق العبارة فيه إلا بالألف اللام تقول: لم يزل الخالق الرازق ولا تقول خالقا ولا رازقا . لان في ذلك إثبات قدم الخليقة والألف واللام في اسم الفاعل بمعنى الذي، فكأنك تقول: لم يزل الذي خلق، فإذا قلت خالقا فإنما تقول لم يزل الذي خلق الذي يخلق وذلك لا يجوز . وهناك فرق آخر ذكره المؤلف خلاصته :

أن ما سمي به لأجل ذاته لا يجوز أن يدخل فيه الغير ويجوز دخوله في أسمائه التي أوجبها الفعل، لذلك لا يجوز أن تقول: عالم وغير عالم، ويصح أن تقول خالق لفعله وغير خالق لفعل غيره . وقد اخذ المؤلف هذا من المعتزلة والمعتزلة الزيدية في باب التحسين والتقبيح.

أما الصفات فقد ناقش المؤلف جميع المذاهب الإسلامية وتوصل إلى أن هذه الصفات مرجعها واحد هي ذات الله تعالى. تقول علمه قدرته وهي ذاته وهذا هو المذهب المشهور عند المعتزلة وأكثر الزيدية وقد ذكر تعليلا لهذا الاختيار أن نفى هذه الصفات يوهم أضدادها وأن القرآن قد نطق بها وقضت به اللغة، ولا يجوز الخروج عما قضيا به، وبه قال الكافة من أهل البيت وبعض أهل العدل من علماء الإسلام[15].

الباب الثاني عشر: القول في الأصول والجواهر.

افتتح المؤلف هذا الموضوع بقوله: اعلم أن المتقرر من مذاهب أهل البيت عليهم السلام أن للعالم أصولا هي (الماء والهواء والرياح) وقيل النار من الثلاثة، والثلاثة أصل ما خلق الله سبحانه من النار وغيرها سواء كان جملة أو تدريجا كوجود الحيوان من الماء المهين والأشجار من الماء والطين، والمطر من السحاب، ووجدت الزيادة والنقصان في الإنسان وغير الإنسان من جماد وحيوان وأن للأشياء أصلا وفرعا . ثم بدأ يسوق الآيات الكريمة الدالة على ذلك ثم أتبعها بأقوال الأئمة من آل البيت[16].

والأدلة التي ساقها تصب في إثبات الأصول والفروع وإنكار نظرية الجواهر . قال مستشهدا: وقد ذكر الحسين بن القاسم بن علي في كتاب الرد على الملحدين، وفي كتاب الأفعال كلاماً شبيها بكلام القاسم بن إبراهيم الذي قدمناه وكذلك المرتضى والناصر ذكرا شيئا من ذلك .

فلهذا وشبهه قلنا إن للعالم أصولا وإن الله تعالى خلق من تلك الأصول جميع ما ذرأ وبرأ كما قال أئمتنا. وجعل سبحانه هذه الأصول أضدادا متعادية كما ذكر ذلك الإمامان القاسم والهادي عليهما السلام في كلامهما المقدم وقال علي بن الحسين عليه السلام : مؤلف بين متعادياتها مفرق بين متدانياتها، ومثله روى عن أمير المؤمنين عليه السلام[17]. ثم ساق كلام العلماء من أن العالم جواهر منثورة ألف الله بينها فكانت أجساما، إذ الجواهر عندهم جزء لا يتجزأ، وهذه مسألة خلافية، ابتدأت من مدرسة ديمقريطس وأخذ بها بعض المفكرين الإسلاميين كالمعتزلة والأشاعرة.

الباب الثالث عشر: القول في الإحالة والاستحالة.

قد سبق الحديث عن هذا الباب في المسألة الثانية من المسائل الحرجة التي كانت مثار جدل بين المطرفية والمخترعة في القسم الأول من هذه الدراسة و لا حاجة لتكرارها .

الباب الرابع عشر: القول في تسمية الأعراض أصولاً وصفات.

تحدث المصنف عنها في هذا الباب في أربع صفحات بدأ في تعريف العرض وذكر التعريفات المشهورة في ذلك، وقد اعتمد في هذا الباب على كلام النبي صلى الله عليه وسلم، وأمير المؤمنين علي رضي الله عنه، وعلى السيد أبي طالب، وعلى الإمام القاسم. وأضاف أن آل البيت قد ذكروا ذلك بصفة عامة وكذلك أهل اللغة ، ثم أشار أن خلاصة مذهب الإمام الهادي في هذا الباب جواز تسمية العرض حالاً ، كما يجوز تسميته صفة ، ولكن متى يصح تسمية العرض حالا أو صفة ؟ الواقع أن المؤلف لم يجب

عن هذا السؤال مع أهميته، وإنما استرسل بسياق كلام الأئمة من آل البيت باعتبار كلامهم أدلة توحي من خلال لفظها الظاهر أن العرض والصفة والحال شيء واحد . وقد ساق المؤلف كثيرا من الأدلة التي تثبت وجهة نظره، منها قول النبي صلى الله عليه وسلم : (الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر)[18]. وهذا دليل العرض أما تسمية العرض حالا وصفة، فقد أورد ما رواه السيد أبو طالب في كتاب الآمال عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ما من حال يكون عليها العبد أحب إلى الله من أن يراه ساجداً معفراً وجهه في التراب". ويروى عن أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه قال : الذي لم يسبق له حال فيكون أولاً قبل أن يكون أخرا ويكون ظاهراً قبل أن يكون باطناَ. وقد أوضح الإمام القاسم في كتابه الدليل الكبير جواز تسمية الأعراض أحوالاً وصفات ، وكذلك الإمام الهادي في كتاب المسترشدين قال: وهي أعراض وليست بأجسام إذ لا تقوم أبداً إلا بالأجسام، و إنما هي صفات ودلالات وحركات وعلامات تتفرع من الأجسام غير متلاحقات، حتى الصفات المعنوية كالكفر والإيمان أدرجها ضمن هذه الصفات التي يوصف بها الموصوف فهي عرض وهي صفة وهي حال، والصفة على الحقيقة هي ما عليه الموصوف[19].

الباب الخامس عشر: القول في اختراع الأعراض .

نوقش هذا الموضوع في القسم الأول من الدراسة ولا حاجة للتكرار .

الباب السادس عشر: القول في الإرادة.

أثبت المؤلف تعريف الإرادة بعد قوله : الله سبحانه مريد لأفعاله، وفعله لها أنه علم بها غير ساه عنها ولا مغلوب عليها . فالإرادة إذاً إيجاد الفعل على هذا الوجه، ثم ساق دليلين على أنه تعالى مريد .

أحدهما : أنه أوقع أفعاله على وجوه عدة لمعان في الحكمة مختلفة تخصها وهو عالم بها وكل من أوقع أفعاله على هذا الوجه فلابد أن يكون مريدا .

ثانيهما : ما يعلم من الشاهد أن أفعال الواحد منا لا تقع على الوجوه المختلفة موافقة لأغراض فاعلها إلا وهو مريد لها[20]. ثم ساق مذاهب العلماء من الشيعة والمعتزلة والنجارية والكلابية والأشعرية في الإرادة وناقشها مناقشة علمية في عشرة أدلة عقلية ، ثم اختار مذهب الإمام الهادي القائل (إن الإرادة مرادة) علما انه لم يتعرض للأدلة النصية أو النقلية في هذا الباب.

الباب السابع عشر: القول في نفي الوسائط عن الله تعالى.

تحدث المؤلف عن هذا الموضوع في ثلاث صفحات لا غير .

ويقصد بالوسائط الأعراض حيث نفاها عن الذات الإلهية ، لأن إثباتها يوجب المشابهة بينه وبين خلقه في ذاته أو صفته الراجعة إلى ذاته، أو إلى فعله مستدلا بقول أمير المؤمنين علي رضي الله عنه حيث قال: باينهم بصفاته ربا، كما باينوه بحدوثهم خلقا[21]. واستدل أيضا بقول علي بن الحسين رضي الله عنه : كل موجود في الخلق لا يوجد في خالقه، وكل ما يمكن منهم يمتنع من صانعه ، ثم ينفي أن يكون الخلق هو المخلوق ومن يثبت فعل الله بالأسباب، فليست هذه الأسباب واسطة بينه وبين فعله، لأنا نريد بالوسائط نفي المشابهة ، فإحياء الله الأرض بالماء، والأجساد بالمواد والأرواح فليس واسطة لأنها هي تلك الأجسام بأعيانها، وإنما تتقلب هي في أنفسها وتستحيل وتخرج من حال إلى حال باختيار صانعها ، ثم ساق أربعة أدلة أثبت من خلالها بطلان القول بالوسائط على النحو الأتي :

الأول : إنا رأينا في الشاهد أنه لا واسطة بين الفاعل وفعله ، والعلة في ذلك أنه أخرج مفعوله من العدم إلى الوجود، فلو كان بينه وبين فعله واسطة لاحتاج إلى مثلها ، وهذا يؤدي إلى وسائط لا نهاية لها وهو محال[22].

الثاني : أن الواسطة في الشاهد لا تكون إلا بين الفاعل وبين غير فعله، ولو جاز ذلك على الله تعالى لكان العالم ليس بفعل له .

الثالث : أن يقال للمخالف هل هذه الوسائط مخلوقة لله أم لا ؟ فإن قال نعم، قيل له: فهل خلق الله سبحانه لها هي أو غيرها ؟ فإن قال هي الخلق والمخلوق بطل قوله بالوسائط وإن قال: الخلق غيرها، أوجب للخلق خلقا وذلك محال.

الرابع : أن هذه الوسائط: إما أن تقوم بالله تعالى، وهذا محال لأنه ليس محلا للحوادث، وإما أن تقوم بنفسها، وهذا باطل لأن الوسائط أعراض، والعرض لا بدله من شبح يحل فيه بدليل أنه يوجد إذا وجد ويعدم متى قدر عدمه ، ومذهب الإمام الهادي أن الأعراض لا تقوم إلا بالأجسام. وقد نفى الهادي الوسائط في مسائل محمد بن عبد الله العلوي حيث يقول : وكل ذي فعل متوسط بينه وبين مفعوله ففعله عرض يزول ومفعوله ثابت وذلك مخلوق غير خالق .... إلى أخر كلام الهادي[23].

الباب الثامن عشر : القول في رؤية الأعراض.

يرى المؤلف أن الأبصار لا تقع على شيء من الأعراض وأسند هذا الرأي إلى مذهب آل البيت في نفي رؤية غير الأجسام بالأبصار، وقد أبطل رؤية الأعراض بالأبصار بثمانية أدلة عقلية ساقها عن الأئمة أهل البيت، ويرى أن هذا مطابق لأدلة العقول. والمعروف لدى الفلاسفة وعلماء الكلام بالذات أن هذه من اكبر المسائل التي

دار حولها الجدل نظرا لوجود النفي والإثبات في النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، أي يُلاَحَظُ المؤلف عند نفيه رؤية الأعراض بالأبصار قائلا (خلافا لمن ذهب إليه من المعتزلة)[24]. إشارة منه إلى مذهب المعتزلة في تقسيم الأعراض إلى نوعين:

النوع الأول: الأعراض التي تدرك كالألوان والطعوم الروائح والحرارة والبرودة والأصوات والآلام .

ثانيهما : الأعراض التي لا تدرك كالظن والاعتقاد والشهوة والنفرة والحياة والقدرة والنظر والعلم بالحواس[25]. والمؤلف هنا شذ عن رأي المعتزلة و لم يحدد الأعراض من حيث أجناسها وأنواعها، وإنما انتقل مباشرة إلى إثبات الأدلة على أن الأعراض لو كانت تدرك بالمشاهدة لم يختلف العقلاء في إثباها، والمعلوم اهم مختلفون فيها نفيا وإثباتا[26]. وكل الأدلة التي ساقها المؤلف في هذا الباب تنحصر في الحديث عن الأجسام والأعراض، واسقط عليها الرؤية بالمشاهدة الحسية وادخل نفسه في النقاش المشهور بين علماء الكلام حول رؤية الله تعالى بالأبصار مع أن عنوان الباب واضح (القول في رؤية الأعراض) وكان يكفيه أن يستفيد من منهج المعتزلة في تقسيمهم للأعراض كما سبقت الإشارة إليه .

الباب التاسع عشر: القول في المتولدات .

ذكر المؤلف أن المعتزلة تقسم فعل العبد إلى قسمين ,فعل مباشر، فعل متولد، و أورد تعريف المباشر بأنه عند المعتزلة كل فعل يحصل في محل القدرة عليه، كالقعود والقيام والصلاة والصيام، وما يفعله العبد بجملة بدنه[27]. وهذا التعريف مأخوذ من تعريف القاضي عبد الجبار المعتزلي للفعل المتولد وتقسيمه حيث قال : فالذي نسميه مباشرا هو ما نفعله ابتداء في محل القدرة من دون فعل سواه[28]. ويتعرض المؤلف على هذا التقسيم ويرى أنه باطل وقد ساق ثمانية أدلة يثبت من خلالها أن أفعال العباد قائمة

بهم لا تتعداهم إلى غيرهم لا على سبيل الانتقال ولا على سبيل التولد ، ويلاحظ اضطراب المؤلف في هذه القضية محاولاً إثبات أن السهم إذا أصاب أحداً فليس بمتولد أي أن الإصابة الواقعة على شخص ما من خلال إطلاق السهم ليس الفاعل هو مطلق السهم وليس مسئولاً عن ذلك بدليل أن من أطلق السهم فمات قبل الإصابة فعلى من تقع المسئولية ، وهذا في الواقع سفسطة مخالفة للمنطق، والعقل، ثم يثبت بعد ذلك أن الرامي مسبب وليس سبباً ، ومن خلال الأدلة الثمانية يتوصل المؤلف إلى إبطال القول بالتولد مخالفاً في ذلك جمهور المعتزلة ، والمناقشة في هذا الموضوع طويلة وغير مفيدة فنكتفي بهذه الإشارة ومن أراد الزيادة فليرجع إلى أصول المعتزلة .

الباب العشرون: القول فيما يسمع من رجع الصدى.

أفرد المؤلف باباً مستقلاً لهذا الموضوع رغم إشارته في مقدمة الباب أنه متعلق بالباب السابق نظراً لتولد الأصوات من الجبال والكهوف والأصداح مماثلة لما يطلقه الإنسان سواء كان كلاما أو أصواتاً – زيادة في البيان وتكملة فيما لم يرد في الباب السابق[29]. يرى المؤلف أن رجع الصدى من الكلام والأصوات فعل الله سبحانه حيث فطر بعض الأجسام وركبها تحكي أقوال المتكلمين[30]. ثم ذكر أن هذه معجزة جعلها الله شاهدة على الإنسان وكان بإمكان المؤلف أن يكتفي بهذا لكنه دخل في مناقشات جدلية لا فائدة منها حيث أسند هذا الصدى أنه من بقية معجزة نبي الله داود عليه السلام مستدلاً بما ذكره الإمام الهادي لابنه في تفسير قوله تعالى (يا جبال أوبي معه والطير) أي رجعي معه ما يقول من التسبيح و التحميد ، وقد ذكر الزمخشري أنها معجزة لداود عليه السلام[31]. إذ التأويب الذي يحصل من الجبال هو الذي يسميه العرب (الصدى) وهو شئ لم يكن موجوداً قبل نبي الله داود عليه السلام فأعطاه الله ذلك كرامة له[32]. وقد ساق المؤلف خمسة أدلة يثبت من خلالها إبطال قول من يقول

إن رجع الصدى متولد من صوت الإنسان نفسه ويرى أنها معجزة لا دخل لها في التولد[33].

الباب الحادي والعشرون: القول في بقاء الأعراض.

يرى المؤلف أن الأعراض لا يجوز على شئ منها البقاء وقتين فما فوقهما ، وإنما توجد في وقت وتعدم في الثاني من وجودها سواء كان العرض من فعل الله سبحانه أو من فعل العبد . ويرى أن هذا مذهب البغداديين كأبي القاسم البلخي وغيره ، كما أنه مذهب الأشاعرة ، لكنه يخالف بعض علماء المعتزلة[34]. والواقع أن علماء المعتزلة مختلفون فيما يبقى وما لا يبقى من الأعراض فأبو القاسم البلخي والنظام و الأشاعرة يرون ألا شئ من الأعراض يبقى[35]. بينما فصل اكثر البصريين حيث يرون أن من الأعراض ما تبقى، فاللون والطعم والرائحة والحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والاعتماد والكون والتأليف والحياة والقدرة كلها باقية اتفاقا بين علماء البصرة، أما غير الباقي فهو الصوت والألم والنظر والشهوة والنفرة فهذه لا تبقى اتفاقا بينهم[36]. وقد ساق المؤلف ثمانية أدلة عقلية يرد بها على من ذكرهم من بعض المعتزلة القائلين ببقاء الأعراض، لكنه لم يذكر الأعراض تفصيلا كما فعل المعتزلة، ولا كما فعل الإمام احمد بن يحي المرتضى في كتابه دامغ الأوهام، حيث ذكر اختلافهم فردا فردا[37].وإنما اكتفى بذكر بعض الآراء من المدرسة البصرية والبغدادية.

الباب الثاني والعشرون: القول في سماع الأعراض.

ذكر المؤلف في هذا الباب أن المراد بالسماع سماع العلم وليس سماع الحس، لان الحواس لا تقع إلا على الأجسام، سواء كان الشيء مسموعا أو ملموسا أو مشموما أو مطعوما أو مرئيا[38]. ولقد اخترع المؤلف هذا العنوان ثم كلف نفسه بإيراد ستة أدلة عقلية يثبت من خلالها أن الحواس لا تقع على الأعراض، كالألوان والروائح والطعوم

والخشونة والليونة، كما خلط المؤلف في هذا الباب الحديث عن الأصوات وتولدها بعضها من بعض، مع العلم أن المتولد قد سبق الحديث عنه، ولم يتعرض لما ذكره في مقدمة هذا الباب من أن الأعراض تسمع سماع العلم ولا تسمع سماع الحس، وكل الأدلة التي ساقها تتعلق بنفي السماع الحسي، فإذا كانت الأصوات لدى المعتزلة و أكابر الزيدية من ضمن الأعراض المتفق عليها، وأنها ذوات لها صفات و أحكام[39]. والأصوات من الطبيعي أن تسمع ولكن بآلة السمع الحسية، فكيف يثبت المؤلف خلاف ذلك . وهذا لا يحتاج إلى مناقشة لانه من البديهيات وهي من الأشياء المقدورة لنا، وقد تمت مراجعة كثير من المخطوطات الخاصة بالإمام احمد بن يحي المرتضى وابن حابس وشرح الأساس الكبير لأحمد بن صلاح الشرفي، وعبد الله بن محمد النجري فلم نجد ما ذكره المحلي .

الباب الثالث والعشرون: القول في اختلاف الأجسام.

حصر المؤلف هذا الباب في أربع صفحات ونصف ذكر فيها أن الله خلق الأجسام مختلفة في أنفسها وأورد سبب ذلك أنه راجع لاختيار الصانع ، وهذا مخالف لما عليه كثير من المعتزلة الذين يرون أن الاختلاف في المعاني وليس في الأجسام ، لأنها من وجهة نظرهم أنداد متماثلة من حيث إنها مستوية في الحقيقة ، ولولا اختلاف المعاني ما كان بين الأجسام فرق ، قالوا لأنه يفرق بين الأبيض والأسود بالبياض والسواد[40]. وقد رد المؤلف على هذا الرأي واستدل بآيات من القرآن تبين أن الاختلاف في المحسوسات، قال تعالى: (وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله)[41]. والأكل هو الثمر والرزق، ومن يفهم العربية يجد أن "مختلفا" قد نصب على الحال وصاحب الحال النخل والزرع والعامل فيه أنشأ وهذا دليل واضح لما نقول .

وقال تعالى: (والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه)[42]. والمتشابه هو المتماثل وغير المتشابه هو المختلف وهذا التقسيم دليل على ما نذهب إليه[43]. وقد ذكر عن الأئمة أدلة

- تؤيد ما ذهب إليه، كالإمام القاسم في كتاب الدليل الكبير، وكتاب الرد على ابن المقفع، وذكر أيضاً عن الإمام الهادي ما يؤيد مذهبه، وكذا السيد أبي طالب، وأبي القاسم إسماعيل ابن عباد[44].

الباب الرابع والعشرون: القول في الخلق والتكليف والإرسال.

الخلق: لم يعرف الخلق و لم يذكر الخلاف بين علماء الكلام بين الخلق والمخلوق ويرى المصنف أن الله خلق الخلق تفضلاً منه على عباده و إحساناً إليهم وليس بواجب ولا جائز ، وهذا التفضل يرفع الله به عباده إلى أرفع الدرجات وأشرف المنازل لا لحاجة دعته إلى ذلك لأنه سبحانه الغني الذي لا يحتاج. وقد ساق المؤلف مناقشات جدلية وردوداً على الفلاسفة الذين يرون وجود الفائدة وإسنادها لغيره. وهو في حقه أولى من عدمها ويستفاد في نفسه لإفادة غيره، ويرى المؤلف أن هذا باطل مطلقا[45].

التكليف : عَرَّف المؤلف مصطلح التكليف بأنه الأمر بالواجبات والنهي عن المحرمات ، ثم قال : إن الله خلق العقلاء للتكليف ، لأنه خلقهم مختارين ، فلو لم يكلفهم لكان مهملاً لهم ، والإهمال قبيح ، وهو تعالى لا يفعل القبيح[46]. ثم ساق الأدلة من القرآن ومن أقوال الرسول صلى الله علية وسلم على ضرورة وجود التكليف من الله لخلقه إذ عائد النفع و المصلحة عليهم في الدنيا والآخرة . قال تعالى: (وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون)[47]. وقال تعالى (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون)[48]. وقال عليه الصلاة والسلام (صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته)[49]. وقال تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة)[50]. وقال عليه الصلاة والسلام (لا يبولن أحدكم بالماء ثم يتوضأ به)[51].

الإرسال : يرى المؤلف أن الله بعث الأنبياء وأرسل الرسل نعمة منه على الخلق لأن العقول لا يمكنها أن تعرف كل شيئ ولا أن تفصل إلا على لسان الرسول[52]. وقد أرجأ المؤلف تفصيل هذا الموضوع إلى باب النبوة .

الباب الخامس والعشرون: القول في أنه تعالى عدل ليس في أفعاله ظلم ولا عبث ولا قبح.

قسم المؤلف الحديث عن هذا الموضوع إلى أربعة فصول :

الأول : أصل العدل في اللغة، ومعنى قول المسلمين إنه تعالى عدل. وفي حد العدل.

الثاني : في بيان معنى الظلم والعبث والقبيح .

الثالث : ما لأجله قبح كل واحد ، والدليل على ذلك .

الرابع : في الدلالة على أنه تعالى لا يفعل شيئا من القبائح .

ناقش المؤلف العدل وأقسامه وعرفه بقوله:(هو الذي لا يخل بواجب عليه ولا يفعل ما علمه قبيحا)[53]. وقد أورد المناقشات التي يسوقها الكلام ليثبتَ أن فعل الله عدل، وقد فرق المؤلف بين الفعل وبين الحكمة التامة ، مستدلاً بقوله تعالى (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم)[54]. فإذا أفسد الإنسان أو غيًر كأن يقلع ظالم عينه أو يقطع يده أو يقرض بالمقاريض ، فإنها أجسام لم تخرج من كونها فعلاً له سبحانه ، و إنما خرجت من كونها حكمة تامة، فلا يكون عندئذ في أحسن تقويم[55].

عرف المؤلف الظلم بأنه وضع الشيء في غير موضعه على وجه العدوان[56]. وقد استدل على ذلك بقول الرسول صلى الله علية وسلم (لا تعطوا الحكمة غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم)[57]. ومعنى العبث: هو الفعل الواقع من العالم به لا لغرض يحسن، أو يحصل ذلك الغرض بدونه .

عرف المؤلف القبح بأنه ما إذا علم القادر على قبحه ثم فعلـــه ، اســتحق الـــذم بفعله[58]. و لم يتطرق المؤلف إلى بيان وإيضاح القبح مع العلم أن المذهب الاعتزالي اعتبر ذلك من المشكلات الكبرى التي ناقشها مع المذاهب الأخرى. أما خلاصـــة الفصـــل الثالث وهو ما لأجله قبح كل واحد، وفي الدليل على ذلك فقد سمي الظلم قبحاً لكونـه وضعا للشيء في غير موضعه على وجه العدوان، وكذلك العبث قبح لوقوعه عارياً عــن غرض مثله[59]. ويرى المؤلف أن هذا الموضوع يعرف ببداهة العقول ولا يستند إلى نظـرٍ أو استدلال . أما الفصل الرابع فقد تحدث المؤلف فيه عن الدلالة التي تثبت أنه تعـالى لا يفعل شيئا من القبائح. ويرى أن الله يقدر على القبح و لا يفعله ، بخلاف المجبرة الــتي ترى -من وجهة نظره- أنه تعالى عدل يقدر عليه ويفعله ولا يقبح منه[60]. وهذه المسألة قديمة وقد طال فيها الجدل فلا حاجة للإطالة.

الباب السادس والعشرون: القول في القضاء والقدر .

يقسم المؤلف القضاء إلى ثلاثة أقسام:

قضاء بمعنى الخلق والتمام ، نحو قوله تعالى (فقضاهن سبع سماوات في يومين)[61].

قضاء بمعنى الأمر والإلزام ، قال تعالى (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه)[62].

قضاء بمعنى الإخبار والإعلام ، قال تعالى (وقضينا إليه ذلك الأمر)[63].

ثم انتقل إلى تقسيم القدر فقسمه إلى ثلاثة أقسام:

القدر بمعنى الخلق على مقدار معلوم ، قال تعالى (وخلق كل شئ فقدره تقديــرا)[64].

القدر بمعنى الإخبار وبيان الحال ، قال تعالى (إلا امرأته قدرناها من الغابرين)[65].

القدر بمعنى الكتابة كقول العجاج :

واعلم بأن ذا الجلال قد قدر .:. في الصحف الأولى التي كان سطر[66]. ومما يلاحظ على المؤلف في هذا الباب وفي غيره من الأبواب أنه يكرر كلمة المجبرة ويسند إليها أقوالاً ويرد عليها، والظاهر أنه يقصد بالمجبرة الأشاعرة، ومشكلة القضاء والقدر وعلاقتها بوجود الخير والشر في العالم من أكبر المشكلات الفلسفية خطورة وتعقيداً لاتصالها بالجانب الغيبي وارتباطها بنصوص من الكتاب والسنة وهي معروفة لدى الإنسان من قديم الزمان ، والتفسيرات حولها كثيرة بين الأديان السماوية وبين المذاهب الفلسفية، وكلٌ يفسرها حسب التراكم المعرفي، إضافة إلى الأنماط السلوكية في الواقع الاجتماعي. ولقد ربط المؤلف ذلك كله بالنصوص الدينية التي تثبت القضاء والقدر وحرية الاختيار ثم الثواب والعقاب[67]. ويرى المؤلف أن لفظ القضاء يأخذ جانبين من التفسير أحدهما: بمعنى أعلمَ وهذا متفق عليه في جميع المذاهب كما يقول المؤلف: تقول قضى بها الله بمعنى أعلم بها ملائكته ورسله عليهم السلام[68]. وثانيهما: أن ينسب القضاء إلى الله بمعنى الخلق ، فمذهب المؤلف عدم الجواز ، فلا يقال قضى بها وقدرها على معنى خلقها[69]. ولكنه لم يعلل و لم يفصل ما هو السبب الذي جعله لا يضيف القضاء بمعنى الخلق إلى الله تعالى ، والمؤلف يعلم أن أخبث الذوات في هذا الكون هي ذات إبليس وهي رأس الشر كله كما تصفه النفوس الدينية ، فإلى من يسند خلقه إذاً . ولقد فصل ابن القيم في كتابه شفاء العليل هذه المسألة إذ يرى أن الله سبحانه منزه عن فعل الشر ، مع العلم أنه خالق الخير والشر ، وكل ما نسب إليه فهو خير محض، والشر إنما صار شراً لانقطاع نسبته و إضافته إليه تعالى، فلو أضيف إليه لم يكن شرا ، فالشر في بعض مخلوقاته لا في خلقه وفعله[70].

الباب السابع والعشرون: القول في أفعال العباد .

حصر المؤلف الحديث عن هذا الباب في ثلاثة فصول :

الفصل الأول : في بيان مذهبه ومذاهب مخالفيه .

الفصل الثاني : في الدلالة على صحة ما يذهب إليه .

الفصل الثالث : في بيان ما يتعلق به المخالف وجوابه عن ذلك .

الفصل الأول: مذهب المؤلف، أن أفعال العباد كلها حسنها وقبحها فعلهم، لا فعل الله سبحانه، لم يشاركهم فيها مشارك، و لم يخلقها فيهم، ولا جبرهم عليها، و إنما أقدرهم على فعلها ومكنهم من إحداثها وعرفهم خيرها وشرها[71]. ثم ساق الأدلة المعروفة التي يسوقها مذهب الاعتزال في إثبات الحسن والقبح إلى فعل الإنسان الذي أقدره الله عليه.

الفصل الثاني : أثبت المؤلف فيه صحة ما يذهب إليه بطريقين :-

الطريق الأول : الإلزام

الطريق الثاني : الدليل ، وكلاهما دليلان عقليان . أما الإلزام فيفترض المؤلف أن أفعال العباد فعل الله تعالى ، ويطالب الخصم في إثبات المحدث في الغائب، لأن إثباته في الغائب فرع عن إثباته في الشاهد ، ويرى المؤلف أن المخالف لا يستطيع إثبات ذلك عقلا[72]. وهي مسألة خلافية كبيرة بين المذاهب لا يمكن الحكم عليها بهذه السهولة . أما الطريق الثاني وهو الدليل فقد قسمه المؤلف إلى دليل عقلي ، ودليل سمعي . وقد ساق المؤلف عشرة أدلة عقلية وأربعة ضرب نقليه حاول فيها إثبات أن العباد هم الفاعلون لأفعالهم ، والموجدون لها دون الله سبحانه. والسؤال الآن ماذا يقصد المؤلف بلفظ (دون الله سبحانه و تعالى) ؟ هل يقصد الاستقلال التام والكافي عن الفاعل الخارجي ؟ هذه مشكلة لم يستطع العلماء ولا الفلاسفة حلها ، وخير من حاول حل الإشكال

هو الفيلسوف ابن رشد في كتابه مناهج الأدلة حيث حاول التوفيق بين الآيات التي تدل بظاهرها على التضارب وأثبت العوامل الداخلية والخارجية لإتمام الفعل كأسباب ومسببات[73]. وكثير من العلماء حبذوا هذا التوفيق .

الفصل الثالث : ما يتعلق به المخالف والجواب عليه .

ساق المؤلف في هذا الفصل الآيات التي يستشهد بها الأشاعرة كقوله تعالى (والله خلقكم وما تعملون)[74]. إذ يرى المؤلف أن المراد الأصنام . وقوله تعالى (الله خالق كل شئ)[75]. يرى المؤلف أن هذا عام تخصصه الآيات الأخرى[76]. والقارئ يعرف أن الأشاعرة لم يعدموا الجواب على هذه الأحكام المتسرعة و بإمكان القارئ الرجوع إلى أصولهم ليرى كيف ناقشوا هذا الموضوع بكل جدارة واقتدار رغم أن الأشاعرة لهم هفوات في تفسير خلق أفعال العباد لا تظهر إلا للحذاق من علماء الكلام .

الباب الثامن والعشرون: القول في الاستطاعة.

مذهب المؤلف أن الاستطاعة تتقدم الفعل و أنها غير موجبة له . وهذا مذهب المعتزلة كما يذكر المؤلف ذلك[77]. وقد رد على المجبرة وبعض الخوارج الذين يرون أن الاستطاعة حادثة مع الفعل وموجبة له، وقد ساق عشرة أدلة عقلية يثبت من خلالها صحة مذهبه وهي الأدلة التي يثبتها مذهب الاعتزال[78]. والواقع أن النصوص في القرآن الكريم أثبتت الاستطاعة قبل الفعل ومع الفعل . فمثل الأول قوله تعالى (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا)[79]. وقوله صلى الله علية وسلم (صلّ قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب)[80]. فهذه الاستطاعة ليست مقارنة للفعل . أما الاستطاعة التي تقارن الفعل فتتمثل بقوله تعالى (ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون)[81]. وقوله تعالى (وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا . الذين

كانت أعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعا)[82]. يرى بعض العلماء أن هذه الاستطاعة تقارن الفعل[83].

الباب التاسع والعشرون: القول في تكليف ما لا يطاق.

هذا الباب يعتبر تكملة للباب السابق (الاستطاعة) ومذهب المؤلف في هذا البـلب عدم تكليف ما لا يطاق، لأن تكليف ما لا يطاق قبيح ، والله لا يفعل القبيح[84].

فقد ساق المؤلف أدلة من العقل والسمع يثبت من خلالها صحة وجهــة نظــره ، ويرى أن المجبرة قالت بتكليف ما لا يطاق[85]. هكذا بالعموم تكلم المؤلف عن المجــبرة وهو يقصد مذاهب أهل السنة كالأشعرية وغيرهم . والواقع أن الأشاعرة مختلفــون في هذا اختلافا كثيراً، وقد ذكر الغزالي والجويني وابن الحاجب وكثير من شراح الأشـعرية خلاف الأشعري والرازي ، وقد صرح هؤلاء برد هذا المذهب ونقض شبه من ذهـــب إليه . وعلى هذا الأساس لو لزمهم مذهب من ينسب إليهم للزم المعتزلة و الزيدية كثـير من المذاهب الباطلة[86]. ويلاحظ على المؤلف الأتي :

أنه لم يأتِ بجديد في هذه المسألة فالمساجلات بين المعتزلة الأشاعرة معروفة بينهما ، وأن الأدلة العقلية التي أثبتها المؤلف كقياس على المريض والطفل والكبـــير المقعــد لا تتناسب والنصوص التي جاء بها .

تضمنت النصوص الدينية أمرين مهمين للباحث العلمي .

أحدهما: طلب الإنسان من الله تعالى عدم تكليفه ما لا يطيق وهذا يشعر بوجوده في عالم الكون والفساد .

ثانيهما: أمر الله تعالى للملائكة وللبشر بأن يأتوا بما لا يطيقون ، دليل على وجوده وإن كان قد جاء لغرض التعجيز . وكان المطلوب من المؤلف أن يوفق بين

الرأيين، لكنه لم يستطع لأنه مقيد بمذهب معين ومنهج محدد والباحث كذلك مقيد بمنهجه التعريفي للمخطوط فلا مجال للجدل والمناقشات هنا .

الباب الثلاثون: القول في أنه تعالى لا يعذب من لا ذنب له.

مذهب المؤلف أنه سبحانه تعالى لا يفعل شيئاً من ذلك، وقد ذكر أن هذا خلاف للمجبرة ومن وافقهم من الخوارج[87]. وقد ساق الأدلة العقلية والنقلية ليثبت من خلالها صحة وجهة نظره في أن الله تعالى لا يعذب من لا ذنب له. ومن ضمن استدلاته القول بعدم تعذيب أطفال المشركين ، وأسند للمجبرة أنهم يقولون بتعذيب أطفال المشركين . وكعادته لم يبين من هم المجبرة ولكنه يقصد الأشاعرة ومذاهب أهل السنة ، والباحث هنا يسوق أحسن من حقق في هذه المسألة وأعطاها بعدها وجمع بين الأدلة وخرّج أحاديثها الصحيحة وغير الصحيحة هو الإمام محمد بن إبراهيم الوزير في كتابه العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم ، وكذا ملخص هذا الكتاب المسمى الروض الباسم، يذكر فيه أن المحققين من أهل هذه المذاهب وهم المحققون من أهل السنة لا يقولون بتعذيب الأطفال ، وهم كثيرون وإذا وجد الشاذ منهم فنسبته إلى جميعهم غير صحيحة[88]. والمشهور عند الأشعرية كما نقله الإمام الغزالي في كتابه القسطاس المستقيم أن الله تعالى ينزل الصبيان إذا ماتوا نزلاً من الجنة دون منازل البالغين[89]. ومن هنا يتضح أن حكم المؤلف على المجبرة (يقصد مذاهب أهل السنة أن الله يعذب أطفال المشركين بذنوب آبائهم حكم بدون تروٍّ).

الباب الواحد والثلاثون: القول في الامتحان.

قسم المؤلف هذا الباب إلى أربعة فصول ، ذكر في الفصل الأول أصل الامتحان وبيان معناه ومعنى الممتحن والممتحن. والثاني في تسمية الامتحان . والثالث في موجب

الامتحان. والرابع في امتداح الله تعالى لفعله وأنه أراد لعباده الخير والبقاء[90]. عرف المؤلف الامتحان في اللغة بأنه الاختبار والابتلاء[91]. قال تعالى (إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن). [92] يريد اختبروهن ، ويعبر عنه بالابتلاء كما قال تعالى (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون)[93]. وقد ذكر أن امتحان الله لعباده يأتي على وجهين:

أحدهما : التكليف بالأوامر والنواهي التي ليست عليهم وهو أمر شاق على الطباع.

ثانيهما : الخلقة بان الله تعالى جعل الدنيا دار ابتلاء ومحنة فامتحن عباده بخلقهم بأن ركبهم على طبائع مختلفة متضادة[94]. قال تعالى: {إناخلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا[95]. أما موجب الامتحان فشيئان أحدهما: من فعله تعالى وهو النعمة السابغة وخلقه التخيير والتمكين للإنسان ، وقد استدل المؤلف بأدلة أوردها عن الإمام القاسم. ثانيهما : موجب الامتحان فعل العبد كامتحانه بما أوجب للأولاد والزوجات من إصلاحهم وجلب المنافع لهم ودفع المضار عنهم كما نطقت النصوص الدينية بذلك[96]. وقد ذكر المؤلف كثيراً من الأمثلة التي امتحن الله العبد بفعله في جميع مناحي الحياة أما ما تضمنه الفصل الرابع فقد ذكر المؤلف أن الحديث فيه من وجهين أحدهما: فيما امتدح به تعالى . ثانيهما : أنه أراد لخلقه في الابتداء الخير والبقاء[97]. وقد استدل على الوجه الأول من كتاب الله في ثلاثة أضرب : فمن الأول قوله تعالى (سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى . والذي أخرج المرعى)[98]. ومن الثاني وهو ما انتفى عنه ونفاه عن فعله قوله تعالى (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور)[99]. ومن الثالث : فيما قرر من عبارات وأقسم فيها نحو قوله تعالى (والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البلد الأمين. لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم

رددناه أسفل سافلين)[100]. وقال تعالى في هذا المعنى (لا أقسم بهذا البلد. وأنت حل بهذا البلد. ووالد وما ولد. لقد خلقنا الإنسان في كبد)[101].

الباب الثاني والثلاثون: القول في الأعواض .

مذهب المؤلف في هذا الباب أن الإنسان لن ينال ما عند الله إلا بطاعته أو بالتفضل، لا يتفاضل أهل التكليف عند الله سبحانه إلا على حسب تفاضلهم في الأعمال[102]. لقوله تعالى (ولكل درجات مما عملوا)[103]. وقال تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)[104]. كما أنه لا يخفف عن مسبب العقاب إلا بالعمل بدليل: ما ورد في القرآن الكريم لقوله تعالى (إن الحسنات يذهبن السيئات)[105].

إن كل ما استحقه الإنسان من ثواب أو عقاب لا يكون إلا بالعمل ، وكذلك لا يزول الحكم بالثواب والعقاب إلا بالعمل وحكم البعض حكم الكل في هذا الباب[106].ويرى المؤلف أن قوماً يثبتون غير هذا ، وهم المعتزلة إذا يرون أن الله امتحن عباده بالعاهات وسلب الأرزاق والآلات لا لسبب أوجب ذلك[107]. اختلفوا في ذلك فذهب أبو علي ومن وافقه من البغداديين أنه تعالى يفعل بهم ذلك للعوض لا غير. وذهب عبَّاد إلى أن الألم إنما يحس من الله تعالى للاعتبار لا للعوض ، ثم قال إن العوض لا يكون إلا عن كسب للمعوض وعن صبر يكون منه على الألم ، ويتقرب به إلى الله، وليس للطفل كسب ولا صبر على ما ناله من الألم . وذهب أبو هاشم إلى أنه للعوض والاعتبار جميعا[108]. وقد أطال المؤلف الجدل والحوار حول هذا الموضوع في جميع أفعال العباد والحيوان.

الباب الثالث والثلاثون : القول في أن القرآن كلام الله سبحانه .

لم يأت المؤلف بشيء جديد في هذا الباب فالمسلمون جميعا لن يختلفوا على أن القرآن كلام الله تعالى وأنه من المعجزات، وأن الرسول لا يدين إلا بالحق ولا يخبر إلا بالصدق[109] ولذلك سننتقل إلى الباب الذي يليه وهو محل الخلاف .

الباب الرابع والثلاثون : القول في حدوث القرآن وخلقه .

من خلال هذا العنوان يتضح مذهب المؤلف في حدث القرآن ، ولذلك افتتح الباب بقوله: قد صح أن القرآن كلام الله تعالى فيجب أن يكون محدثا إذ لا قديم سوى الله سبحانه خلافا لما ذهب إليه القائلون بقدمه ، ولا يجوز أن يكون سبحانه متكلما فيما لم يزل لأنه إنما سمي متكلما من حيث فعل الكلام[110]. ثم قال بعد هذا الكلام: والخلاف في مسائل القرآن واسع[111]. وكلامه هذا صحيح فكان الأولى ألا يقول بالجزم في قوله (فيجب أن يكون محدثا ما دام الخلاف واسعا) ولقد أثبت المؤلف حدوث القرآن بالأدلة العقلية والسمعية[112]. كما هو معروف لدى المذاهب الإسلامية من المعتزلة كطرف ، ومن أهل السنة كطرف ثان، والمؤلف لم يأت بجديد وإنما مذهبه ومذهب عموم الزيدية واحد في حدوث القرآن وخلقه . ولقد حاول ابن رشد توضيح هذه المسألة حيث فصل الكلام اللفظي والنفسي وفرق بين كلام الإنسان وكلام الله المرتبط بالوحي والوساطة. ويرى الباحث أن هذا الكلام كاف لمن لديه شبه[113].

الباب الخامس والثلاثون: القول في الفضل.

يتحدث المؤلف عن الباب في فصلين أحدهما : في معنى الفضل وأقسامه وثانيهما: في ما يذهب إليه المؤلف من فضل الشرف والرفعة ثم بدأ يعرف الفضل فقال : الفضل في اللغة الزيادة. مأخوذ من الفضيلة ، فمتى اجتمع شيئان في معنى ثم زاد أحدهما على الثاني قيل هو فاضل، وقيل هو أفضل من الآخر. بمعنى أنه أزيد منه بعضا أو مقداراً أو صفةً في المعنى الذي جعل له[114]. وقد تعرض المؤلف في هذا الباب إلى تقسيم الفضل فجعله أربعة أقسام: فضل ابتداء ، وفضل بفضل ونعمة، وفضل اختلاف وحكمة ، وفضل ابتلاء ومحنة[115].

الباب السادس والثلاثون: القول في النبوة.

تحدث المؤلف عن هذا الباب في أربعة فصول :

الأول : أنه لا بد لله تعالى من رسول .

الثاني : في بيان نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

الثالث : في النبوة ما هي .

الرابع : في ذكر طرق من معجزاته صلى الله عليه وسلم[116].ثم بدأ المؤلف في سياق الكلام في ضرورة إرسال الرسل إلى الخلق يعلمونهم كيف يستصلحون أمور دينهم ودنياهم . وأن صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم توجب علينا اعتقاد نبوة من أخبرنا به خلافا لليهود والنصارى . ثم أثبت الأدلة على صحة ذلك وجعل المعجزة تصديقا بمن ظهرت على يديه وهو يدعي النبوة أو عقب ادعائه النبوة[117]. أما فيما يتعلق بالنبوة من حيث هي فيرى المؤلف أن النبوة هي علو النبي وارتفاعه على الخلق في أعلى درج المتقين التي يستحق بها ذلك المقام[118]. ثم أثبت المؤلف جملة من معجزاته صلى الله عليه وسلم في الفصل الرابع وذكر أن القرآن الكريم أول معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم التي تحدى بها العرب وفصحاءهم في جميع أساليب الكلام[119].

الباب السابع والثلاثون: القول في الإمامة.

اهتم المؤلف في الحديث عن-الإمامة كثيرا ولذلك أعطاها مساحة كبيرة من المخطوط ويعتبر باب الإمامة أكبر باب في المخطوط وقد قسم المؤلف الكلام في هذا الباب إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : في إمامه الإمام على رضي الله عنه .

الفصل الثاني : في إمامه ولديه الحسن والحسين رضي الله عنهما .

الفصل الثالث : في حصر الإمامة في أولادهما وما يتعلق بذلك[120]. وقد قسم الفصل الأول إلى ثلاثة أضرب الأول : أن علياً رضي الله عنه أفضل الناس بعد الرسو ل صلى الله عليه وسلم . الضرب الثاني : أنه الإمام بعد النبي صلى الله عليه وسلم بلا فصل. الضرب الثالث: في بيان ما يتعلق به المخالف من الشبه في إمامة أبي بكر رضي الله عنه وبيان سؤالهم في ما يذهب إليه من النص على أمير المؤمنين رضي الله عنه[121]. ثم ساق الأدلة العقلية النقلية على ذلك وهي الأدلة التي يسوقها المذهب الزيدي في جميع مصادره ومراجعه في أولوية الإمامة لعلي رضي الله عنه فقد أخذ المؤلف مذهب الزيدية الذي يرى أن تقديم أبي بكر وعمر وعثمان على علي خطأ وكذلك إثبات أن الحسن والحسين أفضل الناس بعد أبيهما . وأن الإمامة منقولة من النبي مباشرة إلى علي بدون فصل[122]. ولقد استدل على ذلك بالكتاب والسنة والإجماع وتعرض لأدلة أهل السنة الذين يرون خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي حسب هذا الترتيب ويفندها كما هو الحال عند مناقشة الإمامة في كل هذه المذاهب[123]. و لم يأت المؤلف بجديد ثم بعد ذلك تحدث عن إمامه الحسن والحسين وساق ستة أدلة ليثبت إمامتهما وحصر الإمامة فيهما وفي أولادهما وساق خمسة أضرب على ذلك أحدها : قول النبي صلى الله عليه وسلم "الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا وأبوهما خير منهما"[124]. والكلام كثير في هذا الموضوع ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى المخطوط . والذي يهمنا من هذا الباب

إثبات أن عقائد المطرفية فيما يتعلق بالإمامة لا تختلف عن المخترعة فالأدلة تكاد تكون واحدة والغاية واحدة وهذا هو المطلوب.

الباب الثامن والثلاثون: القول في أنه تعالى صادق.

يثبت المؤلف بالأدلة أنه تعالى صادق . وهذا في الواقع تحصيل حاصل ، لأن جميع الناس في المذاهب الدينية لا يختلفون من أن الله صادق وإلا لما صح أن تقبل النبوة والرسالة لجميع الأنبياء ولذلك فالباحث أيضاً يستغرب على المؤلف الذي ساق في بداية هذا الباب كلاماً يظهر منه تشويه مذهب الأشعرية حيث يقول (إنه تعالى صادق في أخباره كلها، لا يجوز منه الكذب في شيء منها ، خلافاً لما ذهب إليه العطوي من أصحاب الأشعري ، فإنه كان يجيز ذلك عليه تعالى وخالفه في ذلك جميع أهل الملة[125]. وهذا كلام جد خطير جعل الباحث يرجع إلى أصول الإمام الأشعري وغيره من المصادر الخاصة للمعتزلة والأشاعرة ومذهب السلف و لم يجد أن العطوي من أصحاب الإمام الأشعري كان يجيز الكذب على الله تعالى . ثم إن هذا الباب هو الوحيد الذي انفرد به المؤلف دون علماء الكلام ، لأن علماء الكلام يضعون باباً خاصاً في صدق النبوة والرسالة وليس هناك من وضع باباً أو فصلاً في مؤلفه يذكر فيه أن الله تعالى صادق لأنه من البديهيات ولذلك لم يستغرق كلام المؤلف في هذا الموضوع أكثر من صفحة ونصف لا غير ، وكان الأولى به عدم ذكره ويتبع سبيل العلماء من قبله حرصاً على عدم فتح الباب لذوي النفوس الضعيفة .

الباب التاسع والثلاثون: القول في الوعد والوعيد.

تحدث المؤلف عن الوعد والوعيد فعرّف الوعد، بأنه الإخبار من الله تعالى عن إيصال النفع وهو الثواب إلى أوليائه في مستقبل الزمان وعرف الوعيد بأنه الإخبار من الله تعالى عن إيصال الضرر المستحق إلى أعدائه.

فإذا أخبر تعالى عن شئ من ذلك فلا مرية في خبره ولا شك وهذا هو المعروف عند أهل اللغة[126]. ثم تكلم المؤلف قائلاً: إن من وعده الله تعالى بالجنة من عباده المتقين فإنه إذا مات على ذلك صار إليها وخُلّد لامحالة فيها خلوداً دائماً وهذا مما لا خلاف فيه بين أهل الملة جميعا. ثم ذكر أن جهم بن صفوان وإسماعيل البطحي يقولان بانقطاع نعيم أهل الجنة وكلامهما هذا ساقط بالإجماع[127]. وقد أشار المؤلف إلى أن الوعد والوعيد بينهما تلازم إذا حدث إخلاف الوعيد فهو إخلاف للوعد[128]. مستدلاً بقوله تعالى (إنا لننصر رسلنا والذين أمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد)[129].

الباب الأربعون: القول في عذاب القبر ومنكر ونكير والميزان والصراط والكتب المنشورة يوم القيامة.

مذهب المؤلف إنكار عذاب القبر ، بدليل أن الإنسان بعد موته لا يمكن أن يحيا إلى يوم القيامة[130]. وقد استدل بقوله تعالى (ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين)[131]. كما استدل بقوله تعالى (يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا. هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون)[132]. إذ كيف يكون المعذب راقداً وهو ما لا يقضي به العقل . وقد انفرد المؤلف بهذا حيث يثبت القاضي عبد الجبار المعتزلي في كتابه شرح الأصول الخمسة عذاب القبر ويشير أنه لا خلاف فيه بين الأمة إلا ما حكي عن ضرار بن عمرو[133]. فلربما يكون المؤلف قد نحى منحى ضرار ابن عمرو. وقد ذكر قاضي القضاة أن ابن الراوندي كان يشنع على المعتزلة بأنهم ينكرون عذاب القبر ولا يقرون به وهذا غير صحيح[134]. وقد ساق الأدلة من القرآن والسنة على ثبوت عذاب القبر . أما منكر ونكير، فإن المؤلف يرى أن منكرا هو فعل العبد المنكر ، ونكير هو إنكار الله تعالى وذلك غير مستحيل . وقال أبو الهذيل العلاف وبشر ابن المعتمر يجوز أن يكونا ملاكين يأتيان العبد بعد موته وهو في قبره فيخبرانه بالجنة إن كان من أهلها ، وبالنار إن كان مستحقا لها[135]. أما الصراط فهو دين الحق في الدنيا وطريق الجنة في الآخرة[136]. قال

تعالى (اهدنا الصراط المستقيم)[137]. أما الميزان فهو عبارة عن العدل وليس هناك ميزانٌ بكفتين ، هذا مذهب المؤلف. وأجاز أبو الهذيل العلاف وبشر ابن المعتمر أن ينصب الله جل ذكره يوم القيامة ميزاناً ويجعل رجحانه علامة لمن يدخل الجنة ، وخفته علامة لمن يدخل النار . ويرد المؤلف على هذا بأنه لا معنى له لأن الملائكة يتولون ذلك عن أمر الله ، وجميع آيات الإحباط تدل على بطلان القول بالموازنة[138]. وقد ذكر المؤلف أن الكتب ، هي عبارة عن إحصاء الأعمال ولا حد لها، وذكر اليمين والشمال عبارة عن اليمن والشؤم[139].

الباب الواحد والأربعون: القول في الشفاعة.

لم يُعِّرف المؤلف الشفاعة كعادته في أكثر الأبواب، ينتقل إلى الإثبات والإبطال والاستدلال دون أن يتعرض لتعريف الموضوع الذي هو في صدد شرحه وهذا خطأ منهجي لأن الباحث يستنتج من تعريف الموضوع أشياء كثيرة يستفيد منها في مناقشة ذلك الموضوع نفسه . فالشفاعة لغة مشتقة من الشفع الذي هو نقيض الوتر وهذا اختصاراً أما تعريف الشفاعة في العرف فهو السؤال المتعلق لتحصيل منفعة أو دفع مضرة من جهة قادرة على ذلك[140]. يرى المؤلف أن الشفاعة لا تكون لمن يستحق النار بل تكون للمؤمنين التائبين[141]. وهذا هو مذهب المعتزلة والزيدية على العموم ، والدليل على هذا قوله تعالى (ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع)[142].ووجه الاستدلال بهذه الآية أن الظالم لا شفيع له يوم القيامة ، ومرتكب الكبيرة ظالم والفاسق ظالم بالإجماع ، والرسول لا شك في قبول شفاعته لغير هؤلاء[143]. لكن الأشاعرة يرون أن المراد بالظلم الكافر والمشرك الذين لا طاعة معهما، بدليل قوله تعالى (إن الشرك لظلم عظيم)[144].

وقد أثبت الأشاعرة أدلة أخرى منها أن قول الله تعالى [ما للظالمين من حميم شفيع يطاع] نقيض لقولنا للظالمين حميم وشفيع، وهذه الأخيرة موجبة كلية ، ونقيض الموجبة الكلية السالبة الجزئية ، والسالبة يكفي في صدقها تحقيق ذلك السلب في بعض الصور،

ولا يحتاج تحقق السلب في جميع الصور ، فثبت أنه ليس لبعض الظالمين حميم ولا شفيع وهم الكفار ، وبهذا ينتفي حمل السلب على كل واحد منهم[145]. والمؤلف قد ساق أدلة تناقض هذه الأدلة تتعلق بدخول حرف النفي على النكرة لأن حرف النفي إذا دخل على النكرة نفى جميع ما يقع عليه ، بدليل صحة الاستثناء. كذلك فإن اسم الظالمين جمع عُرِّف بالألف واللام ، وهذا يقتضي الاستغراق لأنه تعريف للجنس ، ولا يجوز أن يكون تعريف العهد لأنه لا معهود هناك[146]. وهكذا كل طائفة تستدل بالنصوص وتفسيراتها لتقوية أرائها.

الباب الثاني والأربعون: القول في المنزلة بين المنزلتين.

هذا باب من أبواب الأصول الخمسة التي اشتهر بها مذهب الاعتزال ، والذي يظهر أن المؤلف في ذكره هذا الباب ، زيدي معتزلي في العقائد دون الإمامة . وأكثر علماء الزيدية يتحاشون هذه التسمية ويدرسون هذا الموضوع تحت تسمية الأسماء الشرعية والأحكام كما فعل الإمام أحمد ابن يحي المرتضى[147]. ويقصد المؤلف بيان ما يستحقه المرتكبون للكبائر من أهل الإسلام ، من الأسماء والأحكام . وقد قسم التكليف إلى ضربين:

أحدهما : من يستحق الثواب ، وهذا صنفان، من يستحق ثواباً عظيماً، وهم الأنبياء، وصنف يستحق ثوابا دون ذلك حسب تفاوتهم في الأعمال وهو من سوى الأنبياء . ثانيهما من يستحق العقاب وهو صنفان ، من يستحق عذاباً عظيما وهم الكفار ، وصنف يستحق عذاباً دون ذلك وهم الفساق . ثم يقول : فكما ميز الله سبحانه في الآخرة بين أهل الجنة والنار، ميز سبحانه بينهم بالأسماء والأحكام في هذه الدار. ثم قال: ومذهبنا أنهم يسمون فساقا ولا يسمون كفاراً كما يقول الخوارج ، ولا يسمون مؤمنين على الإطلاق كما يذهب إليه المرجئة ولا يحكم لهم ولا

عليهم بشيء من أحكام الكفار ولا يحكم لهم بكل أحكام المؤمنين[148]. فهم في منزلة بين المنزلتين . وهذه مسألة خلافية أوردها المؤلف للرد على الخوارج الذين يسمون مرتكب الجريمة كافراً وكذا الرد على المرجئة الذين يسمون مرتكب الكبيرة مؤمن وأيد فكرة تسميته فاسقاً[149].

الباب الثالث والأربعون: القول في الولاء والبراء والهجرة.

يرى المؤلف أن الولاء والبراء واجبان فيما ظهر من الأفعال دون ما بطن ، كما يجب أن يكون على حسب الرتب والمنازل في الأفعال والكلام وقد قسم المؤلف هذا الباب إلى أربعة مواضع :

الأول : في معنى الولاء والبراء والدليل على وجوبهما .

الثاني : في الدلالة على أن ذلك مختص بما ظهر من الأفعال والكلام دون ما بطن .

الثالث : أنه يجب على قدر المنازل .

الرابع : الدليل على وجوب الهجرة[150]. أما معنى الولاء والبراء فإن الولاء : هو المحبة والمتابعة والاتصال بأولياء الله على حسب الإمكان . والبراء : هو المجانبة والانقطاع عن أعداء الله سبحانه[151]. والذي يدل على وجوبهما العقل والكتاب والسنة : أما العقل فإن العقول تستحسن شكر المنعم وتستقبح كفره وتستحسن مدح من شكره والذم لمن كفر نعمته[152]. ودليل وجوبها من الكتاب قوله تعالى (يا أيها الذين أمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة)[153]. ومن السنة : قوله صلى الله عليه وسلم: (أوثق عرى الإيمان الولاء والبراء)[154]. الموضوع الثاني الدلالة على ما ظهر من الأفعال دون ما بطن من العقل والكتاب والسنة .

والتصغير والذم والنهي واللعن والبراءة منه وحبط أعماله شهد الله وطرح عدالته لأن الله سبحانه
يقول واشهدوا ذوي عدل منكم وكذلك الحكم عليه بالخروج من ولاية الله تعالى إلى عداوته
فقد فارق المؤمن في هذه الأحكام وفارق الكافر في الأحكام التي قدمنا ذكرها فلذلك كانوا
أهل منزلة بين المنزلتين وقد قال تعالى وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان فجعل ذلك
ثلث درجات على ما نقوله والمراد بالعصيان الصغائر وأيضاً فإنه يجوز لعن الفاسق
وليس كذلك المؤمن فإن قيل فهلا قلتم إنه منافق قلنا المنافق كافر ولكنه اسم لمن
بطن الكفر وأظهر الإسلام والأمة مجمعة على تسمية مرتكب الكبيرة فاسقاً لأن الخوارج
تقول كافر فاسق والمرجئة تقول مؤمن فاسق وأصحاب الحسن يقولون منافق فاسق ونحن
نقول فاسق فما نقوله إجماع وما يقولون مختلف فيه ولم يقم دليل على صحة هذه الأقوال
فوجب طرحها وهذا هو الذي أورده واصل بن عطاء على عمرو بن عبيد عند مناظرته وقد
قال الصاحب الجليل كافي الكفاة في ذلك

وقاتل النفس لدينا فاسق ... لا مؤمن حقاً ولا منافق
والكل في تفسيقه موافق ... قول إجماع وحكم حاذق

وهذا حسب ما يحتمله هذا الموضع من الكلام

باب القول في الولاء والبراء والهجرة

الولاء والبراء واجبان وذلك على ما ظهر من الأفعال دون ما بطن ويجب أن يكون على
حسب الرتب والمنازل في الأفعال والكلام في هذا الباب يقع في أربعة وجوه الأول
في معنى الولاء والبراء الدليل على وجوبهما والثاني في الدلالة على أن ذلك على ما ظهر
دون ما بطن والثالث أنه على قدر المنازل والرابع في الدليل على وجوب الهجرة
أما الوجه الأول فالولاء هو المحبة والمتابعة والإيصال بأولياء الله على حسب الإمكان

ورقة رقم 234 ب من المخطوطة

فمن العقل: أن الولاء والبراء إنما يجبان على الأفعال دونما سواها ، ولا طريق إلى العلم بالأفعال إلا مشاهدة الفاعلين للطاعة أو المعصية أو الجبر من الله عز وجل أو الأخبار المتواترة أو شهادة يجب بها الحكم ، وأفعال القلوب لا سبيل لنا إلى العلم بها إلا بالجبر من الله عز وجل وذلك مفقود ، ولو علمناها لحكمنا على فاعلها[155].

ومن الكتاب قوله تعالى (أنؤمن لك واتبعك الأرذلون). فقال لهم نبيهم (وما علمي بما كانوا يعملون. إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون. وما أنا بطارد المؤمنين)[156]. فسماهم مؤمنين لما ظهر له من حالهم وأخبر أنه لا يعلم باطنهم . وقال تعالى (أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا [157].

ومن السنة، قصة أسامة بن زيد مع راعي الغنم حيث شهد أمامه أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله فقتله أسامة، فلما سأله الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك قال: قالها بلسانه دون قلبه . قال له الرسول صلى الله علية وسلم : وهل اطلعت على سويداء قلبه ... الحديث[158].

الموضع الثالث:الموالاة على قدر المنازل في الأفعال،كموالاة الأنبياء والأئمة العلماء بالتعظيم لهم والمحبة والإقتداء بهم والطاعة.وقد استدل المؤلف بقوله تعالى(ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وءاتينا داود زبورا) [159].

الباب الرابع والأربعون : القول في الأمر بالمعروف النهي عن المنكر.

ناقش المؤلف هذا من خلال ثلاثة أضرب على النحو الأتي :

في تسمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدليل على وجوبهما .

في شرائطهما .

في الدليل على أنهما من فروض الكفاية .

أما الضرب الأول : فقد تحدث المصنف فيه عن تقسيم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال إنه على ضربين مفروض ، ومندوب . والأمر بالمفروض فرض ، والأمر بالندب ندب . والنهي على ضربين ، نهي عن محظور وذلك فرض ، ونهي عن مكروه وهو مستحب وينقسم إلى قسمين خاص ، وعام . فالخاص ما يجب على الأئمة كإقامة الحدود والجمع وسماع بعض الشهادات ، وتنفيذ بعض الأحكام ، وغزو العدو على بعض الوجوه إلى ديارهم ، وغير ذلك مما لا يجوز فعله لغير الأئمة أو من يكون متوليا من جهتهم . والعام : ما سوى ذلك ويجب على جميع المسلمين عند كمال الشروط[160]. والدليل على وجوبهما قوله سبحانه وتعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)[161]. وتحدث في الضرب الثاني عن شرائطهما وهي أن المأمور به فرض يجب الأمر به أو ندب يستحب أن يؤمر به ، وأن المنهي عنه كبيرة يجب النهي عنها ، أو مكروه يستحب النهي عنه . أما الضرب الثالث : فالحديث عنهما من حيث إنهما فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، فالذي يدل على ذلك أن الفرض إزالة المنكر فإذا زال بواحد سقط عن الآخر والدليل قوله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) فقال منكم ومن للتبعيض ها هنا وذلك يقتضي وجوبه على بعض من غير تعيين إذا قام به البعض سقط عن الأخر[162].

الباب الخامس والأربعون: القول في التوبة .

افتتح المؤلف هذا الباب بقوله (التوبة واجبة على جميع المسلمين) ، وهي مقبولة عند رب العالمين ، ما لم يعاين العبد الملائكة عليهم السلام، أو يزول عقله أو تقوم القيامة[163]. ولها شروط لا تصح ولا تقبل إلا بأدائها. وقد قسم المؤلف هذا الباب إلى ثلاثة فصول:

الأول : في حد التوبة ، والدليل على وجوبها .

قال تعالى ولتكن منكم امة تدعون الى الخير ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر فقال
منكم ومن للتبعيض هاهنا وذلك يقتضي وجوبه على البعض دون البعض اذا قام به البعض سقط
عن الباقين وان اخل به الكل كانوا بالاخلال به ماخوذين الا ترى ان سيدنا الوارث عليه
فقال ليحفظ جماعة منكم هذا المتاع فحفظه بعضهم لكانوا قد فعلوا ما امرهم به
سيدهم ومتى اخل به الجميع توجه الذم والعقوبة اليهم كلهم وهذه القضية حاصلة
فيما نحن فيه وعلمنا انهما من فروض الكفايات لان الفروض ضربان فرض عين كالمعرفة
بالله سبحانه وغيرها من العمليات والصلوة ونحوها من السمعيات وهذا لا يسقط
عن المكلف مع الامكان وفرض كفاية يسقط اذا قام به البعض كبث العلم للراغبين
وتعريفهم معالم الدين والجهاد في سبيل رب العالمين اذا البعض يقوم بجهاد الظالمين
والصلاة على الجنائز ودفن الموتى ونحو ذلك

باب القول في التوبة وبه يختم الكتاب

التوبة واجبة على جميع المسلمين وهي مقبولة عند رب العالمين ما لم يعاين
العبد الملائكة عليهم السلام او ساق نفسه من لقاء الله تعالى او يغرغر بنفسه
ويزول عقله او يغلب عليه القيامة ولها شروط لا تصح ولا تقبل الا بادائها على حسب
الامكان والكلام في هذا الباب يقع في ثلاثة فصول الاول في حد التوبة والكلام
والدليل على وجوبها والثاني في انها التي تقبل فيه والثالث في بيان شرائطها
وما يتصل بذلك اما الفصل الاول فحد التوبة هو الندم على الذنب والعزم على
الا يعود الى مثله في القبح مع فعل الواجب على حسب الامكان قال النبي صلى الله
عليه السلام توبة وانما شرطنا العزم على ان لا يعود الامثله في القبح لان من ندم
على ذنب فعله وهو عازم على فعل مثله فليس بنادم وقلنا الى مثله في القبح

ورقة رقم 240 ب من المخطوطة

الثاني : في وقتها التي تقبل فيه .

الثالث : في شرائطها وما يتصل بذلك .

أما الفصل الأول فقد اشتمل على تعريف التوبة بأنها الندم على الذنب والعزم على ألا يعود إلى مثله في القبح مع فعل الواجب على حسب الإمكان . وقد ورد حديث النبي صلى الله عليه وسلم (الندم توبة)[164]. وقد ذكر المؤلف اختلاف العلماء في قبول التوبة، فقال قوم التوبة مقبولة عن جميع الذنوب . وقال آخرون التوبة مقبولة إلا عن قتل المؤمن، وقد رد المؤلف على هذا بأنه باطل بدليل قوله تعالى (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا)[165]. وأما في وقتها ، فالتوبة مقبولة في كل وقت عدا بعض مواضع منها :

عند معاينة الملائكة عليهم السلام لقوله تعالى (ويوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا)[166].

زوال العقل : لأن التوبة لا تصح إلا من العاقل المكلف لقيام الأدلة على سقوط التعبد عن المجنون .

أن تقوم القيامة بدلالة الآية والخبر كقوله تعالى (أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل)[167].

وأما ما تضمنه الفصل الثالث في شرائط التوبة فهي أربعة شرائط:

الندم على ما سلف من الذنوب ، وعلى ما فرط في أيامه ، ومنع نفسه من العودة إلى ما منه تاب .

التخلص من المظالم على موجب الشريعة النبوية . وهي نوعان مظالم الأموال ومظالم الأبدان ، ومظالم الأقوال ، ومظالم الأفعال ، ومن الظلم ترك تعظيم من يجب تعظيمه كالوالدين ومن يجري مجراهما في وجوب تعظيم حرمته .

قهر نفسه وحملها على خلاف معهود عادتها التي كان يعتادها والحرص والاجتهاد في ما يستقبله من أعماله.

أن يقصد بأعماله وجه الله تعالى والاستقامة[168]. وعليه قوله تعالى (ألا لله الدين الخالص)[169]. وقال تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا)[170]. وذلك يقتضي الإخلاص.

خاتمة البحث

سبق للباحث أن أشار في القسم الأول من هذه الدراسة أن التعريف بالمخطوط سيتناول جانبين : أحدهما خاص بالدراسة ، والثاني خاص بالعقائد ، وقد تم نشر القسم الأول الخاص بالدراسة في مجلة الإكليل وهي مجلة محكمة رغب الباحث أن ينوه بهذا حتى يتمكن القارئ من اقتناء القسمين معاً حتى تكتمل صورة التعريف بالمخطوط ولا يخفى أن الباحث قد عكف على قراءة هذا المخطوط أكثر من ثلاث سنوات يحلل بعض العبارات المستعصية التي اشتمل عليها المخطوط في جميع أبوابه، فنظراً لكبر حجمه الذي اشتمل على أربعمائة واثنين وثمانين صفحة وكلماته غير منقوطة وغير مشكولة مما جعل الباحث يواجه صعوبة شديدة في القراءة نظراً إلى أن كتابة المخطوط لا تنطبق عليه قواعد الإملاء المعروفة في زماننا هذا، لذلك كان الباحث يرجع إلى مخطوطات عدة لاكتشاف بعض الأمور التي لم يستطع فهمها من المخطوط مباشرة والذي يلاحظ على هذا المخطوط المتضمن لعقائد المطرفية الأمور الآتية :

أولاً : المنهجية

افتتح المؤلف كتابه هذا بمقدمة جيدة شرح فيها بعض المصطلحات التي تعود عليها علماؤنا القدامى حيث يذكرونها في مقدمة مؤلفاتهم ، فقد ذكر الواجب وأقسامه والتكليف والمكلف ثم في بيان أقسام المعارف ثم في النظر ووجوبه .

تميز المؤلف في وضع تقسيمات للموضوعات داخل الأبواب إلى فصول ثم إلى أوجه أو أضرب وهو تقسيم قديم درج عليه العلماء لتسهيل فهم الموضوع .

يؤخذ على المؤلف أن التقارب بين أحجام الفصول غير منسجمة إذ قد نجد باباً يتكون من صفحتين أو ثلاث بينما نجد باباً يتكون من خمسين صفحة كما حدث في باب القول في أنه تعالى صادق لم يزد هذا الباب على صفحة ونصف الصفحة بينما الباب الذي قبله اشتمل على أربعة وأربعين صفحة في الإمامة وقس على هذا أبواباً كثيرة .

يؤخذ على المؤلف أنه يستعمل العموميات في مناقشة أصحاب المذاهب مما يجعل الباحث يميل كثيراً إلى الظنون فيضطر إلى البحث في أصول المذاهب الأخرى كقوله مثلاً (مذهبنا في المسألة كذا خلافاً للمجبرة أو يقول خلافاً للخوارج كما يقول أيضاً خلافاً للمعتزلة) والباحث يعلم أن الخوارج والمجبرة والمعتزلة فرق شتى مما يجعلنا نضطر في حال النقد أن نحدد ماذا يريد المؤلف من المجبرة حيث يقصد بذلك الأشاعرة والرد عليهم وكذا الخوارج والمعتزلة بقدر الإمكان .

ثانيا : تأسيس المذهب

من مميزات تأسيس مذهب المطرفية عند العلامة سليمان المحلي أنه اعتمد على الإمام الهادي إلى الحق يحي ابن الحسين خصوصا وعلى مذهب آل البيت عموما وكأنه يتحدى المخترعة أن مذهبه هو مذهب الإمام الهادي الممثل الحقيقي لمذهب الزيدية، علما أنه لم يذكر اسم المخترعة في هذا المخطوط إطلاقا بخلاف علماء المخترعة فإنهم يتعرضون للمطرفية في أغلب مسائل علم الكلام ثم لم نجد أحدا من علماء الزيدية تعرض لهذا المخطوط وأنكر أنه ليس للمطرفية مما يؤيد أن ما احتواه يمثل اتجاه المطرفية وهو اتجاه عام للزيدية .

كل المسائل التي طرحها سليمان المحلي في هذا المخطوط وأثبتها بالأدلة العقلية والنقلية واعتمد على أكابر علماء الزيدية في أصولهم ، يعتبر نصراً كبيراً للمطرفية ورداً على من أثبت كفرهم وفسقهم ، بل يعتبرون من المتعصبين للمذهب الهادوي في جميع مسائلهم ، حتى مسألة الإحالة والاستحالة التي كفروا من أجلها وفسقوا ، أثبتوا أدلتها عن الإمام الهادي وعن مذهب آل البيت .

ومما يميز تأسيس مذهب العلامة سليمان المحلي وهو الممثل لفرقة المطرفية أنه اعتمد كثيراً على شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار المعتزلي وكذلك المحيط بالتكليف ، غير أنه في بعض المسائل يعترض على المعتزلة ويرد عليهم آخذاً بالاعتبار أن المسائل التي تتفق ومذهبه يأخذ بها ، وما وجده من المسائل معارضاً لمذهبه ردها ونقدها . وهذا مجال لإثبات شخصيته المستقلة وليس تابعة في كل شئ .

وأختم هذا بدعوة إلى الباحثين مرة أخرى بأن يقرءوا ويطلعوا على هذا التراث وينقلوه إلى العالم بأمانة حتى يستفاد منه فهو ثروة جديدة يتطلع العالم لمعرفته ولن يخرجه كما هو بتأمل ودقة ومراجعة إلا أهله والله المستعان .

الهوامش

(1) سليمان المحلي : البرهان الرايق المخلص من ورط المضايق مخطوط وهو(موضوع البحث)ورقة28 ب .

(2) نفس المصدر ورقة 32 ب .

(3) نفس المصدر ورقة 32 أ،ب .

(4) نفس المصدر ورقة 36 أ ، ب .

(5) نفس المصدر ورقة 36 – 40 ، أ ، ب .

(6) نفس المصدر ورقة 40 أ .

(7) نفس المصدر والورقة .

(8) المؤلف هنا يناقض نفسه فهو يثبت الأجسام وحدوثها ثم يثبت لها استحالة العدم وهـذا ميـل إلى مذهـب الطبائعين الذين يثبتون قدم العالم مع أنه يثبت حدوث الأجسام ويثبت أن الله محدثها .

(9) نفس المصدر ورقة 41 أ .

(10) صورة الشورى آية 11 .

(11) نفس المصدر ورقة 45 أ وما بعدها .

(12) نفس المصدر ورقة 47 ب .

(13) نفس المصدر والورقة .

(14) نفس المصدر ورقة 48 ب وما بعدها .

(15) نفس المصدر ورقة 57 أ ، ب .

(16) نفس المصدر ورقة 63 وما بعدها .

(17) نفس المصدر ورقة 64 ب ، 65 أ .

(18) نفس المصدر ورقة 76 ب .

(19) نفس المصدر ورقة 78 أ .

(20) نفس المصدر ورقة 83 أ .

(21) نفس المصدر ورقة 86 أ .

(22) نفس المصدر والورقة .

(23) نفس المصدر ورقة 87 ب .

(24) سليمان المحلي البرهان الرايق ورقة 87 ب .

(25) ابن المرتضى (أحمد بن يحي) دامغ الأوهام في شرح رياضة الإفهام في لطيف الكلام مخطوط رقم 331 مكتبـة الجامع الكبير صنعاء ورقة 36 أ ، ب .

(26) سليمان المحلي، البرهان الرايق ورقة 87ب.

(27) نفس المصدر ورقة 89 ب .

(28) نفس المصدر ورقة 89 أ .

(29) نفس المصدر ورقة 95 ب .

(30) نفس المصدر والورقة .

(31) الزمخشري،الكشاف دار الريان بالتراث ط3،1987م دار الكتاب العربي بيروت لبنان الجزء الثالث صفحة 571 .

(32) سليمان المحلي : البرهان الرايق ورقة 96 أ .

(33) نفس المصدر ورقة 96 ب .

(34) نفس المصدر ورقة 98 أ .

(35) ابن المرتضى (أحمد بن يحي) دامغ الأوهام ورقة 36 ب مصدر سابق .

(36) نفس المصدر والورقة .

(37) نفس المصدر ورقة 36 ، 38 .

(38) سليمان المحلي ، البرهان الرايق ورقة 102 أ .

(39) ابن المرتضى الدامغ ورقة 36 أ .

(40) سليمان المحلي البرهان الرايق ورقة 105 أ .

(41) سورة الأنعام آية 141 .

(42) سورة الأنعام آية 99 .

(43) سليمان المحلي البرهان الرايق ورقة 105 ب .

(44) نفس المصدر ورقة 106 أ .

(45) نفس المصدر ورقة 107 أ ، ب .

(46) نفس المصدر ورقة 111 أ .

(47) سورة الذاريات آية 56 .

(48) سورة المؤمنون آية 115 .

(49) الإمام البخاري الصحيح بحاشية السندي طبعة الباب الحلبي مصر الجزء الأول صفحة 327 .

(50) سورة البقرة آية 43 .

(51) جاء لفظ الحديث في صحيح مسلم (لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ، ثم يغتسل منه) طبعة الباب الحلبي مصر الجزء الأول صفحة 133 . وقد ذكر هذا الحديث الإمام الشوكاني في نيل الأوطار وأضاف على نفس اللفظ السابق ذكره (ثم يتوضأ منه) ثم قال الشوكاني : هذا لفظ الترمذي. فمعناه تفرد به الجزء الأول صفحة 59.

(52) سليمان المحلي البرهان الرايق ورقة 111 ب .

(53) سليمان المحلي ورقة 113 ب .

(54) سورة التين، آية 4.

(55) سليمان المحلي، البرهان الرايق، ورقة 114أ.

(56) نفس المصدر ورقة 114 ب .

(57) نفس المصدر والورقة .

(58) نفس المصدر ورقة 115 أ .

(59) نفس المصدر الورقة .

(60) نفس المصدر ورقة 115 ب .

(61) سورة فصلت آية 12 .

(62) سورة الإسراء آية 23 .

(63) سورة الحجرات آية 66 .

(64) سورة الفرقان آية 2 .

(65) سورة النمل آية 57 . .

(66) سليمان المحلي البرهان الرايق ورقة 130 ب .

(67) محمد السيد الجليند (دكتور) قضية الخير والشر في الفكر الإسلامي طبعة الحلبي مصر ط2 1981م صفحة 55 وما بعدها .

(68) سليمان المحلي البرهان الرايق ورقة 131 أ .

(69) نفس المصدر والورقة .

(70) ابن القيم الجوزية : شفاء العليل دار المعرفة بيروت لبنان صفحة 183 .

(71) سليمان المحلي البرهان الرايق ورقة 136 ب .

(72) نفس المصدر ورقة 137 أ .

(73) ابن رشد (الفيلسوف) مناهج الأدلة ، تحقيق محمود قاسم (دكتور) الطبعة الثالثة مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة صفحة 224 ما بعدها .

(74) سورة الصافات آية 96 .

(75) سورة الزمر آية 62 .

(76) سليمان المحلي البرهان الرايق ورقة 142 ب .

(77) نفس المصدر ورقة 145 أ .

(78) نفس المصدر ورقة 146 أ .

(79) سورة آل عمران آية 97 .

(80) الحديث في صحيح البخاري (كتاب التقصير في الصلاة باب إذا لم يستطع الصلاة قاعدا صلى على جنب) الجزء الثاني صفحة 48 .

(81) سورة هود آية 20 .

(82) سورة الكهف آية 101 .

(83) ابن تيميه درء تعارض العقل والنقل ، تحقيق محمد رشاد سالم (دكتور) طبع على نفقة جامعة الأمام محمد بن سعود الإسلامية الطبعة الأولى 1979م الجزء الأول صفحة 60 .

(84) سليمان المحلي البرهان الرايق ورقة 149 أ .

(85) نفس المصدر والورقة .

(86) محمد ابن إبراهيم الوزير : الروض الباسم دار المعرفة بيروت لبنان طبعة (بدون) 1979م الجزء الثاني صفحة 26 .

(87) سليمان المحلي البرهان الرايق ورقة 151 ب .

(88) ابن الوزير الروض الجزء الثاني صفحة 26 مرجع سابق .

(89) نفس المرجع الجزء الثاني 27 .

(90) سليمان المحلي البرهان الرايق 154 ب .

(91) نفس المصدر والورقة .

(92) سورة الممتحنة آية 10 .

(93) سورة الأعراف آية 168 .

(94) سليمان المحلي : البرهان الرايق ورقة 157 ب .

(95) سورة الإنسان آية 2 3.

(96) سليمان المحلي البرهان الرايق ورقة 157 أ .

(97) نفس المصدر ورقة 162 أ .

(98) سورة الأعلى آية 1- 4 .

(99) سورة الملك آية 3 .

(100) سورة التين آية 1- 5 .

(101) سورة البلد من آية 1- 4 .

(102) سليمان المحلي البرهان الرايق ورقة 166 أ .

(103) سورة الأنعام آية 132 .

(104) سورة الحجرات آية 13 .

(105) سورة هود، آية 114.

(106) سليمان المحلي: البرهان الرايق، 166 أ.

(107) نفس المصدر، ورقة 166 ب.

(108) نفس المصدر والورقة .

(109) نفس المصدر ورقة 175 أ .

(110) نفس المصدر ورقة 181 أ .

(111) نفس المصدر والورقة .

(112) نفس المصدر والورقة .

(113) ابن رشد مناهج الأدلة صفحة 163 .

(114) سلميان المحلي البرهان الرايق ورقة 184 أ .

(115) نفس المصدر ورقة 185 أ .

(116) نفس المصدر ورقة 192 أ .

(117) نفس المصدر ورقة 193 ب .

(118) نفس المصدر ورقة 196 أ .

(119) نفس المصدر ورقة 197 أ .

(120) نفس المصدر ورقة 202 .

(121) نفس المصدر والورقة .

(122) نفس المصدر ورقة 204 ب .

(123) نفس المصدر ورقة 211 وما بعدها .

(124) نفس المصدر ورقة 213 ب وما بعدها .

(125) نفس المصدر ورقة 224 أ .

(126) نفس المصدر ورقة 225 أ .

(127) نفس المصدر والورقة .

(128) نفس المصدر ورقة 225 ب .

(129) سورة غافر آية 91 .

(130) سلمان المحلي ورقة 128 ب .

(131) سورة غافر آية 11 .

(132) سورة ياسين آية 52 .

(133) القاضي عبد الجبار المعتزلي شرح الأصول الخمسة تحقيق عبد الكريم عثمان مكتبة وهبه القاهرة ط[1] 1965م صفحة 730 .

(134) نفس المرجع صفحة 731 .

(135) سليمان المحلي : البرهان الرايق ورقة 230 ب .

(136) نفس المصدر والورقة .

(137) سورة الفاتحة آية 6 .

(138) نفس المصدر ورقة 230 ب .

(139) نفس المصدر ورقة 231 أ .

(140) محمد الحاج الكمالي : الأمام المهدي أحمد بن يحي المرتضى وآثره في الفكر الإسلامي سياسيا وعقائديا دار الحكمة اليمانية صنعاء الجمهورية اليمنية ط[1] 1991م صفحة 401 .

(141) سليمان المحلي البرهان الرايق ورقة 231 أ .

(142) سورة غافر آية 18 .

(143) ابن المرتضى أحمد بن يحي الدرر الفرايد في شرح القلائد مخطوط الجزء الثاني ورقة 75 أ .

(144) الإمام أبو بكر الباقلاني تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل تحقيق عماد الدين أحمد حيدر مؤسسة الكتب الثقافية بيروت ط[1] – 1989م صفحة 424 .

(145) الإمام فخر الدين الرازي : الشفاعة العظمى في يوم القيامة . تحقيق أحمد حجازي السقا ط[1] – 1989م المكتبة الأزهرية للتراث صفحة 56 .

(146) نفس المصدر والصفحة، إنظر التمهيد للباقلا في ص424.

(147) سليمان المحلي : البرهان الرايق ورقة 231 أ .

(148) الدرر الفرائد الجزء الثاني 101 ب .

(149) سليمان المحلي البرهان الرايق ورقة 232 ب .

(150) نفس المصدر ورقة 232 ، 233 ب .

(151) نفس المصدر ورقة 234 ب .

(152) نفس المصدر ورقة 235 أ .

(153) نفس المصدر والورقة .

(154) نفس المصدر والورقة .

(155) نفس المصدر ورقة 235 ب .

(156) نفس المصدر والورقة .

(157) سورة الشعراء آية 111-114 .

(158) سورة الكهف آية 74 .

(159) سليمان المحلي : البرهان الرايق ورقة 236 أ .

(160) سورة الإسراء آية 55 .

(161) سليمان المحلي : البرهان الرايق ورقة 238 أ .

(162) سورة آل عمران، آية 104.

(163) نفس المصدر ورقة 240 أ .

(164) نفس المصدر ورقة 240 أ .

(165) نفس المصدر والورقة .

(166) سورة الزمر آية 53 .

(167) سورة الفرقان آية 22 .

(168) سورة الأنعام، آية 158.

(169) سليمان المحلي، ورقة 241 أ،ب.

(170) سورة الزمر آية 3 .

(171) سورة الكهف آية 110 .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

- السنة النبوية

المخطوط نفسه لأن التعريف منحصر به وهو(البرهان الرايق المخلص من ورط المضايق . للعلامة سليمان بن محمد بن أحمد المحلي)

القاضي عبد الجبار المعتزلي، شرح الأصول الخمسة تحقيق عبد الكريم عثمان مكتبة وهبة ط[1] القاهرة 1965م .

المحيط بالتكليف، جمع الحسن بن أحمد بن متويه تحقيق عمر السيد عزمي، مراجعة الدكتور أحمد فؤاد الاهواني. نشر المؤسسة المصرية العامة – القاهرة .

المغني في أبواب التوحيد والعدل . تحقيق مجموعة من العلماء وإشراف الدكتور / طه حسين . طبع ونشر وتوزيع وزارة الثقافة و الإرشاد . المؤسسة المصرية العامة . المجلدات الموجودة لدى الباحث 4، 5 ، 6، 6، 9، 11 ، 12 ، 13 ، 17 ، وبقية المجلدات لم نعثر عليها .

أحمد بن يحي المرتضى، - المنية والأمل في شرح الملل والنحل . مخطوط رقم 45. - درر الفرائد شرح القلائد مخطوط رقم21. - دامغ الأوهام في شرح رياضة الإفهام في لطيف علم الكلام . مخطوط .

محمد بن إبراهيم الوزير ، العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم . تسعة مجلدات، تحيق شعيب الارنؤوط، دار البشير –عمان- الأردن – ط[1] 1985م . الروض الباسم مختصر العواصم والقواصم – جزءان في مجلد – دار المعرفة – بيروت– لبنان- ط 1979. إيثار الحق على الخلق . دار الكتب العلمية – ط 1318هـ - بيروت – لبنان .

الزمخشري ,الكشاف، دار الريان للتراث، ط[3] ,1987م دار الكتاب العربي – بيروت .

الإمام البخاري، الصحيح، حاشية السندي، ط بابي الحلبي –مصر.

الإمام مسلم، الصحيح، تلخيص صحيح الإمام مسلم للإمام القرطبي، تحقيق رفعت موزي وأحمد محمود الخولي .

الإمام الشوكاني، نيل الاوطار، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ومصطفى محمد الهواري مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة، ط 1978م .

محمد السيد الجليند(دكتور)قضية الخير والشر في الفكر الإسلامي، ط[2] ,1981م، مطبعة الحلبي القاهرة.

ابن القيم الجوزية، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، دار المعرفة بيروت .

ابن رشد، الفيلسوف ، مناهج الأدلة، تحقيق محمود قاسم (دكتور) ط[3] مكتبة الانجلو المصرية – القاهرة .

ابن تيميه، درء تعارض العقل والنقل، تحقيق محمد رشاد سالم(دكتور) ط على نفقة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ط[1] ، 1979م.

محمد بن إبراهيم الوزير : الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم مختصر العواصم والقواصم –دار المعرفة – بيروت – لبنان- ط 1979م.

محمد الحاج الكمالي : الإمام المهدي أحمد بن يحي المرتضى وأثره في الفكر الإسلامي سياسيا وعقائديا –دار الحكمة اليمانية –صنعاء- الجمهورية اليمنية –ط[1] ,1991م .

أبو بكر محمد بن الطيب، المعروف بالباقلاني، تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، تحقيق عماد الدين حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية –بيروت- لبنان-ط[1] 1987م .

الإمام فخر الدين الرازي: الشفاعة العظمى في يوم القيامة، تحقيق أحمد حجازي السقا، ط[1] 1989م –المكتبة الأزهرية للتراث القاهرة .

سعيد مراد(دكتور)، آراء ابن متويه الكلامية، رسالة دكتوراه لدى الباحث نسخة منها مخطوطة، إشراف أ.د/فوقية حسين محمود رحمها الله .

الإمام يحي بن الحسين بن القاسم، طبقات الزيدية، صاحب غاية الأماني –مخطوط، ولدى الباحث نسخة منه، رقم 177 (تاريخ) المكتبة الغربية الجامع الكبير – صنعاء.

عبد السلام بن عباس الوجيه، أعلام المؤلفين الزيدية، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية ط1، 1999م، عمان-الأردن .

يحي بن الحسين بن القاسم صاحب غاية الأماني: طبقات الزيدية مخطوط.

الفقر والبيئة في اليمن

د. عبدالملك علي الجبلي(*)

1. المقدمة

إن العلاقة بين الفقر والبيئة علاقة وثيقة ومتبادلة كونها تتكيف بحسب الاستحقاقات البيئية-حزمة الموارد البيئية التي يمكن أن يتحصل عليها الفقراء ويمكنهم التحكم فيها- وعلى الوضع العام لتوافر الموارد. وفي اليمن، كما في غيرها، يكون الفقراء ضحايا للتدهور البيئي، عند وقوعه وفي الوقت نفسه متسببين فيه رغما عنهم. فالفقراء يتمركزون في المناطق الضعيفة والمتدهورة بيئيا ويجبرون (ولا سيما فقراء الريف)

(*) أستاذ المناخ والبيئة المساعد ورئيس قسم الجغرافيا بكلية الآداب، جامعة صنعاء.

على تلبية الحاجات الضرورية الآنية من خلال الاستغلال غير الرشيد للموارد الطبيعية المتاحة لهم مثل استنزاف موارد المياه، والرعي الزائد عن اللزوم في المراعي، وقطع الأشجار، واصطياد الحيوانات النادرة غالية الثمن، والاستخدام الزائد للأراضي الهامشية ضعيفة الإنتاج. ويترتب على ذلك تلاشي واختفاء الموارد، وبالتالي زيادة معدلات الفقر في الريف واضطرار العديد من فقراء الريف للهجرة إلى المدن. وعند انتقالهم إلى المدن وانظمامهم لفقراء المدن فإنهم يقيمون في أحياء تفتقر إلى الخدمات الأساسية من مياه شرب نقية وأنظمة الصرف الصحي مما يعرضهم ثانية إلى تدهور بيئتهم وإلى الأوبئة والأمراض المعدية التي تخفض من الإنتاج والقدرة على العمل.

ولا تكمن خطورة استنزاف الموارد فقط عند اختفاء مورد ما أو تقليل قيمته، وإنما من تأثير هذا الاستنزاف سلبا على توازن النظام الإيكولوجي الذي ينتج عنه أخطار بالغة تفتك بالبيئة وتسرع في تدهورها مما يزيد من تردي الأحوال المعيشية والصحية للفقراء، بل وإلى مضاعفة أعدادهم. فالبيئة في اليمن تتعرض حاليا لتدهور ملحوظ في مختلف جوانبها حيث يلاحظ بوضوح ندرة المياه وتلوثها، وتدهور موارد التربة، وزحف الرمال والتصحر. وتعاني كافة مناطق اليمن من وطأة تلك المشاكل البيئية حيث تشير التقديرات إلى أن 97% من أراضي اليمن تعاني من التصحر، وإن بدرجات متفاوتة، وخاصة في سهول تهامة وميفعة وبيحان ودلتا أبين والمناطق الشرقية حيث تتشكل الكثبان الرملية وتزحف باتجاه الأراضي الزراعية والقرى والطرق والمنشآت[1]. ويتضح من كل ما تقدم أنه لابد من إعادة تأهيل البيئة اليمنية وكذا صيانتها والمحافظة عليها في أية محاولة ناجحة لمكافحة الفقر وتعميم التنمية المستديمة في اليمن. وفي هذا الصدد قامت الحكومة بتنفيذ العديد من الإجراءات، من أبرزها إعداد خطة العمل الوطنية للبيئة والمشاريع البيئية التي انبثقت عنها، بالإضافة إلى البرامج والمشاريع الخاصة بمكافحة الفقر مثل الصندوق الاجتماعي للتنمية وبرنامج الأشغال

العامة وبرنامج تنمية المجتمعات (ملحق رقم 2). وتقوم الحكومة حاليا بوضع الخطة الوطنية لاستئصال الفقر والتي ستتضمن مجموعة من التدابير لمعالجة المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والبيئية. بالإضافة إلى التزامات محددة ذات أطر زمنية للقضاء على الفقر المطلق. ومن المؤمل أن يكون للإجراءات التي تتخذها أو ستتخذها دور إيجابي في مساعدة الفقراء في الإفلات من دائرة الفقر الخبيثة. وتعد هذه الدراسة أحد الأوراق العلمية التي ستقوم عليها الخطة الوطنية لاستئصال الفقر، حيث تهدف إلى تقديم معالجة أولية لأحد المشاكل الرئيسية للفقر في اليمن (وهي العلاقة بين الفقر والبيئة).

2. أهداف الدراسة

تتناول هذه الدراسة العلاقة بين الفقر والبيئة في الجمهورية اليمنية، وهي تهدف إلى:

1. فحص العوامل التي تساهم في إجبار الفقراء على النزوح من المناطق الضعيفة بيئيا.
2. تحديد المبادرات الحكومية والأهلية القائمة حاليا (بما في ذلك التجمعات والفئات الفقيرة) لتعميم الاستخدام المستديم للموارد واستعادة المناطق المتدهورة بجعلها صالحة للسكن والاستخدام مرة أخرى. وكذا توثيق أحسن وأنجح الحالات العملية التي يمكن اعتمادها كنماذج لتعميمها على نطاق واسع.
3. دراسة التجارب التي خاضتها البرامج والمشاريع للتغلب على المشاكل البيئية في الأحياء الفقيرة في المدن والتجمعات المقامة على قارعة الطريق والمناطق الأخرى الأهلة والمكتظة بالسكان مع توثيق النماذج الناجحة نسبيا.
4. تقييم الأطر القانونية والإجرائية التي تحكم وتنظم امتلاك واستغلال وصيانة الموارد وعلاقتها بمكافحة الفقر والتنمية المستديمة واقتراح التعديلات المناسبة لها.

5. دراسة خطة العمل الوطنية للبيئة (National Environmental Action Plan: NEAP) وتحديد الجوانب المشتركة والمتشابهة بينها وبين خطة العمل الوطنية لاستئصال الفقر (National Action Plan for Poverty Eradication: NAPPE) والتي تكمل بعضها بعضا في النشاطات الميدانية وبالتالي تساهم في مكافحة الفقر وتحسين وتطوير البيئة.

6. اقتراح آلية مناسبة لتنفيذ الخطة الوطنية لاستئصال الفقر والخطة الوطنية للبيئة بمشاركة الفقراء وتجمعاتهم.

1. الفقر في اليمن

سنقوم في هذا الجزء باستعراض موجز لموضوع الفقر في اليمن كمقدمة و مدخل لفحص العوامل التي تساهم في إجبار الفقراء على التروح من المناطق الضعيفة بيئيا في الجزء التالي. والفقر له مفاهيم عديدة لكن أكثرها شيوعا هو **"ذلك المستوى من الدخل الذي لا يكفي لإشباع الحاجات الإنسانية الأساسية للأسرة بصورة مرضية و مقبولة"**. وتشتمل الحاجات الإنسانية الأساسية الغذاء، والملابس، والتعليم، والصحة، والنقل والمسكن. وتتفاوت الحاجات الأساسية وكيفية احتسابها من مكان إلى أخر، وهو ماينعكس في قياس الفقر وتحديد خطوطه.وتتعدد مسميات الفقر حسب ديمومته وحدته، مثل الفقر المتقطع غير المستمر الناتج عن الجفاف وجيوب الفقر في المناطق المتخلفة والمناطق الريفية والفقر المدقع (الجوع) والفقر المطلق **"وهو مستوى الدخل الذي لا يكون قادرا على تحقيق الحد الأدنى من الحاجات الست الأساسية للإنسان"**. وتقاس خطوط الفقر إما بالدخل أو الاستهلاك واللذان يستخدما أيضا في التفريق بين الفقراء و غير الفقراء[2].

وقد بينت بعض الدراسات التي أجريت في اليمن أن 19.1% من السكان كانوا يعيشون تحت خط الفقر في عام 1992، ثم ارتفعت هذه النسبة إلى 25% في عام 1995 و 27% في عام 1998 طبقا لنتائج الجولة الثانية من مسح ميزانية الأسرة. كما قد قدرت الدراسة التي قامت بها منظمة الأسكوا نسبة الفقر في اليمن عام 1996 بحوالي 47%[3]. وأشارت نتائج المسح الوطني لظاهرة الفقر في اليمن الذي قام به الجهاز المركزي للإحصاء في عام 1998م إلى أن الفقراء في اليمن يشكلون حوالي 38% من إجمالي السكان وأن حوالي ثلث أفراد المجتمع (30%) فقراء فقرا حادا وغير قادرين على تلبية الحد الأدنى من احتياجاتهم الغذائية. كما أشارت نفس الدراسة إلى أن أكثر من نصف الفقراء يعيشون في محافظات تعز، والحديدة، وإب وحجة. واستنادا إلى واقع الاقتصاد وتصاعد معدل النمو السكاني فإن المؤشرات المختلفة تعزز القول بأن نسبة الفقر في اليمن لازالت متجهة نحو الارتفاع المتزايد.

والفقر في اليمن مشكلة اجتماعية واقتصادية وبيئية حادة لا تقتصر أبعادها على الحرمان من استهلاك السلع والخدمات، وإنما يشمل كذلك الحرمان من الاختيار والمشاركة، وهو بهذا المعنى يمتد إلى الحرمان من جوانب كالتعليم والصحة والمشاركة السياسية والتمتع بحقوق الإنسان[4]. وتتمثل محددات الفقر الهيكلية في ندرة الموارد الطبيعية والاختلالات الاقتصادية الكلية. أما المحددات المؤقتة للفقر فتشمل انخفاض متوسط الأجر الحقيقي وانتشار البطالة وارتفاع أسعار السلع والخدمات الأساسية بعد الرفع المتدرج للدعم، وهو ما أدى إلى زيادة الأعباء على الفقراء.

إن الفقر في اليمن ظاهرة ريفية بصورة أساسية إذ يعيش حوالي 81 % من كل الفقراء و 83% من الذين هم في مستوى الفقر المطلق في الريف. ويمكن إرجاع أسباب الفقر الريفي إلى الحقيقة أن حوالي 80% من اليمنيين يقطنون الريف، وارتفاع نسبة النمو السكاني، وندرة الموارد الطبيعية وتدهور البيئة. بالإضافة إلى تهميش فقراء الريف

وصعوبة حصولهم على الأراضي والمياه والبنيات الأساسية والخدمات العامة مثل التعليم والصحة...الخ.، وسيتم إلقاء مزيد من الأضواء على هذا الموضوع في الجزء التالي. ويتألف غالبية الفقراء في الريف من المنتجين الفقراء الذين يكسبون دخلهم من جهدهم مثل صغار المزارعين، وصغار الرعاة، وصغار صيادي الأسماك، والعمال الريفيون (عمال زراعيين والرعاة بآجر منخفض والصناع التقليديون).أما فقراء المدن فهم من العاطلين عن العمل، والعاملين بأجر منخفض،والعاملين لحسابهم في مشاريع صغيرة، والموظفين، ويتركز هؤلاء الفقراء في أكواخ متناثرة ومستوطنات عشوائية تقع على أطراف المدن. وتوجد فئة ثالثة من الفقراء تعرف بفقراء الحالات الإنسانية وتسكن الريف والمدن، وتتكون هذه الفئة من الأسر التي ترأسها امرأة والمعوقين والمسنين والأطفال والمحتجزين واليتامى.

ويتضح مما تقدم بأن الحل بالنسبة للفقراء الريفيين (وهم أغلبية فقراء اليمن، ويعتمدون أساسا على النشاطات الزراعية والرعي وتربية الحيوان وصيد الأسماك) يكمن في خلق الظروف التي تمكنهم من كسب المزيد من عملهم وجعلهم أكثر إنتاجية. ولتحقيق ذلك، لابد من اتخاذ جملة من الإجراءات منها[5]:

1. زيادة وتحسين إمكانية وصولهم للأرض عن طريق استصلاح الأراضي، وإدارة أفضل لها، ومحافظة أكثر عليها ودعمها عند الضرورة بالري، والتقنيات الحديثة والملائمة للبيئة الاقتصادية والاجتماعية والطبيعية للفقراء، والبنيات الأساسية المحسنة.

2. زيادة الإنتاجية واستخدام العمالة الريفية في المشاريع البيئية والتنموية، والتركيز على التكنولوجيا المكثفة، وتدريبات متميزة لتوفير عمالة ذات مهارة عالية، وتوفير مهارات جديدة.

3. تيسير حصول الفقراء على رؤوس أموال أكثر، وخاصة عن طريق تعبئة المدخرات من خلال القروض المصرفية.

4. تأمين البنيات الأساسية وتطوير الخدمات المالية المصممة خصيصا لتناسب وضعهم واحتياجاتهم (مزيد من التفاصيل موجودة في الجزء السادس من الدراسة تحت عنوان الآلية المقترحة لتنفيذ الخطة الوطنية لاستئصال الفقر وخطة العمل الوطنية للبيئة).

4. العوامل التي تساهم في إجبار الفقراء على النزوح من المناطق الضعيفة بيئيا:

هناك مجموعة متداخلة من العوامل التي تبقي على الفقر في المناطق الهامشية وتجبر الفقراء على التروح من مناطقهم[6]:

1- القاعدة الفقيرة للموارد.

2- النمو السكاني المرتفع.

3- محدودية الوصول للبنى والخدمات الأساسية.

4- السياسات الاقتصادية الكلية.

5- تهميش المرأة.

6- تدهور البيئة، وفيما يلي عرض موجز لهذه العوامل.

1.4. القاعدة الفقيرة للموارد الطبيعية:

1.1.4. مقدمة:

إن البيئة بمفهومها العام للإنسان هي المجال أو المحيط الذي يعيش فيه ويحصل منه على مقومات حياته من ماء وغذاء وملبس ومسكن.....الخ ويتأثر به ويؤثر فيه[7]. ويتكون هذا المحيط من الكائنات الحية من إنسان وحيوان ونبات،وكل ما يحيط بها من هواء وماء وتربة، وما تحتويه من مواد صلبة وسائلة وغازية، بالإضافة إلى المنشئات الثابتة والمتحركة التي ينشئها الإنسان كالمدن والطرق ووسائل النقل. أما الموارد الطبيعية فيمكن تعريفها هنا بأنها جميع السلع التي يمكن للإنسان أن يحصل عليها في كوكب

الأرض وفقا لقدرته على الوصول إليها طبقا للوضع الاقتصادي السائد والتكنولوجيا المتوفرة. وتوجد الموارد الطبيعية في البيئة الهوائية، وبيئات المياه العذبة والمالحة، وبيئة اليابسة وما فيها من الكائنات الحية[8]. ويقوم الإنسان بالإضرار بالبيئة وتدهورها نتيجة لأحد السببين التاليين أو كليهما معا:

- الاستهلاك الجائر للموارد الطبيعية من قبل الفقراء لمواجهة متطلبات حياقم الآنية الأمر الذي يدفعهم إلى استنزاف موارد المياه، والرعي الجائر في المراعي، وقطع الأشجار، والاستخدام المفرط للأراضي الهامشية، الأمر الذي يؤدي إلى الإخلال بالتوازن الإيكولوجي ومن ثم تدهور البيئة.
- تلويث البيئة الناتج عن رمي المخلفات بأنواعها السائلة، والصلبة، والغازية. ومما تجدر الإشارة إليه أن عناصر ومكونات البيئية منظومة مترابطة ومتداخلة، فإذا حدث إخلال بأحد عناصرها فإنه يتسبب في الإخلال ببقية العناصر وهكذا.

2.1.4. قاعدة الموارد الطبيعية في اليمن:

في البداية لابد من الإشارة إلى نقطة هامة وهي أن كل ما استطاع الباحث الوصول إليه من مراجع تؤكد شح وندرة الموارد الطبيعية في اليمن لكن الحقيقة كما يراها الباحث عكس ذلك تماما. فالجمهورية اليمنية التي تقع في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية (بين خطي عرض 12 و 20 شمال خط الاستواء وبين خطي طول 41 و 54 شرقا)، تشغل مساحة من الأرض تزيد عن نصف مليون كيلومتر مربع، وموارد بشرية تزيد عن 18 مليون نسمة، وموارد طبيعية غنية ومتنوعة في البحار واليابسة، وموارد طاقة غزيرة منها المتجددة (مثل الطاقة الشمسية والرياح) وغير المتجددة (كالنفط والغاز الطبيعي). فاليمن إذن تمتلك قاعدة غنية ومتنوعة من الموارد البشرية والطبيعية القابلة

للاستغلال المفيد والمربح إذا وجهت الطاقات اللازمة لتنمية وتحديث مواردنا الطبيعية ولاسيما الزراعة، والرعي والثروة الحيوانية، وصيد الأسماك، والسياحة، وموارد الطاقة كالنفط والغاز والموارد المعدنية مثل الملح، والذهب والنحاس..إلخ. بالإضافة إلى توسيع القاعدة الصناعية خاصة التي تعتمد على الموارد المحلية. وهذا يحتاج أيضا إلى محاربة الفساد وقضاء عادل وأمن واستقرار.

يحد الجمهورية اليمنية من الشمال المملكة العربية السعودية ومن الشرق سلطنة عمان ومن الجنوب البحر العربي وخليج عدن ومن الغرب البحر الأحمر. وتتكون اليمن من خمس منظومات أرضية (أقسام طبيعية) لكل واحدة منها سمات بيئية منفردة:

- **السهل الساحلي:** ويضم المناطق المطلة على البحر الأحمر وخليج عدن والبحر العربي بما فيها مضيق باب المندب. وهي مناطق حارة وجافة، يبلغ طولها حوالي 2500 كم، و يتراوح عرضها بين 30-50 كم، وارتفاعها بين (صفر) مستوى سطح البحر—500 م. ويتبع هذا الساحل حوالي 120 جزيرة يمنية أكبرها جزيرة سقطره التي تقع مع جزر عبد الكوري في البحر العربي، بينما تقع باقي الجزر في البحر الأحمر أكبرها كمران، حنيش الكبرى وحنيش الصغرى. وتمتاز شواطئ البلاد بغناها بالأنظمة البيئية مثل المانجروف والشعاب المرجانية والحشيش البحري والتي تمثل موارد اقتصادية هامة في مجالي الاصطياد السمكي والبحري والسياحة لو حسن استغلالها.

- **المرتفعات الجبلية:** وتقع إلى الغرب والشمال من سهل تهامة الساحلي ويتدرج ارتفاعها من 500 وحتى 3660م،وهو ارتفاع أعلى قمة في البلاد وشبه الجزيرة العربية في جبل النبي شعيب. وتتخلل المناطق الجبلية على طول امتدادها قيعان وأحواض مستوية ذات تربة خصبة، وطقس معتدل وأمطار موسمية، وأهم تلك القيعان قاع صعده ، والبون، وجهران والحقل.

- **السهول المركزية والشرقية**: وتضم بقية أراضي اليمن من المرتفعات الجبلية في الغرب حتى حدودنا مع سلطنة عمان وتشمل مناطق عديدة مثل الجوف، مأرب، بيحان، ومعظم أراضي أبين شبوه وحضرموت والمهرة. وهي عبارة عن أراضي صحراوية قاحلة يبلغ أقصى ارتفاع لها 1000م وينخفض بالتدريج باتجاه الربع الخالي.

- **الربع الخالي**: ويشمل مناطق واسعة من شمال وشرق البلاد. وهو ذو طبيعة صحراوية جافة.

- **الزراعة والرعي**:على الرغم من الدور الهام والمؤثر للزراعة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع اليمني كونها توفر فرص العمل لأكثر من نصف القوى العاملة وتساهم بحوالي خمس الناتج المحلي الإجمالي إلا أن الأراضي الصالحة للزراعة أقل من 2% من مساحة اليمن أو ما يعادل 1,6 مليون هكتار زرع منها مليون هكتار في الفترة 1990-1994. وتمثل الحبوب والفواكه والخضار والقات أهم المنتجات الزراعية. أما الأراضي الصالحة كمراعي ومنها الغابات فتشكل حوالي 40% من مساحة البلاد تتواجد عليها 3,5 مليون راس غنم، و3 مليون ماعز، و1,1 مليون بقرة. أما بقية أراضي البلاد فتشكل 60% من مساحة اليمن، وهي عبارة عن صحارى قاحلة[9].

- **المياه**: لعل ليمن من أفقر البلدان بالنسبة للمياه إذ أن الحياة فيها وعبر آلاف السنين اتصفت بالكفاح والعمل من أجل الحصول على المياه وعلى مصادرها. ويقدر إجمالي المياه المتجددة في بلادنا بنحو 2,5 مليار متر مكعب وإذا كان عدد السكان 16 مليون فان المياه المتاحة للفرد حوالي 150 متر مكعب في السنة وهو رقم ضئيل جدا مقارنة بالمتوسط العالمي لحصة الفرد بالسنة والبالغ 7500 متر

مكعب. هذا بالإضافة إلى عدم انتظام توزيع الموارد المائية حيث أن 90% من السكان لا يحصلون إلا على 90 متر مكعب في السنة.

- **الثروة البحرية**: تعتبر اليمن غنية بالموارد البحرية فبيئتنا البحرية والساحلية بشواطئها الطويلة وجزرها الكثيرة في البحر الأحمر وخليج عدن وبحر العرب تهيئ ظروفا طبيعية ملائمة لنمو وتكاثر الأحياء البحرية ومنها الأسماك والبيئات البحرية والساحلية المختلفة كالشعاب المرجانية والأعشاب والحشائش البحرية وأشجار الشورى. إلا أن اليمن لا تزال في بداية الطريق وتحتاج إلى استثمار أموال ضخمة لتطوير واستغلال الثروة البحرية بصورة مستديمة. حيث تشير التقديرات الأولية إلى أن إنتاج اليمن السنوي من الأسماك يمكن أن يصل 400 ألف طن في حالة الاستخدام الأمثل لهذه الموارد بالطرق الحديثة دون إحداث الضرر بالمخزون السمكي في حين لا يزال الإنتاج السنوي في حدود 120 ألف طن[10].

- **الموارد المعدنية**:وتشمل النفط الذي ينتج منه حوالي نصف مليون برميل يوميا، والغاز الطبيعي وهو من الموارد الواعدة حيث يوجد بكميات هائلة، لكنه يحتاج إلى مزيد من الاستثمارات المالية والبشرية،والملح الحجري، والجبس، والرخام، وترسبات صغيرة من الفحم والذهب والرصاص والنيكل والنحاس. وخلاصة القول أن اليمن تعاني من شحة الموارد الطبيعية في الوقت الحاضر لكن الحقيقة أنها أيضا تمتلك قاعدة كافية ومتنوعة من الموارد (مثل الأسماك والأحياء البحرية، الغاز الطبيعي، الملح الحجري، الجبس، الرخام). ونأمل أن يتحسن استغلالها في المستقبل.

2.4. النمو السكاني المرتفع:

بلغ عدد سكان اليمن في عام 1998م حوالي 17.5 مليون نسمة وبلغت الكثافة السكانية .حوالي 23 شخصا لكل كيلومتر مربع. أما معدل النمو السكاني السنوي وقدره 3.4% فهو من أعلى معدلات النمو السكاني في العالم[11]. والنمو السريع للسكان سبب ونتيجة للفقر في آن واحد. إذ يختار الفقراء إنجاب عدد كبير نسبيا من الأطفال وخاصة الذكور لأنهم يعتبرون الأطفال رصيدا اقتصاديا ومصدرا للأمان في الشيخوخة. وقد بينت نتائج المسح الوطني لظاهرة الفقر في اليمن الذي قام به الجهاز المركزي للإحصاء في عام 1999م أن حجم الآسرة الفقيرة يزيد على الآسرة غير الفقيرة بحوالي فرد واحد في المتوسط (7.9 فرد للأسرة الفقيرة و 6.9 فرد للأسرة الغنية).

وقد انعكست معدلات النمو السكاني العالية على زيادة الفقر في اليمن عن طريق رفع نسبة الإعالة، وندرة فرص العمل، وانخفاض الأجور، وإعاقة جهود رفع رصيد رأس المال البشري بسبب توزيع الموارد النادرة على عدد كبير من المستفيدين. كذلك أرهقت معدلات نمو السكان المرتفعة الخدمات (التعليم والصحة والإسكان) واضعفت من قدرتها على مقابلة زيادة الطلب عليها. وتشكل الزيادة السكانية في اليمن ضغوطا على مصادر الثروة الطبيعية وهي تتسبب في العديد من المشاكل البيئية. فالمدن اليمنية التي تسارع نموها تعاني حاليا من عدة مشاكل أهمها (جدول رقم 1).:

1- شح المياه وانخفاض جودتها.

2- النقص الحاد في خدمات الصرف الصحي.

3- عدم الكفاءة في جمع وتصريف المخلفات الصلبة.

4- الضعف والعشوائية في تخطيط المدن والافتقار إلى التوازن في التنمية الحضرية.

أما في المناطق الريفية، فبالإضافة إلى وجود بعض هذه المشاكل فإن استنزاف الغطاء النباتي عن طريق الرعي الجائر وقطع الأشجار لغرض الوقود واستخدامها في البناء

بكميات تفوق معدلات الغرس يؤدي إلى تدهور التربة والتصحر. كذلك فإن الطلب على الغذاء وإنتاجه محليا يرتبط بعلاقة طردية مع ارتفاع معدل النمو السكاني. ووفقا لمعدل النمو الحالي فإنه يترتب على قطاع الزراعة و الثروة الحيوانية والأسماك مهمة عسيرة تتمثل في ضرورة مضاعفة الإنتاج خلال مدة قصيرة لا تتجاوز 19سنة للحفاظ على المستوى الحالي من الاكتفاء الذاتي وتأمين الغذاء للأفواه المتزايدة باطراد[12].

وخلاصة القول أن اليمن تعاني من اختلال في التوازن بين الزيادة السنوية للسكان والنمو الفعلي في الإنتاج مما أدى إلى وجود فجوات متنوعة من أخطرها: الفجوة الغذائية، الفجوة الخدمية وفجوة الاستهلاك المهدر للموارد الطبيعية. وقد نجم هذا عن غياب التنمية المستديمة التي تأخذ في الاعتبار العلاقة بين السكان والبيئة والتنمية. وعليه يجب أن تعطى الأولويات للتدخلات التي من شأنها خفض مستويات الخصوبة العالية وفقا للاستراتيجية الوطنية للسكان. وأن تشمل التدخلات إجراءات مباشرة مثل التوسع في برامج تنظيم الأسرة، وتدخلات غير مباشرة مثل رفع سن الزواج وتعليم المرأة ومحو الأمية...الخ[13].

3.4. محدودية الوصول للبنى والخدمات الأساسية.

اتسمت السياسات التنموية منذ قيام ثورة السادس والعشرين من سبتمبر 1962 بتركيز اكبر للبنى الأساسية والخدمات في المراكز الحضرية الرئيسية، الأمر الذي خلق فجوة واسعة في الخدمات بين المدن والقرى. فعلى سبيل المثال يبلغ التفاوت في الخدمات الصحية بين الريف والحضر في اليمن حوالي 40%[14]. كما أن الاختلاف في نسبة الحصول على بعض الخدمات بين الريف والحضر يعتبر مؤشرا أخر حول الفقر الريفي (نسبة الحصول على الخدمات الصحية والمياه النقية والصرف الصحي). وهذا واضح في اليمن حيث يحصل 22% فقط من سكان الريف على خدمات صحية، بالمقارنة مع 50% من سكان المدن. ومن بين المعوقات الأخرى عدم تمكن الفقراء من

الحصول على الأرض، ووسائل الإنتاج، والمال، والمياه، والكهرباء، والمدخلات (بما في ذلك التقنيات) ، والإرشاد، والتدريب، وأخيرا وليس أخر ضعف القدرة والمشاركة من جانب الفقراء في العمليات الإنتاجية والاستهلاكية، وعملية اتخاذ القرارات التي تؤثر على مستوى معيشتهم.

كل هذه المعوقات قد نشأت بفعل الإدارة غير السليمة لمؤسساتنا الوطنية ذات العلاقة وربما أدت إلى عزل أشد لفقراء الريف والحد من وصولهم للخدمات والتسهيلات، الأمر الذي زاد من حدة الفقر الريفي على المدى القريب والبعيد. فعلى المدى القريب لا يستطيع هؤلاء كسب الدخل الكافي لتلبية الحد الأدنى من احتياجاتهم الغذائية أو الاستفادة من السوق. وعلى المدى الطويل لا يستطيع فقراء الريف اللحاق ببقية الناس لأنهم لا يستطيعون توليد فائض للاستثمار ولا الوصول للقروض. علاوة على ذلك يضطر الفقراء في الريف إلى الاستغلال الجائر للموارد الطبيعية. وفي نفس الوقت لا يستطيعون اتخاذ الإجراءات الضرورية لوقف تدهور قاعدة الموارد البيئة وهو الأمر الذي سيقوض على المدى البعيد إنتاجيتهم ودخلهم. ولهذه الأسباب قامت أعداد كبيرة من سكان الريف بالهروب من الفقر عن طريق الهجرة إلى المدن ولاسيما صنعاء وعدن في السنوات الماضية. ولكن نظرا لتدني مستوى تعليمهم وتدريبهم يفتقر معظم المهاجرين إلى المدن إلى المهارات اللازمة للحصول على عمل، مما يفرض أعباء كبيرة على البنى التحتية الحضرية وعلى الخدمات الاجتماعية والبيئة.

4.4. السياسات الاقتصادية الكلية.

قامت الحكومة منذ عام 1995 بتنفيذ برنامج للإصلاح الاقتصادي، وقد أدى ذلك إلى ازدياد ظاهرة الفقر. فعلى الرغم من تضاعف الأجور الاسمية خلال الفترة 92-1996 حيث ارتفع متوسط الأجر الشهري من 5740 إلى 10033 ريال، إلا أن متوسط الأجر الحقيقي قد انخفض خلال نفس الفترة بنسبة 70% تقريبا نظرا لارتفاع معدل

التضخم[15]. كما أدى رفع الدعم الكلي عن سلعتي الأرز والسكر في عام 1994 والبدء في الرفع التدريجي للدعم عن سلعتي القمح والدقيق والمشتقات النفطية والكهرباء والماء ابتداء من عام 1995 إلى زيادة أسعار هذه السلع والخدمات وبالتالي زيادة الأعباء على الفقراء.

5.4. تهميش المرأة:

من المرجح أن تكون الفقيرات من النساء أكثر من الرجال إلى حد ما، مما دعا بعض المحللين إلى التحدث عن " تأنيث الفقر" على المستوى العالمي[16]. والحياة قاسية على النساء الفقيرات أكثر منها على الرجال الفقراء. فأعباء النساء تتضاعف بلا نهاية. وهن يتقاضين أقل من الرجل-بما يقدر بالنصف بالنسبة للعمالة الزراعية في اليمن- ويعملن أكثر-مابين ساعة إلى ثلاث ساعات إضافية كل يوم. وهن أقل تعليما.حيث تتغلب أمية النساء بوحدات كثيرة من وحدات النسبة المئوية مقارنة بأمية الرجال في اليمن. ومع ذلك يتحملن أكبر المسؤوليات جسامة فيما يتعلق بصحة الأطفال بما فيها الولادة والرضاعة والتنشئة، مما يجعل نموهن ضعيفا وصحتهن متدهورة، الأمر الذي يضعف دورهن في إيقاف التدهور البيئي وزيادة حدة الفقر في اليمن. مما يستوجب إيلاء اهتمام خاص بالمرأة في سياسات محاربة الفقر وحماية البيئة. ويمكن تحقيق ذلك من خلال تحديد وتنفيذ جملة متنوعة من الإجراءات والتدابير اللازمة لرفع مهارات المرأة البيئية بوصفها منتجة ومستهلكة، وكذا مشاركتها في صنع السياسات والقرارات المتعلقة بإدارة الموارد الطبيعية وصيانتها والمحافظة عليها،.ومن أهم تلك الإجراءات ما يلي:

1. إدماج المرأة في هيكل إدارة الأراضي، وتأمين حقوقها في الملكية، وتوفير التدريب والائتمانات. إن تنفيذ مثل هذه الإجراءات لن يؤدي إلى تحسين حالة المرأة الريفية فقط بل وإلى زيادة الإنتاج الغذائي؛

2. ويعد توفير خدمات الصحة الإنجابية، والمعلومات والتثقيف جزءا من تمكين المرأة من اتخاذ القرارات بنفسها فيما يتعلق بحجم الأسرة، وتخفيض معدل وفيات الأمهات والرضع الناجمة عن جميع الأسباب؛

3. ويجعل التعليم المرأة أكثر اقتدارا وفعالية في مجالات الحياة، بدءا بصحة الأسرة وتغذيتها وقدرتها على امتلاك الموارد بكفاءة، وانتهاء بتخطيط وتنفيذ ومراقبة سياسات المجتمع المحلي، بما في ذلك السكن والمرافق العامة كالطاقة والمياه والصحة. إن القيام بمثل هذه البرامج يعد شرطا لا غنى عنه لنجاح وسلامة السياسات البيئية في اليمن فضلا عن مكافحة الفقر.

6.4. السياق الإيكولوجي للفقر (تدهور البيئة)

تتكيف العلاقة بين الفقر والبيئة بحسب الاستحقاقات البيئية - حزمة الموارد البيئية التي يمكن أن يتحصل عليها الفقراء ويمكنهم التحكم فيها - وعلى الوضع العام لتوافر الموارد[17]. وفي اليمن كما في غيرها، يكون الفقراء ضحايا للتدهور البيئي، عند وقوعه وفي الوقت نفسه متسببين فيه رغما عنهم. فعلى الرغم من اتساع مساحة اليمن إلا أن حوالي 80% من هذه المساحة أراضي قاحلة هشة وضعيفة الإمكانية الزراعية. ولأن الفقراء لا يحصلون بوجه عام على الأصول الجيدة ، بما في ذلك الأراضي الزراعية الخصبة والمروية، يزيد تركز الفقراء في المناطق البيئية الهشة في الأراضي القاحلة وشبه القاحلة والمنحدرات الجبلية والغابات والأحياء الفقيرة والتجمعات العشوائية المتناثرة في المدن كصنعاء وعدن...إلخ. وهنا يلعب الفقراء دورا في مخاطر تعرية التربة واستنفاد قاعدة إنتاجية هزيلة أصلا رغما عنهم. والنتيجة المحتومة أنه لامناص أمام الفقراء من الانجذاب إلى دوامة الفقر بأعداد متزايدة.

وفقراء اليمن هم في الغالبية العظمى (80%) من الريفيين ويعتمدون بصورة مباشرة على الموارد المحلية مثل الغابات والمراعي ومياه الري، والأرض القابلة للزراعة -

باختصار يستثمر الفقراء اقتصاديات تقوم على "الكتلة الحيوية".والبيئة في اليمن أساسا جافة وهشة أيكولوجيا وإن أظهرت الأنساق الأيكولوجية شبه الجافة قدرة عالية على الدوام.وتشكل قلة سقوط المطر وتذبذبه بالتزاوج مع مشكلات ندرة المياه بوجه عام، تحديا مهما لاستغلال الأرض بشكل قابل للاستمرار بواسطة السكان المستقرين والرعاة في اليمن. وتنطوي أساليب الزراعة المخربة للبيئة في أحيان كثيرة على تبعات عديدة كتدمير مستودعات المياه. فعندما يجرد المزارعين الفقراء سفوح التلال للحصول على الخشب من أجل النار، ويزرعون السفوح المنحدرة نظرا لعدم توافر الأرض الأفضل، وهكذا فإنهم يزيدون من مشكلات تآكل التربة، كما يخفضون من إمدادات المياه القابلة للاستغلال في حين يتزايد الطلب عليها. وترتبط هذه الدائرة الشريرة بصورة حركية بما يعد الخطر البيئي المركزي في اليمن كلها، أي ندرة المياه.

بالإضافة إلى ذلك فإن صكوك ملكية بعض الفقراء للأرض والموارد الطبيعية ضعيفة وغير واضحة بدقة وقد تكون غائبة تماما. فغالبا ما يسكن الفقراء مناطق هامشية أيكولوجيا، وبالتالي فإن حقوقهم التقليدية على الموارد يمكن أن تصادر من خلال الملكية الخاصة. وبسبب حرمانهم أحيانا من حقوقهم المتوارثة يلجأ الفقراء إلى استغلال الأرض التي يقيمون فيها إلى أقصى حد لتلبية الحاجات الضرورية الآنية بغض النظر عن النتائج. ويشمل الاستغلال غير الرشيد لموارد الأرض استنزاف موارد المياه، والرعي الجائر، وقطع الأشجار، وصيد الحيوانات النادرة غالية الثمن، والإفراط في استخدام الأراضي الهامشية. ويترتب على ذلك تقليل قيمة الموارد وازدياد مشقة الحصول عليها بل واختفائها. ولا تكمن خطورة استنزاف الموارد في اختفاء مورد ما أو تقليل قيمته، بل تنعكس أيضا سلبا على توازن النظام الإيكولوجي والذي ينتج عنه أخطار بالغة تفتك بالبيئة وتسرع في تدهورها.

وهناك عامل ذو أهمية حرجة يتقاطع مع كل هذه المشاكل، وتتعدى أهميته بكثير معيشة فقراء الريف، وهو مسألة المياه.التي تتعرض -كما ذكرنا سابقا-إلى استهلاك بمعدلات تزيد على الإمدادات المتجددة وما ينتج عن ذلك من مشاكل ضخمة في اليمن مثل زيادة ملوحة التربة والتي تعد في حد ذاتها مشكلة ضخمة في اليمن (جدول رقم 1 – في الملحق رقم 1). وقد أكدت العديد من الدراسات بأن اليمن ستواجه في المستقيل القريب نقصا حادا في المياه. وعلى صعيد العالم يستغل 60% من المياه في الزراعة ولكن في اليمن ترتفع هذه النسبة إلى حوالي 80%[17]. بسبب رداءة نظم ووسائل الري القائمة. وإذا أضفنا إلى مشاكل المياه حقيقة أن حوالي 50% من الزراعة القائمة على المطر تواجه مشكلات تربة وتضاريس يتضح أن حوالي 90% من كل الأرض في اليمن عرضة للتصحر مما يوحي بأن بيئة (أيكولوجية) فقراء الريف اليمني سواء الذين يسكنون المناطق المطرية أو الهامشية الجافة ستتدهور بشكل كبير الأمر الذي يضاعف أعداد الفقراء في الريف بل ويهدد صحتهم ونمط معيشتهم واضطرار العديد منهم إلى مغادرة أوطانهم والهجرة إلى المدن.

وتتبلور مشكلات بيئية على نفس القدر من الخطورة في المدن الرئيسة (صنعاء، عدن، تعز، الحديدة،...إلخ.) بسبب تكدس الفقراء في مناطق عشوائية لا يتعدى عرضها كيلو مترات قليلة من جهة وتركز معظم قدرة البلد في توليد الكهرباء حراريا، والسيارات. وكل الصناعة في تلك المدن من جهة ثانية.وليس بمستغرب في هذه الحالة أن يشكل تلوث الهواء ولا سيما بالرصاص إحدى المشاكل البيئية الهائلة. ويوجد الرصاص أيضا في الغذاء والماء. ولا يقتصر أثر هذه المشكلات البيئية الحضرية بالطبع على الفقراء وإن كانت الأحياء الفقيرة تعاني درجة أعلى من التلوث، كما تتراكم في الأحياء الفقيرة مشكلات بيئية أخرى كالتلوث الصناعي والصرف غير المعالج ومياه الشرب الملوثة. والخلاصة أن البيئة في اليمن تتعرض حاليا لتدهور ملحوظ في مختلف

المدن والتجمعات المقامة على قارعة الطريق والمناطق الأخرى الأهلة والمكتظة بالسكان مع توثيق النماذج الناجحة نسبيا.

2.5. خطة العمل الوطنية للبيئة

نتيجة لازدياد الوعي بالقضايا البيئية الملحة من جهة وبروز العلاقة بين السكان والبيئة والتنمية كعناصر مترابطة ومهمة لإنجاح التنمية المستديمة، قام مجلس حماية البيئة في عام 1995 بإعداد خطة العمل الوطنية للبيئة بالتعاون مع البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة والبنك الدولي. وقد تم وضع الخطة بناء على سلسلة من التقارير العلمية والتي أعدها فريق من الخبراء اليمنيين العاملين في الجامعات وبمشاركة ممثلين من المؤسسات الحكومية ذات العلاقة والمنظمات غير الحكومية.

تتكون خطة البيئة من أربعة أجزاء رئيسة، اشتمل الجزء الأول على المقدمة بينما قدم الجزء الثاني نظرة عامة للقواعد الأساسية للموارد الطبيعية والبشرية بالإضافة إلى ملخص عن الأنشطة الاقتصادية وتأثيراتها على البيئة ومسألة الربط بين الفقر والبيئة. أما الفصل الثالث فتناول قضايا وهموم البيئة الرئيسة في اليمن، حيث تم أولا تحديد إحدى عشر مجالا للمشاكل التي تستحق الاهتمام وهي: التصحر، نقص إمدادات المياه، ندرة المياه، مشكلة المياه العادمة، المخلفات السائلة والصلبة، تدهور المواطن أو الموائل الطبيعية، تلوث البحار، ضعف إدارة الثروة السمكية، رمي مخلفات السفن، النمو السكاني وتدهور التراث التاريخي والثقافي. ونظرا للقيود الزمنية والتمويلية ركزت خطة البيئة على القضايا الوطنية الملحة. ومن ثم جمعت الإحدى عشر مجالا للمشاكل إلى أربع قضايا رئيسة ذات الأولوية القصوى في حماية البيئة وهي: استنفاد وتلوث المياه، تدهور موارد الأراضي، تدهور الموائل الطبيعية و إدارة المخلفات، والجدول رقم 1 (في الملحق

رقم 1) يحـوي هذه المشاكل البيئية والهموم المحددة لها، بالإضافة إلى أهـداف خطـة العمل الوطنية.

أما الفصل الرابع من خطة البيئة فقد اهتم بمسألة الترتيبات القانونيـة والمؤسسـية لقطاع البيئة. حيث تم وصف مشروع قانون حماية البيئة والاتفاقيات البيئيـة الدوليـة الملزمة لليمن بعد أن وقعت عليها. بالإضافة إلى تناول وضع مجلس حماية البيئة من حيث إنشائه، وأهدافه، وإنجازاته، والمشاكل التي تعيق تنفيذه لأهدافه وكذا تقديم مقترحـات لإنشاء صندوق وطني لحماية البيئة. بينما تناول الجزآن الأخيران (الخامس والسادس) من خطة البيئة الحلول للمشاكل. فالفصل الخامس يحوي خطة عمل بيئية شاملة وطويلـة الأجل (جداول 2-5) لمواجهة المشاكل البيئية بحسب القطاعات المحددة في الجدول رقـم 1 (وهي موارد المياه، موارد الأرض، المواطن وإدارة النفايات)، وتشمل آليـات وأدوات وإجراءات مؤسسية، وتشريعية، واقتصادية، ومالية، ومعلوماتية وآليـات للمشـاركة الشعبية. ونظرا لضيق الوقت وقلة الموارد المالية للدولة فقد تضمنت خطـة البيئـة، في فصلها السادس والأخير، مجموعة من 19 عملا بيئيا ملحا ومسـتعجلا، وبرنـامج استثماري ذا أولوية (جدول رقم 6). وقـد تم تنفيذ البرنامج الاستثماري بدءا مـن عام 1998 تحت اسم الإدارة البيئية المستديمة، ويتكـون من البرامج الفرعيـة التاليـة (جـدول رقم 8):

- تعزيز القدرة المؤسسية لمجلس حماية البيئة.
- إنشاء خريطة للتصحر الإدارة العامة للغابات.
- إنشاء إدارة السياحة البيئية الهيئة العامة للسياحة.
- المشاركة الشعبية في إدارة موارد الأرض، وزارة الزراعة.

3.5. مشروع الخطة الوطنية لاستئصال الفقر

تسمى وثيقة مشروع خطة استئصال الفقر بالخطة الإجرائية لإعداد ووضع أعمال خطة التنفيذ الوطنية لاستئصال الفقر. تحتوي الوثيقة على خلاصة تنفيذية (مقدمة وخمسة أبواب وملحقين غطت وعالجت المشاكل الرئيسية والفرعية المتعلقة بالمراحل الثلاث للخطة الوطنية لاستئصال الفقر: مرحلة التحضير ومرحلة الإعداد (الثانية ومرحلة التنفيذ (الثالثة). بالإضافة إلى معالجة الإجراءات وحدود ونطاق الصلاحيات والمواضيع التي لها علاقة مباشرة بخطة استئصال الفقر وموضوعاتها الرئيسية ومناطق التدخل الخاصة بها. ركز الباب الأول على أهداف الخطة والنتائج التي يجب تحقيقها. واحتوى الباب الثاني على مكونات الخطة. أما الباب الثالث فقد احتوى على المعلومات والمناقشات الخاصة بالمستفيدين من خطة استئصال الفقر. بينما تضمن الباب الرابع خطة العمل للمراحل الثلاث (تحضير وإعداد وتنفيذ) مع بيان التكاليف لكل مرحلة واللجان الخاصة بالخطة بالإضافة إلى بيانات خاصة لوصف مهام الخبراء المحليين والدوليين. أما الباب الخامس والأخير فقد تضمن المحتويات المقترحة لوثيقة الخطة الوطنية لاستئصال الفقر.

ويتضح مما تقدم بأن الخطة الوطنية لاستئصال الفقر عبارة عن إطار يحوي الغايات والأهداف والسياسات والإجراءات اللازمة لمحاربة الفقر في تاريخ محدد. وقد حددت اليمن عام 2015م للتخلص من الفقر المطلق. ومن المتوقع أن تحقق الخطة أهدافا محددة تحت إشراف وتوجيه اللجنة الوطنية لشبكة الأمان الاجتماعي ومن تلك الأهداف مايلي[18]:

1. القضاء على الفقر المدقع والتقليل من مستويات أنواع الفقر الأخرى السائدة في اليمن وذلك عن طريق خلق فرص عمل ورفع وتحسين إنتاجية الفقراء وتمكينهم بالتالي من زيادة دخولهم وتحسين مستوى معيشتهم؛

2. تطوير قدرات الموارد البشرية وتحسين أوضاع الفقراء والقريبين من الفقر من خلال توفير الخدمات الاجتماعية الأساسية والاحتياجات الثقافية مع إعطاء اهتمام خاص بالنساء والمعدمين؛

3. تشجيع التنمية المتوازنة ذات القاعدة العريضة والتي تولد الوظائف والأعمال وتزيد المنافسة والاعتماد على الذات؛

4. تحديد مكونات التشريع الخاص بالخطة الوطنية لاستئصال الفقر؛

5. رفع مستوى الوعي الشعبي والالتزام السياسي بمحاربة الفقر وتسهيل الحصول على الموارد اللازمة لتمويل الخطة؛

6. تشجيع المنظمات غير الحكومية والمواطنين على المشاركة الفاعلة في إعداد وتنفيذ الخطة الوطنية لاستئصال الفقر.

4.5. الجوانب المشتركة والمتشابهة بين خطة العمل الوطنية للبيئة والخطة الوطنية لاستئصال الفقر

في البداية لابد من الإشارة إلى نقطة هامة وهي أنه من الصعب في الوقت الحالي تحديد الجوانب المشتركة والمتشابهة بين خطة العمل الوطنية للبيئة ومشروع الخطة الوطنية لاستئصال الفقر والتي يمكن أن تكمل بعضها بعضا في النشاطات الميدانية وتساهم بالتالي في مكافحة الفقر وتحسين البيئة. والسبب في ذلك يعود إلى عدم تبلور الخطة الوطنية لاستئصال الفقر بشكلها النهائي حتى الآن. لكن هذا لا يمنع من تشخيص مجموعة من تلك الجوانب المشتركة والمتشابهة بين الخطتين:

1. تقضي استراتيجيات الخطتين إلى تعميم التنمية والعيش المستديم في كل مناطق اليمن وذلك عن طريق مجموعة من الإجراءات والآليات والأدوات المؤسسية،

والتشريعية، والاقتصادية، واستثمارات مالية، وتجميع المعلومات وتحديثها، والمشاركة الشعبية؛

2. توجد في الوقت الحالي العديد من النشاطات الميدانية المشتركة والمتشابهة والتي تكمل بعضها بعضا في عمليات مكافحة الفقر وتحسين البيئة بين خطة العمل الوطنية وبعض المشاريع المصممة لمكافحة الفقر (بحيث يمكن أن تتبناها أيضا الخطة الوطنية لاستئصال الفقر في المستقبل) ومن هذه النشاطات ما يلي (جدول رقم 2):

- برامج ومشاريع مكافحة الفقر القائمة من خلال تقديم الخدمات الأساسية للمناطق المحرومة (مثل مشاريع الصحة، والتعليم، والطرقات)؛ وتحسين الوضع البيئي (ومنها مشاريع حصاد المياه، وإنشاء وإصلاح قنوات الري، وإنشاء وتحسين شبكات إمدادات المياه، وشبكات الصرف الصحي في الريف والمدن)؛ وخلق فرص العمل للفقراء (مثل تمويلات صغار صيادي الأسماك، وزراعة النخيل، والتربية المنزلية للأبقار والأغنام) و؛ تطوير المجتمعات المحلية عبر التمكين المؤسسي والفني والاقتصادي الذي تنفذه حاليا برنامج تنمية المجتمعات المحلية وغيره.

- المشروعات الصغيرة النموذجية التي حددتها خطة العمل الوطنية للبيئة لمعالجة المشكلات البيئية (وزيادة الإنتاجية الاقتصادية) بمشاركة الأهالي على المستوى المحلي. تنفذ وزارة الزراعة والري حاليا أحد هذه المشاريع وهو المشاركة الشعبية في إدارة موارد الأرض من خلال تطوير الرعي التقليدي والمراعي آلاف، واستخدام وسائل حديثة (جدول رقم8).

5.5. الأطر القانونية والإجرائية المنظمة لامتلاك واستغلال وصيانة الموارد

1.5.5. مقدمة

من العوامل الرئيسة المؤدية إلى تدهور الموارد الطبيعية وزيادة حدة الفقر هو ندرة وضعف الأطر القانونية والإجرائية المنظمة لامتلاك واستغلال الموارد والحفاظ على استمرار قدراتها الإنتاجية لمصلحة الأجيال الحاضرة والقادمة. فالتشريعات الصادرة والنافذة في هذا المجال محدودة العدد وتنحصر اهتماماتها في إدارة موارد طبيعية معينة (وهي الاصطياد السمكي والمناجم والمحاجر والتخطيط الحضري). إضافة إلى بعض الشروط والأحكام الموجودة في بعض التشريعات المهتمة بمواضيع أخرى مثل قرارات إنشاء وزارة الزراعة والري والهيئة العامة للمحافظة على المدن التاريخية. وتعاني تلك القوانين من مجموعة متنوعة من المشاكل والتي تحد من تنفيذها. ومن هذه المشاكل أن بعض القوانين تعاني من بعض نقاط ضعف (مثل قانون الاصطياد السمكي الذي لا يفرق بين الصيد العادي والصيد التجاري). كما أن غالبية تلك القوانين تفتقر إلى اللوائح التنفيذية والقرارات الوزارية المنفذة (التفاصيل الإجرائية) لتلك القوانين، إضافة إلى ندرة الموارد المالية اللازمة لتنفيذ عمليات مراقبة مستمرة للتأكد من تنفيذها. وسنقوم في الجزء التالي بتحليل أكثر للتشريعات النافذة في مجال تنظيم امتلاك واستغلال وصيانة الموارد الطبيعية. بالإضافة إلى تحديد أهم التشريعات الناقصة في هذا المجال وبعض المقترحات المناسبة لمواجهة ذلك.

2.5.5. التشريعات النافذة

يمكن تصنيف التشريعات الصادرة والنافذة في هذا المجال إلى أربع مجموعات:

1. القوانين المتخصصة في تنظيم استغلال بعض الموارد الطبيعية مثل قانون تنظيم الاصطياد السمكي، وأعمال المناجم والمحاجر، والتخطيط الحضري، واتفاقية تطوير وإنتاج الغاز بين بلادنا وشركة توتال؛

2. القوانين الهادفة أساسا إلى التخفيف من وطأة الفقر والتي تشجع في الوقت نفسه عمليات الاستغلال الأمثل للموارد الطبيعية وبالتالي حماية وصيانة البيئة (مثل قوانين إنشاء الصناديق الضمانية الاجتماعية)؛

3. الشروط والأحكام المتعلقة بحماية البيئة وإدارة الموارد الطبيعية في عدد من التشريعات العامة كالقانون الجزائي، وقانون الحكم المحلي، ودستور الجمهورية اليمنية. بالإضافة إلى التشريعات التنظيمية (قرارات الإنشاء) للوزارات والمؤسسات الوطنية ذات العلاقة مثل وزارات الزراعة والري، والنفط والثروات المعدنية، الثروة السمكية، والنقل، والإسكان والتخطيط الحضري، والهيئة العامة للمياه، ومجلس حماية البيئة، والجمعيات التعاونية، والهيئة العامة للآثار والمخطوطات والمتاحف، والهيئة العامة للمحافظة على المدن التاريخية، وغيرها؛

4. عدد من المعاهدات والاتفاقيات الدولية التي أصبحت جزءا من التشريعات الوطنية النافذة في مجال حماية البيئة وصيانة الموارد الطبيعية، وذلك بعد أن انظمت اليمن إليها وأصبحت طرفا فيها وتم إقرارها والتصديق عليها طبقا لأحكام الدستور (مثل اتفاقية حماية طبقة الأوزون واتفاقية مكافحة التصحر والجفاف). وفيما يلي قائمة بأرقام وأسماء وتاريخ صدور بعض القوانين النافذة:

- قانون حماية البيئة رقم (26) لسنة 1995.
- قانون حماية البيئة البحرية من التلوث رقم (11) لسنة 1993.
- قانون تنظيم الصيد واستغلال الأحياء البحرية وحمايتها رقم (42) لسنة 1991.
- قانون التخطيط الحضري رقم (20) لسنة 1995.
- قانون المناجم والمحاجر رقم (50) لسنة 1991.
- قانون إنشاء صناديق نظافة وتحسين المدن رقم (20) لسنة 1999.
- قانون إنشاء الصندوق الاجتماعي للتنمية رقم (10) لسنة 1997.

- قانون إنشاء صندوق رعاية النشأ والشباب والرياضة رقم (10) لسنة 1996.
- الاتفاقية الدولية لمكافحة التصحر والجفاف.
- الاتفاقية الدولية الإطارية لتغيرات المناخ.
- الاتفاقية الدولية للمحافظة على الأنواع المهددة بالانقراض من الحيوانات والنباتات البرية.
- الاتفاقية الدولية لحماية طبقة الأوزون.
- الاتفاقية الدولية لحماية التنوع البيولوجي.
- الاتفاقية الدولية لحماية الثقافة والتراث الطبيعي.
- الاتفاقية الدولية لصون الأنواع المهاجرة من الحيوانات البرية.
- الاتفاقية العربية للطاقة الذرية.
- الاتفاقية الإقليمية لصون بيئة البحر الأحمر وخليج عدن.
- قانون رقم (1) لسنة 1996 بشأن الموافقة على اتفاقية تطوير وإنتاج الغاز بين بلادنا وشركة توتال.
- قانون رقم (1) لسنة 1998 بشان الموافقة على اتفاقية تطوير وإنتاج الغاز بين بلادنا وشركة مول المجرية.

3.5.5. أهم التشريعات البيئية الناقصة:

نورد في هذا الجزء مجموعة من التشريعات الناقصة في مجال حماية البيئة ومكافحة الفقر وهي كالتالي[19]:

1. إعداد وإصدار القوانين الخاصة بالخطة الوطنية لمكافحة الفقر.
2. قانون للنظافة العامة ولائحته التنفيذية؛
3. قانون لصرف المخلفات السائلة (المجاري) ولائحته التنفيذية؛

5. قانون لإنشاء الحدائق العامة وتجميل وتحسين المدن ولائحته التنفيذية؛
6. قانون للإسكان ولائحته التنفيذية؛
7. قانون للمحال الصناعية والتجارية والمعامل وغيرها من المحال المقلقة للراحة والمضرة بالصحة والخطرة ولائحته التنفيذية؛
8. قانون أشغال الطرق العامة ولائحته التنفيذية؛
9. قانون الصحة العامة ولائحته التنفيذية؛
10. قانون صحة المجتمع ومكافحة الأمراض المعدية مثل الملاريا وغيره من الأمراض التي تسبب العاهات والعجز وتخفض قوة العمل والإنتاجية ولاسيما لدى الفقراء ولائحته التنفيذية؛
11. قانون سلامة الأغذية ومطابقتها للمواصفات وعدم الغش فيها ولائحته التنفيذية
12. قانون منع التدخين في الأماكن العامة ولائحته التنفيذية؛
13. قانون الزراعة ولائحته التنفيذية؛
14. قانون لتجارة وامتلك واستخدام المبيدات الزراعية ولائحته التنفيذية؛
15. قانون إنشاء السدود والحواجز المائية ولائحته التنفيذية؛
16. قانون حماية التنوع الحيوي وإنشاء المحميات الطبيعية ولائحته التنفيذية؛
17. قانون تحديد الآفات والأمراض الضارة بالحيوانات والإجراءات والاحتياطات التي تتخذ لمكافحته ومنع انتشارها ولائحته التنفيذية؛
18. قانون لتصدير البن وتشجيعه ولائحته التنفيذية؛
19. قانون لتصدير مادة الملح وتشجيعه ولائحته التنفيذية؛
20. قانون لتصدير البن وتشجيعه ولائحته التنفيذية؛

21. قانون لتصدير الأسماك وتشجيعه ولائحته التنفيذية؛

22. قانون تنظيم وتسويق المنتجات الزراعية والخضراوات والفواكه ولائحته التنفيذية؛

23. قانون تنظيم الصناعة وتشجيعها ولائحته التنفيذية؛

24. قانون نظام العاملين بالقطاع العام ولائحته التنفيذية؛

25. قانون المنشئات الفندقية والسياحية ولائحته التنفيذية؛

26. قانون تنظيم الشركات السياحية ولائحته التنفيذية؛

27. قانون الإعلام ولائحته التنفيذية؛

28. قانون تنظيم الإعلانات ولائحته التنفيذية؛

ويتضح مما تقدم أن هناك حاجة إلى تطوير قاعدة الأطر القانونية والإجرائية المنظمة لعمليات تنظيم امتلاك واستغلال وصيانة الموارد الطبيعية وحماية البيئة. ويمكن تحقيق ذلك من خلال الآتي:

1. دراسة التشريعات النافذة لتحديد نقاط ضعف كل واحد منها وأفضل الطرق والوسائل لتنفيذها وكذا أجراء التعديلات المناسبة.

2. إصدار اللوائح التنفيذية والقرارات والأحكام المعنية بالقوانين النافذة.

3. استكمال الإجراءات الخاصة بإصدار مشروع قانون المياه، ومشروع قانون الري، ومشروع قانون الغابات، ومشروع قانون السياحة، ومشروع قانون النفط، بالإضافة إلى إصدار اللوائح التنفيذية والقرارات والأحكام المعنية بهذه القوانين.

4. إجراء دراسات للنواقص التشريعية المذكورة أعلاه وتحديد أهدافها، ومكوناتها ومتطلبات وآليات تنفيذها، ثم إصدار تلك القوانين مع لوائحها التنفيذية.

6.5. المبادرات المبذولة لتعميم الاستخدام المستديم للموارد واستعادة المناطق المتدهورة:

تنفذ حاليا في العديد من مناطق اليمن مجموعة كبيرة ومتنوعة من المبادرات والمشاريع البيئية (جدول رقم 8- في الملحق رقم 1)، بعضها مختصة بتعميم الاستخدام المستديم للموارد الطبيعية ومنها مشروع المشاركة الشعبية في إدارة الموارد الأرضية التي تنفذه وزارة الزراعة، ومشاريع قوانين المياه والري والسياحة. والبعض الأخر مهتمة باستعادة المناطق المتدهورة بجعلها صالحة للسكن والاستخدام مرة أخرى (مثل مشروعي حرز والمناهل السكنيين بمحافظة حضرموت واللذان ينفذا من قبل وزارة الإنشاءات والتخطيط الحضري)، ومشاريع تحسين خدمات إمدادات المياه والصرف الصحي في المدينة والريف الذي يتم تنفيذها من قبل المؤسسة العامة للمياه والصرف الصحي والهيئة العامة لكهرباء ومياه الريف). بالإضافة إلى مشاريع وبرامج مكافحة الفقر التي يأتي اهتمامها بحماية البيئة والاستخدام المستديم للموارد الطبيعية بالصدفة ومن غير قصد مثل مشاريع المياه والري والصرف الصحي والبناء المؤسسي والفني التي يمولها الصندوق الاجتماعي للتنمية وبرنامج تنمية المجتمعات المحلية، وصندوق تشجيع الإنتاج الزراعي والسمكي، ومشروع تنمية المساعدة الذاتية في المناطق الريفية ايداس-2 (جدول رقم 8).

ويبدو أن أفضل وانجح الحالات العملية التي يمكن اعتمادها كنماذج لتعميمها على نطاق واسع هي تلك التي تمكن الفقراء أنفسهم من القيام بتنمية وصيانة الموارد الطبيعية بالاعتماد على المساعدة الذاتية وعلى الموارد العامة المتاحة. مثل الحالات التي يقوم بها صندوق تشجيع الإنتاج الزراعي والسمكي والصندوق الاجتماعي للتنمية وبرنامج المشاركة الشعبية في إدارة الموارد الأرضية وبرنامج تنمية المجتمعات المحلية. حيث تقوم هذه المصادر بتشجيع التنمية المستدامة عل المستوى الإقليمي والمحلي من خلال تمويل المشروعات التي تهم الفئات المحرومة عبر توفير الخدمات الصحية والتعليمية والمياه والري

والصرف الصحي والتوسع في الإنتاج الزراعي والسمكي والثروة الحيوانية وغيرها من أنشطة التنمية الاجتماعية المختلفة المولدة لفرص العمل المؤقتة والدائمة من جهة، وصيانة الموارد الطبيعية وحماية البيئة من جهة أخرى. ويتم في مناطق المشاريع تنظيم المجتمعات المحلية لتنمية بنياتها الأساسية وزيادة دخل مواطنيها مع تقديم الخبرة الفنية لهؤلاء المواطنين، مع اشتراط مساهمته في ذلك. وسنقوم في الجزء التالي بتحليل تجربة بعض المبادرات الناجحة بشكل مفصل.

وتجدر الإشارة إلى وجود عدد من السلبيات المرافقة لكل المبادرات القائمة حاليا لتعميم الاستخدام المستديم للموارد واستعادة المناطق المتدهورة ومن أهمها:

- تعدد الجهات التي تدير برامج حماية البيئة ومكافحة الفقر كمجلس حماية البيئة والوزارات والهيئات والمنظمات الشعبية ذات العلاقة بالإضافة إلى مشروعات مكافحة الفقر كالصندوق الاجتماعي للتنمية وصندوق تشجيع الإنتاج الزراعي والسمكي (انظر جدول رقم 8 لمزيد من التفصيل)؛
- الغياب الكامل للتنسيق والتكامل بين القائمين على هذه الأجهزة من ناحية وبين المبادرات والأعمال التي تقوم بها على الرغم من أنها تشترك جميعها في هدف واحد وهو المساهمة في تحقيق التنمية المستديمة في اليمن من خلال مكافحة الفقر وحماية البيئة.

7.5. التجارب التي خاضتها البرامج والمشاريع للتغلب على المشاكل البيئية في الأحياء الفقيرة:

يوجد تشابه كبير بين التجارب التي خاضتها المبادرات والمشاريع المذكورة في الجزء السابق في التغلب على المشاكل البيئية في الأحياء الفقيرة في المدن والتجمعات المقامة

على قارعة الطريق والمناطق الأخرى الأهلة والمكتظة بالسكان. وفيما يلي عرض موجز لبعض النماذج الناجحة نسبيا:

1.7.5 تجربة مشروع تنمية المساعدة الذاتية في المناطق الريفية

مشروع تنمية المساعدة الذاتية في المناطق الريفية (ايداس—2) هو أحد مشاريع التعاون اليمني الألماني،يتم تنفيذه بواسطة وزارة الزراعة والمؤسسة الألمانية للتعاون الفني (G.T. Z.). ويهدف المشروع إلى تنمية القدرات الذاتية للمجاميع الريفية الأكثر فقرا - في أربع محافظات هي أبين ولحج وإب وتعز- لتمكينها من تنفيذ أنشطتها التنموية المستديمة بالاعتماد على المساعدة الذاتية و على الموارد العامة المتاحة. وتتلخص آلية التدخل بالأتي[20]: تقوم فرق العمل الحقلية التابعة للمشروع (فريق رجالي وفريق نسائي في كل محافظة) أولا بالاتصال المباشر بالمجاميع الريفية لنشر مفاهيم المساعدة الذاتية. وتتألف هذه المجاميع من أشكال العمل الجماعي التالي: جمعيات تعاونية زراعية و جمعيات خيرية و جمعيات نسوية (قائمة وتحت الإنشاء). ثانيا إعداد خطط عمل لأنشطة وأولويات المجاميع بالمشاركة سواء في مرحلة تجميع المعلومات أو عند وضع الأولويات أو عند الصياغة النهائية للخطة وما تتضمنه من معلومات فنية و تنفيذية لمعالجة المشاكل و(الجدول رقم 9) يوضح مضمون إحدى الخطط التي تم وضعها بالمشاركة مع الناس وماتتضمنه من أولويات (مشاكل) وخيارات حلولها والأنشطة المقترحة ومساهمة الأهالي والمساهمة الخارجية. في الأخير يجب الإشارة إلى أن نشاط ايداس — 2 ينحصر في توفير التدريب في مجالات التدريب على إدارة الأنشطة الاقتصادية الريفية والمدرة للدخل. كما أنه كغيره من المشاريع المماثلة يعاني من ضآلة الموارد المالية.

2.7.5. تجربة صندوق تشجيع الإنتاج الزراعي والسمكي

أنشئ الصندوق من خلال القانون رقم (6) لسنة 1993 ولكن لم يبدأ نشاطه الفعلي إلا سنة 1996 بعد القضاء على مؤامرة الانفصال. ويهدف الصندوق إلى تشجيع المزارعين والصيادين على تخفيف الأعباء الناتجة عن ارتفاع أسعار مستلزمات ومدخلات الإنتاج ومواجهة مشكلات التسويق مما يمكنهم من الاستمرار والتوسع في عمليات الإنتاج والحفاظ على الأراضي الزراعية. ويقوم الصندوق بتمويل العديد من البرامج الريفية والهادفة إلى خلق تنمية ريفية مستديمة (جدول رقم 8). وفيما يلي عرض موجز للتجارب التي خاضتها هذه البرامج في التغلب على المشاكل البيئية التي تواجه فقراء الريف كونها من النماذج الناجحة نسبيا[21].

1.2.7.5. برنامج تشجيع زراعة النخيل

يقوم الصندوق بتشجيع التوسع في زراعة النخيل وإنتاج التمور في المناطق الملائمة لزراعته في كل من محافظات حضرموت، وشبوه، والحديده، وأبين ولحج من خلال هذا البرنامج. حيث يتم منح كل مزارع دعم مجاني مقابل غرس 20 فسيلة حية وبمقدار 500 ريال لكل فسيلة تسلم على قسطين عند شراء الفسائل وبعد غرسها. ويعطي البرنامج المزارع الحق في انتقاء نوع الفسائل وشرائها ونقلها وزراعتها تحت إشراف وزارة الزراعة ومكاتبها بالمحافظات. وبهذا تم زراعة أكثر من 150000 فسيلة جديدة استفاد منها 2897 مزارع.

2.2.7.5. برنامج تشجيع التربية المنزلية للأبقار والأغنام

يهدف صندوق تشجيع الإنتاج الزراعي والسمكي من خلال هذا البرنامج إلى تنمية موارد الأسر الريفية وزيادة الإنتاج من اللحوم والألبان عبر تفعيل الإمكانيات المعطلة للمجتمع الريفي والاستفادة من الإمكانيات البيئية والاقتصادية المتوفرة. حيث

يقوم الصندوق بتزويد الأسر المستهدفة بالتمويل اللازم لشراء عشرة رؤوس أغنام أو بقرتين 40% منها دعم مجاني من الصندوق والباقي 60% كقرض ابيض يسدد على قسطين خلال فترة زمنية محددة. كما يتطلب من الأسر المستفيدة دفع نسبة 20% من إجمالي قيمة الحيوانات كمساهمة منهم وإذا لم تستطع دفع ذلك يقوم الصندوق بدفعها كقرض إضافي واجب سداده من قبل الأسرة خلال الفترة المحددة لاسترداد القرض.

6. ألآلية المقترحة لتنفيذ الخطة الوطنية لاستئصال الفقر وخطة العمل الوطنية للبيئة

لقد احتوت معظم أجزاء الدراسة على مجموعة متنوعة من التدخلات المقترحة لمواجهة الفقر وتدهور البيئة في اليمن. كما أن خطة العمل الوطنية للبيئة قد حددت أيضا مجموعة شاملة من الإجراءات والأدوات والآليات (المؤسسية، والتشريعية، والاقتصادية، والمالية، والمعلوماتية والمشاركة الشعبية) الضرورية لحماية البيئة وتنميتها في الوقت الحالي وفي المستقبل (جداول 2 – 6). وعليه فإن الحديث هنا سينصب حول كيف تستطيع الخطة الوطنية لاستئصال الفقر خدمة خطة العمل الوطنية للبيئة، وجعل الفقراء يحافظون على البيئة (بصورة جيدة) والبيئة الجيدة تحافظ على الفقراء.

تتطلب عملية التخفيف من الفقر (في الريف) من خلال الاعتبارات البيئية إستراتيجية تنموية موجهة نحو الحفاظ على الموارد الطبيعية بحيث تعمل على إدماج أهداف النمو الاقتصادي والتخفيف من حدة الفقر وحماية وتعزيز البيئة[22]. وتتمثل العناصر والأدوات والآليات الأساسية للتطبيق الناجح لهذه الاستراتيجية في: (1) مساهمة المستفيدين؛ (2) منح الحوافز الاقتصادية الموجهة نحو الحفاظ على البيئة؛ (3) و؛ (4) التعاون مع المنظمات غير الحكومية وإشراكها في التنمية

أولا: إشراك المستفيدين

يعد إشراك المستفيدين الآلية والعنصر الأساسي لنجاح التدخلات التنموية التي تستهدف تخفيف الفقر. وقد يتضح ذلك بشكل خاص في المشاريع الموجهة نحو الحفاظ على البيئة حيث أنه من غير الممكن المبادرة بهذه المشاريع بدون المساهمة الفعالة من قبل المستفيدين، ناهيك عن تنفيذها واستدامتها بنجاح. ويعد إشراك المستفيدين مسألة مهمة أيضا في معالجة المشاكل المرتبطة بالموارد الطبيعية ذات الملكية العامة وفي ضمان ديمومة هذه المشاريع من تلقاء نفسها. و لهذا فانه يجب في أي محاولة للحفاظ على الموارد الطبيعية أثناء عملية تخفيف الفقر الآخذ بعين الاعتبار مايلي:

1. تمكين المجموعات المحلية من الفقراء وذوي الدخل المحدود من امتلاك المشاريع من خلال مشاركتها في إعداد، وتصميم، وتنفيذ، وتقييم الجهود الموجهة نحو الحفاظ على البيئة وإدارة الموارد. وهناك مثال للنجاح الكامن في تطبيق مثل هذا النجاح وهو إشراك المستفيدين في إدارة المياه حيث نجحت جمعيات مستخدمي المياه تماما في صيانة مشاريع المياه ذات النطاق الضيق (التي يمولها الصندوق الاجتماعي للتنمية وصندوق تشجيع الإنتاج الزراعي والسمكي وغيرها والتي تعتمد نفس الآلية) وفي توزيع المياه واستعادة تكاليف التشغيل ورسوم المياه؛

2. إن إحدى النواحي الهامة في إشراك المستفيدين في الحفاظ عل الموارد الطبيعية هي مدى تلاؤم تقنيات الحفاظ على هذه الموارد مع احتياجات المستفيدين وظروفهم المحلية. ففي حالات عديدة تم إدخال التقنيات الحديثة للحفاظ على التربة وقنوات الري ولكن المستفيدين لم يبقوا عليها فيما بعد، في حين استمرت ممارسة التقنيات التقليدية في المناطق ذاتها؛

3. وحيث أن صغار المنتجين عادة ما يشتركون في أنظمة متنوعة للزراعة المختلطة والمتعددة المحاصيل؛ فلابد من الأتي:

- تطوير تقنيات وأنظمة زراعية ملائمة لهم وبمشاركتهم المباشرة؛
- إعادة توجيه وكالات ومراكز البحوث وتأمين التقاء الباحثين والمزارعين في حقول المزارعين من أجل إجراء تجارب تكييفية حقلية. فالتجارب الحقلية التي يديرها المزارعون أكثر جدوى اقتصاديا وأكثر قبولا من قبل المزارعين من التجارب التي يجريها الباحثون في مراكز البحوث؛
- كما يجب في أي محاولة للحفاظ على الموارد الطبيعية أثناء عملية تخفيف الفقر الآخذ بعين الاعتبار مسألة التمييز بين شبه القطاعات الرعوية والرعوية الزراعية التي يعتمد عليها عدد كبير من الفقراء في الريف على قوتهم اليومي. ويجب أن يتطور التوجه من مجرد البحث عن زيادة إنتاجية تربية الثروة الحيوانية كما هو عليه الحال إلى تعزيز القدرة الإنتاجية للأراضي الرعوية. ويجب أن تتضمن هذه التدخلات شكلا من أشكال التعويض للمستفيدين مثل الغذاء مقابل العمل أو حصة من الأعلاف لإراحة الأراضي الرعوية.

ثانيا: تشجيع دور المرأة في التنمية

من أجل تحويل حلقة الفقر المدقعة إلى حلقة فعالة من النمو، ومن أجل الحد من المعدل العالي للمواليد، ومن أجل الحد من التدهور المستمر للبيئة فإنه لابد من تحسين الوضع الاقتصادي والاجتماعي للمرأة. ويمكن تحقيق ذلك من خلال القيام بمجموعة متنوعة من المبادرات تشمل تيسير حصول المرأة على الأرض والخدمات المالية والاجتماعية مثل التعليم، والصحة والتغذية، والمياه، والمسكن والصرف الصحي. ولقد أظهرت تجربة الإيفاد الحقلية بأن أكثر الطرق فعالية في الوصول إلى المرأة الريفية المهمشة تتمثل في تعبئتها وتأهيلها فيما يلي:

1. كمساعدة فنية في الحقل وإدماجها وكيلة في خدمات الإرشاد الزراعي الريفي. حيث يكون الاتصال بين الذكور والإناث صعبا في الريف اليمني للأسباب الدينية والاجتماعية و؛

2. كشريكة مالية في المنزل من خلال النشاطات المولدة للدخل و؛

3. التعليم وفوائده الشاملة في تحسين أوضاع المرأة في شتى ميادين الحياة وتمكينها من اتخاذ قرارالها بنفسها خاصة في مجال الصحة الإنجابية والمشاركة في الوظيفة العامة والعمل الشعبي في المشاريع البيئية والتنموية.

ثالثا: تقديم الحوافز الاقتصادية الموجهة نحو الحفاظ على البيئة

لما كان المنتجون الريفيون الفقراء محرومين من وسائل الإنتاج الاقتصادية، فقد وجدوا أنفسهم مشغولين على الدوام في خطة كفاح متصاعد من أجل البقاء. وهكذا، فإنهم لا يرغبون في تطبيق أساليب الحفاظ على الأراضي المتدهورة والإبقاء عليها، إلا عندما تعود مثل هذه النشاطات بفوائد واضحة وسريعة وبتكاليف منخفضة[23] فالقضية بالنسبة للمزارع الفقير ليست قضية تفضيل تقنية على أخرى، وإنما هي كيفية الحفاظ على مصالحه من خلال استخدام أساليب الإدارة المزرعية المعتمدة على الحفاظ على الموارد الطبيعية.ولهذه الأسباب فإنه من الضروري إيجاد حوافز ملائمة لإقناع المزارعين والرعاة وغيرهم بالمساهمة في نشاطات الحفاظ على التربة والمياه والإبقاء عليها.

ومن أهم الحوافز، الحوافز الاقتصادية ذات الأثر المباشر على دخل ورفاه الأسر الفقيرة، وتتضمن الأتي:

1. تنمية الموارد المائية وتكثيف المحاصيل الزراعية وتحفيز مشروعات تنمية المراعي والثروة الحيوانية والثروة السمكية من خلال توفير الائتمان والتدريب والإرشاد؛

2. تعزيز حقوق ملكية الأراضي بسبب أهميتها في إقناع المزارعين والرعاة وغيرهم بالاستثمار في أعمال الحفاظ على الموارد الطبيعية ذات الفوائد بعيدة المدى؛

3. توفير التسهيلات التسويقية من أجل تثبيت أفضل لأسعار المنتجات، وبالتالي ضمان دخل أعلى للاستهلاك والاستثمار؛

4. تطوير المستوطنات البشرية في الحضر والريف من خلال مايلي:

- تشجيع برامج الإسكان لذوي الدخل المحدود مع الاهتمام بأسلوب المسكن النواة القابل للتوسع واستخدام المواد المحلية والتقنيات المناسبة بما فيها الموروثة في أساليب البناء؛
- توجيه مزيد من الاستثمارات للخدمات البيئية في الريف والتجمعات السكانية الهامشية في أطراف المدن مع إعطاء الأولوية لتنفيذ مشروعات المياه والصرف الصحي وتطوير التقنيات المنخفضة الكلفة لمعالجة الصرف الصحي، ومشروعات تدوير المواد الثانوية والنفايات.

رابعا: تشغيل الفقراء في المشاريع البيئية

من المحتمل، بسبب ندرة المياه، أن لا تحل التنمية الزراعية وحدها مشكلة الفقر والبطالة في الريف اليمني. بالإضافة إلى ذلك، فإن التغيرات الزراعية تسبب تغيرا في الطبيعية التجارية للمناطق الريفية، مع ازدياد الاحتياجات للبضائع والخدمات كمستلزمات للزراعة وارتفاع طلب المزارعين على البضائع الاستهلاكية. والمطلوب هو رؤية أوسع للتنمية الريفية تتجاوز الأسواق إلى ما وراء الزراعة، والرعي وصيد الأسماك؛ والمفتاح هنا هو توفير فرص عمل للفقراء والمعدمين في البرامج والمشاريع البيئية والتنموية مثل:

مشاريع حصاد المياه؛ إنشاء وتحسين قنوات الري، والحفاظ على التربة، وصيانة المدرجات الزراعية وغيرها من المشروعات الزراعية والصناعية الزراعية؛ مشاريع الصرف الصحي في المدن والريف، مشاريع تدوير المواد الثانوية والمخلفات الصلبة وإعادة تصنيعها واستخدامها كمدخلات للإنتاج. وقد أثبت هذه المشاريع بأنها من الوسائل الهامة في خلق فرص عمل واسعة للفقراء في العديد من مدن العالم؛ بالإضافة إلى تشجيع المشروعات الصغيرة والتشغيل الذاتي وبرامج الأشغال العامة.

خامسا: تعزيز الإدارة البيئية

1. إن من أهم ما يتطلبه التنفيذ الناجح للخطة الوطنية لاستئصال الفقر وخطة العمل الوطنية للبيئة هو إنشاء وحدة أو جسم إداري وفني متفرغ لتحقيق التنسيق والتكامل بين الأجهزة المسؤولة والعاملة على حماية البيئة (مثل مجلس حماية البيئة والوزارات والهيئات والمنظمات الشعبية ذات العلاقة) ومكافحة الفقر (مثل الصندوق الاجتماعي للتنمية، وصندوق تشجيع الإنتاج الزراعي والسمكي، وبرامج الأشغال العامة وتنمية المجتمعات المحلية) وما تنفذه من أنشطة. ونقترح أيضا أن يتم إنشاء "فروع محلية لهذا الجهاز في كل محافظة وذلك لتحقيق مشاركة شعبية فاعلة، على أن يحدد اسم الجهاز الإداري المقترح وفروعه ومواقعها واختصاصاتها في حينه؛
2. التمكين المؤسسي لأفراد ومجموعات ومنظمات المجتمع المحلي ويمكن تحقيق ذلك من خلال المساعدة في إعداد النظم الداخلية لتلك المنظمات وانتخاب هيئاتها الإدارية وتسجيلها لدى الجهات الرسمية المعنية؛
3. تعزيز القدرات الفنية لمؤسسات البيئة ومكافحة الفقر ومنظمات المجتمع المحلي. ويتحقق هذا التمكين بمساعدة تلك المؤسسات على بناء وتطوير طاقاتها وإمكانياتها الفنية في مجالات الإدارة والتنظيم والتخطيط وإعداد البرامج

والمشروعات التنموية والبيئية التنفيذ والمراقبة والتقييم بأسلوب المشاركة من القاعدة إلى القمة. ويتحقق التمكين الفني من خلال التدريب اللازم لإحداث تطوير وتنمية المعارف والخبرات والمهارات وتوفير الأجهزة والمعدات والمختبرات والأموال الكافية لتنفيذ الأنشطة البيئية والتنموية، إضافة إلى تقديم المساعدات الفنية من خلال الخبرات الوطنية والمحلية في جميع مجالات التمكين المؤسسي والفني خاصة في مجال إجراء الدراسات وترجمة المشاكل والاحتياجات إلى حلول ومقترحات تؤدي إلى خلق مشروعات وبرامج بيئية وتنموية شاملة معتمدة على المشاركة الشعبية من أسفل إلى أعلى[24]؛

4. مراجعة التشريعات النافذة لتحديد نقاط ضعف كل واحد منها وأجراء التعديلات المناسبة، بالإضافة إلى إعداد وإصدار اللوائح التنفيذية للقوانين النافذة والقرارات والأحكام المعنية بها؛
5. استكمال الإجراءات الخاصة بإصدار مشروع قانون المياه وقانون الري وقانون الغابات وقانون السياحة وقانون النفط، بالإضافة إلى إصدار اللوائح التنفيذية لهذه القوانين والقرارات والأحكام المعنية بها؛
6. إجراء دراسات للنواقص التشريعية ذات العلاقة ومنها مجموعة القوانين واللوائح البيئية التي سبق وأن أشرنا إليها في موضوع الأطر القانونية والإجرائية المنظمة لامتلاك واستغلال وصيانة الموارد الطبيعية. بالإضافة إلى إصدار تلك القوانين مع لوائحها التنفيذية وكذلك العمل على تنفيذها؛
7. إجراء الدراسات الميدانية الكافية لأوضاع البيئة اليمنية ومواردها الطبيعية على المستوى المحلي (مديرية) وعلى مستوى المنظومة البيئية الواحدة وعلاقات المنظومات ببعضها وأثر ذلك على عملية التنمية؛
8. إجراء الدراسات الميدانية الكافية للفقر على المستوى المحلي (مديرية) وربطها بأحوال البيئة.

سادسا: التعليم وحماية التراث والثروات الطبيعية النادرة

1. إدخال البعد البيئي في مناهج وبرامج التعليم في جميع مستوياته ومراحله؛
2. تشجيع مشروعات الحصر للثروات الطبيعية خاصة النادرة وتسجيلها وكذا التوسع في إقامة المحميات الطبيعية؛
3. مساندة المخططات والمشروعات التي تعد للمحافظة على الموروث الحضاري اليمني الكبير وحمايته من التأثيرات البيئية الضارة.

سابعا: توفير التمويل الكافي لمشروعات مكافحة الفقر وحماية البيئة

مع أننا نرحب بالمبادرات العديدة في مجال تمويل المشروعات القائمة حاليا في اليمن ومن بينها صناديق التمويل ومشروعات المحافظة على البيئة (الجدول رقم 8) نظرا لأهميتها كخطوات أولى في المحافظة على التوازن بين البيئة والتنمية، لكننا نود أيضا أن نؤكد على ضرورة مايلي:

1. زيادة حجم التمويل المتاح لهذه الصناديق والمشروعات بموارد دائمة ومتجددة وكافية لتوسيع قاعدة أنشطتها وتوزيعها على جميع مناطق اليمن؛
2. استخدام هذه الأموال في تقديم المساعدات للفقراء على شكل منح لا ترد لإعداد وتنفيذ ومتابعة مخططات المحافظة على البيئة، ودراسات التقييم البيئي والاقتصادي للمشروعات الإنمائية، وإقامة قواعد المعلومات المحلية والوطنية الخاصة بالفقر والبيئة؛
3. تخصيص بقية الأموال لتمويل تنفيذ المشروعات على شكل قروض ميسرة للفقراء على أن تعطى الأولوية للمشروعات الأقل كلفة والأكثر فعالية لتلبية احتياجاتهم مع الاعتماد على الإمكانات الذاتية.

المراجع

1. وزارة التخطيط والتنمية، " اليمن: تقرير التنمية البشرية 1998"، إعداد د. يحي المتوكل وآخرون، صنعاء، ديسمبر 1998م-ص 81.
2. الصقور، محمد، 1999، "وثيقة إطار إستراتيجية وسياسات الفقر في اليمن"، شبكة الأمان الاجتماعي، صنعاء، ص 18.
3. المرجع رقم 1، ص 49.
4. وزارة التأمينات والشئون الاجتماعية، "التقرير الوطني حول متابعة تنفيذ مقررات مؤتمر القمة العالمي للتنمية الاجتماعية: كوبنهاجن 95م + 5 سنوات"، صنعاء، أبريل 2000م- ص 7.
5. برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، "مناهضة وإزالة الفقر: تقرير اجتماعات الخبراء عن القضاء على ظاهرة الفقر وتوفير سبل العيش المستديم في الدول العربية"، نيويورك، سبتمبر 1996. عبادي ، 1993- ص 108.
6. المرجع السابق، ص 13.
7. عبادي، نبيل، 1993، "الإنسان والبيئة الطبيعية في اليمن"، دار الكتب العربية، صنعاء، ص13.
8. المجلس الاستشاري، "الوضع البيئي ومستقبل البيئة في الجمهورية اليمنية: وثائق ندوة البيئة التي أقامها المجلس الاستشاري بالتعاون مع مجلس حماية البيئة، صنعاء، مارس 1998م-ص 9.
9. مجلس حماية البيئة، "مسودة تقرير الوضع البيئي في اليمن لعام 2000م"، تقرير غير منشور-ص 29.
10. مجلس حماية البيئة، "خطة العمل الوطنية للبيئة"، صنعاء، 1996-ص 9.
11. المرجع رقم 2، ص10.
12. المرجع رقم 1، ص 78.
13. المجلس الوطني للسكان، "الندوة الوطنية لأوضاع السياسات السكانية في الجمهورية اليمنية"، صنعاء، 1993- ص370).
14. المرجع رقم 5 ، ص 88.
15. المرجع رقم 2، ص 51.
16. ألن، در ننج، 1989، "الفقر والبيئة: الحد من دوامة الفقر"، ترجمة محمد صابر، الدار الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، ص29.
17. برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، 1997،"مكافحة وإزالة الفقر: العناصر الرئيسية لاستراتيجية القضاء على الفقر في البلدان العربية"، نيويورك، مايو 1997.
18. المحيا، عبدالله مسعد، "دراسة لقانون حماية البيئة اليمني في ظل غياب التشريعات المكملة"، النور للطباعة، صنعاء، 1997.
19. الصقور، محمد، 1999، "حطة إجرائية لإعداد ووضع وأعمال حطة التنفيذ الوطنية لاستئصال الفقر في اليمن"، شبكة الأمان الاجتماعي، صنعاء، ص 18.
20. المرجع رقم 8، ص37.

21. الدقيل، عبد الله، " تجربة مشروع تنمية المساعدة الذاتية في الحد من مشكلة الفقر في المناطق الريفية: ايـــداس – 2"، ورقة عمل مقدمة إلى الندوة العلمية الخاصة بإنشاء بنك الفقراء في اليمن، وزارة التأمينات والشـــئون الاجتماعية، صنعاء، يونيو 2000م.

22. العطاب، عبد لله، " صندوق تشجيع الإنتاج الزراعي والسمكي ودوره في تنمية الأسر الريفيـــة ومكافحـــة الفقر"، ورقة عمل مقدمة إلى الندوة العلمية الخاصة بإنشاء بنك الفقراء في اليمن، وزارة التأمينات والشـــئون الاجتماعية، صنعاء، يونيو 2000م.

23. المرجع رقم 5، ص 222.

24. زمام، محمد منصور، "برنامج تنمية المجتمعات المحلية ومحاربة الفقر في اليمن"، ورقة عمل مقدمة إلى النـــدوة العلمية الخاصة بإنشاء بنك الفقراء في اليمن، وزارة التأمينات والشئون الاجتماعية، صنعاء، يونيو 2000م.

الملاحق

الجدول رقم (1): المشاكل البيئية في اليمن، والهموم المحددة لها بالإضافة إلى أهداف خطة العمل الوطني للبيئة.

الجدول رقم (2): الإجراءات (الأعمال) البيئية المطلوبة في إدارة موارد المياه.

الجدول رقم (3): الأعمال البيئية الوطنية المطلوبة في إدارة موارد الأراضي.

الجدول رقم (4): الأعمال أو الإجراءات المطلوبة في إدارة المواطن.

الجدول رقم (5): الأعمال البيئية الوطنية المطلوبة في إدارة أو معالجة النفايات.

الجدول رقم (6): الإجراءات أو الأعمال ذات الأولوية ي خطة العمل الوطنية لحماية البيئة.

الجدول رقم (7): مشاريع البرنامج القومي الوطني للتحكم على وللحد من التصحر.

الجدول رقم (8): المبادرات القائمة حاليا في اليمن لتعميم الاستخدام المستديم للموارد الطبيعية واستعادة المناطق المتدهورة.

الجدول رقم (9): مثال لخطة عمل بالمشاريع لجمعية الحداد الخيرية بمحافظ لحج للفترة (1995-2000).

الجدول رقم (1): المشاكل البيئية في اليمن، والهموم المحددة لها بالإضافة إلى أهداف خطة العمل الوطني للبيئة.

المشكلات الأساسية	جوانب محددة للمشكلات	أهداف خطة العمل الوطني للبيئة
استنـــزاف وتلوث مـــوارد المياه	- استخدام جائر للمياه الجوفية.	صون موارد المياه
	تلوث المياه	حماية موارد المياه من التلوث
		توفير مياه شرب نقية لـــ 75% من السكان بحلول عام 2000م.
تدهور موارد الأرض	انجراف التربة	تنفيذ الخطة الوطنية لمكافحة التصحر
	تعرية الغطاء النباتي	تطوير أسلوب إدارة الغابات
	تدهور الأرض الزراعية والمراعي	تطوير أسلوب إدارة الأراضي الزراعية والمراعي
	فقدان الأراضي الزراعية نتيجة التوسع الحضري	إنشاء نظام لتخطيط استخدام الأراضي وتحديد المناطق الزراعية والمحمية.
تدهور الموائل	تدهور البيئة الطبيعية (غابات، الأراضي الرطبة، المواطن	وقف تدهور البيئة الطبيعية
	فقدان التنوع الحيوي (انقراض أنواع مستوطنة ونادرة)	صون التنوع الحيوي
إدارة المخلفات	معالجة وتصريف مياه الصرف الصحي	توفير التجهيزات اللازمة
	التخلص أو تدوير المخلفات الصلبة	تجهيز أدوات التخلص من المخلفات الصلبة بما في ذلك تدويـــر وإعـــادة
	إدارة المخلفات الخطرة	إدارة ملائمة للمخلفات الخطرة
	إدارة مخلفات المستشفيات	تنظيم المراقبة البيئية
	إدارة المبيدات	إدارة ملائمة للمبيدات

الجدول رقم 2: الإجراءات (الأعمال) البيئية المطلوبة في إدارة موارد المياه.

الآليات الأهداف	الأدوات التشريعية	الإجراءات المؤسسية	الآليات الاقتصادية	الاستثمارات المالية	الآليات المعلوماتية	المشاركة الجماهيرية الجماعية في:
حفظ أو المحافظة على مصادر المياه	إصدار وتسنين قانون المياه إصدار النظم المتعلقة باستيراد تقنية الاستغلال للمياه.	تفعيل الهيئة الوطنية العامة للمياه	رفع الرسوم الجمركية لمعدات الحفر. العمل على تطبيق تعرفة أسعار المياه التي تعكس التكاليف الفعلية إعطاء حوافز لتقليل استهلاك المياه في الري	إنشاء السدود وصهاريج المياه بناء على جدوى اقتصادية وفنية وبيئية إدخال وسائل وأنظمة حديثة للري تساعد على توفير المياه. تطبيق تعرفة أسعار المياه التي تعكس التكاليف الفعلية	تحديث المعلومات الخاصة بمخزون المياه الجوفية المتوفرة. إنشاء قاعدة معلوماتية كاملة لموارد المياه.	إصدار وتسنين قانون المياه. إصدار النظم المتعلقة باستيراد تقنية الاستغلال للمياه. العمل على مشاركة مستهلكي المياه (جمعيات محلية) في إدارة المياه والمحافظة على حمايتها من خلال تمكينهم تحديدا في عمليات إعداد وإصدار القوانين ذات العلاقة والإضافة إلى عمليات جمع المعلومات الخاصة بالموارد واستخداماتها

الآليات الأهداف	الأدوات التشريعية	الإجراءات المؤسسية	الآليات الاقتصادية	الاستثمارات المالية	الآليات المعلوماتية	المشاركة الجماهيرية الجماعية في:
حماية مصادر المياه من التلوث	إصدار اللوائح المتعلقة بحماية البيئة	إنشاء مراكز للرقابة والتحكم على جودة المياه في جميع أنحاء الجمهورية	فرض عقوبات (غرامات) على الملوثين. دعم الصناعات الخالية من النشاط الملوث (للمياه)		النشر أو التوزيع للمعلومات عن تلوث المياه أسبابه وكيفية معالجتها.	فرض عقوبات (غرامات) على الملوثين وإعطاء حوافز مالية لمستخدمي المياه بصورة سليمة.
توفير مياه شرب نقية لـ % من السكان للعام 2000م	تطهير ميله الشرب (في الآبار والشبكة) منع استخدام مياه الشرب لسقي القلت فرض ضوابط تحدد من الاستخدامات غير المشروعة	إنشاء هيئات شعبية على المستوى المحلي لإدارة المياه وتقويتها من الناحيتين الفنية والإدارية الترويج لصيانة شبكات المياه عن طريق القطاع الخاص	رفع رسوم أو أسعار التعرفة لاستهلاك المياه. التشجيع على استخدام إيرادات رسوم المياه لحماية والتطوير والمحافظة لموارد المياه.	تشجيع القطاع الخاص لبناء صهاريج أو خزانات كبيرة للمياه. تبني تكنولوجيات جديدة. تطوير مصادر بديلة لمياه الشرب.	دراسة مصادر المياه الموجودة حالياً لمعرفة كمية مياه الشرب المتاحة. جمع إحصائيات عن السكان وعن أهالي البيوت ومتطلبات المياه لعمليات البناء.	التخلص من المركزية في إدارة المياه. منح الإدارات المحلية الصلاحيات في إدارة المياه (في مناطقهم). مشاركة المنظمات غير الحكومية، والقطاع الخاص ووسائل الإعلام في قضايا إدارة المياه.

الجدول رقم 3: الأعمال البيئية الوطنية المطلوبة في إدارة موارد الأراضي.

الآليات الأهداف	الأدوات التشريعية	الإجراءات المؤسسية	الآليات الاقتصادية	الاستثمارات المالية	الآليات المعلوماتية	المشاركة الجماهيرية الجماعية
تنفيذ البرنامج القومي لمكافحة التصحر	إصدار لائحة تنفيذية لتحديد دور الحكومة في برنامج مكافحة التصحر.	تعزيز الإمكانيات الإدارة العامة للغابات ومكافحة التصحر في وزارة الزراعة تأسيس مراكز تدريب للرقابة على التصحر في الجامعات اليمنية	حضر استيراد بعض المنتجات الزراعية لتشجيع الإنتاج المحلي تأسيس صندوق قومي لتمويل نشاطات مكافحة التصحر	توفير الدعم المالي لتنفيذ برنامج مكافحة التصحر. وضع أحزمة خضراء حول المدن السواحلية والتي تعاني من طقس صحراوي	مراجعة وتحديث برنامج مكافحة التصحر. تحديد المناطق المتصحرة. تحديد ملائمة إعادة استخدام المياه لمكافحة التصحر.	ترتيب برامج توعية لمالكي القرار في المحافظات والمواطنين.
تحسين إدارة الغابات	استكمال إصدار قانون الغابات والمراعي. إصدار اللائحة التنفيذية لقانون الغابات والمراعي وتوضيح العقوبات للمخالفات.	تدريب العاملين والفنيين في إدارة الغابات. تعزيز قدرات وإمكانيات مركز البحوث في إدارة الغابات.	فرض عقوبات على قطع الأشجار. منح حوافز لاستخدام الغاز، الكيروسين أو الطاقة الشمسية بدلا عن الحطب	الاستثمار لإنشاء غابات قادرة على البقاء من الناحية الاقتصادية بالمساهمة من القطاع الخاص. توزيع غر ائس أشجار مجانا.	اختيار أنواع من أشجار الغابات ذات تكلفة منخفضة ومناسبة.	تشجيع أو ترويج لأعمال إعادة تأهيل المدرجات الزراعية مع التجمعات المحلية.

الآليات الأهداف	الأدوات التشريعية	الإجراءات المؤسسية	الآليات الاقتصادية	الاستثمارات المالية	الآليات المعلوماتية	المشاركة الجماهيرية الجماعية
تحسين إدارة الأراضي الزراعية والمراعي	إصدار قانون تمليك الأراضي. إعداد وتطبيق نظام لتسجيل الممتلكات من الأراضي الزراعية	توسيع الخدمات الامتدادية الزراعية على المستوى المحلى	تحسين وسيلة توفير القروض لإعادة تأهيل المدرجات. إعطاء أولوية للنساء في توفير القروض الزراعية.	تطوير تسويق المنتجات الزراعية من أجل رفع الإنتاج.	تصنيف والتخطيط المناطقي بحسب السمات الزراعية. دراسة الوضع الحالي للمدرجات الزراعية	تشجيع إعادة التأهيل للمدرجات مع التجمعات السكانية المحلية.
تأسيس نظام لاستخدام الأراضي بالتخطيط الحضري وتحديد المناطق الزراعية المحمية.	إجراء تحليل للتأثير على البيئة لمشاريع التنمية الحضرية. إدخال التنمية والتخطيط لحماية الأراضي الزراعية من التوسع الحضري	إنشاء وحدة في وزارة الزراعة وفروع لها على المستوى المحلي مختصة بهدف التخطيط والتوزيع إلى مناطق. تعزيز إمكانيات سلطات المسح لكيفية لاستخدام الأراضي. تعزيز مصادر الوحدات الإحصائية والتخطيط في وزارة الزراعة	تركيز البحوث		العمل على توجيه تركيز البحوث على أنظمة الزراعة ومشاكلها في المناطق الفقيرة. تدريب المواطنين لحماية البيئة وزارة الإسكان والتخطيط الحضري ووزارة الشئون القانونية في التحليل للتأثيرات على البيئة. تأسيس قاعدة معلومات لاستخدام نظام المعلومات الجغرافية.	

الجدول رقم 4: الأعمال أو الإجراءات المطلوبة في إدارة المواطن.

الآليات / الأهداف	الأدوات التشريعية	الإجراءات المؤسسية	الآليات الاقتصادية	الاستثمارات المالية	الآليات المعلوماتية	المشاركة الجماهيرية الجماعية
لإيقاف التدهور للمواطن الطبيعية	تعلن جزيرة سقطره كمنطقة كحمية. إعلان المناطق الطبيعية الجميلة كمناطق محمية. إعداد وتسنين قانون المنلطق المحمية.	توسيع المجلس الأعلى لحماية البيئة وشبكة الآمان الاجتماعي حتى تكون له فروع في جميع مديريات الجمهورية. تأسيس لجنة علمية مشتركة تمثل اليمن والدول المجاورة لاستغلال الموارد السمكية. إعداد خطة لإدارة المناطق السواحلية.	دعم برنامج للتوفير والترويج لاستخدام الغاز في المناطق الريفية والتشجيع لصناعة المعدات المترلية التي تعمل على الغاز والطاقة الشمسية وتوفيرها في السوق اليمني.	تطوير حدائق وطنية وأحزمة خضراء (مشجرة) حول جميع المدن والقرى. إعداد وتنفيذ خطط عملية لمواجهة حالات الطوارئ الناجمة عن الكوارث لسبب التلوث النفطي في المياه اليمنية والإقليمية.	إعداد دراسات عن المواطن الطبيعية الحساسة (مثلا سقطرة وغابات الهوف وأشجار المانجروف والشعاب المرجانية). إعداد دراسات علمية عن تقييم المخزون من الأسماك والمحافظة عليها وتنميتها. اختيار وترتيب المناطق الملائمة لإعلائها والتي ستتحول إلى مناطق محمية. إنجاز أطلس أو دليل مصور جغرافي لتحديد المناطق الحساسة.	إدخال التعليم البيئي في مراحل التعليم الأساسى وفي التعليم العالي. مشاركة منظمات المجتمع المحلي والشباب والنساء والمنظمات غير الحكومية في أعمال التوعية البيئية. تدريب المواطنين واشتراكهم في عمليات الفحص البيئي والكشف عن المخاطر على البيئة وتشجيع المواطن على استغلال العادات والتقاليد الموروثة في عملية المحافظة على الموارد والبيئة.

الآليات الأهداف	الأدوات التشريعية	الإجراءات المؤسسية	الآليات الاقتصادية	الاستثمارات المالية	الآليات المعلوماتية	المشاركة الجماهيرية الجماعية
حماية التنوع الإحيائي أو البيولوجي وعلى وجه الخصوص الأصناف الخاصة باليمن والنادرة والمهددة بالانقراض.	إصدار وتنفيذ ومتابعة قانون حماية الحياة البرية وحظر صيد وتجارة وتصدير الحيوانات والطيور النادرة و المهددة بالانقراض. مثل : الصقور		تقديم الحوافز للمزارعين الذين يستخدمون وسائل التحكم البيولوجية لمكافحة الحشرات بدلا من مبيدات الحشرات .	إعادة إدخال الأصناف المنقرضة إلى مناطقها الطبيعية في اليمن. إنشاء حضانات لسلحفاة البحر. إنشاء متاحف خاصة بالطبيعة وبنك للجينات.	تأسيس نظام وطني أو قومي للمعلومات الجغرافية وقاعدة معلومات أو معلوماتية تتعلق بالحياة البرية أو الوحشية. عمل دراسة وجرد للأصناف الإحيائية الخاصة في اليمن وتحديد الأصناف النادرة والمهددة بالانقراض وكذلك تحديد مواطنها	
تطوير وتنظيم السياحة البيئية البيولوجية (الأيكولوجية) في اليمن.		تأسيس إدارة مختصة في السياحة الأيكولوجية	إعطاء حوافز للمشاريع الخاصة والمتعلقة بالسياحة الأيكولوجية والراحة البيئية.	إنشاء مراكز للتسلية والراحة ومربيات مائية وجنايات نباتية.		

الجدول رقم 5: الأعمال البيئية الوطنية المطلوبة في إدارة أو معالجة النفايات.

الآليات الأهداف	الأدوات التشريعية	الإجراءات المؤسسية	الآليات الاقتصادية	الاستثمارات المالية	الآليات المعلوماتية	المشاركة الجماهيرية الجماعية
توفير أجهزة تجميع ومعالجة والتخلص من النفايات المائية. (مياه مجاري)	إصدار قانون لتنظيم عملية التخلص من مياه البلاليع. وضع حظر على التفريغ للنفايات الصلبة (القمامة) والخطرة غير المعالجة في شبكات المجاري. إصدار قانون التنظيم والتحكم معايير ومواصفات لمياه المجاري.	تعزيز إمكانيات وقدرات المؤسسة العامة للمياه والصرف الصحي حتى تتمكن من تنظيم عملية الصرف الصحي. تطوير وإعداد سياسة قومية فيما يتعلق بالصرف الصحى في المدن.	فرض رسوم عادلة ومنصفة لخدمات الصرف الصحي. إنشاء محطات معالجة لمياه المجاري جديدة. تشجيع القطاع الخاص للاستثمار في أعمال الصرف الصحي.	صيانة شبكات التجميع لمياه المجاري. إنشاء محطات معالجة لمياه المجاري جديدة. تشجيع القطاع الخاص والمواطن للاستثمار في أعمال الصرف الصحى.	إصدار معايير لمياه الشرب ومياه النفايات ولاستخدام مياه المجاري بعد المعالجة. تجمع المعلومات عن شبكات المجاري القائمة وعن التوسعات الضرورية في المستقبل.	مشاركة الجماهير في اتخاذ القرار فيما يتعلق بالصرف الصحي. استخدام مياه النفايات المعالجة في الري وتطوير الوعي الجماهيري حول استخدام مياه المجاري المعالجة.
توفير الإدارة لمعالجة النفايات .	إصدار اللوائح المنظمة للتخلص من النفايات.		فرض رسوم لتجميع القمامة.	تحسين أرضيات القمامة الحالية وتطوير مواقع أخرى لرمى القمامة	إرشادات الجهات ذات العلاقة حول إجراءات التخلص من النفايات.	دعم الجماهير والمنظمات غير الحكومية عن النشر والمتابعة لقضايا تشغيل المحاريق الموجودة حاليا في

الآليات الأهداف	الأدوات التشريعية	الإجراءات المؤسسية	الآليات الاقتصادية	الاستثمارات المالية	الآليات المعلوماتية	المشاركة الجماهيرية الجماعية
						المستشفيات
إدارة النفايات الخطرة	إصدار اللوائح المتعلقة بالنفايات الخطرة			تركيب محاريق للنفايات في المستشفيات	عمل دراسة وبحوث حول إدارة أو معالجة النفايات الخطرة.	تشغيل المحاريق الموجودة حاليا في المستشفيات
تنظيم الفحص البيئي	إصدار القوانين واللوائح المتعلقة بالكشف والاختبار.	تعزيز قدرات أو إمكانيات الوزارات ذات علاقة للقيام بالكشف والاختبار.	فرض الجزاءات أو العقوبات للمخالفين للنظم المتعلقة بالتلوث البيئى.		إعداد برامج لفرق الكشف على البيئة.	مشاركة الجمهور في ما يتعلق بالكشف البيئي وفيما يتعلق بالوعى البيئى.
إدارة أو معالجة المبيدات الحشرية.	إصدار قوانين المبيدات الحشرية و اللوائح المنظمة لها.	تعيين جهة واحدة مركزية للتحكم على الاستيراد ولتوزيع المبيدات الحشرية.	فرض الرسوم لمستخدمي المبيدات الحشرية والجزاءات أو الغرامات.		توفير معلومات إحصائية عن أنواع المبيدات والكمية المطلوبة منها.	المبادرة ببرنامج توعية حول كيفية استخدام المبيدات.

الجدول رقم 6: الإجراءات أو الأعمال ذات الأولوية في خطة العمل الوطنية لحماية البيئة.

الهيئة أو القطاع	العمـــل الأولي
المؤسسي	على المستوى القومي – بناء القدرات والإمكانيات لدى المجلس الأعلى لحماية البيئة ولدى الأمانة العامة (السكرتارية الفنية) التابعة له.
	على المستوى المحلي – برامج تجريبية لتحسين الأحوال البيئية على المستوى المحلي.
	على المستوى الدولي – التهيؤ للكوارث الناجمة عن التناثر أو السفح النفطي في ميناء عدن وميناء الحديدة.
موارد المياه	تعزيز أو تقوية الهيئة العامة الوطنية لموارد المياه.
	تطوير نظام معلومات لموارد المياه على المستوى القومي.
	إعداد قانون شامل للمياه أو قانون المياه الشامل.
	تحسين خدمات توفير المياه في المدن والأرياف.
	التحكم الاقتصادي على مياه النفايات وعلى تلوث المياه.
موارد الأراضي	تأسيس مركز للتخطيط في استخدام الأراضي وللترويج لمنطقة الأراضي والتسجيل لملكية الأراضي
	تأسيس منطقه محمية وطنية في جزيرة سقطرةO
	إجراء جرد وتطوير قاعدة معلوماتية على مستوى الوطن بالنسبة للحيوانات والنباتات الموجودة في اليمن.
	إعداد خطة إدارة المواطن السواحلية.

	تأسيس إدارة خاصة بالسياحة البيئية (الأيكولوجية لدى الهيئة العامة للسياحة).
إدارة النفايات	إغلاق/ تبديل أرض/ مرمى القمامة في صنعاء (الأزرقين) وغيرها من المدن أو المواقع.
	خصخصة المعالجة للنفايات الصلبة (القمامة) وإعادة تأهيلها للاستخدام المتكرر.
	تنظيم معالجة للنفايات الخطرة، وخزنها والتخلص منها.
	تنظيم معالجة النفايات في المستشفيات والتخلص منها، وعمل مشروع تجريبي.

الجدول رقم 7 مشاريع البرنامج القومي الوطني للتحكم على وللحد من، التصحر.

رقم المشروع	اسم المشروع
1	دراسة أو تقيم التصحر وإعداد خرائط التصحر في الجمهورية اليمنية
2	تطوير الوعي الجماهيري حول مكافحة التصحر.
3	استقرار الكثيب الرملي، جنوب وادي رماع.
4	استقرار الكثيب الرملي، غرب وادي سهام.
5	إنشاء أحزمة من الأشجار (أحزمة خضراء) حول أنظمة الري في تهامة من أجل تحسين الإنتاج
6	استقرار الكثيب الرملي وإنشاء ووضع أحزمة خضراء في تهامة.
7	استقرار الكثيب الرملي وإنشاء أو وضع أحزمة من الأشجار لكسر الرياح في مأرب.
8	تجهيز خرائط إقليمية للتخطيط من أجل استقرار الكثيب الرملي ووضع الأحزمة الخضراء.
9	تثبيت منحدرات وادي جر ثان أو جرذان وسعيد لغرس الأشجار
10	تحسين القنوات في الربعة وديان بغطاء نباتي في وادي حضرموت.
11	دعم مشروع الحزام الأخضر لمدينة عدن.

12	دعم الإنشاء حضانات في المحافظات الجنوبية الكود (2) الحوطه، الضالع، سيئون.
13	إعداد نظام القوانين للسماد الترابي
14	إعادة تأهيل وادي شرس:- مشروع تجريبي
15	إنشاء مكسرات الرياح في دلتا لحج.
16	استقرار الكثيب الرملي في امتداد طريق عدن تعز.
17	استقرار الكثيب الرملي جنوب دلتا أبين.
18	إنشاء مكسرات الرياح وأحزمة خضراء في سفال وسط دلتا وادي بناء.
19	إنشاء مكسرات الرياح في الأراضي الزراعية في منطقة سلامة.
20	استقرار الكثيب الرملي في حديه (؟) حضرموت.
21	إنشاء مكسرات الرياح في المناطق الزراعية في حضرموت

الجدول رقم 8: المبادرات القائمة حاليا في اليمن لتعميم الاستخدام المستديم للموارد الطبيعية واستعادة المناطق المتدهورة.

اسم المشروع	أهداف المشروع	الجهة المنفذة
انشاء السدود والمنشاءت المائية.	توفير المياه اللازمة للشرب والزراعة والتقليل من انجراف التربة وإعـــادة	صندوق تشجيع الإنتاج الزراعي والسمكي.
تشجيع التربية المترلية للأبقار والأغنام.	الإسهام في الاستخدام المستديم للثروة الحيوانية في اليمن عـــن طريـــق	صندوق تشجيع الإنتاج الزراعي والسمكي.
تشجيع زراعة النخيل.	الإسهام في الاستخدام المستديم للموارد الأرضية في المناطق الجافة عـــن	صندوق تشجيع الإنتاج الزراعي والسمكي.
تمويلات صغار صيادي الأسماك.	الإسهام في الاستخدام المستديم للموارد السمكية عـــن طريـــق توفـــير	صندوق تشجيع الإنتاج الزراعي والسمكي.
مشاريع حصاد مياه الأمطار.	الإسهام في الاستخدام المستديم للموارد المائية عن طريق التقليل حجـــز	الصندوق الاجتماعي للتنمية.
مشاريع المياه والصـــرف الصحـــي في	توفير مياه الشرب وبناء شبكات مناسبة للصرف الصحي مع معالجـــة	الصندوق الاجتماعي للتنمية.
مشاريع تربية النحل.	المحا فضة على الثروة النحلية وزيادة إنتاج العسل وتحسين الجودة عـــن	الصندوق الاجتماعي للتنمية.
برنامج تنمية المجتمعات المحلية.	السعي إلى تحقيق التنمية المتوازنة بين المناطق الحضرية والريفية عن طريـق	وزارة التخطيط + البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة.
مشروعي حرز و المنـــاهل الســـكنيين.	إحياء المناطق الصحراوية وتوطين البدو الرحل و تحسين ضـــر وفـــهم	وزارة الإنشاءات والتخطيط الحضري.
المشـــاركة الشـــعبية في إدارة المـــوارد	تحسين الإدارة المستديمة للمراعي والأراضي الزراعية واستعادة الغطـــاء	وزارة الزراعة.
الإدارة المتكاملة لمصادر الميـــاه.بأعـــالي	الإسهام في الاستخدام المستديم للموارد المائية عن طريق مراقبة ورصـــد	الهيئة العامة للموارد المائية + وزارة التخطيط.
تعزيز قدرات الهيئة العامة للموارد المائية.	الإسهام في الاستخدام المستديم للموارد المائية عن طريق تمكين الهيئة مـــن	الهيئة العامة للموارد المائية + وزارة التخطيط.

اسم المشروع	أهداف المشروع	الجهة المنفذة
تطوير الرعي التقليدي والمراعي	الإسهام في تحسين الصحة العامة وحماية موارد الأراضي وجعل استخدام	وزارة الزراعة.
تحسين خدمات إمدادات المياه في المدينة	تحسين نوعية الحياة في المدينة والريف عن طريق تحسين الشبكات القائمة	المؤسسة العامة للمياه والصرف الصحي + الهيئة
إنشاء إدارة للسياحة البيئية في الهيئة	الإسهام في الحفاظ على التنوع الحيوي عن طريق توسيع وتحسين برنامج	الهيئة العامة للسياحة + مجلس حماية البيئة +
إعداد خطة إدارة المناطق الساحلية	تحسين إدارة المناطق الساحلية من اجل الاستخدام المستديم لمواردها.	مجلس حماية البيئة + وزارة الثروة السمكية +
قاعدة المعلومات الوطنية للحيوانات	إقامة دراسات عن الحيوانات والنباتات وموائلها الطبيعية لحمايتها	مجلس حماية البيئة + الهيئة العامة للسياحة + وزرة
إيجاد مركز تخطيط استخدام الأراضي	الإسهام في حماية موارد الأراضي عن طريق إنشاء المركز وتطوير	وزارة الثروة السمكية + وزارة الإنشاءات
التخطيط لمكافحة التصحر.	الإسهام في حماية موارد الأراضي عن طريق تعزيز قدرات الأجرة العامة	وزارة الزراعة.
انشاء منظومة معلومات للموارد المائية	الإسهام في الاستخدام المستديم للموارد المائية في اليمن عن طريق انشاء	الهيئة العامة للموارد المائية.
استبدال مقلب القمامة في صنعاء والمدن	الإسهام في بيئة حضرية اكثر سلامة ومنع تلويث التربة والمياه عن	وزارة الإنشاءات والتخطيط الحضري + القطاع
التخصيص في جمع المخلفات الصلبة	الإسهام في تحسين أحوال الصحة العامة عن طريق تطوير منظومات	وزارة الإنشاءات والتخطيط الحضري + القطاع
التخصيص في معالجة خزن و تصريف	الإسهام في بيئة حضرية اكثر سلامة ومنع تلويث التربة والمياه عن طريق	وزارة الصحة + وزارة الإنشاءات والتخطيط
مشروع قانون المياه.	الإسهام في الاستخدام المستديم للموارد المائية.	الهيئة العامة للموارد المائية + وزارة الشئون
مشروع قانون الري.	الإسهام في الاستخدام المستديم للموارد المائية.	وزارة الزراعة + وزارة الشئون القانونية.
مشروع قانون الغابات.	الإسهام في الاستخدام المستديم للموارد الأرضية.	وزارة الزراعة + وزارة الشئون القانونية.

اسم المشروع	أهداف المشروع	الجهة المنفذة
مشروع قانون السياحة.	الإسهام في الاستخدام المستديم للموارد الأرضية.	الهيئة العامة للسياحة + وزارة الشئون القانونية.
إعداد خارطة التصحر لليمن.	نفس أهداف المشروع السابق.	وزارة الزراعة.
مشروع قانون النفط.	الإسهام في الاستخدام المستديم للموارد الأرضية.	وزارة النفط + وزارة الشئون القانونية.

الجدول رقم 9: مثال لخطة عمل بالمشاركة لجمعية الحداد الخيرية بمحافظة لحج للفترة (1995–2000).

المشكلة	خيار الحل	النشاط المقترح.	مساهمة الجمعية.	المساهمة الخارجية المطلوبة	المسئول عن المتابعة	زمن التنفيذ
عدم وجود شبكة صرف صحي للقرية.	مشروع شبكة صرف صحي للقرية.	*إجراء دراسة فنية. *البحث عن تمويل للمشروع. *تنفيذ المشروع.	*مساهمة نقدية في تكلفة الدراسة 50 ريال/أسرة. *مساعدة المهندس في الأعمال الميدانية. *مساهمة نقدية بمعدل 50-1000 ريال/ أسرة في تكلفة المشروع. *توفير العمالة والموارد المحلية. *تنظيم مساهمة الأهالي والإشراف على التنفيذ. *تحمل مسئولية الصيانة بعد التنفيذ.	*توفير المهندس المختص. *استكمال بقية تمويل الدراسة. *البحث عن تمويل للمشروع. *تنفيذ المشروع.	رئيس الجمعية رئيس الجمعية+العاقل الجمعية+العاقل	2000 2000
تدني دخل الأسرة.	*إيجاد مصدر دخل إضافي للأسر.	*التدريب على بعض الحرف أو الأعمال	*توفير مواقع التدريب وتجهيزها.	*توفير المدرب. *المساهمة في توفير مواد	رئيس الجمعية. رئيس الجمعية.	2000/99 2000/99

المشكلة	خيار الحل	النشاط المقترح.	مساهمة الجمعية.	المساهمة الخارجية المطلوبة	المسئول عن المتابعة	زمن التنفيذ
	*البحث عن قروض ميسرة لشراء وسائل الإنتاج ويدر النشاط.	الإنتاجية مثل: الخياطة، الحياكة، الحرف الشعبية، تربية النحل، تربية الحيوانات .. الخ. *الاتصال ومتابعة مصادر التمويل.	*المساهمة في توفير مواد التدريب. *صيانة أدوات ومعدات التدريب. *المتابعة وتقديم التسهيلات الممكنة. *توفير الضمانة.	التدريب. والمساعدة على الاتصال بمصادر التمويل. *توفير القروض الميسرة.		
انجراف الأراضي الزراعية بالسيول.	*عمل دفاعات جانبية.	*دراسة لتحديد مواقع وحجم الدفاعات. *البحث عن مصدر تمويل. *التنفيذ.	*مساعدة المهندس على إجراء الدراسة. *الاتصال ومتابعة مصادر التمويل. *توفير المواد المحلية والعمالة. *الإشراف على التنفيذ والصيانة المستقبلية.	*دفع تكلفة الدراسة. *المساعدة على الاتصال بصناديق التمويل. *التمويل وعمل الإجراءات التنفيذية.	رئيس الجمعية.	2000/99
عدم الاستفادة من سيول عبر	*تصليح عبر المخشابة. *شق عبر الخبر.	*إعداد الدراسات الفنية. *البحث عن ممول.	*مساعدة المهندس على إعداد الدراسات. *المشاركة1 بمواد العمل	*دفع تكلفة الدراسة. *التمويل والإجراءات التنفيذية.		2000

المشكلة	خيار الحل	النشاط المقترح.	مساهمة الجمعية.	المساهمة الخارجية المطلوبة	المسئول عن المتابعة	زمن التنفيذ
المخشابة والخبر للري.		*التنفيذ والإشراف الهندسي.	المحلية والعمالة اللازمة. *الإشراف على التنفيذ والصيانة بعد الإنشاء.			
انتشار الأمراض والأوبئة الحيوانية ونفوق العديد من الرؤوس.	*توعية مربي الثروة الحيوانية بأهمية المعالجة.	*إقامة الدورات التدريبية في مجال تربية وتغذية وصحة الحيوان.	*توفير مواقع التدريب والحيوانات. *المواصلات الداخلية داخل المنطقة.	*توفير المدرب وتحفيزه. *توفير المواد التدريبية.	الهيئة الإدارية.	2000/99 2000/99
انتشار الأمية وخاصة بين النساء.	*تنظيم صفوف لمحو الأمية.	*حصر الأميات والأميين في القرية. *التنسيق مع مكتب محو الأمية في المحافظة. *توفير مواقع التدريس. *توفير المواد والوسائل التعليمية. *توفير المدرسين والمدرسات.	*إجراء الحصر. *متابعة مكتب محو الأمية لتوفير الكتب والإشراف. *إيجاد مواقع مناسبة للتدريس. *إيجاد المدرسات.	*توفير السبورة والطباشير والأقلام. *دفع حافز للمدرسات.	مدير المدرسة. رئيس الجمعية.	يناير 2000

المشكلة	خيار الحل	النشاط المقترح	مساهمة الجمعية	المساهمة الخارجية المطلوبة	المسئول عن المتابعة	زمن التنفيذ
انتشار الأمراض والأوبئة وخاصة بين النساء والأطفال.	*رش المستشفيات بالديزل والمبيدات. *رفع الوعي الصحي وخاصة بين النساء. *الإسراع في تنفيذ شبكة المجاري. *بناء مجمع صحي في القرية.	*توفير الديزل والمبيدات ومعدات الرش. *حملة رش شاملة. *تنظيم دورات تدريبية في الثقافة الصحية والإسعافات الأولية لأمراض النساء والأطفال. *حسب ما ورد أعلاه. *البحث عن موقع لبناء المجمع. *إجراء دراسة متكاملة لمجمع صحي. *البحث عن ممول.	*تجميع مساهمات لتوفير الديزل. *تنظيم المواطنين في الحملة. *توفير مواقع التدريب. *توفير الموقع. *مساعدة المهندس في إعداد الدراسة.	*توفير المبيدات ومعدات الرش. *توفير المدرب وتحفيزه. *توفير الوسائل التعليمية. *دفع أتعاب المهندس. *توفير التمويل وعمل الإجراءات اللازمة للتنفيذ.	رئيس الجمعية العاقل	2000/99 2000/99

إستراتيجية الإعلام السكاني

د. أحمد مطهر عقبات

مقدمة

اصبح الإعلام في وقتنا الحاضر يلعب دوراً ريادياً في تحديد الاتجاهات والسلوكيات وتعبئة الرأي العام بمهام محددة في المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية وغيرها عبر وسائله الجماهيرية المختلفة. ولعل أهم هذه الوظائف ينصب في معالجة تلك

القضايا والمشاكل المرتبطة بالسكان، حيث يستطيع الإعلام أن يتولى العديد من واجبات النوعية بأساليب متنوعة تساهم في حل مشكلة السكان التي لم تعد مرتبطة بدولة بعينها، فقد أصبحت تعاني منها بلدان كثيرة ومنها اليمن ، باعتبار أن الزيادة السكانية المُطَّردة بالتوافق مع قلة الموارد تشكل عائقاً أمام عملية التنمية برمتها ،وبالتالي الانعكاسات السلبية لكمية الخدمات المقدمة للمواطن وصحة البيئة ، ومستويات المعيشة، وهذا ما أثبتته أدبيات الأمم المتحدة والمنظمات الدولية ودراسات الباحثين والمهتمين والتي سنتناول بعضاً منها في هذا الدراسة .

ومن الصعب تحديد دور الإعلام ووضع إستراتيجية له في المجال السكاني ما لم تكرس معظم هذه الدراسة لمعرفة وضع اليمن السكاني وتفحص الأولويات في هذا الحقل وامكانية وضع استراتيجية لتنمية شاملة يشارك الإعلام بخطة تتولى حملات توعية مستمرة في الصحافة والإذاعة والتلفزيون.

لذلك سيتولى الباحث تقديم هذا الموضوع وفق الخطوات البحثية التالية:

هدف الدراسة

الوقوف أمام خصوصيات حالة اليمن السكانية في ظل الواقع المعاش وعلاقتها المباشرة وغير المباشرة بالتنمية ووضع استراتيجية مقترحة لتلبية طموح اليمن في حقل السكان يساهم الإعلام في تقديم خدمات توعية يسهل تقبل الجمهور اليمني لتنفيذ السياسات السكانية.

مشكلة الدراسة

تتمحور الدراسة في عدة تساؤلات حول اشكاليات السكان في اليمن ووضع استراتيجية للتنمية وحملات إعلامية مناسبة ، تحتاج إلى إجابات موضوعية في إطار:

1- طبيعة الوضع السكاني في اليمن ومعدلات النمو وإشكاليات التنمية .

2- أهم الاستراتيجيات السابقة التي وضعت من أجل خلق توازن بين النمو السكاني والتنمية . وهل يتم تنفيذها على أرض الواقع؟

3- ماهي خصوصية الاشكالات السكانية في اليمن ، وبالتالي هل تحتاج إلى وضع استراتيجية خاصة بالتنمية؟

4- وما يمكن أن يقدمة الإعلام في جانب التوعية السكانية؟

منهج الدراسة

اعتمد الباحث في هذه الدراسة على المنهج الوصفي بتفحص واقع اليمن الاجتماعي بالإطلاع على البحوث والدراسات المستهدفة في حقل السكان بصورة عامة والبحوث والاحصاءات والكتب المتعلقة باليمن بصورة خاصة ، لوصف الحالة السكانية عن قرب ووضع الرؤى الكفيلة بتحقيق هدف الدراسة في جانبها السكاني والإعلامي.

فروض الدراسة وتكوينها

برغم أن مشكلة السكان في مختلف دول العالم (وخاصة النامية منها) تتشابه في كثير من الجوانب ، ويكاد مجموعة من الباحثين يجمعون على تعميمها ، لا سيما ما يتعلق بالظروف المتشابهة للدول النامية ، إلا أن الباحث يفترض أن هناك خصوصيات وعوامل أخرى مرتبطة بواقع اليمن تساهم إلى حد كبير في تفاقم مشكلة السكان ، وبالتالي فهي تحتاج لوضع استراتيجيات متميزة لواقع الحال في اليمن وخطة إعلامية تتناسب مع وعي المواطن وتطلعاته لاستيعاب هذه الاستراتيجيات ، وهو ماستعرضه هذه الدراسة في الجوانب المتعلقة بالعادات والتقاليد ووضعية المرأة ونشاطات السكان في

الحضر والريف، إضافة إلى الجوانب الاقتصادية والصحية التي ستكشف جميعها عن إمكانية وضع الأولويات الخاصة باليمن في حقل السكان وفق مبدأ التوازن الوثيق بين النمو السكاني والتنمية الاجتماعية وبمساعدة جادة من وسائل الإعلام الجماهيرية في تبصير المواطن إلى تلك الأولويات وأبعادها.

الاهتمام بالسكان والتنمية

لاشك أن مشكلة النمو السكاني المتسارع تشغل بال الكثير من الدول ، وخاصة النامية منها بسبب شحة الموارد وانتشار الفقر وتدهور الحالات الصحية وقلة الإمكانات المتاحة ، مما حدى بالمنظمات الدولية ، وعلى راسها الأمم المتحدة إلى الإهتمام المتزايد بقضية السكان والتنمية. فقد أقامت لذلك المؤتمرات السكانية التي تعتبر جزء من جهد واسع النطاق تدعمه الأمم المتحدة لإنجاز اتفاق على كيفية تحقيق توازن مطرد بين الأعداد البشرية وبين احتياجات كوكب الأرض من الماء والغذاء وموارده، وإيجاد السبل للتخفيف من حدة الفقر المطلق والبطالة والتركيز على الإحتياجات التنموية للأسر والأفراد ، وبخاصة النساء . وهذه الاجتماعات(المؤتمر الدولي للسكان والتنمية الإجتماعية) في القاهرة في ايلول/سبتمبر1994م، ومؤتمر القمة العالمي للتنمية الإجتماعية في كوبنهاجن، الدانمارك في آذار / مارس 1995م، والمؤتمر العالمي الرابع المعنى بالمرأة، في بكين ، الصين في أيلول، سبتمبر 1995م) هي مراحل من أجل كفالة التزام جميع البلدان بخطة التنمية البشرية التي تساعد على تغذية جهاز التنمية الإقتصادية ، والإجابة عن عدة تساؤلات جوهرية متعلقة بإمكانية العالم توفير الغذاء لضعف هذا العدد من الناس، وكذلك الحال بالنسبة لتأمين العمل لكل فرد وإتاحة الفرصة للمرأة لمشاركة الرجل في جميع نشاطاته، إضافة إلى إمكانية توفير خدمات صحية واجتماعية كافية للبلايين من البشر المتوقع أن تزدحم بهم مدن العالم والذين قد يصل عددهم إلى حوالي 10 بلايين

نسمة بحلول عام 2054. مقابل 6 بلايين نسمة في الوقت الحاضر[1] مع تناقص الموارد الأساسية وتفشي الخلل الاجتماعي وتفاقم تدهور نظم الإعالة.

واليمن بدورها أولت قضية السكان والتنمية اهتماماً خاصاً في الآونة الأخيرة، من خلال فتح مراكز للدراسات السكانية والنسوية واعداد الإحصاءات والأبحاث الدراسية الميدانية ومتابعة المتغيرات اليومية في حياة السكان ، ووضع التصورات والرؤى والأفلق المستقبلية لحل مشكلة النمو السكاني بمشاركة فاعلة في المنتديات المحلية والدولية ، والمؤتمرات العلمية، وغيرها. ففي إحدى دراساته حول هذا الموضوع اشار الدكتور أحمد شجاع الدين إلى أن هناك فهماً وابعاداً للنمو السكاني، وتوجهات الدولة مستمرة في تحقيق التنمية الشاملة على مستوى الريف والحضر، حيث ستظل المسألة السكانية من أولويات الدولة والمجتمع ، ذلك بإعطائها أهمية خاصة من أجل إيجاد الظروف المناسبة لخلق تنمية بشرية مستديمة، وخلق حالة من الاستقرار النفسي والمعيشي للسكان . ومن أجل الوقوف على المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي تواجهها الجمهورية اليمنية في الوقت الحاضر، وهذا الاهتمام بدأ في السبعينيات ، ولكنه لم يتخذ إجراءات عملية لمعالجة هذه المشاكل ، وذلك بالعمل على تخفيض معدل النمو السكاني، بالمشاركة في مؤتمر بوخارست عام 1974م ، المكسيك عام 1984م، عمان عام1994م . ودعمت اليمن القرارات والتوصيات التي توصلت إليها هذه المؤتمرات على أرض الواقع[2]. ومن نتائج هذه التوجهات إفتتاح مراكز البحوث التخصصية أو المهتمة بالسكان والمرأة ، وتوالي الإصدارات المتعلقة بهذا الحقل ، منها سلسلة كتاب الإحصاء السنوي الذي صدرت منه ثمانية أعداد ككتب إحصائية للجمهورية اليمنية بعد تحقيق دولة الوحدة في مايو عام 1990 من الجهاز المركزي للإحصاء ، الذي نفذ أيضا أول إصدار علم 1994م للمسح الديموغرافي في اليمن حول صحة الأم والطفل الذي أجري عام 1992/91م بالإشتراك مع وزارة الصحة وبالتعاون مع المشروع العربي للنهوض بالطفولة ، وجامعة

الدول العربية ، وبرنامج الخليج العربي لدعم منظمات الأمم المتحدة الإنمائية وصندوق الأمم المتحدة للسكان ومنظمة اليونسيف ومكتب الإحصاء بالأمم المتحدة وهيئة المسوح الصحية الديموغرافية بواشنطن (DHS) والوكالة الأمريكية للتنمية الدولية في اليمن (USAID) كجهود تساهم في تحقيق سياسة سكانية للبلاد ، تتبناها الدولة بكل قطاعاتها، خاصة بعد قيام المجلس الوطني في يناير في 1992/7/8م وكذلك بعد استكمال تأسيس وإنشاء الأمانة العامة للمجلس الوطني للسكان 1993م[3]. إلى جانب الكثير من الدراسات والأبحاث النظرية والتطبيقية والميدانية التي نفذتها وتنفذها المنظمات الدولية بالتعاون مع الجامعات اليمنية ومراكز الدراسات النسوية والبحثية المختلفة.

وهذا يعني أن الخطوات الجادة نحو تحقيق توازن بين النمو السكاني مع الأهداف الموضوعة للتنمية الاجتماعية وفق الاحتياجات التنموية وخطط الدولة بدأت استراتيجيات تساعد في دمج الاهتمامات السكانية في جوانب التخطيط الإنمائي، الذي بدوره سيوفر للاعداد السكانية المتزايدة الغذاء والمأوى والعمالة والتعليم والصحة في حالة استمرارية زخم التنفيذ العملي على أرض الواقع.

الوضع السكاني في اليمن وإشكالات التنمية

بلغ إجمالي عدد السكان في اليمن في أخر المؤشرات الديموغرافية والسكانية الرسمية لعام 1996م(15.915.000)نسمة، منهم (7.943.000) ذكوراً و(7.972.000) إناثاً. في حين بلغ تعداد السكان الحضر (3.909.000)، وبمعدل نمو سنوي طبيعي (3.5%)[4]. لكن صحيفة 26سبتمبر أوردت مؤخراً إحصاءات جديدة حول سكان اليمن جاء فيها أنه يولد في اليمن حالياً 6 مواليد جدد في كل خمس دقائق. وتصل حالات الولادة إلى 1800 حالة يومياً و640 ألف حالة سنوياً ووفقاً لهذه الأرقام، فإن سكان اليمن ، الذين

يقدر عددهم حاليا بنحو 18مليون نسمة سيرتفع إلى 31مليون نسـمة بحلول العام 2010 (1999/7/15).

أما نسبة توزيع السكان في الريف والحضر وفق إحصاءات الجهاز المركزي للإحصاء، فتشكل 75.3% في الريف و24.7% في الحضر ، في حين تدل مؤشرات القوى العاملة (إجمالي قوة العمل) 2.553.660[5]. مما يعني أن التركيب السكاني في الريف أكثر من 3/4السكان، الذي من المفترض أن تشكل الزراعة الحرفة الرئيسية للعمالة اليمنية ، خاصة وأن الرقعة الزراعية (الصالحة للزراعة) تقارب5.1 مليون هكتار من إجمالي مساحة الرقعة الأرضية للبلاد المزروع منها حوالي 1.1 مليون هكتار. ويشتغل في قطاع الزراعة وصيد الأسماك حوالي 62.2% من القوى العاملة ، بينما تتوزع بقية القوي العاملة على القطاعات الأخرى[6].

والوضع التعليمي للسكان 10 سنوات فأكثر ، فقد شكلت نسبة الأمية 55.84% (34.12% في الحضر و 63.30% في الريف) (بحسب تعداد السكان عام 1994م).

أما أخر إحصائية لنتائج الدورة الرابعة لمسح ميزانية الأسرة لعام 1998م الذي قامت به وزارة التخطيط والتنمية فقد اسفرت عن الكثير من المؤشرات منها المتقدمة كالتالي:

- شكلت الأمية نسبة كبيرة من السكان ، حيث بلغت نسبتهم 49% على مستوى الجمهورية (الحضر 27% الريف 49%)
- ارتفاع نسبة الأمية بين صفوف الإناث والتي وصلت إلى 70% بينما وصلت في أوساط الذكور إلى 29%.
- مثلت قوة العمل إلى إجمالي القو[illegible] والبالغة 42% على مستوى الجمهورية إلى انخفاض نسبة السكان المنتجين والراغبين في العمل والباحثين عنه، حيث يترتب على ذلك إنخفاض نسبة النشطين اقتصاديا والذين بلغت

نسبتهم 39% من إجمالي القوى البشرية وحوالي 27% من إجمـــالي ســـكان الجمهورية[7].

وتعد القطاعات الاقتصادية الزراعية الأكثر استئثاراً بعمل المرأة اليمنية . فمن بـــين 680.936 وهم جملة الإناث النشطات اقتصاديا، تستحوذ المناطق الريفية علـــى عمـــل 609.863 امرأة مقابل 71.073 يعملن في المناطق الحضرية . وتقدر نســـبة العـــاملات الإناث في الريف لدى أسرهن بدون أجر بحوالي 79.26% مـــن جملـــة العـــاملات في الريف، بينما لا تزيد هذه النسبة في الحضر عن 8.96% وتعمـــل معظـــم الناشـــطات اقتصادياً في الريف (حوالي 99% منهن) في الزراعة وتربية المواشي أو زراعة أراضـــي أسرهن. ويشمل عملهن الذي يستغرق حوالي 16ساعة يومياً جلب الماء من مكان قـــد يبعد عدة كيلومترات، إضافة إلى أعمال الزراعة والبستنة والرعي ، بجانب الواجبـــات المنـــزلية اليومية، وكذلك عمل أقراص الوقـــود الصلب للإســـتعمال أو للبيـــع أو جمـــع الحطب.

وتظهر كثير من الدراسات أن عمل المرأة اليوم يكتسب أهمية متزايدة في الأوســـاط المجتمعية في ضوء ظهور بعض الاتجاهات الإيجابية في المجتمع ، وفي ضوء نمو اهتمامـــات المرأة نفسها، والتي أخذت تستغل ظروف التحول الديمقراطي بشكل خاص وتمـــارس حقوقها والتزاماها في المجتمع بالقدر المتاح. ومن ثم فقد وصلـــت نســـبة المشـــرعات والمسئولات إلى 1% من إجمالي الذكور في هذا المجال ، واحتلت المهنيات نســـبة 15%، في حين وصلت نسبة المساعدات إلى 10% ،وتزايدت نسبة الكتبة 30% ،ووصلـــت نسبتهن في مجال الخدمات والبيع إلى 4% وهي نسبة يعتد بها، ولا يقلل من شأنها سوى عدم تناسبها مع حجم المرأة في المجتمع اليمني عامة[8].

ويتضح من الأرقام السكانية والمؤشرات الديموغرافية السابقة عدة حقائق أهمها:

1- تعاني اليمن من زيادة سكانية كبيرة لا تتناسب مع المـوارد المتاحـة ،فقـد تضاعف عدد السكان خلال أقل من نصف قرن أكثر من ثـلاث مـرات ، حيث وصل إلى حوالي 18مليون نسمة، وهذا الرقم يحتاج إلى تكثيف الاهتمام والوقوف أمام المستجدات السلبية حاضرا ومستقبلا على نواحي الحيـاة في المدينة والريف في المجالات الاقتصادية والصحية والتعليمية والاجتماعيـة وغيرها .

2- بالرغم أن سكان الريف يشكلون أكثر من السكان يقطـن معظمـهم في مناطق خصبة، صالحة لزراعة أنواع متنوعة من المحـاصيل، إلا أن الأراضـي المزروعة لا تستغل جميعها ، وإن حدث استخدام جيد في بعض المناطق ، فـإن شجرة القات تأخذ نصيب الأسد في الإهتمام والاحتياج من الميـاه، علـى حساب المحاصيل الزراعية المفيدة الأخرى، وخاصة البن والحبوب، مما ينعكـس ذلك سلبيا على كمية المحاصيل لسد احتياجات السكان حيث تستورد اليمـن كمية لا بأس بها من الحبوب ومشتقاته تقدر بقيمة (23992420)ريالا يمنيـا (بحسب تقرير الإحصاء السنوي لعام 1996 ص395).

كما أن إحلال زراعة القات محل شجرة البن والمحاصيل الأخرى قد أضعف مـن مصادر الدخل القومي من العملة الصعبة ، التي كان يدرها تصدير البن والحبوب سابقا، إضافة إلى ان الانعكاسات البيئية والصحية على زارعة وتجارة واستهلاك القات محليـا على المواطن في الريف والمدينة على حد سواء تؤثر على الصحة العامـة،إلى جـانب استنـزاف المياه الجوفية ومقدار كبير من إجمالي دخل الفرد الشهري ، الذي يلعـب دورا في عجز ميزانية الأسرة لسد الاحتياجات الضرورية من الغذاء المناسـب . ففـي إحدى الدراسات الحديثة لوحظ أن مجموعة القات والتبغ تصدرت المركز الأول بـين

المجموعات الغذائية ، حيث بلغت نسبة الإنفاق عليها حوالي 19% من إجمالي الإنفاق على المجموعات الغذائية ، يليها مجموعة الحبوب ومشتقاته، حيث بلغت 17%[9].

أما المزارعون فيتجه الكثير منهم نحو زراعة القات، بسبب العائد الكبير، وبالتالي نقص العمالة في المحاصيل الأخرى. والهجرة إلى المدينة بدورها أثرت سلبا على العمل في المزارع بصورة عامة وشكلت ضغطا على المدينة في جانب ازدحام الناس وارتفاع أجرة المساكن والاستهلاك الكبير للمياه وصحة البيئة ، الأمر الذي ساعد في تدهور مصدر هام من الدخل القومي وهو حسن استغلال الأراضي الزراعية الخصبة التي تشتهر بها اليمن.

3- والوضع التعليمي توسع بشكل ملفت للنظر ، نتيجة اهتمام الدولة والقطاع الخاص بفتح المدارس في الريف والمدن، وتوفير المستلزمات الدراسية(مقارنة بالفترات الماضية) ، وذلك واضح من خلال انتشار المدارس الرسمية والأهلية ومعاهد التعليم المختلفة والجامعات الحكومية والأهلية (خاصة في المدن)

وقد وجدت المرأة مكانا لها في التعليم مثل الرجل، ولكن العوامل الاجتماعية والشخصية ربما عرقلت زخم الالتحاق بالمؤسسات التعليمية وقللت من التحصيل . وبحسب رأي المهتمين بتعليم المرأة[10] فإن هذا الوضع التعليمي المتواضع قد قلل من دور المرأة في المجتمع المعاصر وقلل من استفادتها من برامج التنمية الكاملة بمفهومها الشامل ، كما كانت تهدف إليه خطط التنمية الحديثة ابتداء من العام 1973م ،الذي بدأ فيه تنفيذ البرنامج الإنمائي الأول. كما أن قلة مؤسسات التعليم الأساسي والمهني المتوسط قد أثر بدوره على قدرات المرأة وإمكانيتها في المساهمة في قوة العمل ، ذلك أن مشاركتها في النشاط الاقتصادي والإنتاجي ظلت محدودة ومتمركزة في عواصم المحافظات الرئيسية ، فالتعليم المتواضع قد أسهم في رفع مشاركة المرأة الاقتصادية ولكن في بعض مجالات الحياة الخدمية، خاصة في مجال التدريس والتمريض، أما التعليم الجامعي اليمني للإناث،

فإن الإقبال يقل في الكليات العلمية والتطبيقية كالزراعة والهندسة ، بسبب عدم وجود مجالات عمل مباشرة ، تتناسب مع رغبات الأسرة التي تشجعهن على الالتحاق بالكليات النظرية، وخاصة الآداب والتربية ، التي تتوافق مع سوق العمل والرغبة الاجتماعية في عدم الاختلاط مثل التدريس والتخصصات التي تخضع لطبيعة المجتمع التقليدية ورغبات الأسرة ، الذي تبرره حجة العمل الذي يتناسب مع قدرات المراة وتكوينها البيولوجي.

وعموما فإن دور المرأة في مواصلة التعليم أو في العمل مرهون بمستوى وعي الأسرة وتشجيعها لها قبل الزواج ، أما بعد الزواج ، فإن العلاقة بين الزوجين والتفاهم حول هذه المسألة هو الذي يحدد المشاركة من عدمها؟

وإذا كانت هذه هي وضعية السكان في اليمن ، فماهي إشكالات التنمية المتعلقة بالخصوصيات والعوامل المرتبطة بواقع اليمن لتحديد الأولويات في حقل السكان، ومن ثم اقتراح استراتيجية محددة للتنمية.

أولويات اليمن في حقل السكان

من خلال الإحصاءات والعرض السابق لواقع الحال السكاني في اليمن ، وطبيعة العلاقات الاجتماعية والتعليمية، يلاحظ أن هناك قواسم مشتركة تجمع بين مختلف البلدان وخاصة النامية منها، والمتمثلة في الاتفاق على المبدأ الرئيسي في أهمية التوازي بين معدل النمو السكاني السنوي وكمية الموارد المتاحة والخدمات المقدمة للناس. وعلى هذه الاسس تضع الدول سياساتها وبرامجها التنموية ، واضعة بعين الاعتبار الحقائق السكانية ومعدلات النمو السكاني السنوي والإشكالات التي تترتب على معدل النمو والتحديات المحتملة.

وفي اليمن يؤدي معدل النمو السكاني المرتفع في كل عام إلى العديد من الآثار السلبية على مستوى الخدمات التي تقدمها الدولة ، حيث يقل نصيب الفرد من الإنفاق على الصحة والتعليم وغيرها من الخدمات الاساسية في مختلف المناطق مما حدى بالدولة أن تتخذ إجراءات عاجلة متمثلة في وضع خطط واستراتيجيات وطنية للسكان للفترة من 1991-2000م ، أقرها مجلس الوزراء في أبريل عام 1992م للوصول إلى جملة من الأهداف الاستراتيجية والسياسات والبرامج لتحقيق هذه الأهداف منها:

أ- تخفيض معدل الوفيات الإجمالي بما لا يقل عن 50% خلال العشر السنوات المقبلة ، أي ليصبح توقع الحياة عند الولادة 60 عاما سنة 2000م بالمقارنة إلى 46 عاما في سنة 1990م .

ب- تخفيض معدل الخصوبة خلال نفس الفترة ليكون متوسط الولادات الحية 6 ولادات خلال فترة الخصوبة للسيدة المتزوجة مع عام 2000م بالمقارنة إلى المتوسط الإجمالي المقدر حوالي 8.3 في عام 1990م .

ج- في مجال وفيات الأطفال الرضع والأمهات ، تستهدف الاستراتيجية خفض وفيات الرضع من 130 في كل ألف مولود حتى عام 1991م إلى 60 لكل ألف في عام 2000م وتخفيض معدل وفيات الأمهات بنسبة نصف معدلها عام 1990م .

د-تستهدف الاستراتيجية بلوغ نمو سكاني يصل حوالي 2% في السنة بحلول عام 2000م بالمقارنة ب3.1 % عام 1990م .

هـ- إحداث تغيير ملموس في نوعية الحياة السكانية خلال نفس الفترة مع وجوب التركيز على التالي :

1- تحقيق معدلات عالية في نسب الالتحاق بالتعليم الرسمي . وخاصة التعليم الابتدائي الأساسي ، بحيث تتجاوز نسبة الالتحاق وسط السكان 6-12 سنة إلى أكثر من 85% من جملة السكان في هذه الفئة العمرية عام 2000م ، ولتحقيق هذا الهدف لا بد أن يكون التركيز على تعليم الإناث ، ويكون التكثيف في المجتمعات الريفية . وفي إطار هذا الهدف أيضا لا بد أن يكون هناك تركيز على برامج محو الأمية لتكون نسبة الأمية أقل من 50% للإناث و 30% للذكور بعام 2000م .

2- وفي مجال الصحة تستهدف الاستراتيجية إحداث تحسين نوعي في الحالة الصحية للسكان وذلك عن طريق تكثيف العمل في مجال الرعاية الصحية وتحسين النظام الصحي في جانبه الوقائي والعلاجي ، مع ضرورة التركيز على خدمات الأمومة والطفولة وتنظيم الأسرة . ومن المنظور الاستراتيجي لا بد من العمل للتحكم على الأمراض والوبائيات الرئيسية ، وبالذات أمراض الطفولة وأمراض الحمل والولادة والنفاس ، وتحسين التغذية والغذاء وتوفير الماء النقي وتحسين الظروف السكنية للأسرة . ويظل هدف تغطية وسهولة الوصول إلى أكثر من 90% من سكان اليمن بالخدمات الصحية الأساسية عام 2000م هدفا إستراتيجيا ملزما .

3- وعلى الصعيد الاقتصادي تستهدف الاستراتيجية تحسين ظروف الإعاشة السكانية وحاجات الناس الأساسية في المأكل والمشرب والمسكن والملبس ، كما تعنى الاستراتيجية عناية خاصة برفع مستويات الدخل وعدالة توزيعه وتوسيع فرص العمالة وبالذات للنساء .. إلى أخر هذه الاستراتيجية[11].

ونحن نستهل الألفية الثالثة ، بقى أن نتساءل هل حققت هذه الخطط والاستراتيجيات أهدافها بناءا على أولويات اليمن في حقل السكان في الفترة الممتدة من 90-2000م . أم أن حجم الإنجاز كان قليلا بالقياس لما ورد فيها من أهداف ؟

وبرغم أن الإجابة عن هذا التساؤل يحتاج إلى عمل مسح متكامل جديد لكل الجوانب التي وردت في الخطة المذكورة ، أو على الأقل اللجوء إلى الدراسات التي استهدفت المتابعة للتنفيذ ، ألا أنه يلاحظ بوضوح من خلال العروض الإحصائية ومسوحات الباحثين الميدانية ، التي وردت بعضها سابقا أن حجم الإنجاز كان متواضعا بسبب عدم جدية التنفيذ. فقد ظل مثلا معدل النمو السكاني مرتفعا ، ونسبة الأمية لا تزال عالية ، إضافة إلى تحقيق القليل من الطموح المطلوب في المجالات الأخرى . وذلك ربما نتيجة للظروف التي عاشتها اليمن أثناء الأزمة السياسية وفي حرب صيف 1994م وما بعدها ، حيث استنزفت الكثير من الموارد ، وأعيد ترتيب الاستراتيجيات والأولويات في المؤتمر الوطني الثاني للسياسات السكانية في أكتوبر 1996م بما يتناسب والأهداف المعدلة في خطة العمل السكاني ، كما أعلنت الحكومة عن برنامج الإصلاح الاقتصادي المالي والإداري في بداية عام 1995م ، التي مرت بأربع مراحل من الإصلاحات (مارس 1995 / ديسمبر 1998م) . والتي لاحظ الدكتور أحمد البشاري[12] بأنها لامست (بشكل مباشر) مستويات معيشة أفراد المجتمع بسبب تخفيض الدعم الحكومي ، الذي أدى إلى زيادة أسعار بعض السلع والخدمات . وأن إجراءات المرحلة اللاحقة (1999-2001م) تعتمد أساسا (مع استثناء تحريك أسعار الديزل والغاز) على معالجة الجوانب الإدارية والهيكلية والتشريعية لبعض وحدات الجهاز الإداري للدولة ، مع خطة مدروسة طويلة المدى للتدرج في تخفيف الدعم الحكومي لبقية السلع والخدمات المدعومة ، وبالذات القمح والدقيق ، ويواكب كل ذلك تأسيس وتعزيز

شبكة للأمان الاجتماعي تعنى بتخفيف الآثار الاجتماعية السلبية الناتجة عن تطبيق برامج الإصلاحات الاقتصادية وتفعيل برنامج مكافحة الفقر في المجتمع .

وعلى الرغم من أن البرامج التي تم الإتفاق عليها مع مؤسسات التمويل الدولية هي برامج للإصلاحات الاقتصادية في المقام الأول ، إلا أنها قد شملت معالجات للجوانب الاجتماعية للفقراء لحمايتهم من بعض الآثار السلبية المتولدة عن الإصلاحات قصيرة الأجل ، أما الآثار المرتبطة بالإصلاحات متوسطة وطويلة الأجل فقد تم مراعاة هذه الفئات من خلال دعم استهدافها للمناطق والفئات الفقيرة ، وذلك بالارتباط والتزامن مع تنفيذ سياسات النمو الاقتصادي الكلي، وكنتيجة غير مباشرة لتوظيف الأموال المحررة من برامج الدعم الحكومي لأسعار القمح والدقيق وبعض المشتقات النفطية .

ورغم تلك الإجراءات ، إلا أن نفس الأرقام الإحصائية تشير إلى أن الفقر في المجتمع اليمني قد ازداد اتساعا وحدة في ظل استمرار ارتفاع البطالة في صفوف الفئة القادرة على العمل ، وتأخير تنفيذ الإصلاحات الإدارية ، ومحدودية تأثير الإجراءات الحكومية على مصادر الفساد المالي والإداري .. إضافة إلى أسباب أخرى مرتبطة بمراوحة دفع عجلة التنمية بما يتناسب وزيادة معدل النمو السكاني ، والتي يعتقد أنها كامنة في :

أولا : ضعف الرقابة العامة والمتابعة للجهود المبذولة في سبيل إيجاد الحلول الملائمة للخروج من مأزق البطء من استخلاص تنفيذ نتائج الدراسات والبحوث (الكثيرة) التي كرست مواضيعها للإصلاح المالي والإداري ، والقضاء على البطالة ، ومكافحة الفساد . والرؤى المختلفة لدعم برامج التنمية في المجالات الصناعية والزراعية .. وغيرها .

ثانيا : طالما واليمن بلد زراعي بدرجة أساسية ، ومعظم السكان يقطنون الارياف، فإن من الأهمية بمكان تسليم العاطلين عن العمل (في الحضر أو الريف)

أراضي زراعية للعمل فيها ، كما هو معمول به في بعض البلدان الأخرى ، ومنها مصر مثلا .

ثالثا : بما أن القات يتخذ صبغة التجارة والاستهلاك الآدمي ، الذي بدوره يؤدي إلى تأثير سلبي مباشر على اقتصاد الفرد وصحته والحيز الواسع الذي تشغله شجرة القات في الرقعة الزراعية الخصبة، فهو لا شك من العوامل التي تعرقل مسيرة التنمية اقتصاديا وتسبب كثير من الإصابات المرضية في أوساط السكان ، إلى جانب التقصير الواضح في التزامات العمل والأسرة والتلوث البيئي . وهذه الأسباب مجتمعة تحتم ضرورة إحلال المحاصيل الزراعية الغذائية الأخرى محله ، ليس فقط للوقاية من أثاره الجانبية ، بل وفي سد الإحتياجات الضرورية للفرد والاقتصاد الوطني ، خاصة ما يتعلق باستئناف زارعة البن اليمني في تلك المساحات الخصبة ، لاستعادة دوره الاقتصادي على المستوى العالمي ، وبالتالي المساهمة الفاعلة في معالجة الكثير من المشاكل الإجتماعية المرتبطة بالعمل على النمو الاقتصادي العام ، وتحسين وضع الأسرة الغذائي ، وتفعيل نظافة البيئة من المخلفات التي تتسبب فيها أشجار القات.

رابعا : من الأولويات الهامة سرعة تنفيذ برنامج الاصلاح الإداري والقضاء على مسببات الفساد، لأنه بدون الإصلاح الإداري ، يصعب تنفيذ أية برامج أو خطط أو استراتيجيات اقتصادية وسكانية على أيدي كوادر غير قادرة على استيعاب الوضع الحالي وتحسينه ، خاصة بعد انعقاد المؤتمر الوطني الأول للإصلاح والتطوير الإداري والمالي المنعقد في عام 1998م، الذي من المفترض أن يشكل انطلاقة جادة في خوض غمار تحسين الأداء الوظيفي للقيادات الإدارية في المجالات المستهدفة للتقليل من فرص انتشار اللامبالاة والارتجال في التعامل مع النشاطات العملية في إدارة المؤسسات الخدمية ، لتكوين

الأسس والمعايير الثابتة لمقياس التفاعل العلمي بين العامل ووسائل الإنتاج ، بما يكفل المواءمة بين الإصلاحات المالية والإدارية ووضع الاستراتيجية التي تتناسب مع الأوضاع القائمة والتغيير المطلوب لرفع كفاءة العمل المؤسسي الحديث وأخلاقياته وأصوله.

ولعل نتائج وتوصيات المؤتمرات والندوات العلمية ،التي عقدت مؤخرا كفيلة بإزاحة الستار عن الثوابت العلمية القادرة على تشكيل القواعد النظرية والتطبيقية للإصلاح المالي والإداري بحسب مجالات التخصص وحقول الإنتاج ، انطلاقا من ضرورة الممارسة العملية والرقابة الدورية لنشاط دائم تتبعه القيادات الإدارية لممارسة التجربة الصحيحة وقياس نسبة النجاح. إضافة إلى ضرورة التنسيق والتعاون المستمر بين المؤسسات الخدمية والمؤسسات الأكاديمية والبحثية ، نظرا لما تلعبه البحوث العلمية وتبادل الخبرات من أهمية في توظيف الدراسات لنشر المعرفة في مجالات الانتاج وتنمية المجتمع أو على الأقل خدمة جوانب بعينها في الحقول الاقتصادية والاجتماعية المتنوعة.

خامسا: الاهتمام بالتعليم المهني والفني وتغطية النقص في هذا الجانب بتشجيع الشباب على الانخراط فيه ، نظرا لأنه أحد الركائز التي تدير عملية النهوض بالصناعة والهندسة والقدرة المساعدة في تكوين آليات العمل المهني بكل أنواعه. وذلك فبقدر ما تحتل العلوم المنهجية والدراسات البحثية من مكانة متميزة في سبيل توسيع درجة الإدراك لمقومات الظواهر المساعدة والجديدة والمبتكرة في رفع العمل الإنتاجي في أوساط السكان ، بقدر ما ينبغي فهم أولويات دعم الجانب الفني والمهني بالإمكانات المادية والأجهزة المطلوبة والكوادر اللازمة، باعتباره حلقة الوصل بين المعرفة الأكاديمية العليا والمتوسطة ، التي تربط أجزاء الأداء وتحافظ على صيانة ودوران ومراقبة ديناميكية أدائه في إطار الاستراتيجيات والأهداف والتصنيف للكوادر

العاملة وتمييز مستوياتها ، وانتقاء الكوادر الواعدة وتجريبها وتقييم نتائج انتاجها وتشجيعها وتدريبها لمتابعة المتغيرات الجديدة والحديثة في عالم التكنولوجيا والعلوم. كما أن التعليم المهني سيخفف من زحمة التسابق على التعليم العالي ، الذي يقل كثيرا عن احتياجات المؤسسات الخدمية للكوادر العاملة التخصصية بسبب زيادة البطالة المقنعة ، خاصة في تخصصات العلوم الإنسانية والاستفادة من مخرجات التعليم في المجالات الفنية والمهنية المطلوبة في فروع الإنتاج المختلفة.

سادسا : أولوية تنفيذ الاستراتيجيات الموضوعة في مجال القضاء على محو الأمية وتعليم الكبار، حيث لا زالت مشكلة الأمية في أوساط السكان تعيق المستوى الكيفي لإدراك ديناميكية أداء العمل لتحقيق قدرة انتاجية مدروسة تترك بصماتها على ملامح العمل المؤسسي بالطرق العلمية الممكنة، انطلاقا من الثوابت المدروسة التي تشير إلى أن محو الأمية وتعليم الكبار يفيد المتعلم في عمله من خلال لفت الانتباه إلى أوصاف الممارسات الحديثة والأسس المنطقية لتحسين الأداء واكتشاف المعاني والغايات والكفاءات .

أما في المجال الشخصي فإن التعليم يطور من مستوى التخاطب اللغوي وتوطيد العلاقات الحسنة مع الأخرين ، وإغناء بواعث التطلع إلى تعزيز الإحساس بالتفوق ، ومواصلة استقاء المعرفة من مصادرها . إلى جانب التأثير المباشر والبواعث الجديدة في فهم الواقع الاجتماعي والاهتمام بتعليم وصحة الأطفال ، وتكوين رؤى متقدمة في النظرة السكانية التكاملية باستيعاب الظواهر الكفيلة بمراجعة الحسابات وفق المستجدات التي تمكنه من رسم استراتيجية حياتية تتوافق مع الوضع الفكري والمعرفي الجديد . إضافة إلى قدرته على اختيار فرصة عمل مجزية تكفيه لاعالة نفسه وأسرته ، وتخفف من

حدة الفقر والبطالة ، وتساعده على المشاركة الفاعلة في تحقيق التوازن بين النمو السكاني وأسبقية التنمية .

إستراتيجية الإعلام السكاني

إن تأثير وسائل الإعلام الجماهيرية كبير في إمكانية تغيير سلوكيات الناس إزاء الظواهر الحياتية المختلفة ومنها السكانية ، من خلال الحملات التي تستهدف الصحة الإنجابية ومكافحة أمراض الأطفال التي تنتشر بين الفينة والأخرى واقناع المواطنين بأهمية تحديد النسل من أجل حياة أفضل وتوفير الغذاء للجميع ، إلى جانب الدور الذي يلعبه الاتصال الشخصي المواجهي عن طريق خطباء المساجد والندوات والتجمعات الميداينة المناسباتية في خلق التفاعل المباشر لنشر الوعي وتأصيله .

إن معظم الدراسات والبحوث الميداينة التي تجرى في البلدان العربية(13) تشير بوضوح إلى أن الوسائل الإعلامية وفي مقدمتها الإذاعة ثم التلفزيون وأخيرا الصحافة (وذلك نظرا لارتفاع معدلات الأمية أو الحصول على الصحف في الأقطار العربية) تأتي في مقدمة المصادر التي يستمد الجمهور منها معلوماته حول المسائل الخاصة بصحة الأسرة والأمومة والطفولة وأنها هي الأكثر تأثيرا في زيادة الوعي لدى المواطنين على الترابط الوثيق بين السلوك الإنجابي والنمو السكاني ولما لذلك من انعكاسات على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للأسرة والمجتمع ،كما أن الإذاعة بوجه خاص هي الأقدر على الوصول إلى أكثر الفئات السكانية بعدا عن المراكز الحضرية ومن مصادر المعلومات ، وهي الأكثر يسرا من حيث الثمن وسهلة الحمل والانتقال مع المواطنين ، ولذلك فإن للراديو مكانة خاصة عند المسافرين ولدى البدو الرحل في الصحراء ، فهو وسيلة الارتباط الوحيدة تقريبا بينهم وبين العواصم ومراكز القرار . وبواسطته يمكن إيصال الرسائل والتعليمات وزيادة الكم المعروض وإثارة الاهتمام وتعزيز الوعي على أيه

قضية من القضايا التي يراد أن يحشد الرأي العام حولها ، وأن تعزز مشاركة المواطنين في البرامج والأنشطة المرتبطة بها. لقد لعب الراديو دورا فاعلا في توعية السكان الريفيين والبدو في قضايا هامة وزاد من إقبالهم على برامج تحصين الأطفال والمشاركة في عمليات التعداد العام للسكان والمساكن في بلدان عربية كثيرة مثل اليمن والصومال والسودان والمغرب .

أما التلفزيون المنافس الأوحد لبقية الوسائل الإعلامية فقد عززت تطورات التكنولوجية الحديثة من قدراته في الأداء ، حيث تلونت الصورة وتنوعت في التعبيرات عن ذاتها لتقوية المعلومة والتأثير الإيجابي على المستقبل ، ولكن يظل هذا التأثير محدودا في الأماكن التي يتواجد فيها التلفزيون أو القدرة على التقاط الأطباق الفضائية .

ومع ذلك يمكن القول بأن وسائل الإعلام قادرة على مواكبة الحملات الإعلامية السكانية بشتى الطرق ومختلف الأساليب .

وتطبيقا لهذا الدور الإعلامي فقد أكد القائمون على وسائل الاتصال أن تجربة الإعلام السكاني في اليمن قد فرضتها متطلبات الحياة التنموية عموما من أجل توعية الجماهير وغرس تقاليد ومفاهيم جديدة تسهم في نشر الوعي التنموي والصحي والتربوي ، حيث جاء الاهتمام بالإعلام السكاني مع مطلع السبعينات ولكن إمكانية تنفيذه واجهت بعض الصعوبات المادية وشحة الكوادر الإعلامية ومع ذلك أدخلت فقرات توعية ضمن برامج الإذاعة والتلفزيون المتخصصة، كبرنامج الأسرة والمجتمع وبرنامج الصحة وبرنامج الإرشاد الزراعي وبرامج القطاعات المختلفة ، بينما أفردت بعض الصحف والمجلات مواضيع لهذا الغرض وأصدرت وكالة الأنباء اليمنية لفترة طويلة نشرة اقتصادية خاصة تعنى بتقديم المعلومات في مجال التوعية السكانية .

وكانت تلك بالفعل بدايات جيدة للدخول في مهام الإعلام السكاني الذي أخـذ يتعزز مع تنظيم الحملات الوطنية، مثل الحملة الوطنية لمحو الأمية وتعليم الكبار والحملـة الوطنية للتعداد السكاني والحملة الوطنية للتحصين الصحي الشامل .

وبمساعدة صندوق الأمم المتحدة للأنشطة السكانية تم تأسيس مشـروع الإعـلام السكاني في إطار مهمة الإعلام التابع لوزارة الثقافة والأعلام بمحافظة عـدن في عـام 1986م ، حيث تم إصدار نشرة خاصة بالإعلام السكاني تعنى بشئون التوعية التنمويـة ونشر المعلومات حول مجالات التوعية السكانية ،كما تم تأسيس فرع لإعداد الـبرامج الإذاعية والتلفزيونية المساعدة في مجال الإعلام السكاني . وبفضل المساعدات القيمة لهذا المشروع تم تنظيم الدورات التدريبية للكوادر في مجال السكان وكذا الندوات الخاصـة ونشر وجمع الدراسات والبحوث في هذا المجال وإعداد بحوث استقصاء الـرأي العـام حول برامج الاتصال السكاني[14].

وتتابعت الخطوات كمحاولات جادة في ربط التعاون مـع المنظمـات الدوليـة والجهات ذات العلاقة بالاتصال الجماهيري بعد الوحدة اليمنية عام 1990م ، منها مثـلا تكثيف برامج التوعية السكانية في الجهات ذات العلاقة بالتثقيف الصحي وجمعية رعايـة الأسرة وقيام المؤسسات الإعلامية بدور مكثف في هذا الجانب. كما تم إنشاء مشـروع الإعلام والاتصال السكاني التابع لوزارة الإعلام في عام 1993م ليتناول بدوره قضايـا السكان والصحة الإنجابية وتنظيم الأسرة والإعداد والإشراف علـى دورات تدريبيـة تأهيلية لموظفي وزارة الإعلام والمؤسسات الإعلامية لتعليم أسس ومبـادئ الحمـلات الإعلامية التي تستهدف قضايا السكان والصحة الإنجابية وتنظيم الأسرة بدعـم مـن المنظمات الدولية . وقيام قسم الإعلام بجامعة صنعاء في عام 1995م بدراسـة ميدانيـة بالتعاون مع اليونسكو ووزارة الإعلام حول دور وسائل الإعلام والاتصال الجماهـيري في تعميق الوعي بالمشكلة السكانية ، التي استخلصت تلك النتائج والمعلومات التي تتعلق

بعادات الناس وممارستهم تجاه استخدام مختلف الطرق الشعبية والطبية الخاصة بتنظيم الأسرة ، واكتشاف عاداتهم الاتصالية لنقل المعلومات والتعامل مع وسائل الإعلام المقرؤوة والمسموعة والمرئية . وقد بينت الدراسة أن المجتمع اليمني يمتلك معرفة لا بأس بها عن رعاية الأمومة والطفولة وصحة الإنجاب وعلاقة الدين الإسلامي بقضايا تنظيم الأسرة . كما شكلت هذه المعارف اتجاهات إيجابية بتفاهم الزوجين بإنجاب أعداد من الاطفال تتلائم مع الظروف الاقتصادية للأسرة .

كما أجريت دراسات ميداينة أخرى تستهدف مجال التثقيف والإعلام الصحي لغرض قياس الأثر الرجعي لدى الفئات المستهدفة من أنشطة التثقيف والإعلام الصحي منها مثلا إجراء دراسة ميدانية على عينة من المترددين على الخدمات الصحية في أربع محافظات هي إب ، حجة ، صعدة ، وأمانة العاصمة ، حيث طبقت على عينة عشوائية من مجموع المبحوثين الذين وصل عددهم (493) من الجنسين منهم 45% ذكور و55% إناثا، والتي أوضحت أن نسبة 93.9% يستفيدون من البرامج المتعلقة بالأسرة والمجتمع[15].

وهذا يعني أن نتائج الرسالة الإعلامية مرجوة ومفيدة، لذلك ينبغي وضع أولويلت الاعتبار لتأثير دور وسائل الأعلام المباشر وغير المباشر على وعي الأسرة وبالتالي المساهمة الفاعلة في حل المشكلة السكانية .

والوعي السكاني لا ينحصر فقط في جوانب الحياة العائلية وتنظيم الأسرة ، فالإعلام السكاني في رأي الإعلاميين[16] يعبر كذلك عن دور المواطن وتنمية إحساسه بالمسئولية الاجتماعية ، بغية تحقيق مستوى معيشي أفضل من خلال إدراكه للقضايا السكانية في بلده من حيث العدد والتوزيع ومعدلات النمو ومستويات المواليد والوفيات.. إلخ ، وربطها بالدور الذي يمكن أن يقوم به كل فرد في معالجة الأوضاع والسلوكيات الغير مرغوبة . لذلك فإن السياسة الإعلامية في اليمن قد أشارت بوضوح

إلى تبني نشر الوعي بالقضايا السكانية ، حيث تنص وثيقة السياسة الإعلامية للجمهورية اليمنية الصادرة عام 1995م (ص49) على ما يلي :

من أجل استثمار أفضل لوسائل الإعلام بقنواتها الاتصالية المختلفة ولزيادة وعـــي المتلقي بطبيعة القضايا السكانية التي تتشابك بكافة القطاعات الاقتصادية والاجتماعيـــة ينبغي العمل بالتالي :

أ. إعتماد مساحات كافية في وسائل الإعلام المختلفة لبحث وتوضيـــح القضايـــا المرتبطة بالتنمية والسكان والبيئة مع الاهتمام بالقضايا الناتجة عن تزايد عـــدد السكان وقلة الموارد .

ب. تحديد الخطاب الإعلامي الموجه للشباب والمرأة والطفل بمـــا يضمـــن معالجـــة المشكلات المرتبطة بهذه الفئات وحتى تعكس الصورة الواقعية لها .

ج. تحديد أولويات الخطاب الإعلامي السكاني بما يتفق والوثيقة الصادرة عن المؤتمـــر الوطني للسياسات السكانية التي أقرتها الحكومة .

د. إستمرار التنسيق بين الإعلام والجهات المعنية بالقضايا السكانية ، بمـــا يضمـــن انسياب المعلومات بهذا الخصوص لتقديمها للرأي العام بغية الشراكة في الاهتمام بها والعمل على تنفيذها .

ه. معالجة قضايا ونشاطات المعوقين في برامج إعلامية مدروسة مخططة بالتعاون مع جمعية المعوقين وذوي الاختصاص في الوزارات والجهات المعنية ، وبما يضمـــن التوجه الاستراتيجي الإعلامي نحو هذه الفئات وبما يحقق إدماجـــها في الحيـــاة العادية وبشكل طبيعي .

والأعلام السكاني يتضمن توليد وإنتاج وتبادل وتوزيع كل المعلومات الصحيحة من أجل خلق الوعي بين صانعي السياسات والإداريين والأكاديميين والجماهير حول أهميـــة

التطورات السكانية وبالعلاقة بين المتغيرات السكانية وباقي الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والتنموية وبالتحديد :

1. زيادة مستويات الوعي المعرفي والالتزام السياسي والمشاركة الجماهيرية على كل مستويات المجتمع .
2. تشجيع الاتجاهات المؤيدة للسلوك السوي في مختلف قضايا السكان المرتبطة بالبيئة والتنمية .
3. تعزيز التغييرات في اتجاهات وسلوكيات الصحة الإنجابية وتنظيم الأسرة وتغيير إدراك الجمهور العام لطبيعة الخدمات المقدمة .
4. الحصول على دعم الجمهور العام للبرامج السكانية وتشجيع القدرات التطوعية لدى المجتمع للمشاركة في أوجه التنمية السكانية .
5. المساهمة في إقناع صناع السياسات ومتخذي القرار بالحاجة إلى السياسات السكانية وبرابحها وخدماها .
6. مواجهة الاتجاهات السلبية التي تستند على سوء الفهم والإشاعات وإبراز رأي الدين الإسلامي الحنيف فيما يتعلق بمعالجة القضايا السكانية ، باستخدام كافة وسائل الاتصال الجماهيرية بإعطاء مساحة كافية لمناقشة هذه القضايا من قبل علماء ومشائخ الدين الأفاضل.
7. تشجيع الصحفيين على تناول المواضيع السكانية بما يسهم في رفع الوعي السكاني في المجتمع .
8. إجراء الدراسات والأبحاث التقييميه لأثر الرسالة الإعلامية بغرض تطويرها وتوسيع فائدها .

9. إيجاد أقسام أو وحدات خاصة بـالتثقيف السـكاني في الهيكـل الإداري للمؤسسات الإعلامية .

10. رفع مستوى التدريب والتأهيل للعاملين في هذا المجال .

بقي الإشارة إلى أهمية التواصل مع المستقبل لوسيلة الإعلام ، بالكتابة الدائمـة في موضوع السكان دون الاكتفاء بمناسبات حملات التوعية الصحية وتنظيم الأسـرة ، إلى جانب إعداد النصوص المسرحية والاستعراضية المعبرة عن حل قضايا السكان والمشكلة السكانية وتحديد أولويات التنمية الوطنية .

ومن أجل تثبيت استراتيجية دائمة بالاتصال الجماهيري إزاء قضايا السكان ، لا بد من استكمال تجهيزات وحدات البرامج السكانية بكوادرها المدربة ورصد ميزانية دورية للإنتاج الإعلامي وتنفيذ الأبحاث والدراسات وأجراء عملية التقييم المستمرة للـبرامج الاجتماعية التي تستهدف الأسرة، مثل البرامج الاقتصادية والزراعية والأسرة والمجتمع .. وغيرها وتطعيمها بالفقرات التمثيلية الهادفة .

إضافة إلى أن تبني كلية الإعلام بجامعة صنعاء وحدة للدراسات السكانية أمر بـالغ الأهمية للقيام بالبحوث والدراسات التي ستسهل إلى حد كبـير مهمـة المؤسسـات الإعلامية في التركيز على الجوانب الإحصائية والدعائية والتحريضية لتحقيـق نتـائج مرجوة من تأثير الرسالة الإعلامية برمتها. إلى جانب التقييم المستمر للأداء الإعلامـي السكاني للاستفادة من أية أخطاء محتملة ومعرفة ما تتطلبه الرسالة الإعلامية من تعديـل أو إضافة ، خاصة بعد تعميم البث الفضائي وتكثيف البرامج الجماهيرية ، التي تـذاع على الهواء مباشرة ويشترك الجمهور في طرح أرائه وملاحظاته ومداخلاتـه . حيـث ذهب البعض[15] إلى التأكيد أن البث المباشر يعمق الوعي بالمسألة السكانية ، لأن المذيـع يسهل مهمة المشروع أو متخذ القرار بتهيئة المناخ النفسي والمعنوي اللازم لاتخاذ القـرار وذلك بزيادة التدفق في المعلومات وآثاره الحديث حول المسألة السكانية ومناقشتها مـع

مختلف الشرائح الاجتماعية بلغة سهلة وواضحة تكشف الكثير عن مصادر المعرفة وآثاره بعض النقاط استنادا إلى الإعداد السليم لمثل هذه البرامج وأهمها الحصول على هذه المعلومات والبيانات من المصادر الرئيسية التالية :

- الرسائل الجامعية في مراحل الدراسات العليا .
- المجالس واللجان الوطنية للسكان .
- الوكالات الدولية التابعة للأمم المتحدة مثل برامج الأمم المتحدة للتنمية وصندوق الأمم المتحدة للسكان واليونسكو واليونسيف والفاو ومنظمة العمل الدولية واللجنة الاجتماعية والاقتصادية لجنوب غرب أسيا (الاسكوا) .
- الهيئات والإدارات المختصة في جامعة الدول العربية .
- برامج الإعلام والتربية والاتصال السكاني في الأقطار العربية المعنية .
- البحوث والدراسات الميدانية التي تجريها الوزارات والهيئات والمعاهد المختصة كوزارة الصحة والتخطيط ومراكز الدراسات السكانية وأجهزة الإحصاء والجامعات وجمعيات تنظيم الأسرة وهيئات البحث الأخرى .

وعموما فإن استراتيجية الإعلام السكاني تكتمل عندما يتناسق الإيقاع العملي بين القائمين على التخطيط بسياساته وبرابجه وأهدافه ومرورا بمنفذي هذه السياسات بالإنتاج العلمي السليم القائم على استخدام فنون العمل الصحفي والإذاعي والتلفزيوني وانتهاءا باستكمال بحوث المستمعين والمشاهدين ومعرفة تأثير الرسالة الإعلامية على المستقبل لتقييم رجع الصدى والاستفادة من أراء الجمهور إزاء المشكلة السكانية لتحسين الوجبة الإعلامية التالية .

خـــــــاتمة

وهكذا يتضح مما سبق عرضه من سرد لواقع الحال السكاني في اليمـــن ومجـــالات الاهتمام بالسكان والتنمية الاقتصادية والاجتماعيـــة ، ومعرفـــة الوضـــع الســـكاني وإشكالات التنمية ، والوقوف أمام أولويات اليمن في حقل السكان ، أصبح معلوما أن معدل النمو السكاني السنوي كبير ، حيث وصل عدد السكان في الوقت الحاضر حوالي 18 مليون نسمة ، ويتوقع زيادة تدريجية بصورة مطردة، في الوقت الذي لا تزال اليمـــن تعاني من إشكالات تنموية شتى لا تفي باحتياجات السكان الضرورية ، مما ينعكـــس ذلك سلبا على تقديم الخدمات التي تتناسب مع النمو السكاني في اليمن .

وبرغم اتضاح الرؤية في أن هناك سياسات واستراتيجيات كثيرة وضعها البـــاحثون والمهتمون ورجال السياسة والاقتصاد لمواجهة هذه الظاهرة بوضع الثوابت الهامة للسـير في معالجة مشكلة النمو السكاني بالتوازن مع تعزيز التنمية الاقتصادية والاجتماعيـــة ، بحسب التخصصات والتطلعات المختلفة للكيفية التي من خلالها يمكن الوصول إلى أقصر الطرق لتحقيق نتائج مرجوة ، إلا أن الباحث[18] يرى أيضا التأكيد على ما يلي :

أولا : مواصلة العمل الجاد في التأثير المباشر وغير المباشر على خفض عدد المواليـــد وخفض الخصوبة ، لأن نقص الموارد المتاحة يؤدي إلى تدني نوعية الحيـــاة في ظل زيادة النمو السكاني .

ثانيا : الإسراع في تنفيذ برنامج الإصلاح الإداري باعتباره يمثل إحـــدى الركـــائز الهامة والأساسية لتحسين الأداء الوظيفي ووتيرة العمل الإنتاجي وتطويره في القطاعات المختلفة، وبالاستعانة بتنفيـــذ توصيـــات المؤتمـــرات العلميـــة والدراسات والبحوث التي كرست لهذا الغرض .

ثالثا : الإهتمام الكافي بالقطاع الزراعي والتخلص من زراعة القـــات ، واحـــلال المحاصيل الزراعية المفيدة محله، لسد الاحتياجات الضرورية ورفد الدخـــل القومي بالموارد اللازمة . وتشجيع العاطلين للعمل في القطاع الزراعي .

رابعا : تطوير التعليم الفني والمهني ودعمه بالإمكانات المادية والأجـــهزة المطلوبـــة والكوادر اللازمة وتشجيع الملتحقين به .

خامسا : وضع برنامج عملي تنفيذي للقضاء على محو الأمية وتعليـــم الكبـــار ، ليتمكن الجميع من استيعاب المعارف والمستجدات الحياتية لتوعية الأســرة والمساعدة على المشاركة الفاعلة في تحقيق التوازن بين النمـــو الســـكاني واسبقية التنمية .

سادسا : تكثيف برامج الاتصال الجماهيرية لاستمرارية التوعية والتثقيف بمشـــكلة السكان ، والتنسيق بين المراكز الثقافية ووسائل الإعلام للحصول علــى المستجدات في عالم المعرفة ، والنــزول الميداني المستمر لمشاركة الناس في برامج الإذاعة والتلفزيون من خلال اللقاءات وإعداد البرامج الوثائقيـــة للاقتراب من واقع الحياة اليومية للمواطن ، والتركيز على الجوانب المتعلقة بالإنجاب والأسرة بصورة عامة ، وكذلك إمكانية إنتاج برامج تمثيليـــة تخدم قضية التوازن بين الدخل القومي والتنمية الشاملة والنمو السـكاني ، بإعتبار أن أساليب التمثيل والحوار في وقتنا الحاضر من أقصر الطرق لنشر التوعية السكانية ، لا سيما في تلك المناطق التي لا زالت الأميـــة تجـــد لنفسها مكانا، ونظرا لقدرة الوسائل والوسائط السمعبصرية في تحقيـــق الأهداف المرجوة من برامجها ، إلى جـــانب الاســـتراتيجيات المقترحـــة للإعلام السكاني الواردة في البحث ، التي ستعمل على تعميـــق الوعـــي الجماهيري إزاء إيجاد توازن حقيقي بين معـــدلات النمـــو الاقتصـــادي ومعدلات الزيادة السكانية .

الهوامش

1- انظر مثلا : منشور تحت عنوان " السكان والتنمية " الصادر عن مؤتمر القمة العالمي للتنمية الاجتماعية . كوبنهاجن – الدانمارك 3-12مارس1995 . ص2.1.

2- أحمد شجاع الدين. اليمن : الآفاق التنموية والتحديات السكانية . مجلة دراسات يمنية العدد 59 لعام 1998. ص 230.

3- المسح الديموغرافي في اليمن حول صحة الأم والطفل . الجهاز المركزي للإحصاء ،1994م .

4- الإحصاء السنوي لعام 1996م. الجهاز المركزي للإحصاء صنعاء . مارس 1997 م . ص10.

5- الإحصاء السنوي لعام 1996م . مرجع سابق . ص11 .

6- الجمهورية اليمنية ، المجلس الوطني للسكان " الأمانة العامة "، وثائق المؤتمر الأول للمؤتمر الوطني للسكان السكاني وخصائص القوى العاملة . دراسة مقدمة من عبد الله هزاع وأخرين ، ص24 .

7- صحيفة الصحوة 24 يونيو 1999م . العدد 678 لعام 1999.

8- بالتفصيل حول هذا الموضوع راجع رشاد العليمي وأخرون . دراسة تحت عنوان " المرأة والتنمية في الجمهورية اليمنية . مركز الدراسات التطبيقية والبحوث النسوية بجامعة صنعاء ص 55 .

9- نتائج الدورة الرابعة لمسح ميزانية الأسرة لعام 1998م صحيفة " الصحوة " مرجع سابق.

10- وهيبة فارع . تعليم البنات اليمنيات في المرحلة الجامعية . مجلة دراسات يمنية العدد 59 ، 1998م ، ص 304 .

11- بلقيس جباري سياسات التخطيط العائلي في اليمن . مجلة دراسات يمنية .العدد 56 لعلم 1998م ص188 ، 189 .

12- أحمد البشاري . الإصلاحات الاقتصادية في الجمهورية اليمنية 1995–2000م . مجلة دراسات يمنية العدد 59 لعام 1998م ، ص 126 ، 165 .

13- نسيم مدانات. قضايا السكان وتنظيم الأسرة في برامج البث المباشر. جملة متابعة إعلامية. صنعاء . أبريل 1993م. ص24.

14- جميل محمد أحمد . اسهامات الإعلام السكاني في برامج التوعية السكانية . مجلة متابعات إعلامية صنعاء . نوفمبر 1993م .

15- الجمهورية اليمنية . وزارة الصحة الإدارة العامة للتثقيف الصحي . التقرير السنوي لعام 91/90. وزارة الصحة ، ص26 .

16- راجع : مجاهد الشعبي وحسن العزي. دور وسائل الإعلام ومضامين الرسالة الإعلامية في مجال السكان وكيفية ايصالها . صحيفة الثورة العدد 12651–2 يوليو 1999م .

17- نسيم مدانات . قضايا السكان وتنظيم الأسرة . مرجع سابق .
18- أحمد عقبات. أولويات اليمن في حقل السكان واستراتيجية التنمية. من تفاصيل بحث مقدم إلى مركز الدراسات السكانية بجامعة صنعاء (لم ينشر).

من محاور الأعداد القادمة

محور قضايا الترجمة والمصطلح

- دور الترجمة في تدعيم اللغة العربية.
- الترجمة وحوار الثقافات.
- نظريات الترجمة المعاصرة.
- القضية الاصطلاحية وترجمة العلوم.
- ببليوغرافيا علم الترجمة.

نحو نموذج إنمائي جديد

دراسة سوسيولوجية لمفهومي السكان والتنمية

د. فؤاد عبدالجليل الصلاحي

مدخل عام

يعتبر مفهومي السكان والتنمية من أكثر المفاهيم تعرضاً للنقد والتجديد والمراجعة كل عدة سنوات في مختلف دول العالم وفقاً للمتغيرات المجتمعية التي تحدث فيها. ذلك أنه منذ نهاية الحرب الكونية الثانية وحصول عدد من دول العالم الثالث على الاستقلال بدت قضية التنمية أكثر القضايا إثارة للجدل وموضعاً للإهتمام ومن أهم التحديات التي

ينبغي للدول حديثة العهد بالاستقلال أن تواجهها، ومن هنا ظهرت عشرات الأبحاث والدراسات تعرض لقضايا السكان والتنمية في العالم الثالث وتضع أمام حكومات ودول هذا العالم خططاً وبرامج تنموية عديدة من أجل سرعة التحديث والتطوُّر واللحاق بالغرب الصناعي المتطور، وقد اهتم العلماء في الغرب بإقامة نماذج مثالية Ideal Types تعكس خصائص المجتمع الجديد في أوروبا ونماذج مقابلة تعبر عن سمات المجتمع التقليدي خارج أوروبا، وذهب عدد من العلماء بالقول صراحة، أن تنمية وتطور الدول النامية لا يمكن إلا عن طريق وحيد يتمثل في اكتساب واستيعاب خصائص التطور في المجتمع الغربي، وتم بالفعل إن اتجهت غالبية الدول النامية إلى تبني تنمية تعتمد على النقل والاستيراد والتقليد لكنه بعد مرور ثلاثة عقود برز فشل هذه النماذج الإنمائية وتزايد حجم ونوعية المشكلات التي أفرزها، وهي مشكلات اجتماعية واقتصادية وثقافية وسياسية إضافة إلى مشكلات بيئية وسكانية بل إن تزايد المشكلات السكانية قد أبرز حجم المشكلة الاجتماعية الاقتصادية واتسع تأثيرها ليشمل مجمل مجالات الحياة. ومن هذا السياق ظهرت عدة رؤى نقدية ومراجعات فكرية على المستويين الأكاديمي والعملي وتزايد هذا الاهتمام منذ بداية حقبة التسعينات من هذا القرن، حيث شهد العالم متغيرات عديدة ذات أهمية خطيرة على المستويات المحلية والإقليمية والدولية بدءا بانهيار النظم السياسية الشمولية وانهيار أحد طرفي الثنائية القطبية ممثلا بالاتحاد السوفيتي لصالح القطب الرأسمالي ومركزه الأمريكي خصوصا. وظهور ما يسمى بالعولمة Globalization وتأثيراتها المتعددة والمتنوعة إقتصاديا وإجتماعيا وسياسيا وثقافيا وتكنولوجيا. الجدير بالذكر أن هذه المراجعات الفكرية والسياسية لمفهومي السكان والتنمية جاءت ليست فقط من الدول النامية ومؤسساتها العلمية بل أيضا من الدول الصناعية المتطورة ومراكزها البحثية علاوة على الاهتمام الخاص من قبل المنظمات الدولية كالأمم المتحدة والمنظمات الدولية المالية كالبنك والصندوق الدوليين وارتبط

بكل ذلك اهتمام علمي مباشر تمثل بعقد عدة ندوات ومؤتمرات دولية وإقليمية إضافة إلى مثيلاتها المحلية وجميعها تدعو إلى تحديد النظر والرؤى في قضايا السكان والتنمية وربطها بقضايا البيئة والمرأة وحقوق الإنسان كجزء أساسي في نماذج التنمية وأحد مجالات. وهنا بدأ الطرح العلمي والعملي للدول والحكومات والمنظمات الدولية على تبني سياسة إنمائية جديدة تدمج في مضمونها السياسة السكانية واعتبارها جزأ لا يتجزأ منها.

أهداف الدراسة

1- يتمحور الهدف الأساسي لهذه الدراسة في التحديد العلمي المنهجي الموضوعي لمفهومي السكان والتنمية في إطار التجديد الإبستمولوجي عالمياً ومحلياً وما يتضمن ذلك من تجديد هذين المفهومين ودلالتهما.

2- تحقيق تصور لاستراتيجية جديدة تدمج السكان في السياسة الإنمائية الأمر الذي يحقق أهمية توازن بين النمو السكاني والتنمية الاقتصادية والاجتماعية الشاملة.

3- كيفية تحقيق تنمية شاملة مستدامة تحافظ على التوازن بين الأفراد داخل المجتمع وبينهم وبين البيئة.

4- تحديد طبيعة التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي تؤثر في النمو السكاني.

5- تحديد طبيعة التأثير السكاني في التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

6- تحديد الرؤية العلمية للمعايير والمؤشرات التي نقيس بهما مدى نجاح التنمية وتطورها المطرد مع تخفيض النمو السكاني وتحقيق التوازن بينهما.

المنهج

سوف يعتمد الباحث في هذه الدراسة على المنهج (البنائي التاريخي المقارن) لمقدرته على الرؤية التحليلية التي تكشف الأبعاد والمتغيرات الخاصة والعامة، الداخلية والخارجية المرتبطة بمفهومي السكان والتنمية وتحديد أنماط العلاقات والتأثير المتبادل بينهما بإستخدام أسلوب المقارنة وذلك في عرض موضوعي يلتزم به الباحث.

أهمية تحديد المفاهيم

لما كان لمفهومي السكان والتنمية طبيعة متغيرة وفقا لديناميكية التطور الاجتماعي والاقتصادي في كل مجتمع فإنه لذلك لابد من التحديد العلمي الدقيق والموضوعي لهذين المفهومين وتحديد دلالتهما ومؤشراتهما. وتحديد المفاهيم يعد من العوامل الأساسية لنجاح البحث العلمي، لذلك فإن الدقة والوضوح في البحث العلمي سواء بالنسبة لأهدافه أو لخطواته ذات أهمية في تحديد معنى ودلالة كل مصطلح يستخدمه الباحث خاصة إذا كان لهذا المفهوم أو المصطلح أكثر من معنى. ولعل مفهومي السكان والتنمية من أكثر المفاهيم تداولا وأكثر غموضا في آن واحد، ويرجع ذلك إلى كثرة المعاني التي قدمت لهما ومن تخصصات متعددة، مع الأخذ بعين الاعتبار المواقف المتحيزة سياسيا وأيديولوجيا.

لماذا الاهتمام بالسكان والتنمية ؟

يمكن القول إنه في إطار المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الهامة التي حدثت ولاتزال في مختلف دول العالم-وخصوصا في العالم الثالث- برزت قضايا السكان كإشكالية أمام السياسيين وعلماء التنمية والاقتصاد وأرتبط ذلك بوضوح بقصور وبفشل السياسات الإنمائية السابقة التي لم تكن تهتم بالعنصر البشري، إضافة إلى

بروز عدد من المشكلات الدولية والإقليمية والمحلية، مثل تزايد عدد الفقراء، وتزايد معدل الجريمة، والهجرة، وتشوه البيئة، تزايد حجم التفاوت في الدخل والثروة بين الدول وبين الأفراد داخل كل دولة. وترتب على كل هذا أن عدداً من الدول تحولت إلى سياسة الانفتاح وفق الفلسفة الليبرالية وما ترتب على ذلك من تجديد نماذج الحكم السياسي بالإقرار بالتعددية السياسية واتباع سياسة اقتصادية وفق اقتصاد السوق وسياسة التكيف الهيكلي Adjustment policy التي يدعمها البنك الدولي. وهنا تزايد الاهتمام الرسمي وغير الرسمي بقضايا السكان والتنمية حيث ترتب على انسحاب الدولة من المسألة الاجتماعية أن ظهرت مشكلات حقيقية في المجالات الصحية والتعليمية وتزايد حجم البطالة وشكل ذلك حافزاً قوياً لظهور منظمات المجتمع المدني. وهي منظمات أهلية غير حكومية كان لها صوت مسموع محلياً ودولياً بتبنيها قضايا السكان والتنمية وتجديد النماذج الإنمائية بشكل متوازن وعادل، وهنا اتجهت حكومات العالم الثالث إلى الاهتمام الرسمي والعلني بهذه القضايا ووضعها في أولوياتها. خاصة وأن التقارير الدولية قد حذرت من تفاقم مشكلات السكان في الدول النامية واعتبرتها معوقاً أساسياً للتنمية.

وحقيقة القول إن السكان والتنمية لا يمكن النظر إلى أحدهما كسبب للآخر بل أن العلاقة بينهما متشابكة ومتداخلة فهناك أسباب اجتماعية واقتصادية تؤثر بالسكان حركةً وتوزيعاً وهناك أسباب سكانية تؤثر بدورها في التنمية ومجالاتها الاقتصادية والاجتماعية، وهذا يعني أنه لا يمكن النظر إليها وفق رؤية أحادية بل لابد من الإلمام بكل أنماط العلاقات والتفاعلات المتبادلة بينهما بشكل يعطي صورة بانورامية تعكس الأبعاد والمتغيرات المحددة لهذين المفهومين وآثارهما.

ثانيا : المفاهيم التقليدية للسكان والتنمية.

سوف نعرض لهذه المفاهيم بشكل موجز وذلك لاعتبار أن منهجيتنا تتطلب منا إجرائيا إعطاء صورة موجزة للرؤى السياسية التقليدية المرتبطة بمفاهيم السكان والتنمية حتى تكون خلفية لما سنقدمه من مفاهيم جديدة لهذين المفهومين بكل أبعادها ودلالتها.

خلال العقود الأربعة الماضية سادت المفاهيم التقليدية للسكان والتنمية، ويقصد بها المعاني المحددة التي تضمنتها النماذج الإنمائية والسياسات السكانية وهي ذات إطار جزئي ومحدود تتصف بغياب الرؤية التكاملية بين جميع محددات ودلالات المفهومين ،وكانت المعاني المحددة لهما أقرب إلى التعريفات القاموسية التي بدورها كانت محدودة وتعبر عن مرحلة تاريخية عكست نفسها في السياسات الإنمائية كما في الأفكار والتصورات النظرية.

فقد نظر إلى السكان كعلم يهتم بالإحصاء العددي للأفراد داخل المجتمع مع توصيف لبعض صفاهم وتركيبهم وتوزيعهم ومعدل تزايدهم. وكان مفهوم السكان يعتبر كأحد الموارد الأساسية التي ينبغي استخدامها من أجل تنمية المجتمع وتحقيق التطور، وهنا كان السكان أو الموارد البشرية عبارة عن وسائل لتحقيق التنمية ، الأمر الذي غابت معه حقيقة اجتماعية وسياسية هامة وهي **"إن الإنسان يعتبر غاية التنمية ووسيلتها في آن واحد"** ولذلك اتصفت نماذج التنمية السابقة بإهمالها للعنصر البشري وتركيزها على عملية النمو الاقتصادي كهدف أساسي لعملية التنمية وهذا بحد ذاته شكل أحد أهم عيوب وأخطاء النماذج الإنمائية التي سادت في العقود الأربعة السابقة، ذلك إن النمو الاقتصادي يعتبر أحد أهداف التنمية وأهم مرتكزاها.

فالحقيقة الأساسية التي أدركها الفكر التنموي منذ بداية التسعينات من هذا القرن بعد مراجعاته النقدية للنماذج الإنمائية السائدة هي **" إن البشر هم صانعو التنمية ويجب أن يكونوا أهدافها "** وهنا تبرز عملية التمفصل والتكامل Articulation والتشابك بين السكان

والتنمية في عملية واحدة انطلاقاً من عدم إمكانية الفصل بينهما وعدم إمكانية تجزئة قضاياها ،فالتنمية لا يمكن أن تتحقق إلا بفعل تحولات واسعة في المجتمع، وهنا يكون النمو الاقتصادي جزءاً من مكوناتها ويكون السكان أو الموارد البشرية غاية التنمية ووسيلتها .

وترجع سيادة المفاهيم التقليدية في عدد من البلدان النامية إلى الاعتماد على النماذج الإنمائية التي صكها وقدمها المفكرون الغربيون، والتي تعبر في حقيقة الأمر عن إجابات وحلول للمجتمعات الغربية وليس لغيرها انطلاقاً من التباين الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والتباين في مرحلة التطور التاريخي بين المجتمعات الغربية وغيرها الأمر الذي يترتب عليه عدم نجاح التقليد أو النقل الميكانيكي لأساليب التنمية من مجتمع إلى آخر ما لم تتوفر لذلك شروط أساسية يرتكز عليها .

وصفوة القول إن المفاهيم التقليدية للسكان والتنمية كانت تعاني تعاني من عدة نواقص خطيرة أهمها :

1- اعتبرت السكان كوسيلة فقط للتنمية .

2- اهتمت بالسكان من حيث الدراسة الوصفية لعملية تزايد حجمهم وتحركاتهم وتوزيعهم .

3- أغفلت المحددات والروابط التي تربط السكان بالتنمية كعملية دينامية .

4- اعتبرت التنمية عملية ترتكز على تحقيق النمو الاقتصادي كهدف أساسي وأعتمدت في مقياسها على متوسطٍ حسابي كمي.

5- أغفلت عملية المشاركة الشعبية في التنمية الأمر الذي يجعل التنمية من نصيب القلة التي تحتكر التخطيط و وضع الأهداف وتنفيذها .

6- أغفلت النماذج الإنمائية السابقة عملية التوازن بين السكان في الريف والحضر وبين مختلف عناصر التنمية وقطاعاتها (الزراعية والصناعية والموارد البشرية والتكنولوجيا).

7- أهملت النماذج الإنمائية السابقة البعد الديمقراطي وحقوق الإنسان الذي يعد بعداً هاماً في أهداف التنمية وذا فاعلية في وسيلة تحقيقها.

الجدير بالذكر أن مشكلة البطالة التي بدأت في الظهور على نحو واضح في البلاد النامية إبتداءً من عقد السبعينات وتزايدت في العقد الحالي إنما يرجع سببها إلى فشل نماذج التنمية التي انتهجتها هذه البلاد ، ذلك أنه بعد أربعة عقود من محاولات التنمية والتحديث في البلدان النامية لم تنجح في تجاوز التخلف وتغيير الهياكل الإنتاجية المشوهة أو تحسين موقعها في الاقتصاد العالمي

" على نحو يضعها على مدارج النمو المتواصل الذي ينمي باستمرار مصادر الدخل والإنتاج والأنفاق والتوظيف"[1].

وكان فشل أنماط التنمية في هذه البلاد راجعاً ضمن عوامل عديدة إلى أن النخب الحاكمة في هذه البلاد قد نظرت إلى عملية التنمية تحت تأثير الفكر التنموي (الذي ساد في حقبة الخمسينات والستينات) على أنها مجرد سد الفجوة القائمة بين مستويات المعيشة السائدة في البلدان الصناعية المتقدمة وتلك التي تسود بلادهم . وتوهم الكثيرون أن تعظيم معدل نمو الناتج المحلي سوف يحل مشكلات التخلف والفقر وعدم عدالة التوزيع، حيث ساد الاعتقاد بأن النمو الذي سيحدث في الناتج القومي سوف تتساقط آثاره trickle_down على مختلف الطبقات والفئات والشرائح الاجتماعية[2].

وفي ضوء هذا الفهم القاصر لعملية التنمية والذي ركز على أهمية النمو الاقتصادي وأهمل عوامل أخرى عديد ة مثل كفاءة القوى العاملة والتنظيم والتكنولوجيا والبيئة

والأبعاد الاجتماعية ،كان من نتيجة ذلك فشل التنمية وظهور مشـــكلات اقتصاديـــة واجتماعية عديدة أهمها :

- انخفاض معدل النمو الاقتصادي .
- تدهور الأنفاق الاستثماري .
- ضيق وانسداد فرص العمل وتزايد معدل البطالة .
- ارتفاع شديد في معدل التضخم .
- تفاوت شديد في توزيع الدخل والثروة .
- توترات اجتماعية وسياسية عديدة ارتبطت بكل ما سبق إضافـــة إلى انحصار مظلة الحماية الاجتماعية وتزايد أعداد الفقراء .
- وضوح المشكلة السكانية التي برزت في نمو سريع للســـكان نتيجـــة لتحسين الخدمات الصحية وانخفاض معدل الوفيات .
- زيادة المديونية نتيجة لتزايد القروض من الخارج .
- انســـداد قنـــوات المشاركة السياسيـــة نتيجة لغياب الديمقراطيـــــة الأمـــر الـــذي ترتب عليه ظهـــور العنـــف السياسي والاجتماعي.
- تزايد عدد الجماعات الهامشية وبروز ظاهرة عمالة الأطفال .

من هذا السياق العام برزت عملية التجديد والمراجعـــة للمفـــاهيم في الســـكان والسياسات الإنمائية ونماذجها واعترفت الدول والمؤسسات الدولية بازمات التنميـــة في العالم الثالث وضرورة البحث عن نماذج تنموية وسياسات عملية جديدة تستوعـــــب كل المتغيرات وتجيب على كل التساؤلات، وتقدم حلولاً لكل المشكلات والأزمـــات السابقة.

مفهوم السكان .

إن دراسة السكان وموضوعاته تعتبر منطلق الدراسات التخطيطية الشاملة ، ذلك إنه إلى السكان تعود نتائج التخطيط، وبهم تنفذ عملياته. أي أن البشر هم صناع التنمية وهدفها في آن واحد. والسكان population كمفهوم يشير إلى مجموع البشر القاطنين في بلد معين. وتطور الاهتمام بهم إلى علم مستقل سمي علم السكان أو الديمغرافيا Demography . ويعرف القاموس الديمغرافي لهيئة الأمم المتحدة " الديمغرافيا" بأنها دراسة عملية للجنس البشري من حيث الحجم والتركيب وما يحدث فيهما من تطور[3].

وتعرف الموسوعة الاقتصادية " الديمغرافيا" بأنها علم إحصاء الشعوب وهدفها إحصاء عدد السكان وتفسير أسباب تطوراته[4].

ويعرف معجم العلوم الاجتماعية " الديمغرافيا" بالدراسة العملية للسكان من حيث حجمهم وتوزيعهم وما يطرأ على هذا الحجم أو التوزيع من تغيير وصفات ومدى اختلافها من مجتمع إلى آخر[5].

والديمغرافيا كعلم مستقل اكتشف لأول مرة عام 1662م من قبل العالم الإنجليزي (جون كرونت) عندما نشر كتابه الموسوم (الملاحظات الطبيعية والسياسية حول قوائم الوفيات) وقد اعتمد على حوادث الوفيات التي وقعت في مدينة لندن في صياغة تعميماته وقوانينه حول موضوع السكان[6].

مع أن البعض يرى أن أول من استخدم هذا الاصطلاح أي الديمغرافيا هو الفرنسي اشيل غوبارد (A. Guilland) عام 1855م في كتابه "مبادئ الإحصاء البشري" وعرفها بدراسة عدد السكان وتحركاتهم العامة وظروفهم الطبيعية وأحوالهم المدينية وصفاتهم العقلية والأخلاقية[7].

وعلم السكان يعتبر من أهم الميادين الاجتماعية التي تبحث في نشاط الإنسان الاجتماعي ولذلك يعتبر السكان وقضاياه جزءا من علم دراسة المجتمع يركز اهتمامه على:

- عدد السكان (حجمهم) ومعدل نموهم .

- التركيب العمري ،النوعي .
- مناشط السكان ووظائفهم .
- حركة السكان الذاتية والمكانية .
- توزيعهم الجغرافي (حضر ـ ريف) .
- معدل الزيادة الطبيعية (معدلات المواليد والوفيات)
- خصائص السكان الاجتماعية والاقتصادية والصحية والثقافية والتعليمية .

إن عمق الترابط والتشابك بين السكان والتنمية يؤدي ويتطلب لنجاح برامج وخطط التنمية معرفة أهدافها ووسائلها ومواردها وخصوصا الموارد البشرية أو " رأس المال البشري".

وان وضع استراتيجية وطنية للسكان في أي مجتمع تتطلب التشخيص السليم للواقع السكاني واتجاهاته المستقبلية ،وذلك يعني ضرورة الوعي والمعرفة بحجم السكان وخصائصه لارتباط ذلك بمعرفة مدى طاقات المجتمع البشرية وقدراتها الإنتاجية، ذلك أن المأزق السكاني الذي تشهده كثير من المجتمعات المعاصرة والذي يعرف باسم الانفجار السكاني يعني وجود خلل ومسافة كبيرة بين حجم السكان والموارد والقدرات الإنتاجية في المجتمع[8].

ومن هذا السياق يمكن القول الأزمة السكانية ارتبطت بعدد من العوامل أهمها غياب السياسة السكانية في خطط التنمية أو بمعنى آخر أن السياسة السكانية هي البعد المهمل في الخطط الاقتصادية والاجتماعية ،ومن هنا فان الرؤية الجديدة للسكان تأخذ بعين الاعتبار المعرفة العلمية الموضوعية بطبيعة المجتمع ومحدداته الاقتصادية والاجتماعية وطبيعة السكان من حيث الأبعاد التالية :

أ- البعد الكمي للسكان حجما وتركيبا وتوزيعا .

ب- البعد النوعي للسكان .

ج - البعد الفئوي للسكان .

د- البعد الأمني وسلامة السكان .

وذلك يعني أن السياسة السكانية تدمج في السياسة الإنمائية ،أي أن التنمية الشاملة المستدامة هي التي توفر الإطار والوسيلة لتغيير السياسة السكانية ودمج عواملها عضويا في صلب عملية التنمية وهذا هو التجديد المعرفي والعملي في الرؤية إلى مفهوم السكان وهي رؤية جديدة أخذ بها برنامج الأمم المتحدة الإنمائي منذ بداية التسعينات .

ويمكن القول بوجود جذور تاريخية لهذه الفكرة نجدها لدى عدد من المفكرين والفلاسفة لم ينظر إليهم في السنوات السابقة .

فقد نادى أرسطو بأن تحقيق مصالح البشرية يجب أن يكون هو مقياس تقييم الأوضاع الاجتماعية ،وحذر قائلا: أن الثروة لا تمثل الخير الذي تسعى إلى تحقيقه فهي مجرد شيء مفيد للوصول إلى شيء آخر ،وقد طالب أرسطو بتبيين أن معرفة الفارق بين الأوضاع السياسية الجيدة والأوضاع السياسية السيئة يكمن في مدى النجاح أو الفشل في تمكين الناس من الوصول إلى حياة مزدهرة ،وكثير من الفلاسفة الأوائل تردد في كتاباتهم أن البشر هم الغاية الحقيقية لجميع الأنشطة فقد كتب"عما نويل كانط " **يقول: لنتصرف في تعاملنا مع البشر سواء في أنفسهم أو في غيرهم كغاية وليس كوسيلة فقط**[9].

وفي كتابات الفلاسفة الصينيين القدماء نرى تاكيدا على أن تضخم عدد السكان يؤدي إلى انخفاض مستوى الحياة للشعب ،والفلاسفة اليونانيون ذكروا إن الحياة الخيرة لا تتم بتوفير الظروف الاقتصادية المناسبة فحسب بل تتعداها إلى أن يكون هناك عدد مناسب من السكان في كل مدينة ،ويرى ابن خلدون في تحديده للعلاقة بين السكان

والتنمية إن كثرة السكان مقترنة بكثرة العمران وبزيادة الإنتاج ووفرة الكسب وبلوغ الرفاهية وكذلك بالتفنن في الصنائع والتعمق في العلوم[10].

الجدير بالذكر أن هناك رؤى أخرى تركز فقط على الآثار الناجمة عن الزيادة السكانية وهو ما يسمى "بالاتجاه الكارثي" الذي نجد جذوره عند "مالتوس" الذي نشر مقالته عام 1798م وكان أول من دق ناقوس الخطر عندما أورد في مقالته أنه من غير الممكن زيادة نسبة الإنتاج بمقدار تزايد السكان. وخلاصة نظريته في السكان وعلاقته بالتنمية نوجزها كما يلي :

1- أن زيادة الموارد هي المتحول الأساسي في حين السكان هم المتحول التابع .

2- أن إنتاجية الأراضي الزراعية محدود (حتى مع التطورات العلمية) ويخضع لقانون الغلة المتناقصة.

3- الغذاء ضروري لحياة الإنسان والعلاقة بين الغذاء والإنسان هي علاقة طردية.

4- عدم التناسب بين عدد السكان والموارد الغذائية ،فالسكان يتزايدون وفق متوالية هندسية والغذاء حسب متوالية عددية .

5- أن الشرور الإنسانية تحدث كنتيجة حتمية لاختلال التوازن بين السكان وموارد الغذاء.

ولعل هذه الرؤية التشاؤمية التي قدمها مالتوس إنما كانت انعكاسا لما شاهده في المجتمع الإنجليزي من مشكلات اقتصادية واجتماعية في القرن التاسع عشر[*].

وهناك منظور آخر تبلور في نهاية الستينات نجده في تقرير " حدود النمو" الذي قدمه نادي روما ويعتبر أهم دراسة كارثية في نظرتها للسكان ،وقد اعتمد هذا التقرير

(*) شاهد مالتوس المشكلات الاجتماعية الخطيرة التي ظهرت في المجتمع الانجليزي عقب الثورة الصناعية وتأثر كثيرا بذلك مما اثر بكتاباته عن السكان ،وقد تعرض لاوجه نقد عديدة .

على عدة متغيرات أساسية هي النمو السكاني السريع ، التصنيع المسارع ،تدهور الموارد الطبيعية نتيجة التلوث ،انتشار سوء التغذية في العالم ،ويخلص هذا التقرير إلى القول بضرورة الحد من استنزاف الموارد الطبيعية وكبح النمو الديموغرافي وإلا فإن الكارثة تشمل سكان العالم[11].

ويعتبر هذا التقرير أكثر انتشارا ويعتمد أساسا على نظرية مالتوس ،وهو يهمل الأخذ بعين الاعتبار التفاوت والتباين في هذه المشكلة من مجتمع إلى آخر ومن نظام سياسي اجتماعي إلى آخر أي أنه حاول تعميم رؤيته الخاصة على العالم كله .

وفي تسعينات هذا القرن قدم الإنجليزي " Roy calne " دراسته بعنوان " عالم يفيض بسكانه " Too many people " واعتمد فيها على رؤية متشائمة "كارثية " يرى أن النمو السكاني يشكل قلقا لكل البشرية ويعتبر المشكلة الأساسية في الدول النامية"[12](**) . إن مجمل الرؤى السابقة للسكان اعتمدت على المغالاة والتهويل من المشكلة السكانية واستندت واقعيا على رؤى جزئية متشتتة مما أفقدها الرؤية التكاملية التي تشكل جوهر المعرفة العلمية الموضوعية ،والمثير للانتباه هنا أن هذه الرؤى الكارثية للسكان قد جاءت من كتاب غربيين يحذرون فيها من أزمة السكان والتنمية في المجتمعات غير الأوروبية، وذلك يعني أن هناك تركيزا واهتماما كبيرا من الدول المتقدمة على خطورة المشكلة السكانية في البلدان النامية (***) ونحن لا نقلل من أهمية تلك المشكلة وآثارها الخطيرة ولا يمكننا القول بمؤامرة من الدول المتقدمة على الدول الفقيرة لا

(**)سير روي كالن ،عالم يفيض بسكانه ، عالم المعرفة ، رقم 213، 1996م ،ص237.

هذا الكاتب يتحيز ضد دول الجنوب (العالم الثالث الفقير) ويرى بأنهم سبب رئيسي في مشكلة السكان في العالم بحكم ميلهم إلى التكاثر بشكل غير منضبط وغير عقلاني، وهو في ذلك يهمل الظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ويهمل الظرف التاريخي الدولي ودوره في ذلك .

(***) يشير تقرير التنمية البشرية لعام 1994 أنه بالرغم من كل التطورات التكنولوجية مازلنا نعيش في عالم يجوع فيه خمس سكان البلدان النامية ص2.3.

ضعاف حجمها السكاني أو أن نفهم من ذلك رغبة الدول المتقدمة في الحد أو تقليل المعونات إلى الدول الفقيرة كما إننا في بنفس الوقت لا يمكننا إخفاء عجز السياسات الإنمائية في الدول النامية ،فالعلاقة بين السكان والتنمية لا يجب النظر إليها من منظار واحد أي من منظار السبب والنتيجة فقط . وإنما العلاقة بينهما هي علاقة جدلية حيث تؤثر التطورات السكانية في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية كما تؤثر التطورات الاقتصادية والاجتماعية في السكان ويكتسب الحديث نغمة تشاؤمية في أوقات العسر والتأزم في الأحوال الاقتصادية والاجتماعية بينما يقل الكلام عن هذه المسألة وربما يأخذ طابعا تفاؤليا أو على الأقل تتكسر حدة النغمة التشاؤمية في أوقات اليسر والانفراج الاقتصادي والاجتماعي[13].

وتحظى آثار التغيرات السكانية على التنمية باهتمام كبير من البنك الدولي الذي يعتبر في طليعة الهيئات والمنظمات الدولية التي تعتبر الزيادة السكانية مصدر تهديد عظيم الشأن للتنمية ،فالتضخم السكاني يولد من الظروف ما يعوق قدرة المجتمع على تنمية قدراته الإنتاجية. وفي هذا الصدد يقول (روبرت ما كنمارا) الرئيس الأسبق للبنك الدولي "**تشكل الزيادة المفرطة في نمو السكان في العديد من الدول النامية تهديدا خطيرا**"، وبرغم تسليمه بأن مشكلة السكان ليست هي السبب الوحيد للظلم الاجتماعي أو الفقر[14].

فإذا كان المزيد من الأطفال يعني بالنسبة للحكومات المزيد من المصروفات أو الإنفاق العام من أجل الغذاء والصحة والتعليم والخدمات الاجتماعية الضرورية فيجب علينا أن نضع التساؤل التالي : هل يمكن القول بأن الانفجار السكاني هو سبب للتخلف الاقتصادي والاجتماعي أم أنه نتيجة له ؟ والحقيقة التي تقتضيها الرؤى العلمية الموضوعية تتضمن القول إن الانفجار السكاني هو سبب ونتيجة في أن واحد وأنه لا يمكن المبالغة في أثر النمو السكاني ما لم تكن هناك دراسات امبيريقية شاملة ومتكاملة نظرا لاختلاف ذلك الأثر من مجتمع إلى آخر ،فالمعروف عن غالبية الدول النامية، ضآلة

نسبة الاستثمار، وضعف الإنفاق الموجه للزراعة والغذاء والخدمات التعليمية والصحية، وضعف الالتزام السياسي نحو الفقراء وعدم عدالة توزيع ثمار التنمية وتزايد الإنفاق العسكري(*) وعدم الاستقرار السياسي إضافة إلى أن تخلف القطاع الزراعي في هذه الدول وضعف أو محدودية إنتاجية ثروتها إضافة إلى ضعف الأنفاق وتخلف وبدائية الوسائل التكنولوجية المستخدمة في الزراعة ،قلة المياه وضعف مهارة القوى العاملة، وإشكالية توزيع الحيازات أو الملكية للأراضي الزراعية .

وهنا ترافق زيادة النمو السكاني مع وجود نظم سياسية عاجزة عن التخطيط والتنمية وفي هذا الصدد يشير تقرير التنمية البشرية لعام 1991م إلى "أن غياب الالتزام السياسي وليس فقدان الموارد المالية أو ضعفها "في الدول النامية" هو السبب الحقيقي في إهمال البعد البشري"[15].

ولما كان الهدف الأساسية هو تنمية الإنسان لان الحاجات الأساسية ترتبط بالطبيعة البيولوجية والثقافية فإن مؤشر نوعية الحياة يبرز خمس حاجات أساسية هي "الغذاء، المأوى ،الرعاية الصحية ، التعليم ، التشغيل أو فرص العمل" ومن هذا الإطار الذي يحدد الحاجات الأساسي وجعلها هدفا أساسيا للتنمية يكون الترابط الوثيق والتفاعل الأساسي والتلاحم بين السكان والتنمية[16] ولذلك فإن فهم حركة تطور النمو السكاني لا بد من ربطها بالتغيرات التي تطرأ على هذا النمو في السياق المجتمعي اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا فهناك تأثير للسكان وعوامله في التنمية ومجالاتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية كما أن هناك آثارا واضحة للمحددات الاقتصادية والاجتماعية في التنمية في بنية السكان وحركته وتركيبه ومعدلات نموه.

(*) أنظر في تأثير الإنفاق العسكري على التنمية : عبد الرزاق الفارس ، السلاح والخبز ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، 1988م .

وفي هذا الصدد يرى الباحث أن التفاعل والترابط بين السكان والتنمية لا يتحدد باتجاه وحيد أي بعلاقة سبب ونتيجة أو تابع ومتحول وإنما في علاقة متكاملة متشابكة ومتداخلة في كل عواملها وآلياتها . فلا يمكن الحديث عن مشكلة سكانية في معزل عن المشكلات الاقتصادية ولا يسوغ الحديث عن المشكلة الاقتصادية في معزل عن مشكلات التنظيم الاجتماعي والإطار السياسي العام للمجتمع والنمو السكاني .

والنمو السكاني يتعارض مع التنمية من زاويتين هما :

أ- تخفيض معدل الادخار والاستثمار ،فكلما ارتفع عدد العاملين كلما هبط متوسط دخل الفرد والأسرة من المدخرات" وكذلك المجتمع"

ب- زيادة الاحتياجات الاستثمارية والخدمية .

– الاهتمام الدولي بالمشكلة السكانية وتقديم رؤية جديدة

إن تزايد النمو السكاني في غالبية دول العالم أصبح يشكل حافزا للاهتمام الدولي الذي يتباين في رؤاه للمشكلة السكانية فهناك آراء علماء وجماعات تعتبر الدول النامية مسئولة عن تزايد سكانها وما يترتب على ذلك من مشكلات ،وهناك اهتمام دولي ارتبط بالمؤتمرات والندوات الدولية التي نظمتها الأمم المتحدة وغيرها من المنظمات والهيئات الدولية علاوة على المؤتمرات الإقليمية والمحلية . وجميع هذه المؤتمرات تطالب بتجديد سياسة إنمائية تدمج السكان في إطارها وتنبه على مخاطر النمو السكاني وتطالب بإيجاد وسائل لتنظيم النسل وفقا لظروف كل دولة .

وأهم المؤتمرات الدولية ما يلي :

1-مؤتمر روما 1954م

2-مؤتمر بلجراد 1965م

3-مؤتمر بوخارست 1974م

4- مؤتمر مكسيكو 1984م

5-مؤتمر ريودي جانيرو1992م عن البيئة

6-مؤتمر القاهرة 1994م عن السكان

7- مؤتمر بكين 1995م عن المرأة .

8- مؤتمر كوبنهاجن 1995م عن التنمية الاجتماعية .

إضافة إلى ذلك تأسيس وإنشاء عدد من المنظمات الدولية التي تهتم بالسكان والتنمية وهي :

- 1952م تأسيس الاتحاد الدولي لتنظيم الوالدين IPPF ويعد أول تنظيم دولي يعمل في مجال السكان .
- 1952م أنشئ في الولايات المتحدة مجلس السكان مقره نيويورك .
- 1969م إنشاء صندوق الأمم المتحدة للأنشطة السكانية UNFPA وهو أشهر مؤسسة دولية تعمل في مجال السكان وقد تغير اسمه إلى " صندوق الأمم المتحدة للسكان " وهو أكبر مؤسسة دولية تعمل تحت مظلة الأمم المتحدة وتهتم بالإشراف والتمويل والمتابعة لتنظيم السياسة السكانية في مختلف الدول الأعضاء في الأمم المتحدة .
- 1979م تأسيس تشكيل دولي يعمل في مجال السكان هو " اللجنة العالمية " Global committee for Parlimentaraian وكان تشكيل هذه اللجنة ثمرة مؤتمر دولي للبرلمانيين عن السكان والتنمية عقد في سريلانكا.

وتعتبر المؤتمرات الدولية السكانية أضخم أشكال النشاط السكاني الدولي ،ويعتبر مؤتمر بوخارست 1974م أول مؤتمر دولي للسكان تعقده الأمم المتحدة بالرغم من وجود مؤتمرين قبله اقتصرا على حضور واهتمام العلماء والخبراء دون الحكومات .

والمؤتمر الدولي الأول 1974م اتصف بحدة النقاش والتباين والاختلاف في تناول المشكلة السكانية وتصارعت[17] فيه آراء الدول والحكومات وممثليها وعكس ذلك الاختلاف الأيدلوجي السياسي بين المعسكرين الرأسمالي والاشتراكي إزاء المشكلة السكانية وقد ناقش المؤتمر القضايا الرئيسية التالية وهي :

1- التغير السكاني والتنمية الاقتصادية .

2- السكان والموارد البيئية .

3- السكان والأسرة .

واتخذ المؤتمر 21 قرارا تتعلق جميعها بالتنمية الريفية وإعادة توزيع السكان والعوامل المجتمعية المصاحبة للتغير السكاني،ولما كانت العلاقة بين السكان والتنمية هي علاقة مركبة ومعقدة فلا تزال تثير الجدل والتباين بشكل مستمر ،أما مؤتمر المكسيك 1984م وهو المؤتمر الدولي الثاني فكان موضوعه الأساسي تجديد خطة العمل العالمية للسكان والتي أقرها المؤتمر الدولي الأول 1974م ،وصدر عن المؤتمر 88 توصية تتكون منها استراتيجية عالمية للسياسات والبرامج المتعلقة بالسكان والتنمية والمرأة . وقد اهتمت المؤتمرات الأخرى في ريودي جانيرو، وبكين، وكوبنها جن ،بمشكلة السكان وعلاقاتها بالبيئة والمرأة والتنمية . أما مؤتمر القاهرة 1994م فهو أحدث وأكبر تجمع عالمي حكومي رسمي وغير رسمي ينعقد خصيصا للاهتمام بالمشكلة السكانية ، وقد ضمت وثيقة المؤتمر 16 فصلا مع الملاحق التي تتضمن ملاحظات وتحفظات بعض الدول، وقد أشارت وثيقة المؤتمر بالاعتراف المتزايد بالترابط العالمي بين الاقتصاد والبيئة وضرورة اتباع سياسة اجتماعية اقتصادية مناسبة لتعزيز النمو الاقتصادي المطرد والتنمية المستدامة وحشد الموارد المالية . وأهم ما نص عليه مؤتمر القاهرة الدولي للسكان

"إن الأهداف والسياسات السكانية جزء لا يتجزأ من التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتي يتمثل هدفها الأساسي في تحسين مستويات المعيشة ونوعية

الحياة لجميع الأفراد، ولكل إنسان الحق في التمتع بأعلى المستويات الممكنة من الصحة البدنية والعقلية وعلى الدول أن تتخذ كل التدابير المناسبة لتحقيق ذلك ، وإن الناس هم أهم وأقيم مورد لأي أمة ويحق لهم التمتع بحياة صحية وذات وئام مع الطبيعة وأن التنمية المستدامة تدمج في مضمونها استراتيجية السكان[18]. وينبغي أن يتعزز الالتزام السياسي بتوفير استراتيجية سكانية وإنمائية متكاملة وأن تنفيذ السياسات السكانية حق سيادي لكل أمة يتماشى مع قوانينها الوطنية ويتمثل المعايير الدولية لحقوق الإنسان".

لم يقتصر النشاط الدولي في مجال السكان على المؤتمرات الدولية ولكن يمتد إلى أنشطة أخرى مثل إنشاء مراكز البحوث والتدريب في مختلف أنحاء العالم والمعونة الفنية والمادية لدول العالم الثالث لإجراء تعدادات سكانية وإجراء المسوحات السكانية والخاصة والعامة(**).

وصفوة القول : أن التصور الجديد لمفهوم السكان لا ينظر إليهم باعتبارها حجما عدديا أو إحصائيا بل ينظر إليهم في إطار نوعيتهم وخصائصهم الثقافية والاجتماعية والاقتصادية ومدى تأهيلهم وتدريبهم وخبراتهم الأمر الذي يحدد مدى وحجم نوعيتهم الفعالة في تنمية المجتمع . وعليه فإن عملية دراسة ومعرفة حجم تزايد السكان ومعدلات نموهم يشكل جزءا من مفهوم السكان الذي يتطلب دراسة حركة السكان وديناميكيته في معدلات الولادات والوفيات والهجرة وحتى يكون هناك توازن بين السكان والتنمية لا بد من اتخاذ إجراءات تشريعية وثقافية وتنظيمية ووسائل عديدة لتحقيق ذلك من خلال ضبط النمو السكاني وتقليل معدلات الخصوبة ومن جانب آخر رفع القدرات الإنتاجية لعملية التنمية .

(**) من أهم الأنشطة على المستوى الدولي ، المسح العالمي للخصوبة الذي أجري في الثمانينات على 42 دولة نامية ،20دولة متقدمة ، انظر في ذلك : سير روي كالن ، مصدر سابق ، ص16،17

مفهوم التنمية

يعد مفهوم التنمية development من أكثر المفاهيم تداولا. كتبت حوله كثير من الدراسات والأبحاث من شتى التخصصات الأمر الذي إلقى عليه وقد رأ من الغموض . وتم الخلط بينة وبين مفاهيم أخرى مثل النمو grwth والتطور evolutiont التحديث modernization وبالرغم من جملة القواسم المشتركة بينها جميعا إلا أن كلا منها له دلالة واضحة وسياق معين .

ومفهوم التنمية ذاع صيته منذ منتصف هذا القرن أي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية خاصة في الدول المستقلة حين ذاك والتي اتجهت بعد حصولها على الاستقلال الى مرحلة البناء والتعمير ، وكان مفهوم التنمية بدلالته ومرجعياته الاقتصادية والسياسية ترتبط بتجربة الغرب باعتباره آلية وأسلوبا علقت عليه آمال طوال من قبل الدول النامية حيث رأت فيه الأسلوب الأمثل لتحقيق النمو والتطور واللحاق بالغرب الصناعي، فقد كان مفهوم التنمية يتضمن تحقيق التطور في الدول النامية بما يماثل ما تم تحقيقه في الدول الصناعية الغربية، وهنا تضمن هذا المفهوم أوجه القصور والخلل حيث تم تجاهل تباين السياق التاريخي الذي طبق فيه الغرب عنه في الدول النامية. ولذلك نجد أنه بعد ثلاثة عقود من استخدام مفهوم التنمية اتضح عجز هذا الأسلوب وقصوره وهنا بدأت عملية المراجعة النقدية والعملية لمفهوم التنمية من حيث دلالاته ومساره وتنفيذه ومؤشراته فقد شهد منتصف السبعينات بداية حملة مراجعة نقدية لمفهوم التنمية ونماذجها كرد فعل لأزمة التنمية في العالم الثالث التي فضحت قصور الأبنية النظرية والتنفيذية لبرامج التنمية وقد استمرت هذه المراجعات حتى بداية حقبة التسعينات من هذا القرن حيث تجمعت كثير من الرؤى والنماذج من قبل المثقفين والدول والمنظمات الدولية وتم صياغته في تصور إنمائي جديد كان الفضل في إعلانه لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي undp الذي بدأ منذ تقريره الأول عن التنمية البشرية 1990م مؤكدا على حقيقة أساسية وهي (إن البشر

هم صانعو التنمية ويجب أن يكونوا أهدافها) وهذه الحقيقة تتضمن تحديدا في مفهوم التنمية دلالته وأبعاده.

فالتنمية أصبحت تهدف إلى توسيع الخيارات المتاحة أمام الناس[19] وهي لذلك لا تقتصر على مجرد زيادة الدخل أو الثروة ولكنها تتضمن توزيع ذلك الدخل بالعدل أي تحقيق التنمية مع الإنصاف[*] developmet weth equity وذلك يتضمن تحديد مفهوم التنمية بحيث أصبح شاملا لكل الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، فالتنمية كما سنحدد دلالتها بشكل عام يجب أن تتضمن تحديدا في المفهوم والدلالات والمؤشرات وفي الوسائل ويجب أن تكون متوازنة مع البيئة وبين الأجيال وتمكين المرأة من المشاركة وهذا التحديد في المفهوم يتضمن تجاوزا لما ساد في العقود الثلاثة السائدة السابقة [**].

ففي الخمسينيات ساد فيها النموذج الاقتصادي المتمحور حول راس المال والقائل بأن التنمية تحتاج أساسا إلى تمويل خارجي من أجل تحقيق مشاريع اقتصادية يترتب عليها زيادة في النمو الاقتصادي وهنا تم النظر إلى الإنسان كوسيلة فقط للتنمية مبررين ذلك بان النمو الاقتصادي المستقر كاف بحد ذاته لتوفير المكاسب الاجتماعية لأفراد المجتمع كافة، ومع بداية الستينات اتجهت نماذج النمو الاقتصادي إلى الاستثمار في البشر من خلال إعطاء الأهمية للتعليم والتدريب وهنا ظهر مفهوم التنمية للموارد البشرية وفي السبعينات تم التركيز على مشكلة الفقر والتخفيف من وطأته لتوفير الاحتياجات الرئيسية أو في الثمانينات تم التركيز على سياسة التكيف الهيكلي التي حمل لواءها صندوق النقد الدولي[20] وفي التسعينات تم التجديد الكلي لمفهوم التنمية وتجاوز المفاهيم السابقة.

(*) انظر حول ذلك : . John tawls :theory of Justice : Harvard University press Combridge95

(**) لمعرفة النظريات التقليدية في التنمية انظر :

-غسان بدر الدين ،جدلية التخلف والتنمية ،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت ، 93م، ص81-96.

الجدير بالذكر أن فشل مفهوم التنمية في العقود الثلاثة إنما يرتبط بكثير من المحددات نشرحها كما يلي :

في الفترة السابقة اهتم العلماء وخصوصا في الغرب بإقامة نماذج مثالية Idenl types تعكس حقائق المجتمع الأوروبي الجديد المتطور ونماذج مقابلة تعبر عن سمات المجتمع التقليدي غير الأوروبي المتخلف مثل (هنري مين تونيز، ودوركايم، وماكس فيبر وهوسيلتز وبارسونز، والت روستو)[21] وفي مجملها تركز هذه النماذج على نزعة اختزالية لمفهوم التنمية إلى مؤشرات كمية تعتمد على متوسط دخل الفرد ،وهذا يعني الاعتماد على متوسطات حسابية وليس اجتماعية وذلك يتضمن تجريد الواقع من سياقه التاريخي الاجتماعي وبؤرة اهتمام تلك النماذج وتحديدها للتنمية باعتبارها تتمثل في اكتساب واستيعاب المجتمعات المتخلفة لمتغيرات النمط السائد في الدول المتقدمة ومن أشهر هذه النماذج هو النموذج الخطي (ولث روستو) الذي يرى بأن التخلف ما هو إلا تأخر اقتصادي وأن التنمية هي استيعاب ونقل خبرات الغرب واللحاق به ويرى الاتجاه السلوكي أو السيكلوجي بان الدول النامية تتميز بالسكون والركود ولكي تتطور عليها نقل الثقافة وسلوك الدول المتطورة* وعلى هذا المنوال صارت بقية النماذج الأخرى .

ولما كانت التنمية في العقود الثلاثة السابقة قد اعتمدت بشكل أساسي على دور[22] الدولة من حيث وضع خطط التنمية وأهدافها وتنفيذها فهي بذلك قد تضمنت في سياقها على آليات فشلها والتي شكلت مجالا للنقد والمراجعة .

وقد اشترك في هذه المراجعة النقدية لمفهوم التنمية كتاب ومثقفون من الدول النامية والمتطورة في آن واحد ، وسوف يعرض الباحث كما يرى أهم نقاط الضعف والقصور في النماذج الإنمائية السابقة على النحو التالي:

(*) يرى أحد ممثلي هذه النماذج وهو هيجن Hagen أن الشخصية النمطية التي توجد في المجتمعات التقليدية المتخلفة هي شخصية غير خلاقة وغير مبدعة وتسلطية ،المصدر السابق ص74.

1- إن مفهوم التنمية كان مفهوما يتصف بالجزئية وعدم الشمول.

2- اعتمد أساسا على النمو الاقتصادي وهذا النمو أحد ملامح للتنمية.

3- أن النماذج الإنمائية نقلت عن التجربة الأوروبية متجاهلة السياق التاريخي الاجتماعي المختلف بين المجتمعات المتطورة والمجتمعات النامية.

4- اعتمدت النماذج الإنمائية السابقة على مؤشرات كمية وحسابية وأهملت الأبعاد الاجتماعية .

5- احتكرت الدولة سابقا عملية وضع خطط التنمية وأهدافها وتنفيذها وتم تجاهل المشاركة الشعبية

6- اتصفت بغياب التوازن بين عناصر التنمية وقطاعاتها .

7- اتصفت بغياب التوازن بين الريف والحضر وبين مختلف الفئات الاجتماعية المختلفة.

8- اتصفت النماذج الإنمائية بغياب الديمقراطية الذي أدى إلى غياب النشاط الأهلي وخصوصا غياب نشاط المرأة .

9- أدت النماذج الإنمائية السابقة إلى تزايد التفاوت في الثروة والدخل بين أفراد المجتمع.

وفقا لذلك كله قدم عدد من المفكرين تصوراتهم النقدية والبديلة في أن واحد فالكاتب أنور عبد الملك[23] يعتمد مفهوم النهضة بدلا من التنمية فهو يشجب التحديث لأنه عملية تقليد للغرب دون بناء القوى الأساسية والإنتاجية والعلمية. ويرى إسماعيل صبري عبدالله[24] أن التنمية تجعل شعوبنا تجري وراء سراب لن تلحق به لأن لا تستعار، بل هي عملية إبداعية شاملة لها أساس مادي وأساس فكري تكون التنمية ثمرة التفاعل بينهما ومن جانبه يرى محمد لبيب شيقر[25] أن التنمية عملية تطوير شامل تحرر الاقتصاد من التبعية. ويرى (يوسف صايغ)[26] أن التنمية تتخطى مجرد نمو مقبول في

الناتج القومي لتتضمن تحقيق عدد من التبدلات الجوهرية في المعطيات والمؤسسات الاقتصادية والديموغرافية والتكنولوجية والاجتماعية والسياسية ويرى أن للتنمية ثلاثة مراكز أساسية هي(الحرية ، العدالة ، الوحدة)

ويرى عادل حسين[27] ان النظريات الغربية في التنمية قاصرة عن فهم مجتمعاتنا ومعادية لنا. ومن جانبه يرى الجابري[28] أن الخطاب العربي المبشر بالنهضة والتنمية المعاصرة هو خطاب توفيقي متناقض محكوم بسلف ويرى إننا لا نستطيع أن نشيد حلما للنهضة مادمنا محكومين بسلطة النموذج سواء كان التراث أو الفكر المعاصر حيث لابد من التفاعل النقدي معهما ولابد من معرفة الذات أولا. ومن جانبه يرى عادل أمين[29] متسائلا هل ما تم في العقود الثلاثة تنميه أم تبعيه اقتصادية وثقافية .

وفي نفس الصدد ظهرت عدة دراسات لمفهوم التنمية السابق من قبل كتاب غربيين نشير إلى بعض منها .

ففي بريطانيا صدر كتاب (فقراء اقتصاديات التنمية)يعترف فيه الكاتب بأن النظريات الاقتصادية غير قادرة على تقديم مقاربة دقيقة لعملية التطور والتنمية في البلدان النامية[30].من جانبه يقول (فرانسوا بيروا) أن النظريات الاقتصادية المسيطرة بنيت على خبرات البلدان المتقدمة وهذه النظريات في العديد من جوانبها معيارية تخدم أغراض البلد الذي نشأت فيه بواسطة منطلقاها وبنائها وإذا طبقت في البلدان النامية بدون نظرة نقدية تكون قاتلة. ويقول أيضا أن البلدان النامية قد خدعت بقبولها أفكارا وصياغات واستراتيجيات و لم تتوصل إليها على أساس خبراها الذاتية ولكنها طورت في الغرب لكي تخدم أغراضه[31].

وأكدت (جوان روبنسون) منذ أكثر من 20 عاما أن الاقتصاديين البريطانيين التقليديين كانوا في جانب التجارة الحرة لأنها كانت في مصلحة بريطانيا العظمى وليس لأنها لفائدة العالم[32].

ومن هذا السياق يمكن القول أن نماذج التنمية السابقة وهي غربية النشأة والتصميم(*) تعتبر نظريات لاحقة للتجربة الأوروبية في التنمية أي إنها نظريات لتجربة قد تمت بالفعل وتم صياغة تلك النظريات في نماذج عامة وروج لها كثيرا خاصة وإنها في الدول النامية التي قبلت النخب الحاكمة فيها على تبني تلك النماذج وتطبيقها وهنا يكمن سبب فشل هذه النماذج ويكمن الفارق الأساسي في عملية التنمية والتطور بين الدول النامية والمتطورة والمتخلفه(**) وسوف نشير بإيجاز إلى عملية التنمية في الغرب على النحو التالي:

إن التحول التاريخي في أوروبا في القرن 18والقرن 19 ظهر في اقتصاد السوق بفعل الثورتين الزراعية والصناعية حيث توفر الغذاء وتقدم الطب والعناية الصحية مما جعل الأوبئة الفتاكة تتراجع وهنا لم يكن التزايد الديمغرافي مشكلة أي لم ينتج خلل بين النمو السكاني والموارد المتاحة (كما هو الحال في مأزق العالم الثالث حاليا) وذلك أن التطور الاقتصادي لأوروبا اقترن بتغير عميق في الذهنية العامة ارتبطت بإصلاح حاسم في الفكر الديني كان من نتائجه استقلال المجال السياسي والمدني عن المجال الديني وتأسست العقلانية كمنهج منتج للعلم قبل بحقائقه وتطبيقاته وأصبحت العقلانية نظاما عاما يسير المؤسسة الاقتصادية ويؤسس لعلاقات تعاقدية بين أطراف المجتمع وهنا يدخل مفهوم الوقت أو الزمن وضبطه وتنظيمه في الإنتاج وفي العلاقات العامة والشخصية وفي توقع المستقبل بالتخطيط ووضع الخيارات والاستراتيجيات، إن هذا التطور النوعي في قوى الإنتاج وعلاقاته وفي الذهنية حيث تأسست العقلانية الحديثة كمنهج للعمل والقيم ولنظرية السلطة واقترب بها تكوين مفهوم الفرد كمبادر ضميره هو الوازع وارادته تؤخذ في الاعتبار فيتعاقد على نظام المجتمع والسياسة بناء على توافق

(*) يشير الكاتب Perroux إلى أن قلة من الاقتصاديين الغربيين على دراية بالظروف الفعلية في البلدان النامية وأن النظريات الغربية في التنمية ذات فائدة قليلة جدا في تفسير نمط التنمية في البلدان النامية.

(**) لمزيد من الاطلاع على المراجعات النقدية لنماذج التنمية انظر: جورج القصيفي، مصدر سبق ذكره، ص ص 81-99.

عـام ، وتتم الاختيارات وفقا لإرادة الأغلبية والأقلية[33] واقترن هـذا كلـه بتطـور منظمات المجتمـع المدني وبتأسيس مؤسسة الدولة الوطنيـة الحديثـة القائمـة علـى مؤسسات وليـس على شخصية السلطة وفردانية الحاكم . وهنا تكون نموذج غـربي تنموي فرض نفسـه على الجميع وساد الاعتقاد بأن التقدم الغربي يشكل نموذجـا لا مفر للدول الأخرى من أن تحاول الاقتداء به .

الاهتمام الدولي بمفهوم التنمية ومحاولة تجديده

ارتبط الاهتمام الدولي بتجديد مفهوم التنمية بشكل أساسي من قبل برنامج الأمـم المتحدة الإنمائي وخاصة منذ بداية التسعينات، ولكن يوجد اهتمام عام قبل ذلك تمثل في مؤتمرات دولية وإقليمية علاوة على الاهتمام الدولي المنصوص عليه بالاتفاقيات الدوليـة ومن ذلك نص الـمادة (25) من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان التي تقول "لكل إنسـان **الحق في المستوى من المعيشة كاف للحفاظ على صحته ورفاهيته هو وأسـرته ويشـمل الغـذاء والملبـس والمسكن والرعاية الصحية والتعليم**"[*].

وذلك يتضمن أن التنمية تركز على تلبية الاحتياجات الأساسية وهذا بحد ذاته لـه أهمية إذا أن آلافا من البشر في معظم الدول النامية لا يستطيعون الحصول حـتى علـى نصف حاجاتهم الأساسية[**].

والجديد الذي يضاف إلى نص الإعلان العالمي لحقوق الإنسان أن التنمية لا تلـبي حاجات الإنسان الأساسية وحسب بل وتوسع الفرص أمام الأفراد لإرضاء طموحـاتهم

(*) هناك مرجعية دولية في التنمية وهي "إعلان الحق في التنمية" الذي اعتمدتـه الجمعيـة العامـة للأمـم المتحـدة في 1986/12/4م، وفي مضمونه ينص على أن الحق في التنمية حق من حقوق الإنسان غير قابل للتصرف.

(**) في هذا العالم يجوع خمس سكان البلدان النامية كل ليلة ولا يحصل فيه الربع حتى على ضرورة من الضرورات الأساسـية ويعيش الثلث في حالة فقر مدقع، انظر في ذلك: - البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة، تقرير التنمية البشرية للعـام 1994م، ص ص 2-4.

إلى حياة افضل وهنا يزداد مفهوم التنمية إتساعا وشمولا وديناميةمع أول تقرير للتنمية البشرية عام 1990م الذي يعرف بأنها توسيع الاختيارات أمام البشر[34] وتشمل حقه في الحصول على حياة أفضل ورعاية صحية وتعليم واحترام حقوقه السياسية والمدنية ، وهذا يشكل تجاوزا للمفاهيم السابقة التي سادت في الفترة من الخمسينات وحتى منتصف الثمانينات ويمكن عرض أهم ما تتضمنه تقارير التنمية البشرية في تحديدها لمفهوم التنمية على النحو التالي:

-التقرير الأول لعام 1990 م ركز في مفهومه للتنمية على اعتبارها توسيع الخيارات المتاحة أمام الناس، والتقرير الثاني 1991م أضاف أن تكون التنمية أكثر ديمقراطية واهتم بالمشاركة الشعبية وان يتمتع الإنسان بالحريات العامة ،التقرير الثالث 1992م نظر إلى التنمية باعتبارها تهدف الى توسيع الخيارات الإنسانية المختلفة وركز على الوسائل والأهداف الغائية للتنمية مع الاهتمام بتوليد النمو الاقتصادي وتوزيعه والتقرير الرابع لعام 1993م اعتبر أن التنمية يجب أن تكون هي تنمية الناس وتنمية للناس وتنمية بالناس ، الأول يعني الاستثمار في القدرات البشرية (التعليم ،الصحة، المهارات) والثاني تأكيد على أن النمو الاقتصادي وثمار التنمية يجب أن يوزع على نطاق واسع وعادل ، والثالث يعطي لكل إنسان الفرصة للمشاركة .التقرير لعام 1994م اعتبر التنمية هي عملية توسيع نطاق خيارات الناس وأن يمارسوا هذه الخيارات في مأمن وحرية أي أن التقرير اهتم بحقوق الإنسان كجزء من التنمية ،وتقرير عام 1995م ركز إضافة إلى المفاهيم السابقة على العناصر التي تشكل قضايا أساسية وحيوية وأهمها عدم المساواة بين الجنسين وأن النساء مازلن يحصلن على نصيب أقل في الدخل وفرص العمل والخدمات مقارنة بالرجل . وفي تقرير عام 1996م تم التركيز على أولويات الفقراء المتمثلة في زيادة الدخل وفي الحصول على الغذاء المناسب وحاجاتهم الأساسية المادية وغير المادية مثل الحرية والمشاركة وعدم الاستغلال وتضمن المفهوم خمسة أبعاد للتنمية هي:

التمكين، التعاون، العدالة، الاستدامة، الأمن، أما تقرير عام 1997م فقد ركز على زيادة الخيارات أمام الناس وعلى أساس هذه الخيارات ليست بأي حال نهائية أو ثابتة[35].

وهذه التقارير تعطي مفهوما للتنمية أكثر شمولية وديناميية ويتضمن تجديدا في وسائله وآلياته وفي دلالته إضافة الى الاهتمام بالتوازن بين الرجل والمرأة وبين الإنسان والبيئة وبين الأجيال .

الجدير بالذكر أن المؤتمرات الدولية التي عقدت منذ بداية التسعينات وكان للتنمية نصيب من الاهتمام حيث أكدت جميعها على قضية أساسية تتمحور في وجود علاقة متشابكة ومتداخلة بين التنمية والبيئة والسكان والمرأة أي أن مفهوم التنمية لا بد أن يكون مستوعبا لمختلف القضايا المشار إليها . والاهتمام الدولي الجديد بالتنمية ينطوي على قضايا أساسية إضافة الى تجديد مفهوم التنمية ومن تلك القضايا الإشارة الى خصوصية كل مجتمع في تبني وتطبيق نماذج التنمية في إطار القضايا العامة الدولية المتفق عليها، إضافة الى الإشارة أن ارتباط جميع الأمم بعضها ببعض في عملية التنمية لا يعني افتراض وجود نمط إنمائي عالمي فذلك يتضمن الإقرار بأن العالم تسوده ثقافة واحدة وحضارة واحدة ،وهو أمر غير مقبول عمليا وفكريا، ذلك أن المجتمعات تختلف فيما بينها وتتباين في عدد من الخصائص والصفات وان التنمية لكي تنجح في أي مجتمع لا بد وأن تستند إلى منابع فكرية تعكس حاجات المجتمع ذاته، أي المجتمع الذي يصنع التنمية، لكن ذلك لا يعني الانغلاق على العالم أو العزلة ، فهناك قدر كبير من التعاون الدولي (*) أصبح مطلوبا وضروريا وأكدت المؤتمرات الدولية السابقة الإشارة إليها على هذا التعاون .

(*) انظر حول ذلك : جيران في عالم واحد ،نص تقرير إدارة شؤون المجتمع العالمي ،عالم المعرفة ،95م. مواطنون ، دعم المجتمع المدني في العالم ، سيفيكوس ، 94م.

نحو مفهوم جديد للتنمية

وفقا للتحليل السابق الذي تضمن إبراز المفهوم التقليدي للتنمية وتحديد نقائصه وعيوبه كما عبرت عنه العديد من المراجعات الفكرية والنقدية من قبل العلماء والباحثين ومن قبل الحكومات والمنظمات الدولية يمكن إعطاء مفهوم جديد للتنمية اعتبرته المنظمات الدولية والإقليمية والمحلية ضرورة هامة ليعبر عن طبيعة المرحلة الحالية بكل متغيراتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وخصوصا المسألة السكانية وتفاقم المشكلات الناجمة عنها .

ويمكن تحديد مفهوم للتنمية كما يلي:

1- لابد أن يكون هذا المفهوم واسعا ديناميا لايهتم فقط بالاقتصاد ويغفل الجوانب الاجتماعية، ولذلك لابد أن يكون له بعد توازني بين الأجيال، وبين الناس والبيئة وبين الريف والحضر وهذا يتطلب مؤشرات عديدة لقياس نجاح التنمية وهي مؤشرات متعددة كميا ونوعيا كلية وجزئية ،اقتصادية واجتماعية .

2- لا بد أن تكون التنمية عملية مستدامة sustainable process

3- لابد من ربط مفهوم التنمية باحتياجات المجتمع الأساسية وثقافته إضافة إلى أنه لنجاح التنمية لا بد من إلغاء عادات الاستهلاك التي لا تتناسب مع درجة نمو القوى الإنتاجية وعليه نضع المفهوم التالي كتصور جديد للتنمية :

"فالتنمية هي عملية نهضوية مستدامة تستهدف تحسين نوعية الحياة لكافة أفراد المجتمع وتوسيع الخيارات أمامهم يترتب عليها تبدلات وتحولات واسعة وشمولية في كافة مجالات الحياة تحافظ على التوازن بين الناس والبيئة التي يعيشون فيها".

وأهم الملامح والصفات الاساسية لهذا المفهوم الجديد للتنمية كما يلي :

1- أن التنمية عملية شاملة مستدامة وليست حالة مؤقتة .

2- التنمية عملية مجتمعية يجب المساهمة فيها من كل افرا د المجتمع ذكورا وإناثا .

3- أن التنمية كعملية مستدامة تتم وفق مفهوم الشراكة من الدولة والمجتمع المـدني والقطاع الخاص .

4- التنمية عملية واعية مخطط لها، وليست عمليـة عشـوائية، ذات اسـتراتيجية طويلة تنفذ في مراحل محددة

5- التنمية عملية موجهة أي لها إدارة للتنمية .

6- التنمية لا تركز على النمو الاقتصادي الذي يعد جزءا هاما من التنمية بل تتعداه إلى تطوير وتحديث المجالات الاجتماعية والسياسية والثقافية والبيئية ،أي أنهـا لا تقتصر على دخل الفرد .

7- التنمية تتطلب وتهدف إلى تحقيق تحـولات هيكليـة في الإطـار السياسـي والاقتصادي والثقافي بل وفي نظام القيـم والعـادات وأنمـاط السـلوك وفي التشريعات والقوانين .

8- التنمية تتطلب اهتماما نوعيا بالموارد البشرية وبالسياسات السكانية .

9- التنمية تتطلب تبدلات في القيم والحوافز ،والموقف مـن العمـل والتنظيـم الاجتماعي وهي بكل مجالاتها المتداخلة تؤدي إلى توسيع الاقتصـاد وتطويـره وتحسين مستواه وارتقاء قدراته الإنتاجية .

10- التنمية عملية تتصف بالإنصاف والعدل في توزيع ثمارها وفي حمايـة فـرص الأجيال المتعاقبة .

11- التنمية كعملية شاملة يجب أن يكون للمرأة دور أساسي في مختلف مجالاتها(*) .

(*) لتعريف التنمية بصياغته الجديدة وتحديد مؤشراته اعتمد الباحث في ذلك كل الرؤى الجديدة الصادرة عن تقارير التنميـة البشرية 90-98هم ،وبعض الكتب الجديد ة الواردة في هذه الدراسة .

والتنمية بهذا المعنى العام تتضمن إحداث تبدلات وتحولات تراكمية في البيئة السياسية والاجتماعية والثقافية التي يتحرك الاقتصاد فيها. وذلك يتضمن تحسين نوعية الحياة في المجتمع، فالتنمية وفقا لتجديد صياغة مفهومها كما حددناه بحيث يكون الناس هم محور التنمية ويعتبر النمو الاقتصادي وسيلة وليس غاية وأن التنمية لا بد وأن تحافظ على توازن مستمر بين الناس والبيئة وبين الناس في إطار مختلف الشرائح والفئات الاجتماعية وبين الريف والحضر وأن تعمل التنمية على حماية فرص حياة الأجيال المتعاقبة وتتصف بالإنصاف داخل الجيل الواحد وبين الأجيال (**).

والتنمية بهذا المفهوم السابق تعد إجابة عن أسئلة أساسية ينبغي طرحها في إطار تجديد مفهوم التنمية وهي :"

لماذا ننمي ؟ لمصلحة من ؟ أي تنمية نستهدف ؟ كيف ننمي ؟

وكون التنمية عملية مستدامة فهي لذلك تتضمن مفهوما جديدا للنمو الاقتصادي يوفر العدل والانصاف(***) والتمكين والمشاركة الشعبية والحريات السياسية . والتنمية بهذا المعنى تشتمل على :

- -القضاء على الفقر.
- فهم أفضل لعلاقة البشر بالبيئة .
- رفع الإنتاجية وتزايد معدل النمو الاقتصادي .
- إشباع الحاجات الأساسية وترشيد الاستهلاك .
- توزيع أكثر إنصافا لثمار التنمية .
- تعديلات هيكلية في البناء السياسي والاجتماعي والثقافي .

(**) انظر حول ذلك :تقرير التنمية البشرية ،1994م.

(***) أهم كتاب حديث حول العدالة والإنصاف في إطار التنمية يمكن معرفة المزيد عنه في :
-John Rowels Theory of Justice .ob cit.

- تخفيض النمو السكاني .
- تطوير وتنمية رأس المال البشري كما ونوعا .
- سكان أوفر صحة وأفضل تعليما .
- الشراكة بين الدولة المجتمع المدني _ القطاع الخاص .
- حكومة لا مركزية تحقق المزيد من المشاركة .
- توسيع الخيارات أمام الناس وتوسيع فضاء الحريات السياسية .

ولتحقيق نجاح التنمية بمفهومها المشار إليه تتطلب إدارة فعالة للتنمية Development Management وهذه الإدارة لها صفات ومعايير هامة ينبغي توافرها، فهذه الإدارة هي التي ستقود التغيير النوعي المتجدد والهادف الى تحقيق غايات المجتمع وأهدافه وهي إدارة إبداعية وخلاقة تملك القدرة على بلورة تطلعات المجتمع في خطط وبرامج، كما تملك القدرة على تنفيذها بكفاءة وفعالية وأن يكون لديها التصميم والمثابرة على مواجهة التحديات[36].

ومن هذا السياق يكون الناس (الموارد البشرية) هم العامل الأساسي في التنمية، فالمجتمع الذي لا يستطيع أن ينمي موارده البشرية لن يستطيع أن ينمي أي شيء آخر فيه بصورة إيجابية[37].

إن رأس المال البشري Human Capital أصبح ينظر إليه باعتباره العنصر الأساسي والمحوري في التنمية ولكن لا بد من صفات وشروط يجب توافرها لهذا الرأس المال. ونقصد بذلك تنمية المهارات الفنية والإدارية والعلمية وتطوير وتنمية القيم والاتجاهات والميول وأنماط السلوك لديهم . ولذلك فتنمية الموارد البشرية تتطلب صقل وصياغة وتنمية القدرات والكفاءات البشرية في جوانبها العلمية والعملية والفنية والسلوكية[38]. فهي:

1- وسيلة تعليمية تمد الإنسان بالمعارف والمعلومات والمبادئ التي تزيد من طاقته على العمل والإنتاج.

2- وسيلة تدريبية تزود الإنسان بالطرق العلمية والأساليب المتطورة في الأداء الأمثل .

3- وسيلة فنية تمنح الإنسان خبرات إضافية ومهارات ذاتية تجدد صقل قدراته ومهاراته .

4- وسيلة سلوكية تفيد تشكيل أنماط السلوك وفق تجديد القيم والمعايير والاتجاهات الفكرية .

لقد أصبح التعليم في الوقت الحاضر أحد الآليات الهامة لتحديث المجتمع وقدرة أفراده على استيعاب التطور التكنولوجي ، فالتعليم علاوة على أنه حق لجميع البشر فإنه يعزز من مكانتهم داخل المجتمع ويبلور وعيهم ويساعدهم على تحسين المستوى المعيشي وله آثاره الإيجابية في تخفيض النمو السكاني .

فالعلاقة بين التعليم والتنمية مترابطة ومتداخلة ، بمعنى آخر أن التعليم يرتبط بعلاقة تمفصل مع التنمية خاصة وأن الرأسمال البشري يعد في كثير من الأحيان أهم من الرأسمال المادي، والحاجات الأساسيات للتعليم لا تنحصر في تمدرس مجموع السكان و حسب بل لابد من رفع مستوى الكفاءات والمهارات تلبية لحاجات سوق العمل داخل المجتمع وخارجه، وحتى يقوم هؤلاء المتمدرسون بدورهم الفعال في التنمية.فالنظرة الحديثة إلى التربية باتت ترى فيها الأداة الأساسية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية،والتربية هنا ليست مجرد خدمة استهلاكية تقدم للناس بل هي توظيف مستمر للموارد البشرية يؤتي فاعلية مضاعفة (خاصة إن أحسن استخدامه) تفوق العائدات التي يؤتيها المشروع الصناعي[39].

أن التنمية كعملية مستدامة تتطلب إعادة توجيه الموارد البشرية وحسن إدارتها عبر أقنية ثقافية وتربوية وتدريبية، وتوسيع الإدراك والالتزام السياسي العميق من أجل حشد

وتعبئة ومشاركة كل قوة العمل في الجهود الانمائية، وذلك يعني أن التنميـــة تمتـــد إلى جهات وقطاعات عدة فهي ليست اقتصادية وثقافية وإنما هي اجتماعية وبيئية وفـــوق ذلك سياسية.

وهنا يبرز عنصر التوازن في نموذج التنمية الذي قدمنا له تصورا جديدا، ويكـــون التوازن بين المجالات التالية:

القطاع الصناعي	القطاع الزراعي
الريف	الحضر
الرجل	المرأة
الأغلبية من الفئات الفقيرة	الأقلية من الأغنياء
الناس	البيئة
تعليم الناس وتدريبهم	الأجيال المتعاقبة
النمو الاقتصادي والاجتماعي	الحريات السياسية
الاعتماد على الذات	الانفتاح المرن و المنضبط مع الخارج
النمو الاقتصادي	انخفاض معدل السكان (معدل الخصوبة-المواليد) (انخفاض الوفيات)

إن مفهوم التنمية الشامل الذي حددناه يتجاوز المفاهيم التقليدية ويتجاوز المفـــاهيم التي يقدمها الكتاب الغربيون مثل (دانيال ليرنر Daniel Lerner) الذي قال إن المجتمـــع الحديث هو الذي يحقق درجة عالية على سلم عدد من الخصـــائص وهـــي التحضـــر، التصنيع،التعليم، المشاركة السياسية،وسائل الاتصالات الحديثة[40] ولعل عناصر التمكـــين والإنصاف، والمشاركة هي من العناصر الجديدة في مفهومنا للتنمية وهـــي ذات أهميـــة

كبيرة وقد أسهم الوعي المتنامي بالحاجة إلى المشاركة الشعبية public participation في إدارة شؤون المجتمع وارتبط ذلك الوعي بعدم الرضى عن أداء الحكومات وإدراك قدراتها المحدودة وهنا ينعكس تمكين الشعوب في حيوية المجتمع المدني الحديث والممارسة الديمقراطية[41] أن مفهوم التنمية المستدامة لا يستقيم إلا في نظام ديمقراطي . والدفاع عن الديمقراطية لن يكون له معنى إلا إذا كان له محتوى اجتماعي يسنده. وذلك يعني أن الديمقراطية والتنمية متكاملتان ومتشابكتان[42].

أنماط العلاقة بين السكان والتنمية

يمكن القول إن العوامل السكانية والاقتصادية والاجتماعية ترتبط بعلاقات تأثير متبادل وتتفاعل سويا في إطار نسق أعم وأشمل هو الإطار المجتمعي بكل أبعاده الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والتاريخية وهذا أصبح محل اتفاق بين مختلف الدارسين للسكان والتنمية ولكن ليس هناك اتفاق بينهم على القضايا التالية:

1-طبيعة هذه العلاقة وآليات عملها.

2-ماهية المتغيرات الوسيطة التي يتم من خلالها التأثير.

3-حجم الآثار المترتبة على تغيير معين في السكان أو في التنمية.

4-المدى الزمني لتخفيف هذه الآثار.

ولما كانت العلاقة بينهما تتداخل وتتشابك فسوف نوضح بإيجاز كيف يؤثر السكان في التنمية وكيف تؤثر التنمية في السكان على النحو التالي:

أولا : كيف يؤثر السكان على المجتمع والتنمية

اصبح من المتفق عليه لدى الكتاب والباحثين في مجال السكان والتنمية تحديدهم للآثار السلبية التي يعكسها النمو السكاني على التنمية في المجتمع[43] وهي :

1- ضعف الاستثمار لتدني معدلات الادخار للفرد والأسرة .

2- إضعاف معدل نمو الدخل الاجتماعي العام .

3- زيادة البطالة السافرة والمقنعة .

4- تزايد نسبة الفقراء في المجتمع .

5- تزايد التفاوت في الدخل والثروة.

6- إضعاف القدرة على زيادة إنتاج الغذاء .

7- تدهور الخدمات الاجتماعية في مجالات الصحة والتعليم والضمان الاجتماعي .

وفي المقابل لهذه الآثار يرى بعض الكتاب[44] أن هناك آثارا إيجابية للنمو السكاني هي:

1- نمو القوى العاملة وما يستتبعه من نمو في الإنتاج .

2- النمو السكاني يحفز الطلب ويقوي الدوافع الاستثمارية والتطور التكنولوجي .

3- النمو السكاني يؤدي إلى اتساع حجم السوق وما يرتبط بذلك من تقسيم للعمل .

4- أثر الهيكل الشاب للسكان على الرغبة في التغيير والتجديد والبحث عن حلول مبتكرة للمشكلات والدفع بعملية التنمية إلى الأمام .

5- يتوقف ما سبق على نجاح الدولة في تشغيل وتدريب وتأهيل الأعداد المتزايدة من قوة العمل وتوفير الظروف الملائمة لاستثمار طاقتهم وجهودهم .

ومن الأمثلة التي يؤثر فيها السكان على التنمية في المجتمع[45] مايلي :

1- **النمو السكاني ودخل العائلة** : أن الفجوة المستمرة بالاتساع بين معدلات المواليد والوفيات وما يتبعه من زيادة طبيعية عالية تؤثر سلبا على مستويات المعيشة لدى أفراد المجتمع ، إذ يترتب على القوى العاملة في الأسرة أو في المجتمع أن تتحمل عبء إعالة من هم خارج القوى المنتجة ،ومستوى معيشة العائلة يتوقف على نسبة دخلها إلى عدد الأعضاء الذين تتألف منهم وهذا بدوره يتوقف على نسبة المنتجين والعاملين إلى نسبة المعولين وما يترتب على ذلك من احتياجات مستمرة ومتزايدة في الأسرة ينبغي إشباعها مما يشكل عبئا كبيرا على الأسرة خاصة ذات الدخل المحدود .

2- **النمو السكاني والتعليم** : يعتبر التعليم من أهم العناصر التي ترتبط بتقدم المجتمعات وتطورها .فهو عملية استثمارية في الموارد البشرية كما أنه حق لكل مواطن ، ومن واجب الدولة أن تضمن فرص التعليم . ومن هنا فإن النمو السكاني المتزايد يضيف إلى الدولة أعباء جديدة من أجل تنفيذ برامج التعليم ليشمل جميع الأفراد في سن الدراسة ،ولما كانت التنمية تستوجب مشاركة أكبر عدد من المواطنين فإن التعليم يشكل العامل الأساسي الذي يؤدي إلى تفاعل المواطنين مع برامج التنمية وأهداف المجتمع .ولتزايد مشاركتهم في تنفيذ برامج التنمية يتطلب ذلك مزيدا من التعليم والتأهيل والتدريب للقوى العاملة .

3- **النمو السكاني والصحة** : الصحة كالتعليم أصبحت ضرورة اقتصادية ملحة وحقا اجتماعيا. وهنا ينبغي التوسع في برامج الوقاية وبناء المستشفيات والمراكز الصحية والمستوصفات وتدريب الأطباء

والممرضين والفنيين أي ضرورة تأمين الشروط الصحية لكل عائلة في الريف والحضر الأمر الذي يتطلب موارد مالية للإنفاق في هذا المجال، فالخدمات الصحية هي عوامل أساسية في الإنتاج الاقتصادي وليست مجرد سلعة خدمية تقدم للأفراد .

ثانيا :كيف تؤثر التنمية أو التحول الاقتصادي في السكان

يبرز أثر التحولات الاقتصادية والاجتماعية في السكان في البنية والوظيفة والحركة السكانية ويأتي توزيع الدخل وتحول المجتمع إلى التحضر والتصنيع ودخول المرأة ميدان العمل والتعليم والانتقال من مجتمع زراعي بسيط الى مجتمع حديث معقدكل ذلك من مجالات التحول الاقتصادي والاجتماعي التي تؤثر في النمو السكاني في اتجاهات متعددة ومتباينة يرتبط بعضها بشكل أساسي بمسألة التركيب السكاني وحجم الأسرة (كالتصنيع وعمل المرأة والتعليم). والبعض الآخر يرتبط بوظيفة السكان وتنمية الموارد البشرية (مثل التعليم والتدريب والتأهيل).

1- **أثر التصنيع على السكان** : يعتبر التحول في اتجاه التصنيع من أهم المنطلقات في تحول المجتمع وذلك لما يلعبه التصنيع من دور كبير في خلق قيم اجتماعية جديدة تختلف عن القيم في المجتمع الزراعي . فالتصنيع إضافة الى كونه عملية اقتصادية فهو عملية اجتماعية أيضا، ويعني ذلك أنه في نطاق المصنع يتكون لدى الأفراد سلوك وقيم وتنظيم للوقت وتتأثر العائلة بذلك من حيث التغير في النظر إلى حجم الأسرة وعدد الأطفال ومعدل الإنجاب.

2- **تأثير عمل المرأة على السكان** : تشير حركة التطور الاقتصادي الاجتماعي إلى أن مساهمة المرأة في قوة العمل الحديث تزداد باطراد وأصبح عمل المرأة جزءا من التنمية ولذلك فإن عمل المرأة بما يتضمن من بقائها فترة خارج المنزل يفرض عليها واجبات جديدة ويتناقض ذلك مع كثر ة الإنجاب ولذلك

فالمرأة مضطرة بحكم أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية الحديثة أن توازن بين تلك الأوضاع وعملها خارج المنزل وبين عدد الأطفال والإنجاب المتكرر[46]. الجدير بالذكر أن القرارات التي تأخذها الأسرة من أجل ضبط نسلها وتحديد عدد أفرادها هو في الحقيقة قرار يعكس وعيها الاجتماعي المرتفع وهذا الوعي لا يتحدد من خلال الدعاية والوعظ والإرشاد بل أيضا يتحدد بشكل أساسي في ضوء الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي يعيش الناس فيها ،ففي أوربا جاءت عملية تنظم النسل والوعي بها في مرحلة لاحقة للثورة الصناعية التي ترتب عليها تغير ظروف حياة الناس خاصة بعد أن ارتفع مستوى معيشتهم وزاد تعليمهم وبعد أن تغير وضع المرأة في المجتمع[47] وقد ترتب على اشتغال المرأة حدوث تغير واضح في وضعها الاجتماعي ووظائفها التي تؤديها في التعليم والعمل وبالتالي تأخر سن الزواج الذي أثر سلبا على معدل خصوبتها .

3- **أثر التعليم في السكان** : لما كان التعليم ولا يزال أحد العوامل الأساسية في التحول الاقتصادي والاجتماعي أي في التنمية ،فإن أثره يبرز في مضمار السكان من خلال تأثيره في بنية السكان ووظيفته وحركته ،فعندما تتجه المرأة بأعداد كثيرة إلى التعليم وخصوصا التعليم الجامعي يرتفع الوعي لديها كما يتأخر سن الزواج فتقل نسبة الزواج المبكر وتنخفض عمليات الإنجاب والخصوبة وهنا تميل العائلة إلى حجم محدود .

وبالتالي ينخفض معدل النمو بشكل عام فهناك علاقة عكسية بين درجة التعليم وإنجاب الأطفال ، فارتفاع معدل التعليم يؤدي الى انخفاض معدل الخصوبة وبالتالي انخفاض معدل الولادات كما أن انخفاض معدل الوفيات يرتبط بالتعليم وبارتفاع الوعي الصحي وارتفاع المستوى المعيشي، فالرعاية الصحية أساسية لبقاء الإنسان وإدامة سبل التنمية[48] وهذا يعني أن أثر التعليم في السكان يتعدى حجم الأسرة وعدد الأطفال الى

التأثير في التنمية من خلال التدريب والتأهيل لقوة العمل ذلك أن غياب التعليم خاصة الفني والمهني وقصور أو غياب مؤسساته من شأنه أن يخلق مضاعفات تحد من قدرة المجتمع على التطور. فالتعليم يغير من نوعية السكان وتحويلهم من مجرد أفراد وكوادر إلى طاقات فاعلة ومنتجة ومبدعة وهنا يؤثر التعليم في الأفراد والإنتاج ويدفع قدما بتطور المجتمع اجتماعيا وسياسيا وثقافيا[49].

وهناك صور ومؤشرات عديدة توضح نمط وطبيعة العلاقات المتداخلة والمتشابكة بين السكان والتنمية وقد عبر عنها بدقة مؤتمر القاهرة الدولي للسكان حيث تضمنت وثائقه الاهتمام والتأكيد على الوعي بأوجه الترابط بين السكان والنمو الاقتصادي المطرد والتنمية المستديمة وعبرة الوثيقة النهائية للمؤتمر على إجماع الدول على أن الفقر المزمن الواسع الانتشار واوجه انعدام الإنصاف الخطيرة في المجتمع بين الجنسين لها تأثيرات كبيرة على العوامل الديمغرافية مثل النمو السكاني وتوزيع السكان وتعليمهم ولذلك تضمنت الوثيقة النص على إدماج المسائل السكانية في الاستراتيجيات الإنمائية وانه ينبغي للحكومات أن تسعى الى تقوية الالتزام السياسي بهذا الإدماج بثلاث طرق

- الاضطلاع ببرامج التثقيف وإعلام الجمهور.
- زيادة الموارد المخصصة بالتعاون مع المنظمات غير الحكومية والقطاع الخاص.
- تحسين قاعدة المعارف عن طريق البحث وبناء القدرات الوطنية المحلية.

ولما كانت التنمية ليست مجرد فكرة في عقول المفكرين أو السياسيين بل هي تعبير عن حاجة وضرورة موضوعية وذاتية في المجتمع تستهدف تحسين نوعية الحياة لكل أفراد المجتمع في مختلف مجالات الحياة. هنا تكون التنمية بمفهومها الجديد الذي يتصف بالشمولية والدينامية والاستدامة أفضل وسيلة لمعالجة المشكلة السكانية بل إن التنمية تعد أفضل وسيلة لانخفاض النمو السكاني بما تخلقه من الوعي لدى الأفراد والأسر عليها وبما

يترتب عليها من تحسين نوعية الحياة وفي هذا الصدد يمكن القول أن نمو السكان ومحيطهم الاجتماعي يشكلان وحدة لا تنقصم وذلك يعني أن السلوك الديمغرافي هو سلوك اجتماعي يرتبط بالسلوك الاجتماعي الذي يعيش الإنسان فيه وإن تغير هذا المحيط وتطوره يترتب عليه تغير وتطور لدى الناس في الأفكار والسلوك والحاجات .

فالزراعة أثرت على سلوك الناس وعلاقاتهم الاجتماعية حيث إن الاستقرار في المكان والضمان النسبي للغذاء أدى الى توطيد علاقات الزواج وتنظيمها وظلت النظرة الاجتماعية الى العائلة الكبيرة أو الممتدة extended family وإلى الأطفال ذات أهمية كبيرة وترسخت في وعي الناس بما في ذلك رؤيتهم للمرأة بأن وظيفتها الأساسية هي إنجاب الأطفال وتربيتهم في حين أن المجتمع الصناعي أو المجتمع الحديث الذي تطور فيه المحيط الاجتماعي للناس. هذا التغير أصاب الوضع الاجتماعي والاقتصادي للأطفال ولتزايد النمو السكاني باعتبار أن تلك الفئات الاجتماعية هي في مرحلة التدريب والتأهيل وهي مرحلة الدراسة التي تعد شرطا أساسيا لدخول سوق العمل وهذه كلفة اقتصادية تضاف إلى الأسرة وأصبحت جانبا آخر من عوامل تحديد وتنظيم النسل لعدم قدرة بعض الأسر على تحمل تكاليف دراسة الأولاد وأدت إلى تزايد وعي الناس بتخفيض عدد الأولاد.

إن هذا الإطار الجديد الذي أحدث تحولات جوهرية في بنية المجتمع غير من طبيعة العمل حيث لم يعد الهدف من النشاط الاقتصادي مركزا إلى إنتاج القيم الاستهلاكية value in use أي إشباع الحاجات الشخصية المباشرة بل اصبح هدف النشاط الاقتصادي هو تحقيق الربح أي إنتاج القيمة التبادلية value in exchange وهو الأمر الذي اقترن بتزايد الفائض الاقتصادي[50] وخلق توسيع السوق الداخلية وهنا أصبح الأطفال وتأهيلهم وتدريبهم عبئا على الأسرة ومكلفا اقتصاديا وهنا أثرت المتغيرات الاجتماعية الاقتصادية بعملية الخصوبة وتقليل عدد الأطفال لكل أسرة حيث أصبحت

المرأة تخرج إلى التعليم وإلى العمل فترتب على ذلك أن المرأة لها وظائف وأدوار جديدة غير تربية الأطفال وتغير الوعي لدى الأفراد ذكورا وإناثا.

إن العلاقة بين السكان والتنمية علاقة مركبة ومتداخلة ، فقرارات الإنجاب (على سبيل المثال) هي في الأصل قرارات فردية أو عائلية يصعب التدخل فيها ولكن التنمية بما أنها عملية مستدامة تحدث تحولات وتبدلات كمية وكيفية في الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية ويترتب عليها تطوير وعي وثقافتهم في أساليب حياتهم وفي ارتفاع مستوى الدخل مما يؤثر إيجابا في تخفيض النمو السكاني وأهم هذه العوامل(القيم الاجتماعية، التعليم، الصحة، التغذية، مستوى الدخل، اشتغال المرأة بعمل حديث، يراجع تنظيم الأسرة، دور الدولة) فهناك محددات اجتماعية واقتصادية تدفع في اتجاه تكوين الأسر الصغيرة أو النووية nuclear family مثل تضاؤل متوسط حيازة الأسر الفقيرة، ضعف مستوى الدخل، القيم الاجتماعية المتغيرة، تأخر سن الزواج الذي ارتبط بعوامل اقتصادية واجتماعية وثقافية حديثة. فالرؤية التقليدية للزواج المبكر للمرآة لم تعد كما هي فقد أصابها كثير من التغير وأصبحت المرأة تتعلم وتعمل، وفي هذا الصدد نقول: إنه كلما تحسن توزيع الدخل وارتفع متوسط الفقراء من الدخل ساعد ذلك على خفض الخصوبة من خلال التأثيرات الإيجابية لتحسين مستوى المعيشة وتطور مستوى الخدمات الصحية والتعليمية وغيرها. ولما كانت المشكلة السكانية تعبر عن نفسها في تفاقم المشكلات الاجتماعية والاقتصادية مثل البطالة وأزمة الغذاء والصحة والتعليم والسكن والمواصلات فإن التنمية الشاملة المستديمة هي أفضل حل لذلك ، وهو يتضمن ما أشارت إليه وثيقة مؤتمر القاهرة الدولي للسكان من المساواة والإنصاف بين الجنسين وتمكين المرأة والقضاء على الفقر وتحسين الرعاية الصحية والإنجابية وتنظيم الأسرة والحق في التعليم . وفي هذا الصدد تلزم وثيقة القاهرة للسكان الدولي الموقعة عليها من اتخاذ التدابير اللازمة وأحداث سياسات ملائمة لدمج السكان في برنامج

التنمية وهذا يعني أن الحكومات الوطنية ينبغي أن تصوغ وتنفذ سياسات سكانية ملائمة ودعمها وتدابير وتشريعات قانونية وإدارية حديثة يترتب عليها تسهيل التحول الديمغرافي في أسرع وقت ممكن وإيجاد توازن بين النمو السكاني والتنمية لذلك فان الوثيقة تحث الدول والحكومات على: تعزيز الصحة للجميع، وعدم الزواج المبكر وتوسيع حصول الأفراد على وسائل تنظيم النسل للمرأة أو الرجل ، وتوسيع الخدمات الصحية والإنجابية، إيجاد برامج ثقافية ونشر المعلومات والإرشاد حول الصحة الإنجابية وأهمية وتخفيض النمو السكاني للأفراد وللمجتمع بشكل عام[51].

وفي هذا السياق فإن أزمات الدول النامية المرتبطة بالخلل الكبير بين السكان والتنمية يمكن حلها بعملية تنمية مستدامة تشكل مشروعا نهضويا يشمل مجالات الحياة المختلفة ونجاح التنمية يرتبط بالالتزام السياسي للدولة(*) وبتطور الوعي لدى الأفراد وتوسيع فرص الاختيار أمامهم فالوعي التنموي أو الوعي بالتنمية[52] من قبل الأفراد بشكل إدراكا واعيا لهم يعبر عن قناعتهم ومشاركتهم في التخطيط للتنمية وتنفيذها والمساهمة في تحويلها أيضا:

والتنمية كعملية نهضوية مستدامة تحدث تحولات متراكمة في المجتمع لا تهتم بالنمو الاقتصادي فقط أو اللحاق بالغرب بل هي عملية شاملة تهدف إلى تحسين نوعية الحياة للناس ذات توجه صوب الحاجات الذاتية وهي لذلك تنمية متمحورة على الذات self centred- يترابط جميع أعضائها بشكل عضوي[53] وذلك يعبر عن توسيع الزاوية النظر إلى التنمية وتجديد مفهومها بحيث يشمل الحاجات الأساسية المادية والفكرية وأن تكون في توازن بين الأجيال وفي داخل المجتمع بين الشرائح والفئات المتعددة وسليمة بيئويا ، وقد برز مفهوم الاعتماد على الذات كمنطلق التنمية في إطار المراجعات الفكرية

(*) في هذا الإطار عبرت اليمن عن التزامها باتفاقية القاهرة للسكان من خلال دمج السكان في استراتيجية التنمية وتنفيذ ذلك في الخطة الخمسية الأولى 96-2000م التي أفردت حيزا كبيرا لهذا الموضوع.

لنماذج التنمية التقليدية وقد أدى إلى تفجر الوعي بالتعبئة dependency أو التخلف إلى جعل التنمية بالاعتماد على الذات بؤرة التركيز(54) وإن مشاركة الناس فيها تشكل ضرورة هامة لتجنب انحراف الجهود الإنمائية نحو خدمة مصالح النخب الحاكمة(*).

الخلاصة

إن تعدد الأخطار الناجمة عن فشل النماذج التقليدية وتزايد النمو السكاني يتطلب فهماً جيداً لمفهومي السكان والتنمية وتحديد أنماط العلاقات بينهما ، فالعلماء اليوم لديهم فرصة ومسؤلية إيجاد مدخل لبذل جهود موحدة لمواجهة المأزق الذي تعيشه البشرية غير أن العلم والتكنولوجيا لايستطيعان أن يقدمان سوى الأدوات والخطط التفصيلية للعمل والتغير الاجتماعي أما الذين بأيديهم مفتاح مستقبلنا فهم الحكومات وصانعوا القرار الدولي (55) وفي هذا السياق قدم الباحث في هذه الدراسة رؤية موضوعية لتجديد مفهومي السكان والتنمية ونقد المفاهيم التقليدية وقد خلصت هذه الدراسة إلى:

1- أن خطورة الوضع السكاني في عدد كبير من دول العالم وما ترتب على ذلك من مشكلات اجتماعية واقتصادية دفع بالعلماء والمؤسسات العلمية والحكومات الى الاهتمام بهذا الوضع والبحث عن نماذج جديدة تستطيع استيعاب التزايد السكاني في إطار سياسات التنمية المستدامة.

2- لم يعد النظر إلى السكان من حيث الحجم ومعدلات المواليد والوفيات بل أصبح ينظر إليه كرأسمال بشري من خلال الصفات النوعية المرتبطة بالتعليم والتأهيل والتدريب وكيفية إدماجهم كقوى منتجة خلاقة في التنمية عملية وتحقيق تطور اقتصادي مطرد .

(*) لمزيد من المعرفة حول هذه القضية انظر: -Johan Galtung: Self-Reliance: concept, practice and Rational selt. Reliance. A strategy for devplopment: London. 1980.

3- أن التنمية الحديثة لم تعد قاصرة على تحقيق نمو اقتصادي بل أصبح النمو الاقتصادي أحد مرتكزات التنمية والتي أصبحت بدورها عملية شاملة مستدامة تهدف إلى تحسين نوعية الحياة لكافة أفراد المجتمع وتحقيق التوازن بينهم وبين البيئة وبين الأجيال المتعاقبة وبين مختلف الشرائح والفئات الاجتماعية .

4- أن التنمية كعملية شاملة ومستدامة لم تعد من مهام الدولة فقط بل أصبحت تقوم بين ثلاثة أطراف شركاء فيه هم الدولة ـــ المجتمع المدني ـــ القطاع الخاص .

5- أن التنمية ليست قاصرة على التطور الاقتصادي والاجتماعي وتحسين مستوى المعيشة بل يضاف إلى ذلك تحقيق الديمقراطية واتساع مساحة الحريات العامة في المجتمع مما يحقق العدل والإنصاف .

6- لتحقيق تنمية مستدامة لا بد من تحقيق النمو السكاني وتقليل معدلات الإنجاب وتوعية الأفراد بأهمية ذلك .

7- لم تعد التنمية تقاس بمتوسطات حسابية بل تقاس بمحددات اجتماعية واقتصادية وسياسية في أن واحد .

8- أن السكان كرأسمال بشري لم يعد النظر إليهم كوسيلة للتنمية بل يمكن القول إن البشر هم هدف التنمية ووسيلة تحقيقها في آن واحد. وهنا أصبح الاهتمام بالسكان من حيث النوعية التي يتصفون بها وليس من حيث الحجم.

9- أن تجديد مفهومي السكان والتنمية يشكل استجابة ضرورية علميا وعمليا للتطورات الراهنة وتزايد معدل سرعتهما على المستويات الدولية والإقليمية والمحلية الأمر الذي يتطلب سرعة خلق أطر وآليات لاستيعاب تلك المتغيرات والاستفادة منها بما يتطلب ذلك من تجديد وظيفة الدولة وربط التنمية

بالديمقراطية وحقوق الإنسان وربط كل ذلك بسياسة إنمائية عامة تدمج السكان في إطارها لتحقيق توازن بين معدلات النمو للسكان والتنمية .

10- لنجاح التنمية في البلدان المتخلفة وضبط النمو السكاني يتطلب ذلك مساعدات اقتصادية وفي الخبرات والمعرفة من الدولة الغنية المتطورة .

من مواضيع العدد القادم

- **الأوضاع التعليمية لأطفال الفئات المهمشة.**
- **لفظة "آمين" حقيقتها ولغاها ومعانيها.**
- **العقائد في اليمن قبل الإسلام.**
- **الأسلوب العلمي في تقييم قواعد البيانات من وجهة نظر المكتبين.**
- **مدارس العلوم الإسلامية في اليمن (الجزء الثاني)**

الهوامش

(1) رمزي زكي، الأزمة الراهنة في الفكر التنموي (فكر الازمة) مكتبة مدبولي القاهرة، 1987م، ص 71-141.
(2) رمزي زكي، الاقتصاد السياسي للبطالة، عالم المعرفة، الكويت، رقم 226،1997م، ص104.
(3) دنيكن متشيل، معجم علم الاجتماع، ترجمة إحسان محمد الحسن، دار الطليعة ،بيروت، ط2،1986،ص71.
(4) مجموعة من الاقتصاديين، الموسوعة الاقتصادية، إعداد وتعريب، عادل عبد المهدي، حسن الهموندي، دار ابن خلدون، 1980م، ص226.
(5) أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان ،بيروت، 1978م، ص102.
(6) د ينكن ميشل ،مصدر سبق ذكره ، ص 72.
(7) صفوح الاخرس ،علم السكان وقضايا التنمية والتخطيط ،وزارة الثقافة ،دمشق ،1980م ،ص15.
(8) أنظر للمقارنة :رمزي زكي ،فكر الازمة ،مصدر سبق ذكره .
(9) برنامج الامم المتحدة الانمائي ،تقرير التنمية البشرية 90،ص12.
(10) صفوح الاخرس ، مصدر سبق ذكره ،ص57-58.
(11) رمزي زكي ، المشكلة السكانية وخرافة المالتوسية ،عالم المعرفة ، الكويت ،1984م ، ص237.
(12) سير روي كالن ،عالم يفيض بسكانه ، عالم المعرفة ، رقم 213، 1996م ،ص237.
(13) إبراهيم العيسوي ، أزمة سكان أم أزمة تنمية ،دار المستقبل العربي، القاهرة ، 1985م ، ص183.
(14) البنك الدولي، تقرير عن التنمية في العالم ، أغسطس 1980م ، واشنطن ، ص12.
(15) البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة ، تقرير التنمية البشرية ،1991م، ص 14.
(16) اللجنة العالمية للبيئة والتنمية ، مستقبلنا المشترك ، ترجمة محمد كامل عارف ، عالم المعرفة، العدد 142،1989م، ص 84.
(17) سير روى كالين ، مصدر سابق ، ص11.
(18) نصوص مختارة من وثيقة المؤتمر الدولي للسكان ، القاهرة ، 1994م ، ص 2-20
(19) البرنامج الانمائي للامم المتحدة ، تقرير التنمية البشرية لعام 90م، ص17.
(20) جورج القصيف ، التنمية البشرية (مراجعة نقدية للمفهوم والمضمون) في كتاب (ندوة) التنمية البشرية في الوطن العربي ،مركز الوحدة العربية ،بيروت ، 1995م، ص83-91.
(21) عن كل هذه النماذج وتفصيلاتها انظر :السيد الحسين ، التنمية والتخلف ،(دراسة تاريخية بنائية)، دار المعارف، القاهرة ،1985م ، ص ص 12-60
(22) إن علاقة الدولة بالاقتصاد ليست علاقة ذات طبيعة اقتصادية بحتة وإنما هي علاقة اجتماعية وسياسية انظر في ذلك :احمد زايد ،الدولة ونمط التنمية في العالم الثالث ، المستقبل العربي ،العدد 133،90م،101.

(23) أنور عبدالملك، تنمية أم نهضة حضارية، المستقبل العربي، سبتمبر 1987م، ص34.

(24) إسماعيل صبري عبدالله، التنمية الاقتصادية العربية (إطارها الدولي ومنحاها القومي)، في كتاب "ندوة" دراسات في التنمية والتكامل الاقتصادي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1982م، ص46.

(25) محمد لبليب شقير، مفهوم التنمية العربية ومتطلباتها في: التخطيط لتنمية عربية، الكويت، 1981م، ص ص 176-194.

(26) يوسف صايغ، التنمية العربية (من التبعية إلى الأعتماد على النفس) مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1992م، ص ص 133-186.

(27) عادل حسين، التنمية العربية الواقع الراهن والمستقبل، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1984م، ص ص 7-16.

(28) محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، دراسة تحليلية نقدية، دار الطليعة ، بيروت، 1982م، ص ص 50-57.

(29) جلال أمين، تنمية أم تبعية اقتصادية وثقافية، في كتاب إشكالية العلوم الاجتماعية، القاهرة، 1978م، ص62.

(30) D lal Eeonomic Affairs, 1983. P106.

(31) Perroux, A new Concept of development: Basic tents, London, Croom Helm and Unesco, 1983. P60.

(32) انظر في ذلك: عادل حسين وآخرون، التنمية العربية، مصدر سبق ذكره، ص 50.

(33) علي أو مليل، التنمية البشرية والأطر المؤسسية الحكومية والأهلية وتحفيز المشاركة الشعبية في الدولة والتنمية، في كتاب "ندوة" التنمية البشرية في الوطن العربي، مصدر سبق ذكره، ص ص 349-359.

(34) البرنامج الانمائي للامم المتحدة، تقرير التنمية البشرية عام 90م، ص 17.

(35) انظر لمزيد من التفاصيل: البرنامج الانمائي للامم المتحدة ، تقارير التنمية البشرية 90-97م .

(36) أسامة عبدالرحمن ،البيرو قراطية ومعضلة التنمية ،عالم المعرفة ،الكويت ، 1988م، ص31.

(37) علي خليفة الكواري، نحو فهم أفضل باعتبارها عملية حضارية، المستقبل العربي، 49، 1983م، ص5.

(38) لمزيد من الاطلاع حول تنمية الموارد البشرية انظر :

(39) جورج طرابيشي، الخريطة التعليمية للوطن العربي ، الوحدة، السنة 2 العدد 14، 85م، ص ص51، 52.

(40) Daniel Lerner: the passing of traditional society modernzing the Middle East. 3rd ed New York Free Press 1963 .p .p 83-85.

(41) جيران في عالم واحد،نص تقرير إدارة شئون المجتمع العالمي،عالم المعرفة،1995،ص ص 21، 46

(42) على أومليل،مصدر سبق ذكره،ص ص 352-355

(43) إبراهيم العيسوي ،مصدر سبق ذكره ، ص 87.

(44) المصدر السابق نفسه ،ص 88 .

(45) انظر حول ذلك - صفوح الأخرس ، مصدر سابق ، ص ص 32-37.

-إبراهيم العيسوي ، مصدر سابق ، ص ص 119-14.

(46) صفوح الأخرس ،مصدر سبق ذكره ،ص 33 .

(47) رمزي زكي ،المشكلة السكانية ،مصدر سبق ذكره ، ص 428.

(48) منظمة الصحة العالمية، خمسون عاما من العمل في ميدان الصحة العامة الدولية، مـــارس 1998م، ص ص2-3.

(49) برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، تقرير التنمية البشرية لعام 1990م، ص 13.

(50) رمزي زكي، المشكلة السكانية، مصدر سابق، ص272.

(51) وثيقة المؤتمر الدولي للسكان، القاهرة، 1974م، ص ص 8-13.

(52) عبدالباسط المعطي، الوعي التنموي العربي، دار الموقف العربي، القاهرة، 1986م، ص ص 35-45.

(53) يوسف صايغ، التنمية العصبية (من التبعية إلى الاعتماد على النفس)، مركز الوحدة العربية، بـيروت، 1992م، ص 61.

(54) المصدر نفسه، ص 54.

(55) سير روى كالن، مصدر سابق، ص 282.

المراجع

1- احمد زكي بدوي، معجم مصطلحات الفلسفة الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، 1978م .

2- ابراهيم العيسوي، انفجار سكاني أم أزمة تنمية، المستقبل العربي، القاهرة، 1985م .

3- أحمد زايد، الدولة ونمط التنمية في العالم الثالث، المستقبل العربي رقم 133،1990م .

4- أنور عبد الملك، تنمية أم نهضة حضارية، المستقبل العربي سبتمبر 1978م .

5- إسماعيل جبري عبد الله، التنمية الاقتصادية العربية (إطارها الدولي ومنحها القومي) (ندوة) في كتاب (دراسات في التنمية والتكامل الاقتصادي العربي) مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1982م .

6- أسامة عبد الرحمن، البيرقراطية ومعضلة التنمية، عالم المعرفة : الكويت، 1988م .

7- السيد الحسيني، التنمية والتخلف، دراسة تأريخية بناءة، دار المعارف، القاهرة، 1985م .

8- اللجنة العالمية للبيئة والتنمية، مستقبلنا المشترك، عالم المعرفة العدد 1982/142م .

9- توما كوثرو رميتيو اسون، مصير العالم الثالث، تحليل ونتائج وتوقعات، دار العالم الثالث، القاهرة، 19995م .

10- تقارير التنمية البشرية للأعوام 90-97م .

11- جلال أمين، تنمية أم تبعية اقتصادية وثقافية في كتاب اشكالية العلوم الاجتماعية القاهرة، 1978م.

12- جورج القصيف، التنمية البشرية (مراجعة نقدية للمفهوم والمضمون) في كتاب ندوة التنمية البشرية في الوطن العربي، مركز الوحدة العربية، بيروت، 1995م .

13- جيران في عالم واحد، نص تقرير إدارة شؤون المجتمع العالمي، عالم المعرفة، 1995م .

14- جورج طرابيش، الخريطة التعليمية للوطن العربي، الوحدة، السنة 2 العدد 14، 1985م.

15- دينكن منشيل، معجم علم الاجتماع، ترجمة إحسان محمد المسين، دار الطليعة، بيروت، 1986م .

16- رمزي زكي، الازمة الراهنة في الفكر التنموي (فكر الازمة) مكتبة مدبولي، القاهرة، 1987م .

17- رمزي زكي، الاقتصاد السياسي للبطالة، عالم المعرفة، الكويت، العدد 226، 1997م .

18- رمزي زكي، المشكلة السكانية وخرافة المالتوسية الجديدة، عالم المعرفة، 1984م .

19- سير روي كالين، عالم يفيض بسكانه، عالم المعرفة، العدد 213، 1996م .

20- صفوح الاخرس، علم السكان وقضايا التنمية والتخطيط، وزارة الثقافة، دمشق، 1980م .

21- علي أومليل، التنمية البشرية والاطر المؤسسية الحكومية والاهلية وتحفيز المشاركة الشعبية في الدولة والتنمية، في كتاب ندوة التنمية البشرية في الوطن العربي، مركز الوحدة العربية، بيروت 1995م .

22- عبد الرزاق الفارس، السلاح والخبز، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1987م.

23- عادل حسين، في كتاب (التنمية العربية الواقع الراهن والمستقبل)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1992م .

24- علي خليفة الكواري، نحو فهم أفضل للتنمية باعتبارها عملية حضارية، المستقبل العربي، العدد 1983/49م.

25- عبد الباسط عبد المعطي، الوعي التنموي العربي، دار الموقف العربي، القاهرة، 1986م

26- غسان بدر الدين، جدلين في التخلف والتنمية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 1993م.

27- محمد الاسعدد، السكان والتنمية، المستقبل العربي العدد 1992/155م .

28- محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، دراسة تحليلية نقدية، دارة الطليعة، بيروت، 1982م .

29- محمد عابد الجابري وأخرون، التنمية البشرية في الوطن العربي (ندوة)، مركز الوحدة العربية، 1995م.

30- محمد لبيب شقير، مفهوم التنمية العربية ومتطلباتها في التخطيط للتنمية العربية، الكويت، 1981م .

31- مواطنون، دعم المجتمع المدني في العالم، سيفيكوس، 1994م .

32- مجموعة من الاقتصاديين، الموسوعة الاقتصادية، دار ابن خلدون م بيروت، 1980م.

33- مصدق جميل الحبيب، التعليم والتنمية الاقتصادية، دار الرشيد، بغداد، 1981م .

34- منظمة الصحة العالمية، خمسون عاما من العمل في ميدان الصحة العامة الدولية، مارس، 1998م.

35- وثيقة المؤتمر الدولي للسكان، القاهرة، 1994م .

36- يوسف صايغ، التنمية الوحيدة (من التبعية إلى الاعتماد على النفس) مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1992م .

37- D.lal:the Poverty of (development Economics) London Institute of Economic Affairs 1983.

38- F.Perroux: Anew concept of development : Basic tents . London Croom Helm and Unesco 1983.

39- John Rowls : Theory of Justic . Harvard university Presscombridge 1995.

40- John Galtung : self Reliance . concepts Parice and Rational in (self RelianceJ A strategy for development) London 1980.

الزبيري ومشروع حزب الله في اليمن

د. عبدالعزيز قائد المسعودي

يحيط الكثير من اللبس والغموض بنشأة حزب الله وتطوره في اليمن المعاصر ، وتعرض زعيمه القاضي محمد بن محمود الزبيري لاغتيال سياسي في ظروف غامضة. سوف أسلط الضوء في هذه الدراسة على تجربة حزب الله ، مع الأخذ بعين الاعتبار مدى تأثر زعامته بأفكار ومبادئ تنظيم الإخوان المسلمين في مصر ، ومحاولة تطبيق بعض برامجه في الساحة اليمنية . ولا تتعدى الفترة التاريخية التي نتناولها بالدراسة والبحث ثلاثة أعوام ، وهي فترة مزدحمة بالأحداث التاريخية والوقائع السياسية-

تحديداً منذ قيام ثورة 26 سبتمبر من عام 1962، حتى تاريخ اغتياله في مطلع شهر إبريل 1965.[1]

إن الغاية من هذا البحث استقصاء مدى الدور الذي لعبه الزبيري في قيادة المعارضة في العهدين الملكي والجمهوري . ولذا فإن الدراسة تحمل أهمية خاصة ، لأنها تحلل وتناقش أموراً ما زالت مثار جدل وخلاف في الأوساط العلمية ؛ وتفتح الباب على مصراعيه أمام إمكانية التقييم التاريخي لتجربة حزب الله وزعامته . فثمة فكرتان متضادتان في وصف سيرة الزبيري الذاتية: الأولى تظهره كمؤسس فعلي لتنظيم جماعة الإخوان المسلمين في اليمن .[2] وفي الطرف المقابل يرفض كثير من الكتاب المشايعين للزبيري رفضاً قاطعاً هذه المقولة . فالقاضي الزبيري ، من وجهة نظرهم، لا ينتمي إلا لحركة الأحرار اليمنيين كعقيدة سياسية تنبع من واقع اليمن، ويعتنق اتباعها الشورى والدستور، قد والاها طيلة حياته حتى تاريخ وفاته .[3]

وتأتي عملية اغتياله في قرية رجوزة المحاذية لجبل برط [4] يوم الخميس 30 ذي القعدة 1385هـ / الموافق 1 أبريل عام 1965م ، ليتحول شخص الزبيري وحياته إلى رمز بل وأسطورة ![5] ولنا أن نتساءل : لماذا حظي الزبيري بهذه المكانة الرفيعة التي جعلت منه شخصية أسطورية ، أو بتعبير آخر بطلاً وطنياً خالداً في قلوب أهل اليمن ؟ وهل تنسحب هذه المكانة المقدسة على شخصه ، بسبب موقفه السياسي المعارض للنظام الملكي وتشرده خارج الوطن نحو ربع قرن من الزمن ؟ أم بسبب طريقة موته الدرامية في جبل برط في العهد الجمهوري؟ وهل يمكن القول مثلاً إن القاضي ضحى بحياته من أجل " القضية الجمهورية " ؟ أم من أجل قضية " دولة اليمن الإسلامية " ؟

ومن نتائج هذا التعارض ، تتولد فكرة البحث مجدداً في سيرة الزبيري السياسية ولاسيما مرحلة حزب الله . وللخروج من طور البحث التقريري الوصفي للمشكلة التاريخية (الزبيري ومشروع حزب الله في اليمن) إلى طور التحليل العلمي لهذه الظاهرة

السياسية ، ينبغي الإشارة هنا إلى موقفين سياسيين متناقضين تبنتهما زعامة الحزب في بداية مرحلة الجمهورية العربية اليمنية . الموقف الأول يكمن في أن القاضي الزبيري ، كان في مقدمة علماء اليمن الذين نادوا بقيام النظام الجمهوري، بل وأيد بقوة التدخل المصري في جنوب شبه الجزيرة العربية لصالح الثورة اليمنية ؛ والموقف الثاني يكمن في أن هذا التأييد المنقطع النظير للنظام الجمهوري والدور المصري ، سرعان ما تحول من تأييد وموالاة إلى شجب ومنابذة . يبدو لنا هذا السلوك المتذبذب بين موقفين غاية في التناقض والمراوغة ، علماً بأن الزبيري رغم ثقافته الزيدية المتشيعة نسبياً ، [6] كان يرفض العمل بمبدأ التقية، فهو معروف بمواقفه الناقدة للحكام المستبدين سواء في العهدين الملكي أم الجمهوري .

وتحاول الدراسة من خلال طرح مثل هذه التساؤلات إثبات فرضية مهمة ، وهي أن الزبيري الذي أفنى عمره وزهرة شبابه في مقاومة الأئمة الحكام في العهد الملكي البائد، كان يتطلع إلى لعب دورٍ أكبر في الحياة السياسية في العهد الجمهوري ، بالمقارنة بالأدوار السابقة التي لعبها في صفوف المعارضة السياسية - كعضوٍ قيادي في (الجمعية اليمانية الكبرى - 1944-1948) ، ورئيس لتنظيم (الاتحاد اليمني - 1953-1962) . تولى الزبيري فور عودته إلى أرض الوطن (صنعاء) حقيبة وزارة المعارف ، ذلك المنصب الذي شغله لبضعة أيام في عهد الحكومة الدستورية في مارس عام 1948. [7] وفي العهد الجمهوري تدرج في مناصب عليا في الدولة كان أبرزها عضو مجلس الرئاسة والمكتب السياسي ونائب رئيس الوزراء.فما هو الدور الذي كان يتطلع إليه في العهد الجمهوري: رئاسة الجمهورية العربية اليمنية؟ أم زعامة دولة اليمن الإسلامية؟

لقد أرادت زعامة المعارضة ممثلة بحزب الله وكتلة خمر تقديم حلولاً جاهزة للوجود المصري ، باعتباره جزء لا يتجزأ من المشكلة اليمنية، من خلال تبنيها مشروع السلام والمصالحة الوطنية في مؤتمري عمران وخمر . لكن مهمتها كانت غاية في الصعوبة ، كما

أخذت الهوة تتسع بين الحكومة والمعارضة ، حيث عبرت الأخيرة عن تذمرها الشديد من الحكم العسكري ، كما أفصح عن ذلك الزبيري في قوله :

" الحكم الجمهوري الذي نريده هو : الحكم الجمهوري الإسلامي الصحيح ، يقوم على أساس الشورى .. الحكم الجمهوري هو الذي قامت من أجله الثورة ، هو الذي في ظله : يحكم الشعب نفسه بنفسه، وتكون له الحرية في أن يختار حكامه وأن يعزلهم من مناصبهم.." (8)

لكن هذه الوجهة القائلة بضرورة تطبيق مبدأ حكم الشورى في الإسلام ، لم تكن أطروحاتها مقبولة لدى الحكومة ، لأن البلاد كانت تمر بظرف دقيق للغاية، وإن السلام والمصالحة كان أيضاً أمراً بعيد المنال، نظراً للموقف السعودي الداعم للمقاومة الملكية المسلحة . ومثلما رفضت القيادتان اليمنية والمصرية الاستجابة لمطالب المعارضة بالبحث عن تسوية سياسية للحرب الأهلية ، رفضت زعامة حزب الله الإذعان لمشيئتهما . اكتسب الزبيري من خلال هذه الدعوة قاعدة شعبية في ذلك المحيط القبلي المغرق في عزلته السياسية عن مجريات العصر والحياة الحديثة ، حيث حاول توظيف الدين في صالح القبيلة وفق تصوره الخاص لماهية النظام الجمهوري ، مهملاً بذلك إمكانية التوفيق بين النزعتين الدينية القبلية والوطنية القومية .

من هذا المنطلق ، يرتكز برنامج المعارضة على فكرتين : فكرة تأطير الحكم الجمهوري وفق تصورها الخاص لمفهوم الحكم الشعبي ، وهذا يعني إلغاء الحكم العسكري لتحل محله سلطة مدنية مكونة من أهل الحل والعقد . فالدعوة إلى قيام جمهورية إسلامية مستقلة ذات سيادة ، عاصمتها خمر أو عمران ، وعلى الأرجح يحدد هذا الاتجاه البيان الذي وجهته المعارضة إلى ضباط الجيش اليمني : **" قلنا إننا نريدها جمهورية إسلامية ، لا حكماً عسكرياً "** . (9) وفي ذلك إشارة واضحة إلى واقع المعارضة التي أخذت على عاتقها مسئولية.

" .. إنقاذ سمعة الجيش اليمني من سوء السمعة التي جرها عليه حفنة تعد بالأصابع، اغتصبت السلطة العليا، وصبغت النظام الجمهوري بصبغة الحكم

العسكري ، وجعلت الشعب اليمني كله يفهم هذا الفهم ويتأجج حقداً وغيظاً ، والعلاج الوحيد لهذا الإشكال، هو أن ينظَمُ الضباط الأحرار الشرفاء إلى حركة حزب الله ، ويوحدوا مطالبه ويقنعوا الشعب بالحقيقة التي نعرفها .. " (10)

وفيما يتعلق برد فعل المعارضة على تفرد السلال بحكم البلاد ، وجهت له تهمة اغتصاب السلطة ، وصبغ النظام الجمهوري بالصبغة العسكرية . يجب التفريق هنا بين موقف زعامة حزب الله التي أخذت تطالب بخلع السلال ، وبين زعامة كتلة خمر التي كانت تطمح في الحصول على المزيد من المكاسب السياسية بصرف النظر عمن يحكم البلاد . وقد أدى موقف الطرفين إلى تعزيز نفوذ القوى القبلية في الدولة ، لا سيما بعد أن استجابت القيادتان اليمنية والمصرية لمطالب المشايخ بحصص متساوية في الحكومة ومجلس الرئاسة . (11) وفي ظل الأحكام العرفية في البلاد، حظرت السلطات العمل الحزبي، الأمر الذي سهل لزعماء العشائر استغلال هذا الفراغ السياسي فحاولوا تعزيز مواقعهم في أجهزة الدولة . كان الهيكل الاجتماعي سواء لحزب الله أو كتلة خمر ، يعتمد بدرجة أساسية على العلماء والمشايخ، الذين عقدوا مؤتمرات شعبية داخل البلاد وخارجها حتف أنف السلطة . وكان الاعتراف الضمني للحكومة بزعامة القاضي الزبيري الروحية ، يعني الاعتراف أيضاً بزعامة الشيخ الأحمر على الجميع ، على الأقل في حدود قبيلته .

ولما كانت المعارضة تحتاج إلى زعيم يمتلك الحكمة والمبادرة ، تولى الزبيري هذه المهمة الصعبة . ويرى القاضي أن حزب الله هو استمرار وتواصل لمسار الحركة الإسلامية منذ انطلاقتها الأولى في مرحلة شباب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وقد اعتمد حزبه بصورة أساسية على تجمع كتلة خمر ، إلا أنه حاول توسيع قاعدة تحالفه السياسي مع اتحاد القوى الشعبية المنشق عن مجلس الإمامة، ليشكلا معاً ائتلاف القوى الثالثة .

هكذا تبرز ثلاث مكونات سياسية وثقافية ، جسدتها تجربة حزب الله خلال الثلاث السنوات الأولى من عمر الثورة اليمنية : المكون الديني بخصوصيته الفقهية ، طبقاً لمفهوم الحسبة عند الزيدية الذي استقاه القاضي الزبيري من ثقافته الدينية منذ نعومة أظفاره وهو مازال بالمدرسة العلمية . أما المكون السياسي الوطني ، فقد اكتسبه في مرحلة الاتحاد اليمني مجاراة منه للمد القومي العربي، حيث

" .. ساقته هذه الوضعية إلى تبني مفاهيم غريبة ومواقف مثيرة ليس فيها شيء من الحكمة والكياسة ، ولعل الجميع يذكر حتى الآن ما أثاره الدكتور البيضاني حول الهاشمية قبل الثورة .. " (12)

إن دراسة المكونات الثقافية لزعامة حزب الله تعكس توجهاتها الفكرية موقفاً سياسياً مناهضاً ليس للحكم العسكري الجمهوري فحسب ، بل وللوجود المصري . فالإثارة والعرض للمشكلة اليمنية من منطلق ديني أو قبلي ، كانت بطبيعة الحال مستعدة للتكيف مع الظروف المستجدة محلياً وعربياً ، وما يترتب على ذلك من توزيع الأدوار طبقاً لمقتضيات الحاجة والضرورة السياسية . فالخطاب السياسي للمعارضة ، اتسم بالترغيب والترهيب ، والدفاع والهجوم من جهة علاقتها بالسلطة الحاكمة ، والنظام السياسي القائم الذي كانت تقبل به ، لكنها ترفض الاعتراف بالقائمين عليه .

تعددت خلال هذه المرحلة مواقف جميع المعنيين بحل أزمة الحرب الأهلية ، حيث برزت فيها الملامح الواضحة لطبيعة الصراع على السلطة بين النخب المدنية والعسكرية. وستقتصر معالجتنا لهذه العلاقة الشائكة بين السلطة والمعارضة على تجمع حزب الله وائتلاف كتلة خمر ، وعلى القوى السياسية والاجتماعية المتواجدة حينذاك في الساحة اليمنية . وفيما يلي نقترح رسم هذه الخريطة السياسية لكافة القوى الفاعلة ، وهي :

أولاً : الجمهوريون الثوريون ، الذين نعتوا بالسلاليين (13) ، وهم يشكلون قوة سياسية واجتماعية ، تحركت بصورة فاعلة لدعم النظام الجمهوري. وقد شكلت نواة هذه القوة جماعة الضباط الأحرار الذين ألتف بعضهم حول زعامة السلال؛ فضلاً عن

التجار والمثقفين والطلبة والعمال ، الذين رفدوا النظام الجمهوري بالمال والسلاح ، ولهم دور في تعبئة الجماهير في مظاهرات وطنية صاخبة ضد مشروع السلام والمصالحة مع الملكيين .

ثانياً : الجمهوريون المعتدلون من دعاة السلام والمصالحة الملتفون حول زعامة حزب الله الدينية وزعامة كتلة خمر القبلية . وكان لهذا التيار أنصار ومريدون داخل وخارج صنعاء ، وغالبيتهم ينحدرون من الوجهاء والأعيان في الريف والحضر ، يتعاطف معهم عدد لا بأس به من كبار ضباط الجيش والشرطة وموظفي الدولة . فهم رغم انتمائهم للنظام الجمهوري ، كانوا مستعدين للالتقاء مع المعارضة الملكية المنشقة عن مجلس الإمامة ، بهدف سحب البساط من تحت أقدام السلال ، تمهيداً للتخلص منه ، وإجبار القوات المصرية الانسحاب من اليمن . (14)

ثالثاً : الإماميون الدستوريون ، المنضوون تحت مضلة اتحاد القوى الشعبية بزعامة عائلة الوزير (الأخوة إبراهيم وعباس وزيد) ، الذين أعلنوا انشقاقهم مبكراً عن مجلس الإمامة، ونفضوا أيديهم عن الإمام المنصور محمد البدر ، معتبرين أن بيعته باطلة . وكان أنصار هذا التيار ممن أصبحوا يعرفون باسم القوى الثالثة ، يعتنقون الإمامة عقيدة ومبدأ، منادين بالتخلص من حكم أسرة بيت حميد الدين ، ورفضهم المطلق للحكم العسكري الجمهوري ؛ وبالتالي المطالبة بجلاء القوات المصرية من اليمن . وهم أول من رفع شعار دولة اليمن الإسلامية كمخرج للأزمة ، هذا الشعار التي تلقفته زعامة حزب الله بهدف انتزاع المبادرة السياسية من كل أطراف الصراع بالساحة اليمنية .

رابعاً : الملكيون الإماميون ، بزعامة الإمام المنصور محمد البدر وعمه الأمير الحسن ، وابن عمه الأمير محمد بن الحسين ، جميعهم ينتسبون للسلالة القاسمية (بيت حميد الدين)، عارضوا بقوة النظام الجمهوري معتمدين في ذلك على مناصرة القبائل الشمالية (حاشد وبكيل) لهم ضد الوجود المصري . وكانت آخر محاولة لهم هي تلك الحملة

العسكرية الرامية لمحاصرة العاصمة صنعاء في ديسمبر من عام 1967. وعندما فشل الملكيون في إسقاط النظام الجمهوري، فقد الإمام البدر الأمل في استعادة عرشه، مما أضطر الحكومة السعودية الاعتراف بالنظام الجمهوري في صيف عام 1970. [15]

انطوت مرحلة الجمهورية العربية اليمنية على محطات تاريخية فاصلة تدافعت في سياق تكوينها وقائع سياسية كبرى ، وتحولات اجتماعية واقتصادية عميقة ، ساهمت جميعها في تكوين مجتمع سياسي انتقالي من طور القبيلة إلى طور الدولة . في هذه المرحلة شاهد المجتمع اليمني أزمة الحرب الأهلية التي قسمت المجتمع اليمني إلى قسمين متناحرين، حيث أصبح الاحتكام للسلاح هو المجال الأوسع في الحياة السياسية ، لا سيما عندما أتخذ الصراع بين الشمال (الملكي) والجنوب (الجمهوري) طابعاً عقائدياً ، ساهمت في تغذيته القوى الإقليمية والدولية المتورطة في حرب اليمن . [16] وفي ظل تفاقم أزمة الحرب الأهلية في اليمن بين المعسكرين الجمهوري والملكي من جهة، وفي ظل تعارض مصالح القوى المحلية والإقليمية ، برز إلى السطح مشروع دولة اليمن الإسلامية ، الذي تجشمت زعامة حزب الله عبء الدعوة إلى قيامها . وكان الهدف من وراء هذا التحرك المحافظة على النظام الاجتماعي الذي هزته الثورة هزاً عنيفاً ، سيما في مجالات القيم والسلطة والثروة . [17]

كانت الوجهة الغالبة عند معظم أقطاب المعارضة الجمهورية المنشقة عن نظام السلال، الدفاع عن مطالبها الملحة بإحلال السلام محل الحرب ، وتطبيق حكم الشورى في الإسلام لتحل محل القوانين العسكرية والأحكام العرفية . ومن يتأمل برنامج حزب الله سوف يكتشف المزج العجيب بين مفهومي الدين والدولة ، أو بتعبير أكثر دقة بين مفهومي اليقين الثوري والحكم الشعبي . لهذا السبب حرص القاضي الزبيري على تشخيص الواقع السياسي في العهد الجمهوري من منطلق دولة القبيلة، بدلاً من منطلق قبيلة الدولة . [18]

لقد ظل شكل الانتماء سواء إلى النظام الملكي أم إلى النظام الجمهوري ، كما وصفه الزبيري بواقعية في أهم أعماله : (الإمامة وخطرها على وحدة اليمن) و(مأساة واق الواق) ، انتماءً إلى مجتمع زراعي تقليدي لم تفرز قواه السياسية إلا زعامات عشائرية أو مذهبية ، تسودها الفرقة والخلاف بدلاً من الألفة والانسجام . ولعل مفهوم القاضي لهذا المجتمع القبلي ينبغي ألا يؤخذ ببساطة على أنه مفهوم لمجتمع مثالي متحرر من الطائفية السياسية . لقد كان مدركاً استحالة بناء مجتمع متجانس متحرر من رواسب النظام الملكي ومقومات الرعوية الدينية، التي غالباً ما تسكن في حدود الأسرة والقبيلة بمعزل عن حدود الوطن والمواطنة . [19] تلك هي حدود المسألة المطروحة في أدبيات حركة الأحرار اليمنيين منذ حركة 17 شباط 1948م الدستورية ، حتى قيام ثورة 26 أيلول 1962م الجمهورية ، وانشقاق اتباع حزب الله في خريف عام 1963م عن النظام الجمهوري .

إن هذه التركيبة السياسية والاجتماعية للمعارضة الدينية والقبلية هي التي توجه الفكر والعمل السياسي في اليمن المعاصر ، واستندت في نشوئها إلى العداء الموجه للمؤسسة العسكرية الحاكمة في العهد الجمهوري والقوى الجديدة المناصرة له . كانت جماعة حزب الله في اليمن تعبر عن عقيدة سياسية ، أخذت تطرح بقوة شعارات الشورى والدستور ، بل والدعوة العلنية إلى قيام دولة اليمن الإسلامية ، كأطر سياسية مناهضة للنظام الجمهوري العسكري . كان النظام الجمهوري يعاني أزمة الشرعية بفعل التدخل المصري في اليمن ، ومهد الطريق لظهور جماعة الإخوان المسلمين على السطح كقوة سياسية متنامية ، نشطت عناصرها تحت مظلة حزب الله من جهة ، وتحت مظلة كتلة خمر المعروفة بتوجهها القبلي المناهض للسلطة المركزية في صنعاء من جهة أخرى.[20]

مولد حزب الله ونشأته

تشير المصادر التاريخية إلى الزبيري عندما عاد إلى اليمن من المنفى (القاهرة) بعد قيام ثورة 26 سبتمبر 1962، وسقوط النظام الملكي (الإمامي) ، كان يتطلع إلى لعب دور أكبر في الحياة السياسية في العهد الجمهوري ، بالمقارنة بالأدوار السابقة التي لعبها في صفوف المعارضة السياسية ، بوصفه عضواً قيادياً في حزب الأحرار ثم الجمعية اليمانية الكبرى (1944-1948) ورئيساً لتنظيم الاتحاد اليمني (1953-1962) .[21] تولى الزبيري فور عودته إلى أرض الوطن (صنعاء) حقيبة وزارة المعارف ، ذلك المنصب الذي شغله لبضعة أيام في عهد الحكومة الدستورية في شباط عام 1948 .[22] وتدرج في العهد الجمهوري في مناصب عليا في الدولة كان أحدها عضو مجلس الرئاسة والمكتب السياسي ونائب رئيس الوزراء في حكومة اللواء حمود الجائفي .[23]

بدا للزبيري أن منطق تبدل الحال في اليمن الجمهوري يوائمه في بحثه الشاق عن اليقين الثوري – الحكم الشعبي – الذي أفنى عمره في سبيل حل لغزه ، وهو يعلم يقينا أن تجربة الجمهورية محفوفة بالمخاطر ، إذ يثير الحكم العسكري إشكاليات عصية في طريقة فهمه لماهية نظام الحكم في اليمن . أولئك الذين حضروا لحظة نزوله في مطار صنعاء برفقه عدد من أحرار اليمن ، وفي تلك اللحظة التي خر فيها ساجدا يلثم تراب اليمن ، كانوا يدركون أن دوره السياسي قد بدأ مجددا ، لكن القاضي رغم احترازه بعد عودته من المنفى ، مسايرة الخط السياسي للقيادة المصرية الداعمة للنظام الجمهوري، كان يدرك تماما أن أي خطوة متعجلة لاسترجاع حريته، قد لا تكلفه المجازفة بمستقبلة السياسي فحسب ، بل ورصيده الحافل بالنضال السياسي ضد النظام الملكي .

إذا كان الزبيري قد وصل إلى منصب وزارة المعارف عام (1962) بسهولة ويسر، فإنه واجه صعوبة بالغة في الوصول إلى مجلس الرئاسة في أبريل عام 1963 .[24] ولم

تفلح محاولاته المتكررة هو وأنصاره في إلغاء مجلس قيادة الثورة ، وهذا الأمر ولد انقساماً سياسياً حاداً في الصف الجمهوري بين الساسة المدنيين (الزبيري والإرياني والنعمان)، والقادة العسكريين (السلال وجزيلان والعمري) . [25] فهم جميعاً يتحدثون لغة مشتركة عن التمسك بالنظام الجمهوري والثوابت الوطنية ، لكن زعامة المعارضة المستجدة في الصف الجمهوري (حزب الله) ، أخذت تتحدث بنغمة جديدة مفادها

> **" اللقاء بالملكيين طالما أن الهدف هو وقف الصراع واستفتاء القبائل والشعب اليمني كله ، وأن اليمنيين لا يحاربون اليوم من أجل الملكيين أو الجمهوريين ، وإنما هم يحاربون في سبيل تطهير أرض اليمن من الجنود المصريين . " [26]**

ونتوصل من خلال الرؤى السياسية التي أطلقها زعيم حزب الله إلى طرح السؤال التالي : هل ارتفع الزبيري زعيم الاتحاد اليمني من مرتبة الجدل السياسي والدفاع عن تجربة 17 فبراير 1948 الدستورية إلى مرتبة الدعوة الصريحة إلى قيام الثورة والجمهورية وبلوغ اليقين الثوري كما جسدته تجربة 26 سبتمبر 1962 ؟

باسم من كان يتكلم القاضي الزبيري؟ فأفكار حزب الله يتردد صداها في كتاب (التاريخ يتكلم)، الذي يحاول المؤلف من خلاله توضيح موقف المعارضة ، لا سيما تنظيم الإخوان المسلمين - فرع اليمن من الثورة اليمنية والنظام الجمهوري ، تحت تأثير احتدام الحرب الأهلية ، ومضاعفات الصراع المصري السعودي على الساحة اليمنية . ولا يسع الزبيري بالتأكيد إدعاء الكلام باسم جماعة الإخوان المسلمين المحظور نشاطهم في اليمن. [27] وحتى ندرك الكيفية التي تم بها ربط الخلافات المزمنة بين تنظيم الإخوان المسلمين بنظام عبد الناصر في مصر ، وانعكاسات هذا الصراع في الساحة اليمنية. فماذا لو أن منهجاً آخر برز لبرنامج حزب الله داخل اليمن، دعا أمينة العام القاضي الزبيري -إلى التغيير أو الإصلاح هذه المرة من واقع السلطة، لا سيما أن تحدياً من الخارج هز القناعات لدى جيل عام (1948) في شرعية النظام الجمهوري ومصداقيته.

يذكر عبد الملك الطيب في كتابه (التاريخ يتكلم) أن دعوة حزب الله ، كانت اضعف حلقة في سلسلة المعارضة الجمهورية المنشقة ، التي اتسعت حلقاتها باتساع دائرة الحرب الأهلية في اليمن ؛ وكانت أقوى هذه الحلقات المعارضة على الإطلاق تجمع كتلة خمر ، باعتباره الحلقة المكملة لما سبق - البرنامج الأول مستمد من برامج شباب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبرنامج مطالب الشعب .[28] من هذه البداية المتواضعة ، نمت المعارضة الجمهورية بشقيها - القبلي والديني - في مواجهة المؤسسة العسكرية الحاكمة في صنعاء ، لتصبح واحدة من أهم القوى السياسية المتواجدة في الساحة اليمنية. إلا أن الزبيري ، إزاء ضغط القيادة المصرية عليه وعلى جماعته في العاصمة صنعاء ، كان متعجلا في الإفصاح عن برنامج الحزب. ويحدد في هذا الشأن بعض الأمور :

- (حزب الله) قوة مؤمنة موجهة تجمع عزائم الشعب وتوحد كلمة الجماهير من علماء ومثقفين وقبائل ومشائخ وضباط للعمل على تفجير طاقات الإيمان، وإقامة دولة القرآن وتحويل العقيدة إلى عدل وإحسان وعمل وإتقان ورقي وعمران .
- (حزب الله) يريد لليمن حكما إسلاميا جمهوريا شورويا يمنيا لا حكما إماميا ولا حكما عسكريا .
- (حزب الله) يريد السلام لا الحرب ، الأمان لا الخوف ، الإخاء لا العداء ، البناء لا الهدم ، التعاون لا الاختلاف ، الحياة لا الموت .[29]

تعكس هذه النظرة الإصلاحية الدينية المعاصرة في برنامج حزب الله ، نظرة الزبيري إلى نمط التنظيم السياسي والفعل الاجتماعي ، الذي لا يكتمل مشروعه إلا من منطلق الدين والقبيلة . فالقاضي يتحدث في أكثر من موضع في خطابه السياسي ، وهو خطاب ديني واع بطبيعة العمل السياسي في التنظيمات والأحزاب السياسية الحديثة، والدور

الذي تلعبه الطليعة الثورية المثقفة في هذا المجال . ولكنه لا يشير إلى كيفية تعبئة طاقات هذه الجماهير داخل إطار المؤتمرات الشعبية (القبلية) ، مبينا نمط الصراع الذي تستعد لخوضه هذه (الأمة من المؤمنين) ضد السلطة العسكرية الحاكمة (حزب الشيطان) . والمبدأ الذي يتخذه الزبيري شعارا وممارسة في برنامج حزب الله ، هو نفس المبدأ القرآني - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر -، الذي سبق وأن وظف توظيفا جيدا ضد النظام الملكي الإمامي .

لا شك أن الخصائص الاجتماعية والثقافية لكتلة المعارضة الجمهورية لم تكن لتختلف عما كانت عليه في سلوكها السياسي المعارض للنظام الملكي الإمامي. لقد التقى معظمهم في "المقام الشريف" بمدينة تعز خلال عقد الأربعينيات، وكانت تجمع بينهم معرفة قديمة وعلاقات قرابة تطورت في وقت لاحق في سجن مدينة حجة ، وأسسوا معا حزب الأحرار اليمنيين والجمعية اليمنية الكبرى ، اللذين تزعمهما الشيخ أحمد محمد نعمان ورفيق دربه القاضي محمد محمود الزبيري عبر عقدين من الزمن.[30] وكانت محصلتهم الثقافية والسياسية تشكل مزيجا من ثقافة فقهية وأدبية ، وأفكارا إصلاحية سلفية لم تتجاوز بأي حال من الأحوال مفاهيم الجامعة الإسلامية ، وحلقة المنار ، والطرح الديني لجماعة الإخوان المسلمين بمصر . [31]

لقد لعبت جماعة حزب الله وأمينه العام محمد محمود الزبيري في نطاق المعارضة الجمهورية كتلة خمر من جهة، واتحاد القوى الشعبية من جهة ثانية، دورا مهما في خدمة التسوية السياسية للحرب الأهلية في اليمن. كما بدأ دور نظام السلال وتنظيم الضباط الأحرار يفقد تدريجيا استقلاليته في اتخاذ القرارات السياسية، التي أصبحت آنذاك من اختصاص القيادة العربية المصرية ، ليندرج منصب رئيس الجمهورية تدريجيا تحت نفوذ أجهزة الاستخبارات العسكرية . [32]

وتأسيسا على ذلك ، حددت المعارضة الجمهورية المنشقة مطالبها الإصلاحية – كما نلمس في سياق قرارات المؤتمرات الشعبية – تبلور حركة إسلامية ذات توجهات قبلية مسيسة ، تسعى سعيا حثيثا للمشاركة الفعلية في السلطة والثروة. وتأكيدا لدعوة الحركة الإسلامية ، يقترح الزبيري – أن تكون الحلول المناسبة للسلطة والمعارضة حلولا إصلاحية لا تحيد قيد أنملة عن الكتاب والسنة. (33) وهذه المطالب الأساسية " **هي أهم قواعد الحكم الإسلامي الذي ارتآه في النظام الجمهوري** " ، والذي يطالب به حزب الله الآن :

1- ولاية أمر المسلمين ورئاستهم ليست غنيمة ولا مكسبا وإنما هي خدمة للمسلمين في مقابل المعاش ونيابة عن المسلمين لتنفيذ حكم الله بينهم، ولتدبير شئونهم ، ومشورتهم في أمورهم، في مقابل السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره. وليس الحكم والولاية في الإسلام قصورا عالية وسيارات فاخرة وصوافي واسعة وأموالا طائلة وحاشية متملقة ، وإنما هو خدمة للمسلمين خالصة ومراقبة لله بالغة وربط للبطن وحياة خشنة وسهر على مصالح المسلمين وعدل بينهم ومشاروة لهم مخلصة .

2-ولاية أمر المسلمين ورئاستهم أمانة عظمى فهي لا تعطى إلا لمن يحسن القيام بها. ويرعى حقها ويخشى الله تعالى من إساءة استخدامها قال تعالى: ((إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها)) ، وقال عليه الصلاة والسلام ((من ولى من أمر المسلمين شيئا فأمر عليهم أحدا بمحاباة فعليه لعنة الله ، ولا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا)) ، وقال عليه الصلاة والسلام: ((من ولى أمرا وهو يجد أن في الناس من هو أصلح منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين)) .

3- ولاية أمر المسلمين ورئاستهم حل لكل مسلم ولكل فرد من أفراد الشعب ممن تتوفر فيهم شروط الولاية من علم ومعرفة وصدق وشجاعة وتواضع وأمانة وصحة . فمن توفرت فيه شروط الولاية من أبناء الشعب يحل له أن

يكون رئيساً للجمهورية وولياً. لأمر المسلمين إذا بايعه الناس واختاروه برضائهم. فولاية أمر المسلمين ورئاستهم ليست مخصوصة بعائلة أو طائفة طاغية. قال تعالى: ((وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم)) و لم يقل سبحانه من بني فلان و لم يقل من عائلة فلان ولا من القبيلة الفلانية ولا من الطائفة الفلانية وإنما قال منكم أي منكم أيها المسلمون جميعاً.[34]

ويبقى تأجيل موضوع الولاية العامة أي الرئاسة ، موضع خلافٍ قائم بين السلطة والمعارضة ، حيث حاولت الأولى ترسيخ وجودها كقوة سياسية جديدة تستمد شرعيتها من النظام الجمهوري ، الذي يحظى بتأييد شعبي في البلاد ، وتحولات تاريخية أضحت بمثابة ثوابت . الأمر الذي يطرح على الفقه السياسي الإسلامي المعاصر آفاقاً جديدة في تعيين حجم العلاقة وحيزها بين الفقيه والسلطان ، خارج الإشكالية التي أثارها وتثيرها زعامات المعارضة الدينية والقبلية في اليمن المعاصر . هذا هو المأزق السياسي لوصاية الفقيه المحتسب في اليمن الجمهوري، كما ظهر جلياً في تجربة حزب الله (1962-1965)، في عهد القاضي محمد الزبيري، وتجربة المجلس الجمهوري (1967 -1974)، في عهد القاضي عبد الرحمن الإرياني. نجحت الحركة الإسلامية في اليمن المعاصر المتشبثة بشعاري " الحاكمية لله" و"الذاتية اليمنية"،[35] في تشديد العداء لنظام السلال العسكري من جهة، والوجود المصري في اليمن من جهة ثانية؛ لكنها لم تنجح في تقديم إجابة وافية للمشكلة اليمنية من كل جوانبها حتى الزمن الحاضر.

القضية الجمهورية

لقد كان للأغلبية الساحقة من سكان الهضبة الشمالية أسبابها المختلفة في رفض النظام الجمهوري ، على الرغم من إجراءاته الثورية التي حررت قطاعاً واسعاً من السكان من جور نظام الرهائن والخطاط [36] والتنافيذ [37] وغيرها من الممارسات اللاإنسانية التي طبقت في العهد الملكي على نطاق واسع في حق سكان اليمن قاطبة .

لكن هذه الإجراءات الإصلاحية لم تكن كافية لاسترضاء القبائل اليمنية ، وعلى وجه الخصوص عشائر حاشد وبكيل - التي اختار معظمها خط المعسكر الملكي الإمامي المضاد للثورة والجمهورية . وإذا كان محمد محسن الظاهري يعزو هذه المقاومة القبلية المسلحة للنظام الجمهوري إلى سلسلة الأخطاء التي وقعت فيها القيادتان اليمنية والمصرية. (38) فإن فضل أبو غانم يربطها بـ

" الفترة الزمنية التي عاشها اليمن منذ مجيء الإمامة الدينية الزيدية ، في مطلع القرن العاشر الميلادي وحتى قيام الثورة اليمنية في عام (1962) ، وهذه الصورة بلا شك تمثل صورة قائمة حقا ، وتعبر بكل وضوح عن مظاهر التخلف ، التي اتسمت بها الحياة الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية في ظل العهد الإمامي في اليمن ، ونظام حكمه السياسي الذي عكس نفسه على طبيعة الصراعات والمنازعات القبلية والمذهبية الدينية والسلالية ، والسياسية .. " (39)

ومعلوم لدينا أن زعامة حزب الله ، بادرت في استثمار هذا التخلف الاجتماعي والاقتصادي لصالحها ، فهي كمعارضة جمهورية منشقة عن نظام السلال ، أخذت تعبر بصورة علنية عن مصالح سكان مدينة صنعاء وعمران وخمر وغيرها من مدن الهضبة الشمالية ؛ فضلاً عن مصالحها الذاتية في مجال التنافس على كراسي الحكم واقتسام مغانم السلطة في العهد الجديد . يشدد على هذا القول ويؤكده عبد الله بن عبد الإله عند تطرقه لنشاط المعارضة ، التي أخذت على عاتقها مسئولية تعبئة القبائل اليمنية في مؤتمر شعبي ، نظراً لعدم ثقتها بالسلطة الحاكمة في صنعاء ، وآثرت أن يعقد المؤتمر بمدينة عمران شمال العاصمة ، ذلك لأن مدينة تعز على حد قوله كان لا يعنيها شيء من أمر المؤتمر ، كونها **" تعيش بأحجارها وأطفالها وترابها مع الثورة والنظام الجمهوري .. لا حرب فيها ولا انتفاضات . " (40)**

ساهمت الحرب الأهلية في البلاد في تعميق الخلاف بشكل واضح في أوساط النخبة الحاكمة المنقسمة على نفسها حول مسائل رئيسة ، مثلاً السلام والمصالحة الوطنية ومبدأ

الحكم الشعبي ، التي تمثل حجر الأساس بالنسبة للقضية الجمهورية . فقد أثار نفر من القادة الجمهوريين المنشقين ، في مجمل تحليلهم لموقف المعارضة من القائمين بأمر النظام الجمهوري ؛ ويعلق الزبيري على هذه المسألة :

> **" .. أنكرنا الظلم في العهد الإمامي ، ثم أنكرنا الخطأ في العهد الجمهوري ، لأن المبدأ لا يتغير بتغير الأشخاص والأسماء والأشكال. أحارب الظلم مهما كان مصدره البراق ، أو كيفما كانت أساميه . "** (41)

لما شرعت الثورة تأكل أبناءها (42) واشتد الصراع على السلطة بين السلال ومؤيديه من جهة ، وعبد الرحمن البيضاني وأنصاره من جهة ، كان الزبيري قد تحول إلى داعية للسلام والمصالحة الوطنية بين أطراف النزاع الجمهوري والملكي . لكنه لم يكن يعتبر نشاط حزب الله عملاً سياسياً مناهضاً للسلطة، بل بالأحرى جزءاً من مساعيه الحميدة لإحلال السلام في ربوع اليمن . (43) وكان الهدف الآخر من وراء هذا التحرك بناء قوة سياسية مستقلة ، تكون قادرة على التحرك وحسم الأمور لصالحها عندما تحين الفرصة المناسبة. وبهذه المعادلة السياسية، كان الزبيري يساوي بين النظام الملكي المتمسك بالعقيدة الزيدية (الهادوية)، والنظام الجمهوري المتمسك بعقيدة القومية العربية (الناصرية)، باعتبارهما وجهين لعملة واحدة كما أفصح عن ذلك في قصيدة (الكارثة) . (44) لذلك استهدفت عملية خروجه أي انشقاقه عن نظام السلال ، محاولة جادة لبناء تنظيمٍ سياسيٍّ جديدٍ عرف باسم حزب الله، وللتسمية دلالاتها الفكرية والسياسية .

تشكل الصرخة التي أطلقها الزبيري في مؤتمر عمران(سبتمبر1963) منبهاً فيها إلى خطر الانزلاق بالنظام الجمهوري الوليد في صنعاء من حكم الشورى إلى الحكم الفردي دون شك، بداية الوعي السياسي بأزمة الشرعية السياسية والفراغ الدستوري في البلاد. وكان انشغال الزبيري داعية السلام منصباً على تقرير المصير للشعب اليمني ، وخلق مناخ سياسي مناسب للمصالحة الوطنية بين أطراف الصراع الجمهوري -

الملكي.[45] لهذا الغرض دعا القاضي إلى عقد سلسلة من المؤتمرات الشعبية (القبلية) بهدف مناقشة أبعاد المشكلة اليمنية والبحث عن مخرج للأزمة . كان هذا الاتجاه للحوار والمصالحة من وجهة نظره ورفاقه ، يمثل صمام الأمان للنظام الجديد (الجمهورية العربية اليمنية) لمزيد من اللحمة والتماسك والقوة .[46]

عندما بحث قادة المعارضة الجمهورية في هذا الموضوع - السلام والمصالحة ، كان ثمة يقين قائم يؤكد وجود علاقة مترابطة بين جماعة حزب الله وكتلة خمر من جهة ، وتيار اتحاد القوى الشعبية من جهة أخرى ، الذين كانوا يطرحون فكرة قيام دولة اليمن الإسلامية ، كبديل أمثل للنظامين الجمهوري والملكي . بل إن الإطار السياسي للمعارضة الجمهورية والملكية تميز بذلك الخط السياسي المستقل ، الذي أصبح يعرف باسم القوى الثالثة.[47] كان الانشداد إلى ثقافة الماضي - مثلاً إحياء تجربة 1948 الدستورية أو الاتحاد اليمني ، الميزة الأساسية لأقطاب المعارضة ، وبخاصة ائتلاف القوى الثالثة ، التي مالت رموزها لحل الأزمة اليمنية بطريقة سلمية. وذلك أمر بعيد المنال في ظل الوجود المصري ونظام السلال، الذي غالباً ما نعت بالحكم الفردي والدكتاتورية العسكرية .[48] ولم تكن مسألة ترسيخ حكم الشورى والدستور مسألة ثانوية، بل إن مشروع إعلان قيام دولة اليمن الإسلامية كان من صلب اهتمامها، بعد أن فقد الجميع ثقتهم بنظام السلال.[49]

ولذا كان انتقاد المؤسسة العسكرية الحاكمة ونعتها بالدكتاتورية والحكم الفردي، تمهيداً لتصحيح مسار النظام الجمهوري. وبمقتضى التصحيح الثوري الذي قصده الزبيري، فإن النخبة العسكرية - مجلس قيادة الثورة - كانت تفتقر إلى الشرعية السياسية . ويضرب الأمثال على ذلك بمستوى الإدارة والتصرف ، وهو يستعرض نقائص حكومة السلال . وجه القاضي الزبيري رسالة مطولة لرئيس الجمهورية

السلال يوبخه فيها إلى حد التقريع الشخصي، ويعدد ممارساته الخاطئة، نلمس في سطورها آثار متون الفقه والحسبة عند الزيدية. ونورد هنا بعض مقاطع الرسالة المهمة :

"سيدي المشير رئيس الجمهورية ... انتهكتم حرمة الميزانية العامة للدولة ، وخرجتم على قواعد النظام القديم والحديث، وخلقتم الفوضى والارتباك في الشؤون المالية بسبب التصرفات والتحويلات بأموال الشعب طبقاً لرغباتكم الشخصية ، حتى كأن أموال الشعب إنما هي أموالكم الخاصة ورثتموها من الآباء والأجداد ، على أن الوارث المسرف السيئ التصرف يحجره الحاكم الشرعي ويمنعه من التصرف بماله الخاص ." (50)

ثم ينتقل القاضي الزبيري في رسالته إلى إجراء مقارنة بين عهدين الجمهوري والملكي-،وفي هذه المقارنة ليس التعريض بشخص السلال والتشكيك في شرعيته فحسب، بل توجيه جملة تهم ضده ، فهو فاسد ومستبد يمارس الإرهاب ضد كل من يعارضه، إلى حد التصفية الجسدية:

"والآن أفلست الجمهورية وتعطلت خزائنها وأنتم المسئولون لأنكم أنفقتم أموال الدولة بقصد الحصول على تأييد شعبي لشخصكم ومنصبكم، وشراء الذمم والضمائر لتبقى رئاسة الجمهورية حقاً أبدياً في (آل السلال).. فالبئر الرهيبة ترمي فيها الضحايا الأحياء ، والإعدام الجزافي بلا محاكمات ، والغدر بمن عاهدتموه أو عفوتم عنه ، واختطاف المواطنين من الشوارع، ومهاجمة الآمنين في بيوتهم، وقتل الناس بالسم بعد العفو عنهم .." (51)

كان الزبيري على علم بالمشاكل الناجمة عن الوجود المصري في اليمن ، وبذلك تعقدت عملية البحث عن حل سلمي للحرب الأهلية بفعل الدور السعودي في تغذية حرب اليمن . وتبين هذه الرسالة بجمل مشاكل الدولة الجديدة بصورة مفصلة ، بعد أن تأكد له أن تصوراته لحل المشكلة اليمنية تختلف تماماً عن تلك التصورات والحلول العسكرية التي تقترحها القيادتان المصرية واليمنية . وإذا أردنا أن نحدد مرمى هذه الرسالة، فالغاية واضحة، إذ نستطيع القول إنها صدرت من مركز القوة لأن زعامة حزب الله كانت تعد العدة لعقد مؤتمر خمر للسلام ، ونزع الثقة من الرئيس السلال

بإجماع شعبي . فالانتقادات المضمنة في هذه الرسالة كانت مبنية على قاعدة الاحتساب المتعارف عليها عند زيدية اليمن الهادوية ؛ وهو في ذلك يقول:

" لو أنكم جعلتم الأمر إلى من يثق الشعب بوجوههم من مشايخ القبائل والعلماء والوجهاء ، وتركتم تدبير التفاهم إليهم وجعلتموهم واسطة التفاهم كما يقضي بذلك دستور مجلس الشيوخ الأعلى لما احتاجت الجمهورية إلى استخدام الحرب إلا في النادر القليل . ولكنكم جعلتم الحق كله لكم ، ووزعتم المسئوليات على من تريدون من الأفراد ، ثم ضاع الأمر كله من أيديكم وأيدينا جميعاً، وأصبحنا ونحن في بلادنا لا نعرف من يعلن الحرب ومن يعلن السلم . " (52)

ويصل الزبيري - عند نهاية الرسالة - إلى ما يبتغيه من ورائها ، فهو يلقي باللوم على السلال وزمرته ، الذين سلموا زمام الأمور في البلاد إلى القيادة المصرية ومخابراتها العسكرية ، مذكراً إياهم بأن مفتاح المشكلة اليمنية ليست في يد الجمهورية العربية المتحدة ، وإنما في يد أهل الحل والعقد من علماء اليمن ومشايخها، المشاركين في المؤتمر الشعبي بمدينة خمر . وقد اختتم الزبيري رسالته بهذه العبارات الحادة :

- منحكم الشعب هذا المنصب العظيم والشرف الكبير والأمانة العظمى بناء على أنكم من الثوار الأحرار، وأنكم ضد الفردية والاستبداد : فكان المنتظر منكم أن تكتفوا بالرئاسة الرمزية ، وأن تبتعدوا عن الاحتكاك بالمشاكل وتتركوا الشعب يختار له على الأقل رئيساً للوزراء يتحمل المسئولية وأنتم مصانون عن النقد، ولكنكم أخذتم الرئاسة والسيادة كلها ، ثم تدخلتم في كل صغيرة وكبيرة، ودخلتم في خصومات شخصية ونفيتم من البلاد رجالاً صالحين ، وسجنتم آخرين ، وسرتم في الطريق الإمامي، حتى كأن النظام الجمهوري لم يغير إلا الملابس والألفاظ .

- استخدمتم وسيلة التفرقة بين المواطنين وأثرتم فتنة الفرقة الشافعية والزيدية بشكل صريح واضح ، وهذا ما لم يجرؤ الإمام أحمد أن يفعله ، ولم تكتفوا بذلك بل أخذتم

تثيرون الخصومات بين كل الفئات بين المدنيين والعسكريين والقبائل، وكلما اجتمعتم بفئة لعنتم أختها حتى انكشف الأمر للجميع في مدة قصيرة .

- أهنتم شرف الشعب بتذللكم لأصغر المسئولين المصريين وتنازلتم عن حقوق الدولة لهم وشجعتموهم على حكم المناطق والسيطرة عليها دون أن تشاوروا أحداً...تركتم لهم التصرف بكل شئون الحرب دون مشاركة اليمنيين فوقعوا في الأخطاء لجهلهم بالبلاد ، وبذلك صار المتمردون يعتقدون أن اليمن لم تعد لأهلها، بل صار العالم كله يعرف أن اليمنيين لا وجود لهم ، وأن الجمهورية ليست إلا شخصاً اسمه السلال وحفنة من الرجال معه يعيشون جميعاً في حماية الدبابات العربية." (53)

اكتسبت هذه العلاقة المتوترة بين القادة الجمهوريين المدنيين والعسكريين أهمية إضافية خلال السنوات الأولى من عمر الثورة اليمنية ، وكثيراً ما أصبحت هذه العلاقة متوترة بسبب التصعيد العسكري،فأعطت الفرصة لانشقاق سياسي خطير في الصف الجمهوري، الذي كان يفترض أن يحافظ على وحدته . ففي ربيع عام 1965 على وجه التقريب ، انشقت مجموعة صغيرة من القيادات الجمهورية المحافظة بزعامة عبد الرحمن الإرياني وأحمد نعمان ، وشكلت تجمعاً رئيسياً معارضاً لنظام السلال ، عرف باسم (كتلة خمر).(54) وقد حدث الانشقاق حول ثلاث مسائل رئيسة: السلام، والمصالحة الوطنية ، والحكم المدني (المجلس الجمهوري بدلاً من مجلس قيادة الثورة). وكان الزبيري قد أعلن منذ البداية موقفه الواضح أن من بين الفضائل الأساسية للقادة الجمهوريين المدنيين تجنب التورط مع القيادة المصرية ، كما تعكس بذلك خطاباته في مناسبات متعددة . (55)

ومن النتائج المباشرة لهذه الصراعات انعقاد سلسلة من المؤتمرات الشعبية والوطنية ، كانت قراراتها وتوصياتها مبنية على القناعات السياسية، الأمر الذي ساعد على بروز

أنصار حزب الله ، ومشروع دولة اليمن الإسلامية [56] كخيار أمثل بدلا من النظام الإمامي الاستبدادي والنظام الجمهوري العسكري الديكتاتوري .

وإذا كانت معلوماتنا عن سلسلة المؤتمرات السياسية : عمران (سبتمبر 1965) ، وأركويت (أكتوبر 1964) ، وخمر (أبريل 1965) ، والطائف (أغسطس 1965) ، وجدة (أغسطس 1965) ، وحرض (نوفمبر 1965) ، والجند (أكتوبر 1965) ، والخرطوم (أغسطس 1967) ؛ لا تتجاوز القرارات والتوصيات السياسية المتناقضة التي تعكس طبيعة الصراع وتوجهاته في جنوب الجزيرة العربية . فإن ما وصلنا من بيانات حزب الله وبرابجه السياسية التي أججت نارها قصيدة (القانون والفرس والميدان) ، [57] وكان الصراع السياسي على السلطة ، قد بلغ الذروة عشية انعقاد مؤتمر خمر للسلام في أبريل1965، الذي حاولت حكومة السلال منع قيامه . [58] فكانت سلطات صنعاء ترصد النشاط السياسي المحموم لزعامة حزب الله التي أطلقت نداءات متكررة إلى زعماء العشائر الملكية والجمهورية ، بالانضمام والمشاركة الفعلية في المؤتمرات الشعبية ، وجندت السلطة جيشاً من المخبرين العاملين في وزارة شئون القبائل والمباحث العامة . لكن هذه المحاولات لم توفق في الحد من اتساع قاعدة المعارضة داخل صنعاء ومحيطها القبلي.

الخروج [59] .

كان لقرار محمد الزبيري الخروج من مدينة صنعاء مغاضباً إلى مدينة ريدة الواقعة في سفح جبل برط في ربيع عام 1965 ، أثره البالغ في تغيير موقفه السياسي بشكل ملحوظ من النظام الجمهوري. يبرز هذا الموقف في إطار الصراع على السلطة بين القادة الجمهوريين حول مستقبل نظام الحكم في اليمن. وكان الزبيري الذي يمثل رأس الحربة للجناح المدني المنشق على نظام السلال، على وعي كامل بحاجات النظام الجمهوري إلى

إصلاح سياسي شامل ؛ لكنه أخطأ خطأً فادحاً في تبرير أسباب الخروج ودوافعه .[60] وأثار هذا الموقف - الخروج - لغطاً في أجواء صنعاء الثورة والجمهورية، وردة فعل مجلس قيادة الثورة .

لقد أفصح الزبيري في بيان الخروج عن موقف جديد في غايته ومنطلقاته وطريقته عرض القضايا المستجدة في الساحة اليمنية . وتكشف كلمات الزبيري بهذا الخصوص بجلاء عن موقف المعارضة :

" من أجل هذه الأهداف خرجنا إلى أبناء شعبنا،وإلى قبائلنا الشجاعة الأبية ، ومن أجل إعلاء كلمة الله أعلنا قيام (حزب الله) .. الذي سيدعو الناس إلى المؤتمر ، ويأتي بالعلماء العاملين ليحكموا بكتاب الله إلى جانب (أهل الحل والعقد) في البلاد والمشايخ والزعماء، والذي سيحمل دائماً راية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والذي سيدعو المسلمين أن يحتكموا دائماً لكتاب الله وسنة رسوله في كل أمر من أمورهم الخاصة والعامة .. " [61]

منذ اللحظة الأولى التي بدأ فيها الزبيري رحلة الخروج ، لازمته صفتان بارزتان : المعارضة العلنية للوجود المصري ، والنشاط الدؤوب من أجل إقصاء السلال من منصب رئاسة الجمهورية . وفي حين اقتضت الصفة الأولى تصديه شخصياً لتأدية بعض المهمات الخطرة - الدعوة إلى السلام والمصالحة الوطنية - بين الجمهوريين والملكيين ، استوجبت الصفة الثانية منه المضي قدماً في مقدمة صفوف المعارضة الدينية والقبلية . ولم يكن الزبيري ليقبل ما تمليه القيادتان اليمنية والمصرية من سياسات تتعلق بإلحاق الجيش الشعبي (القبلي) بالجيش النظامي . كل هذه الأفكار الرامية إلى تقوية مكانة القبيلة على حساب الدولة مضمنة في وثائق وأدبيات المعارضة ، كما نلمسها بشكل واضح في برنامج حزب الله من جهة ، وقرارات وتوصيات مؤتمرا عمران وخمر من جهة أخرى .[62]

إن قصة خروج القاضي الزبيري إلى جبل برط معروفة ، ولكن السؤال حول سبب الخروج ، هل هو دافع ديني أم سياسي ؟ ونحن نميل إلى القول إن الدافع مشترك ديني

وسياسي معاً ، كما نستشف من البيان الصادر عن الأمانة العامة لحزب الله، والـذي جاء فيه :

" في أول يوم من أيام الشهر الكريم[عام 1385هـ/ 1965م] والأحداث الدامية في أنحاء اليمن تهز ضمائرنا-خرجنا من صنعاء متجهين إلى الله،لانذين بـه أن ياخذ بايدينا ، وأن ينقذ شعبنا من الظلم والفوضى والرعب والحرب والدمار .. ما خرجنا من صنعاء لطلب وظيفة ولا منصب، فإننا تركنا المناصب في صنعاء ورفضناها.. ولا خرجنا نطلب مالاً فنحن طوال أعمارنا لم نكسب مالاً ولا متاعاً.. ولا خرجنا خائفين من بطش فنحن بفضل الله وفضل تأييد الشعب في مناعة وحصانة أينما كنا.."(63)

في ضوء هذا الاقتران بين الدعوة الإصلاحية والخروج (الثورة) ، نفهم عبارة الزبيري "ما خرجنا من صنعاء لطلب وظيفة ولا منصب" وإنما "خرجنا من صنعاء متجهين إلى الله..أن ينقذ شعبنا من الظلم" . وضحت ملاحظات القاضي المدونة في برنامج حزب الله مغزى الخروج عن السلطة .(64) غير أن إدخال الزبيري لهذا المصطلح في البرنامج السياسي للحزب لم يخرجه عن كونه فقهياً معارضاً للمؤسسة العسكرية الحاكمة في صنعاء يدافع عن الشريعة الغائبة ، وأنه في مقدوره تفسير النظام الجمهوري وفق توجه ديني قبلي. و لم تتمكن جماعة حزب الله في اليمن من مد نفوذها خارج إطار تحالف قبائل حاشد وبكيل ، فمثلث صنعاء ، عمران ، خمر ، المجال الحيوي لنشاطها السياسي . ورغم أن زعامتها كانت تطمح لتأليب الشعب حول برامجها، لم تفلح لأن معظم سكان اليمن كانوا قد أعلنوا تأييدهم المطلق للنظام الجمهوري .

ما هي الخدمة التي قدمها الزبيري للمشكلة اليمنية من وراء عملية خروجه على نظام السلال ؟ هل كان القاضي يتطلع إلى إصلاح حكام العهد الثوري الجديد، أم انه كان يسعى إلى إحداث تحول جذري في بنية النظام الجمهوري وإخراجه إلى حيز الوجود بصورة سلفية - عصرية - تتناسب عقديا مع أسس الشريعة الإسلامية ؟

تطرق لهذه الأسئلة وغيرها نفر غير قليل من الباحثين والدارسين اليمنيين المهتمين بشعر الزبيري ومواقفه الوطنية بهدف إظهار مكانته السياسية المرموقة في صف السلطة والمعارضة الجمهورية من جهة ، وبالتالي مكانته المتميزة في تاريخ اليمن المعاصر من جهة أخرى . ونرى أنه من المناسب الوقوف عند هذا الحد من النقاش للانتقال بالقارئ إلى مشاركتنا لبعض القراءات النظرية الأخرى المتمثلة بفكر الزبيري السياسي في ضوء تجربة حزب الله .

تبرز دراسة عبد الرحمن محمد العمراني (الزبيري أديب اليمن الثائر - 1979) ، جملة الأدوار الثقافية والسياسية التي تبناها الزبيري في العهدين الملكي والجمهوري ، حيث يقدم نماذج من سلوكه في فترة الجمهورية العربية اليمنية . ففي الفصل الثالث من الباب الرابع يناقش المؤلف الواقع السياسي الذي عاشه الزبيري بعد قيام الجمهورية ، بتقديم دراسة فنية لأدب الزبيري ، نثراً وشعراً قبل قيام الثورة والجمهورية ، أو على حد قوله - أدبه المتمثل أكثر في الخطابة بعد قيام الجمهورية . وثمة إجماع عام لدى الدارسين المهتمين بأدب الزبيري ، على أن إنتاجه الشعري قد توقف تماماً في العهد الجمهوري ، حيث اقتصر نشاطه على الخطابة السياسية .[65]

تطالعنا عبارة المؤلف (أخطاء المسؤولين ونشوب الحرب الأهلية) التي يوردها عنواناً جانبياً للفصل الثالث من الدراسة بقصد تسليط الأضواء على " مصير الزبيري وحالة بلاده بعد تحقق الحلم الكبير وهو إعلان إنهاء الحكم الإمامي المتوكلي وقيام الجمهورية . "[66] ويستند العمراني في استدلالاته على انحراف نظام السلال عن مبادئ الثورة وأهدافها ، في ضوء قراءته المختزلة لبعض الدراسات والأبحاث المشايعة للقاضي الزبيري ومشروع حزب الله في اليمن ، التي أشار لها في مقدمة دراسته ، ثم يرصد أخطاء التجربة الثورية في عهد السلال (1962-1967) على النحو التالي :

الخطأ الأول - السباق على الكراسي والأموال .

الخطأ الثاني - التدخل الخارجي .

الخطأ الثالث- الفقر والجهل وسوء فهم الثورة وعوامل أخرى ونشوب الحرب .

الخطأ الرابع- اختلاف الجمهوريين فيما بينهم ورفض بعضهم الوجود المصري.(67)

ويكتفي العمراني في الفصل الثالث الذي تطرق فيه لموقف الزبيري من السلطة في العهد الجمهوري بإثارة هذه الأسئلة: فأين هو الزبيري من هذا الوضع ؟وما هي آراؤه؟ وما هو دورة ؟

يشدد المؤلف على دور الزبيري في العهد الجمهوري بالقول :

> **" بعد قيام الثورة وفي الوقت الذي تهافت فيه البعض على المناصب الأعلى [العليا] في الدولة، نجد الزبيري أبا الأحرار صاحب الرصيد النضالي الفريد يرضى بما أعطي له من منصب وهو وزارة المعارف (التربية والتعليم) الذي كان قد أعطي له في ثورة 1948 ، في حين كان الكثيرون يتوقعون له ما هو أكثر من هذا ، لا سيما وأن من كانوا أقل منه نضالاً وإخلاصاً قد تبوءوا مراكز أعلى [عليا] أمثال البيضاني الذي اصبح نائب رئيس الجمهورية والقائد العام للقوات المسلحة ووزير الخارجية الخ.. " (68)**

وبالرغم مما يعنيه هذا السؤال (ما هو دور الزبيري؟) من مفارقة تاريخية بين هذين الدورين في حركة 1948 الدستورية وثورة 1962 السبتمبرية، فهو يحمل ضمنا اعترافاً بأن حق القاضي الزبيري قد بخس في العهد الجمهوري . ولكن العمراني لم يتتبع مسار الحركة الوطنية في اليمن المعاصر ، وطبيعة الصراع على السلطة في العهدين (الملكي والجمهوري) ، إلا من زاوية واحدة - ألا هي زاوية السباق على الكراسي والأموال .

وللإجابة على هذا السؤال نثير تساؤلا ضمنيا آخر : ألم يتبوأ الزبيري عضوية مجلس الرئاسة ، وعضوية المكتب السياسي ، بالإضافة إلى منصب نائب رئيس الوزراء ووزير المعارف ؟ وإذا كانت هذه المناصب كما يذهب المؤلف لا تتناسب مع شخص الزبيري وتضحيته الجسيمة في سبيل الجمهورية ، فما هو الدور الذي كان يتطلع أن يلعبه ؟

لقد استخلص بعض الدارسين آراءهم حول تجربة حزب الله من الوقائع التاريخية التي رافقت الخروج من صنعاء إلى جبل برط . وحاولوا منذ البدء أن يضعوا قاعدة عامة لمن أراد أن يتطرق لسيرة الزبيري ، كما فعل عبد الملك الطيب في مؤلفه (منهج الزبيري في إصلاح الحكم والشعب 1974) ، عندما قدم صورة حية عن الزبيري ومواقفه السياسية المناهضة لنظام السلال والوجود المصري، بقوله:

"إن القتال من أجل الجمهورية ومحتواها الثوري التقدمي ، ومن أجل الدين أو الشرف أو الوطن قتال مقدس لا نستنكره ولا نجبن عنه ، ولكن القتال من أجل الحماقات والتوافه وسوء الفهم، والعجز عن اللقاء الحقيقي مع الضحايا المخدوعين المتمردين ، إنما نعتبره جريمة نبرأ إلى الله منها . " (69)

ويرى الطيب أن خطر الأنظمة العسكرية لا يكمن في اغتصابها للسلطة فحسب، بل في مواقفها المعادية لدعاة الإصلاح. ولذلك فإن منهج الزبيري في الحكم كان يرمي إلى إصلاح الأوضاع الفاسدة . وإذا كانت السلطة والحكم عملاً ذهنياً يقتضي من الحاكم التحرك في خدمة الصالح العام ، ويتم التوصل إليها بالدراية والخبرة ، فالإصلاح كذلك يتطلب من الداعي أن يمعن العقل والحكمة في معالجة المشاكل المستعصية . والإصلاح إنما يجب أن يكون إصلاحاً دينياً في جوهره ، يلامس هموم الناس ومعاناتهم اليومية . ويبدي الكاتب بدوره ملاحظات نقدية يستخلصها من تجربة الزبيري، ويسقطها إسقاطاً على الأوضاع المتردية في عهد السلال وخلفائه ، لا تبتعد في جوهرها عن هذا التقييم السلبي لنظام الحكم في العهد الجمهوري ، قائلاً :

" تسود اليمن ظواهر خطيرة في مستوى الشعب والحكومة معاً:فوضى تخرب النظام وتحلل يهدد القيم ، وانفلات عن مقومات الحياة السياسية والاجتماعية يعرض البلاد لأفدح النكبات." (70)

قد نجد هنا مدخلاً مناسباً للمقارنة بين فكر الزبيري وفكر سيد قطب ، الذي بدوره اعتبر كافة الأنظمة العربية والإسلامية ، سواء كانت جمهورية أم ملكية ، رأسمالية أم اشتراكية لا تلتزم الكتاب والسنة ، فهي تجسد جاهلية العصر الحديث. ففي ذلك

تقارب واضح مع مدلول مصطلح " الحاكمية لله "، التي استعارها سيد قطب من المفكر الإسلامي أبو الأعلى المودودي ، بمعناها الديني الواسع لحكم الشورى.[71] كما أشار جملة من الباحثين إلى الزبيري المعارض لنظام السلال وفي مقدمتهم الطيب ، الذي أوضح مصادر فكر الزبيري الثقافية والسياسية، ويشاطره الرأي المقالح، الذي ذهب إلى القول:

> **" .. كانت إسلامية محضة ، وأكثر الذين أخذوا بيده وعاونوه هم جماعة الأخوان، لكنه كان يحتفظ بشخصيته اليمنية الإسلامية بشكل يستطيع فيه أن يتجول من منطلقات هذه الساحة لتحقيق ما يريد تحقيقه لليمن .. الإخوان مثلاً يرتبطون بعهد مع مرشدهم هو لم يكن مرتبطاً بهم ، بل كان ينسق عمله معهم.. "[72]**

ولنا على الاقتباسين - النقطتين - المذكورتين بعاليه الملاحظات التالية : يبني المقالح قوله على تجربة حزب الله ، بصدد إثبات أن الزبيري ومنطقه السياسي كان يصب في صالح النظام الجمهوري . وهذا الكلام يبدو متناقضاً مع ما ساقه من ملاحظات نقدية حول سيرته الأدبية والسياسية منذ لحظة خروجه إلى جبل برط ، وأولئك المقعدين في صنعاء الذين يتربعون كراسي السلطة والحكم تحت حماية الجيش المصري . يستنتج الكاتب من وراء عملية خروج القاضي ، دروساً وعبراً في مقدمتها محاولته الرامية لمواجهة الرجعية في كهوف الجبال. ومعنى ذلك أن الزبيري لم يخرج إطلاقاً عن الصف الجمهوري، ولا على الشرعية الثورية، وإنما خرج إلى الشعب إلى القبائل الموالية للإمام البدر المخلوع . وكان الهدف الأسمى له محاصرة الرجعية القديمة (بيت حميد الدين) من جهة ، والالتفاف على الرجعية الجديدة (المرتدية أثواب النظام الجديد) من جهة ثانية. وكان القلم والكلمة الشجاعة سلاحه الوحيد في ميدان المعركة، لا كما فعل خصومه الذين خططوا لعملية اغتياله وهو في منتصف الطريق لإنجاز هذا المشروع الإصلاحي- دولة اليمن الإسلامية .

لعل الانطباع الأول الذي نكونه عن أبي الأحرار من خلال مطالعتنا لكتاب المقالح (الزبيري ضمير اليمن الثقافي والوطني) ، مزج القاضي بين مفهوم الدعوة والخروج عند أئمة الزيدية ، ومفهوم الثورة والجمهورية عند النخبة العسكرية. كان ذلك الخيار الصعب بين الجمهورية والموت ، من أصعب القرارات السياسية التي أتخذها طيلة حياته. ومن هذه الزاوية يتضح أن الباب واسع للاختلاف حول هاتين المسألتين.[73] فالزيدية الهادوية في اليمن – على عكس بقية الفرق الشيعية ، تربط الإمامة بالخروج ، تلك النظرية السياسية التي صاغها كل من الإمام زيد بن علي ومحمد بعده الإمام الهادي يحيى بن الحسين، في وقت كان الإمامان يعدان نفسيهما لثورة شاملة على السلطتين الأموية والعباسية .[74] أما القاضي الزبيري ، فإنه كان يتأهب للقيام بثورة على الثورة ، وهذا التحرك كان محسوباً عليه لأنه كان يعد نفسه للخروج كليةً عن النظام الجمهوري العسكري ، من خلال الدعوة إلى قيام دولة اليمن الإسلامية .

والواقع أن الزبيري كان قد انغمس في السياسة حتى أذنيه ، على عكس ما يذهب إليه المقالح . ولسنا هنا في صدد استنطاق شهادة تاريخية حول الظروف المحيطة بخروج الزبيري في بحث عبد الله البردوني (من أول قصيدة إلى آخر طلقة : دراسة في شعر الزبيري – 1993) ، بقدر ما نتوخى مناقشة موضوعية توضح الباعث من وراء خروجه من صنعاء إلى جبل برط ، ومن ثم الإعلان عن تأسيس حزب الله ؛ فهل كان يدور في وعي الزبيري مقولة تلك الآيات القرآنية الكريمة : ((استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان آلا إن حزب الشيطان هم الخاسرون)) وقولة تعالى: ((ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون)) .[75]

يحدد البردوني مفتاح شخصية الشاعر الزبيري ، مشيراً إلى أن مواقفه الفكرية والسياسية – منذ عام 1948 حتى عام1962، ظلت ثابتة ، أي معادية ليس لأئمة (بيت حميد الدين) فحسب ، بل لـ " العسكرية وحكم الضباط "[76] . إنما الجديد المتولد

عن التجربة القديمة ، الذي مارسه القاضي الزبيري في معارضته السياسية لنظام السلال ، يعكس وضعية تاريخية على صعيد الممارسة الفعلية لليقين الثوري، فاقتضى ذلك منا اقتباس ثلاثة مقاطع أخرى من كتاب البردوني (من أول قصيدة إلى آخر طلقة) .

يقدم البردوني تحليلا مغايرا لمن سبقه من الباحثين والدارسين اليمنيين في شعر الزبيري ونثره ، لاسيما تجربة (حزب الله) :

- " بدأ الزبيري معارضته باقتراح إشراك شيوخ القبائل في ذروة السلطة ، فقام المكتب السياسي منظر السياسة والحرب ، لأن أعضاءه من رووس العشائر المحاربة والموالية ، ولم يحقق هذا غايته ، بل زاد اشتعال الحرب .

- فأعلن الزبيري دعوة السلام بين اليمنيين ، ودعا إلى مؤتمر (أركويت) فاتهمته القوى الثورية بالملكية بدعوى انه قبل قيام (دولة إسلامية) في اليمن ، متجاوزة (الجمهورية) و(الملكية)لأنهما سبب الاقتتال المتتالي ، لأن المدد تعاقب بلا انقطاع .

- ولما رفضت الجمهورية تغيير اسمها وشعاراتها ، ارتأى الزبيري قيام مؤتمر (عمران). ولما أخفقت قراراته لجأ إلى قبيلة (برط) عام 1964م ، وشكل (حزب الله) تحت مبدأ الآية الكريمة ((ألا إن حزب الله هم الغالبون)) ، فتلمست القوى المحاربة هذا الحزب وإمكان تحوله إلى جبهة ثالثة تمتلك أسلحة وأموالا ، فتوافدوا على قبيلة (برط) معلنين ولاءهم لـ(حزب الله) . [77]

لقد فرض الزبيري نفسه فقيهاً وصياً محتسباً على رئيس الجمهورية ، فأصبح كلامه مرجعاً تستشهد به عناصر حزب الله ، التي أخذت قاعدتها تتسع يوماً بعد يوم ؛ كما أصبحت تصريحاته المنددة بالمؤسسة العسكرية الحاكمة في صنعاء ، مصدراً تتناقله الصحف المحلية والعربية ، باعتباره الناطق الرسمي باسم المعارضة . كما أبدى تحفظه الشديد تجاه الدور المصري في اليمن، عندما قام بتحرير رسالة وجهها للسفراء العرب

(السوري ، العراقي ، الجزائري) المقيمين بصنعاء ، حررت في 27ذو القعـــدة 1384/ مارس 1965، وندد فيها بالدور المصري في اليمن :

> **" إننا نناشـــدكم مرة أخـــرى أن تتأملوا موقفنا وموقفهم ، ونحن ننكر وجـــود حكم يمني على الإطلاق ، ونحمل الجانب العربي المسئولية التاريخية الكاملة ، ونناشـــد أصدقاء القاهرة أن ينصحوها بكف يدها عن التدخل في شئون البلاد الداخليـــة مـــن أجل النضال العربي المشترك .." (78)**

رغم كل الشكاوى المبثوثة في رسائل وبرقيات الزبيري التي تطرقنا لهـــا في ســـياق الدراسة ، وجهت هذه الرسالة أو الشكوى الموجهة للسفراء العرب المقيمين بصنعـــاء ، اللوم الشديد لحكومة الجمهورية العربية المتحدة ، التي اتهمت بالتدخل في كل صغـــيرة وكبيرة في اليمن . وقد أنتقل القاضي في الفقرة الثانية من رسالته من الهجـــوم علـــى السلطة إلى الدفاع عن المعارضة ، بقوله :

> **" والآن نلفت نظركم إلى أن الشعب اليمني منذ أشهر، يطالب (بمؤتمر وطـــني للسلام) يدعم النظام الجمهوري ، وينهي الحرب بالطرق السلمية والشعبية ، وينقـــذ البلاد من المأساة المروعة ، ومن الاستعمار والتآمر الدولي ، وتلك أهداف لا تـــستطيع [الجمهورية العربية] المتحدة تحقيقها ، إن لم تكن القوى الشعبية متضامنة ومتجمعة ، في المؤتمر الوطني المقترح ، وبينما نحن ننتظر الإجابة المعقولة ، إذ بالمسؤولين العـــرب يهددون ويتآمرون ضد الدعوة إلى الأخوة والسلام ، ويخلقـــون الفـــتن الخطـــيرة ، ويوزعون الأموال الطائلة ، والأسلحة لشراء الذمم ويتحكمـــون في كـــل صغـــيرة وكبيرة، متجاهلين الوجود اليمني في النطاق الرسمي والشعبي معا ، مما أكـــد لقبـــائل المشرق وغيرها ، دعايات الأعداء وأتاحت الفرصة لهم للاندفاع نحو أموال وأســـلحة أخرى ، تبذل لشراء الذمم وخلق المعارك من الجهات الأخرى المعادية . " (79)**

تلك هي الوقائع السياسية المتعلقة بالسلطة والمعارضة في مرحلة الجمهورية العربيـــة اليمنية ، كما نستنطقها من واقع المصادر والشهادات التاريخية . وقد يكون العرض العام الذي قدمناه حتى الآن لتجربة حزب الله وزعامته يساهم في تصويـــب مختلـــف هـــذه التفسيرات لعملية خروج القاضي الزبيري عن نظام السلال . فحزب الله مثلاً لم يهاجم

النظام الجمهوري علانية ، لكن زعامته اختارت القطيعة مع القيادتين اليمنية والمصرية ، مفضلة الانضواء تحت مظلة القوى الثالثة ؛ ومن ثم اللجوء إلى جبل برط ، والدعوة من هناك إلى قيام دولة اليمن الإسلامية . وكانت هذه الدعوة الإطار المناسب للمعارضة الدينية والقبلية المناهضة للوجود المصري في جنوب شبه الجزيرة العربية .

لقد أدى القاضي الزبيري دوره السياسي الفاعل في صف السلطة والمعارضة ، حيث نجح في تأسيس حزب الله وترسيخ فكرة الدعوة إلى قيام دولة اليمن الإسلامية في ذهن أنصاره المتحمسين لهذا المشروع . لكن هذه الشبكة من الحجج، تعود إلى مقاييس متفاوتة لتجربة حزب الله وكتلة خمر، تفرض تغييراً جذرياً لمفهوم الثورة أو اليقين الثوري، لأنها تتطلب إعادة النظر في جذور المشكلة اليمنية، ليس في عهد الإمامة ، بل في عهد الجمهورية . والزبيري الطامح في الرئاسة من واقع المعارضة داخل السلطة ، عندما ذهب إلى جبل برط، كان قد حسم أمره بصورة نهائية دون رجوع عن قراره. فالتغيير المنشود – اليقين الثوري – كما يراه كان بمثابة انقلاب على الذات وعلى الآخر، في مسيرة يشق فيها أنصار حزب الله طريقهم نحو السلطة ؛ فكانت عملية الخروج امتحاناً صعباً لهذه الذات الحائرة . وهكذا ، ضجت الساحة اليمنية بالحركة الإسلامية ، التي تزعمها القاضي في سبيل تحقيق الحلم والإصرار على مواجهة الموت بالشهادة .

ضمن هذا الإطار – الزبيري الأسطورة والتاريخ – ، تشهد المكتبة اليمنية منذ مطلع عقد السبعينيات إصدارات أدبية وتاريخية، تضع معظمها أسم الزبيري على رأس القائمة ، باعتباره ليس (ضمير اليمن الثقافي والوطني) فحسب ، بل (أديب اليمن الثائر) . ومثل هذه العناوين بقدر ما تثير من التشوش الذهني لدى القراء العاديين ، تبدو ضرباً من ضروب العبثية الثقافية والسياسية . فالكل يعلم ويعي داخل اليمن وخارجه أن الثورة والجمهورية والوحدة لم تقم على أكتاف الزبيري ومريديه ، بل

قامت على جماجم وأشلاء عشرات الآلاف من الرجال ، الذين ضحوا بأرواحهم رخيصة في سبيل إنجاز الثورة السياسية والاجتماعية في اليمن المعاصر . وباستعادتنا هنا للجزء اليسير من الأحداث والوقائع التاريخية وثيقة الصلة بالمشكلة اليمنية ، ليس بهدف كشف الغطاء عن تجربة حزب الله فحسب، بل نرمي من وراء ذلك إلى تحديد مظاهر التناقضات السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية الكامنة في صلب المجتمع اليمني ، الذي يواجه صعوبات عديدة ، تعترض طريقه للانتقال من طور القبيلة إلى طور الدولة ؛ أو بتعبير أكثر دقة - الانتقال من مرحلة المجتمع القبلي إلى مرحلة المجتمع الأهلي .

وهكذا كانت الكتابات اليقظة التي تبحث في شعر الزبيري الوطني وفكره السياسي الجمهوري ، تمزج بين الواقع (حزب الله) والأسطورة (القاضي الزبيري) ، لكي لا تقع فريسة في لائحة المحظور من الكتابة العلمية الموضوعية ؛ ولم تكن مجمل تلك الدراسات والأبحاث خالية من المداخلات الجادة ، فيما لو تذكرنا تلك الملاحظات النقدية ، التي أطلقها أحد الباحثين اليمنيين في مجرى تعليقه على- ظاهرة الزبيري :

> **" إننا نناقش الزبيري كما عاش ونحاول فهم دوره ، منذ أن غير موقفه في عام 1962 ، وقال إنه يعود إلى جذوره ويتحد بها. ومنذ تلك اللحظة كف عن أن يرى الوشائج التي تربطه باليمن الجديد . وليس وحيداً في تغيير موقفه . فهو والنعمان وصلا إلى نفس النقطة وإن كان من دروب مختلفة . سكن الزبيري في (حزب الله) ، ولجأ النعمان إلى السعودية . انه المصير التاريخي لحركة الأحرار ، التي وصل أحد أعضائها إلى رئاسة الجمهورية بعد انقلاب الخامس من نوفمبر [1967] . وصورت رئاسة الجمهورية الجديدة وكأنها تصحيح لخطأ أسهم فيه عبد الله السلال أحد رجال انقلاب عام 1948.. ومهما كان نجاح الأسطورة المؤقت، فإنها تحول الإنسان الحي إلى شبح ، عندما ينقشع الضباب وتبرز ملامح الصورة الحقيقة. فما أجدرنا بالإسراع في تقديم الصورة الحقيقة بإنصاف ومحبة، يستحقها رجل سقط شهيداً في سبيل أفكاره."[80]**

ماذا نستخلص من هذه الملاحظات حول القاضي الزبيري وحزب الله ؟ يجب علينا ألا نتحرى الكمال في سيرة الزبيري الأدبية والسياسية ، رغم إصرار أنصاره ومريديه على مصداقيته وقدسيته ، باعتباره رجل مبادئ وأهداف . فشخصية الزبيري تستدعي من الدارسين والباحثين المهتمين بتجربة حزب الله ، التعرف عن كثب على الوسط الأسري والقبلي ، ومكانة التكوين الثقافي الديني الذي حصل عليه من ناحية، في وعي الاستلاب الذي فرضه النظام الملكي (الإمامي) عليه وعلى أقرانه من جيل 1948 . ومن ناحية ثانية معرفة الأسباب الموضوعية التي دفعته لمعارضة النظام الجمهوري (العسكري) ، ومن ناحية ثالثة معرفة الدور الإصلاحي الذي كان يتطلع للعبه في عهد السلال .

الخلاصة

وصفوة القول ، علينا أن لا نتحرى الكمال في سيرة الزبيري الأدبية والسياسية ، فهو بشر عرضه للخطأ والصواب ، جاهد بقلمه ولسانه حتى نال الشهادة ، ونصب نفسه رقيباً على الحكام في العهدين الملكي والجمهوري . كانت عملية خروجه على نظام السلال بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير ؛ واختتم حياته الأدبية ، بل وحياته السياسية بقصيدة الكارثة . لكن من الصعوبة بمكان إصدار حكم جاهز مفاده أن خروج الزبيري عن نظام السلال كان خروجاً مطلقاً عن النظام الجمهوري ؛ فكانت الجمهورية نظام سياسي استوعبه ذهن الزبيري وفق تصور فقهي لماهية الولاية العامة، أي الرئاسة ، يسير دفته أهل الحل العقد ، لكنه لم يكن يتطابق تماماً مع تصور الطليعة الثورية الجديدة من العسكريين والمثقفين والتجار من ذوي الميول القومية، الذين استوعبوا في ذهنهم التجربة الناصرية.[81]

فمفهومه للنظام الجمهوري، كما عبر عنه اصدق تعبير في برنامج حزب الله، لا يتعارض مع أهداف ومبادئ الثورة الستة، من حيث أنها تتساوى في أطروحاتها الفكرية مع مبادئ الكتاب والسنة . فالخطوة الأساسية التي باشرها الزبيري في بداية حياته حيث بدأ أديباً صوفياً "فروحانيتي جنى عليها الأدب" ، ثم اصبح شاعراً وطنياً " وأدبي عوقب بالسياسة " [83] وكان مثله الأعلى في الحكم قريباً من المثل الأعلى لدى فقهاء القرون الوسطى،فهو لم يَجِدْ قيد أنملة عن مقولة الحديث الشريف للرسول صلى الله عليه وسلم " الأئمة من قريش" . فاعتبر نظام السلال خروجاً عن إجماع أهل الحل والعقد ؛ لكنه لم يكن يعتقد أن خروجه عن نظام السلال كان بمثابة خروجاً مطلقاً عن النظام الجمهوري.

تقع خلفية اغتيال الزبيري على هامش قصة الصراع على السلطة المحتدم بين المؤسسة القبلية والمؤسسة العسكرية ، باستثناء أن الشخصيات الجمهورية المنشقة ، الذين أعلنوا تضامنهم مع أبي الأحرار ، كانوا قد تشتتوا بفعل الصدمة. [84] فالأزمات الطويلة تفرغ المشاكل المعلقة من مضمونها العقائدي والانفعالي ، وبذلك تقوى نزعة المصالحة على نزعة المواجهة . وقد شغلت المعارضة نفسها بالسؤال الذي قمعته السلطة العسكرية : كيف يمكن تحقيق السلام والمصالحة الوطنية بين أهل اليمن المنقسمين على أنفسهم إلى معسكرين - معسكر جمهوري يؤمن بالثورة والجمهورية قدراً ومصيراً ، ومعسكر ملكي يريد العودة بالإمام إلى سدة الحكم في صنعاء تحت مسميات جديدة ؟ وكانت المحاور الرئيسة للحوار على امتداد الساحة اليمنية تنحصر في قضايا جوهرية : جمهورية بهوية ثورية يتربع على قمتها العسكر ؟ أم دولة اليمن الإسلامية في إطار النظام الجمهوري الشوروي الذي يخضع بدوره لتوجهات أحد فقهاء الزيدية المتسننين ، وذلك طبقا لمعادلة وصاية الفقيه المحتسب في زمن الغيبة للإمام الفاضل أو المفضول، تلك

العقيدة المختزنة في ذاكرة زعامة المعارضة؟ وإذا كان لابد من التمسك بهوية النظام الجمهوري ، كيف يمكن حمايته ، وما هي الوسائل في غياب الدعم الخارجي ؟

كانت تلك التساؤلات المحيرة هي التي برزت على مستوى السطح صبيحة انعقاد مؤتمر خمر للسلام في أبريل 1965 . وثمة أسئلة أخرى تجول في أذهان قادة المعارضة الجمهورية حول مستقبل نظام الحكم في اليمن . فقد نظروا جميعهم إلى نظام السلال على أنه ضرب من الحكم العسكري المقتبس من تجربة الجمهورية العربية المتحدة . أصبحت الجمهورية بالنسبة لهم مجرد شعار مفرغ من محتواه، يرفعه العسكريون في وجه المعارضة الدينية والقبلية، التي رفعت شعار السلام والمصالحة . وقد استقر رأيهم على "تنفيذ المطالب الأساسية التي وضعها شهيدنا العظيم أبو الأحرار اليمنيين الأستاذ محمد محمود الزبيري ورفاقه المستقيلون في 2ديسمبر سنة 1964، وهذه المطالب الأساسية التي يجب أن تقوم الدولة على أساسها:

1- تعديل الدستور .

2- إقامة المجلس الجمهوري .

3- تأليف مجلس الشورى .

4- إعلان قيام تنظيم شعبي شامل .

5- تكوين جيش وطني قوي .

6- تأليف مجلس دفاع وطني .

7-تشكيل محكمة شرعية عليا تتولى محاكمة العابثين بأموال الدولة ومقدرات الشعب." (85)

تعمدنا رصد هذه المسائل وغيرها هنا في الخاتمة ، كما سبق وأن رصدناها في المقدمة، بهدف شحذ همم الباحثين لإعادة النظر في سيرة الزبيري السياسية والأدبية ،

كي يتم الفصل بين الواقع (حزب الله)، والأسطورة (القاضي الزبيري) . وإذا ما تتبعنا رصد هذا الخط السياسي المناهض للمؤسسة العسكرية ، قد يقودنا هذا الاسترسال إلى الشروع في كتابة بحث آخر وثيق الصلة بالسلطة والمعارضة في اليمن المعاصر؛ وهذا الموضوع خارج نطاق بحثنا ودراستنا .

هوامش

(1) يذهب الباحث علوي عبد الله طاهر في كتابه : الزبيري شعره ونثره وآراء الدارسين فيه، ص 72 ، إلى تحديد وفاة الزبيري في يوم 30 مارس من عام 1965 . في حين تشير المصادر إلى أن تاريخ استشهاد الزبيري هو 1 إبريل من عام 1965م / الموافق يوم الخميس 30 ذي القعدة 1385 هـ ، انظر عبد الملك الطيب : التاريخ يتكلم ، ص247 ، وعبد الرحمن طيب بعكر : المجاهد الشهيد محمد محمود الزبيري ، ص 279 .

(2) راجع في هذا الصدد : عبد الستار الحلوجي : الزبيري شاعر اليمن ، ص 42 ، وعبد الله البردوني : من أول قصيدة إلى آخر طلقة ، ص 24 ، وعبد العزيز المقالح : الزبيري ضمير اليمن الثقافي ، ص 23 .

(3) انظر نماذج من هذه الأعمال في دراسة كلٍّ من عبد الرحمن العمراني : الزبيري أديب اليمن الثائر ، ص 244 ، والمقالح : الزبيري ضمير اليمن الثقافي ، ص 158 .

(4) جبل مشهور يقع في الشمال الشرقي من صنعاء على مسافة نحو خمس مراحل، وهو من بلاد همدان ثم من بكيل . انظر محمد بن محمد الحجري : مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج1 ، ص 107 .

(5) عالج بعض جوانب هذا الموضوع - الزبيري الواقع والأسطورة - الباحث محمد عبد السلام في دراسته للواقع اليمني المعاصر: الجمهورية بين السلطنة والقبلية في اليمن الشمالي، ص 100-101 .

(6) في مؤلفات الزبيري وعي عميق بالفكر الزيدي ، راجع على سبيل المثال مساهمته الناقدة للمذهب الهادوي في كتاب الإمامة وخطرها على وحدة اليمن ، ص 7 -8 ، وتلك المقدمة النثرية والشعرية التي خص بهما كتاب (التاج المذهب في أحكام المذهب) لمؤلفه أحمد بن قاسم العنسي ، في مطلع حياته الأدبية وعمره لم يتجاوز العشرين ربيعاً . انظر عبد الرحمن محمد العمراني : الزبيري أديب اليمن الثائر ، ص 141 .

(7) أحمد عبد الرحمن المعلمي : الزعيمان الزبيري والنعمان سيرة نضالية وأحاديث وطنية وقومية موثقه ، ص 44 .

(8) الطيب : التاريخ يتكلم ، سبق ذكره ، ص 93 .

(9) المصدر نفسه ، ص 92 .

(10) المصدر نفسه ، ص 29-93 .

(11) كتاب الرأي العام : أبرز الأحداث اليمنية ، سبق ذكره ، ص 96 .

(12) الرحومي وآخرون : أسرار ووثائق الثورة ، سبق ذكره ، ص 105 .

(13) تعبير سياسي شاع استخدامه في فترة الجمهورية العربية اليمنية لكل عنصر جمهوري يهتف بحياة الثورة ، أو يبدي تعاطفاً ملحوظاً تجاه النظام الجمهوري ، ممثلاً بشخص المشير عبد الله السلال . وثمة تعبيرات مرادفة لهذا التعبير شاعت في عهد القاضي عبد الرحمن الإرياني ، نورد منها على سبيل الذكر ، نعت " لغالفة " و" بُرغال ".

(14) أحمد : الدور المصري ، سبق ذكره ، ص 301 .

(15) لورنس : اللعبة الكبرى ، سبق ذكره ، ص 207 – 208 .

(16) هنري لورنس: اللعبة الكبرى الشرق العربي المعاصر والصراعات الدولية ، ص 207.

(17) عبد الملك المقرمي : التاريخ الاجتماعي للثورة اليمنية ، ص 350 وما تليها .

(18) جرت مناقشة جوانب هذا الموضوع في دراسة الطيب : التاريخ يتكلم، سبق ذكره، ص 150 .

(19) غالباً ما يوصف المجتمع اليمني بالتقليدية والمحافظة ، حول هذه المسألة نحيل القارئ لدراسة علي محمد عبده : الطائفية في اليمن ، ص 30 وما تليها .

(20) انظر كلٌ من سعيد أحمد الجناحي : الحركة الوطنية اليمنية من الثورة إلى الوحدة ، ص 284 ، وسلطان أحمد عمر : نظرة في تطور المجتمع اليمني ، ص 182 .

(21) الحلوجي : الزبيري شاعر اليمن ، سبق ذكره ، ص 40 .

(22) في دراسة البردوني : من أول قصيدة إلى آخر طلقة ، سبق ذكره ، ص 24 ، وعي تام بتجربة الزبيري الشعرية ، وكذا في بحث المعلمي فهم عام لتجربته السياسية، راجع : الزعيمان الزبيري والنعمان ، سبق ذكره ، ص 44 .

(23) انظر كتاب الرأي العام : أبرز الأحداث اليمنية في ربع قرن (إعداد علي محمد العلفي) ، ص 106 .

(24) كتاب الرأي العام: أبرز الأحداث اليمنية في ربع قرن ، سبق ذكره، ص 96–97.

(25) الجناحي : الحركة الوطنية اليمنية ، سبق ذكره ، ص 284 .

(26) انظر نص البيان الصادر عن اتحاد القوى الشعبية حول ملابسات استقالة وزارة أحمد محمد نعمان ، بتاريخ 1/7/ 1965 . في كتاب أحمد يوسف أحمد : الدور المصري في اليمن ، ص 297 .

(27) انظر :

Manfred W. Wenner. Modern Yemen, p. 216.

(28) أحمد يوسف أحمد : الدور المصري في اليمن ، ص 289 .

(29) الطيب : التاريخ يتكلم ، سبق ذكره ، ص 33–34.

(30) راجع عن الخلفية الثقافية والسياسية لجيل (1948) أحمد بن محمد الشامي : رياح التغيير في اليمن ، ص 85 . وأحمد عبد الرحمن المعلمي : الثورة المصرية في الأدب اليمني، ص 26 – 27 .

(31) حول عقيدة الأحرار اليمنيين انظر المراجع التالية : أحمد قائد الصائدي : حركة المعارضة اليمنية، ص 150 وما تليها ، وسيد مصطفى سالم : مجلة الحكمة اليمانية وحركة الإصلاح في اليمن ، ص 53–54 ، والعمراني : لزبيري أديب اليمن ، سبق ذكره ، ص 275، انظر أيضاً :

Zein A. Al-Abdin: " The Free Yemeni Movement (1940-48) And Its Ideas of Reform ", Middle East Studies, Vol. 15, no 1 (January 1979), p. 39 - 40 .

(32) راجع في هذا الصدد : أحمد الصياد : السلطة والمعارضة في اليمن المعاصر، ص 278، وعبد الرحمن البيضاني : مصر وثورة اليمن، سبق ذكره، ص146.

(33) حميد أحمد شحرة: "رائد الحركة الإصلاحية اليمنية الشهيد الزبيري والعمل الحزبي"، بحلة نوافذ ، العدد التاسع (إبريل - مايو 1998) ، ص44 .

(34) الطيب : التاريخ يتكلم ، سبق ذكره ، ص 56 وما تليها .

(35) وزارة الإعلام : وثائق يمنية ، ص 65 .

(36) الخطاط ومعناها الترتيب والتوزيع للقوة على المنازل والقرى، وبحسب أهمية الأشخاص والعشائر، هذا في حال إرسال قوة عسكرية كبيرة، ولكن في حال إرسال ثلة من الجنود نحو العشرة، فكان يسمى (بقاء) ويدوم حتى يستجيب الفلاحون لطلبات الإدارة المركزية . وفي الغالب كانت السلطة تسلط قبيلة ما على أخرى لا لتقضي على شوكتها فحسب، بل ولتمعن في إذلالها وقهرها حتى تذعن لسلطة الدولة، وبالتالي تجدد ولاءها للحكومة ممثلة بشخص الإمام. وكان المقصود من وراء نظام (الخِطاط) هو إخضاع الأهالي ليفسحوا في منازلهم لجنود الحكومة ليقيموا إقامة جبرية وطويلة، حيث تتكفل القبيلة أو القرية باستضافتهم وتقديم ما لديهم من الغذاء والشراب وغيره لهؤلاء الضيوف الثقلاء، الذين لا يبرحوا القرية أو المحل إلا بعد تسليم رهائن للحكومة. (المؤلف)

(37) يقصد بالتنافيذ الإنصياع لمشيئة الدولة، حيث درج موظفي النواحي والأقضية المتواجدين في الأقاليم الزراعية ذات المردود العالي في الإنتاج ، على مضايقة السكان بشتى الطرق ، ومنها ينفذ المأمور أو المسئول الحكومي أحد الجنود بالذهاب إلى أحد منازل القرى في الريف أو المتاجر العامة في المدن، مصطحباً معه أمر إستدعاء (طُلاب)، بهدف تحصيل الزكاة أو ما شابه ذلك من الضرائب ، وغالباً ما يبالغ في تحديد مستحقات الحكومة ، الأمر الذي يدفع بعض الأشخاص المنفذ إليهم الامتناع عن تسديد المبلغ . وفي هذه الحالة يقوم العسكري المكلف بهذه المهمة بـ (التضمير) ، بطلق عيار ناري في الهواء إشارة العصيان والتمرد على السلطات من قبل الشخص المنفذ عليه. ومن ثم يرسل الحاكم أو مأمور الشرطة ثُلة (طقم) من الجنود لإحضاره عنوة ، فيدفع المبلغ المستحق للدولة أضعاف مضاعفة ، بما في ذلك أجرة العسكري والسجان . (المؤلف)

(38) محمد محسن الظاهري : الدور السياسي للقبيلة في اليمن ، ص 136 .

(39) فضل أبو غانم : القبيلة والدولة في اليمن ، سبق ذكره ، ص 150 .

(40) عبد الله بن عبد الإله : نكسة الثورة في اليمن ، ص 148 .

(41) الطيب : التاريخ يتكلم ، سبق ذكره ، ص 80 .

(42) سقط العديد من ضباط الثورة في ظروف معروفة ، والبعض الآخر في ظروف غامضة ، وعلى رأسهم الملازم علي عبد المغني والملازم مثنى الحضيري والملازم محمد مطهر زيد ، الأمر الذي أفسح المجال بالإنضمام إلى عضوية

مجلس قيادة الثورة ومجلس الرئاسة أمام عناصر مدنية وعسكرية لا يربطها رابط وثيق بالطليعة الثورية ، غير تلك المساعدات المالية التي قدمها بعض تجار مدينة تعز لخلايا تنظيم الضباط الأحرار قبل قيام الثورة بشهور محدودة. وقد استطاع السلال والبيضاني أن يجعلا من المجلسين أداة تنفيذية طيعة لتحقيق طموحهما الشخصية، وبالتالي أن يمليا شروطهما على رجال الثورة. راجع مذكرات عبد الله جزيلان : التاريخ السري للثورة اليمنية، ص 170 . وأحمد الرحومي وآخرون: أسرار ووثائق الثورة، ص 96، وعبد الغني مطهر: يوم ولد اليمن مجده، ص 112-113.

(43) ناجي علي الأشول : الجيش والحركة الوطنية في اليمن ، ص 268 .

(44) الحلوجي : الزبيري شاعر اليمن ، ص 104 - 105 .

(45) رياض القرشي : شعر الزبيري بين النقد الأدبي وأوهام التكريم ، ص 106 .

(46) نشير هنا إلى رؤية جيل (1948) لمفهوم الثورة والجمهورية والعمل السياسي كما جسدته تجربة الزبيري ومشروع حزب الله في اليمن - راجع مقالة أبو بكر السقاف: " الزبيري شاعرا ومفكرا " ، في كتاب الزبيري شاعرا ومناضلا ، ص 32 وما تليها .

(47) يعكس هذا المصطلح السياسي وجود معارضة قوية أطلقت على نفسها ، تارة تسمية (حزب الشورى) ، وتارة أخرى تسمية (اتحاد القوى الشعبية)بزعامة أسرة الوزير التي شارك رجالاتها في أحداث الحكومة الدستورية في 17 شباط من عام 1948 . وقد ضم هذا الائتلاف السياسي عدداً لا بأس به من الساسة المخضرمين من جمهوريين وملكيين ، ممن أعلنوا انشقاقهم عن النظامين : الجمهوري (مجلس قيادة الثورة) ، والملكي (مجلس الإمامة) . ويرى اتباع هذا التيار أن الحل الأمثل للمشكلة اليمنية هو إفساح المجال للعناصر المستقلة في بحث أسباب الأزمة وتقديم الحلول الناجعة لها ، كالأخذ مثلاً بفكرة قيام دولة اليمن الإسلامية ، بدلاً من النظامين الإمامي الملكي الاستبدادي والنظام الجمهوري العسكري . انظر جلوبوفسكايا إيلينا . ك . التطور السياسي للجمهورية العربية اليمنية ، ص 77 .

(48) أبو غانم : القبيلة والدولة ، سبق ذكره ، ص 327- 328 .

(49) إيلينا : التطور السياسي للجمهورية العربية اليمنية ، سبق ذكره ، ص 77 .

(50) الطيب : التاريخ يتكلم ، سبق ذكره ، ص 154 .

(51) في هذه الفقرة ، يندب الزبيري هنا علماء المؤسسة الإمامية الذين تعرض بعضهم للتصفية الجسدية في الأيام الأولى من قيام الثورة ، حيث أصدرت محكمة أمن الثورة حكم الإعدام في حق بعضهم دون محاكمة عادلة . راجع كلاً من الطيب : التاريخ يتكلم ، سبق ذكره ، ص 155 ، والمقابلة الصحفية التي أجراها صادق ناشر مع " العميد يحيى المتوكل في شهادة يمنية استثنائية " ، في صحيفة الأيام ، العدد 3257 (6 يناير 2001 / الموافق 11 شوال 1421) ، ص 5 .

(52) الطيب : التاريخ يتكلم ، سبق ذكره ، ص 156 .

(53) المصدر نفسه ، ص 159 .

(54) انظر :
Mohammed A. Zabarah: Yemen Traditionalism vs. Modernity, p. 98.

(55) يمكن العودة لأهم خطب الزبيري السياسية ، لا سيما تلك الخطبة النارية ، الناقدة للأوضاع في اليمن التي ألقاها بحضور الزعيم جمال عبد الناصر في ميدان التحرير بصنعاء - في شهر إبريل عام 1964 . انظر ذلك في كتاب العمراني : الزبيري أديب اليمن ، سبق ذكره ، ص 444 - 445 .

(56) يرى اتباع هذا التيار أن الحل الأمثل للمشكلة اليمنية هو إفساح المجال للعناصر المستقلة في بحث أسباب الأزمة وتقديم الحلول الناجعة لها ، كالأخذ مثلاً بفكرة قيام دولة اليمن الإسلامية، بدلاً من النظامين الإمامي الملكي الاستبدادي والنظام الجمهوري العسكري الدكتاتوري . الصياد : السلطة والمعارضة في اليمن المعاصر ، سبق ذكره ، ص 295 .

(57) تساعدنا هذه القصيدة السينية على فهم ملابسات اغتيال الشاعر الزبيري ، وهي القصيدة اليتيمة التي نظمها في العهد الجمهوري ، في حين تميز إنتاجه الأدبي بالغزارة والإبداع في العهد الإمامي . ولعلها كانت بمثابة السهام الجارحة التي سددها إلى صدر خصمه اللدود السلال ، وفي مطلعها يقول :

هذا هو السيف و الميدان و الفرس و اليوم من أمسه الرجعي ينبجس

و البدر في الجرف تحميه حماقتكم و انتم مثلما كنتم له حرس

انظر نصوص القصيدة كاملة في المراجع التالية : أحمد الشامي : نفحات ولفحات من اليمن ، ص 510 ، والطيب : التاريخ يتكلم ، سبق ذكره ، ص 43، والقرشي في كتابه: شعر الزبيري ، سبق ذكره ، ص 107 .

(58) الطيب : الثورة والنفق المظلم ، ص 25 .

(59) تكرر استخدام عبارة (الخروج) بشكل ملفت للنظر في بيان حزب الله الصادر في شهر مارس من عام 1965 ، في كتاب الطيب : التاريخ يتكلم ، سبق ذكره ، ص 19-24. والخروج من وجهة نظر الزبيري ، لم يكن خروجاً مكانياً وزمانياً ونفسياً ، وإنما خروجاً عقائدياً ، أي ثورة على الثورة ؛ أو كما يؤكد المقالح تلك الفكرة العقلية التي نشأت وترعرعت في الفكر الزيدي فأعطته طابعاً ثورياً " فهي تعني في الأساس الخروج على الحاكم الجائر .. والخروج حتى على المذهب نفسه .. " انظر المقالح : قراءة في فكر الزيدية والمعتزلة ، ص30-31 ، وأحمد محمود صبحي : في علم الكلام دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية في أصول الدين ، (ج3 - الزيدية)، ص 460 .

(60) الأشول : الجيش والحركة الوطنية في اليمن ، سبق ذكره ، ص 268 .

(61) الطيب : التاريخ يتلكم ، سبق ذكره ، ص 24 .

(62) أحمد جابر عفيف : الحركة الوطنية في اليمن ، ص 241 .

(63) الطيب : التاريخ يتلكم ، سبق ذكره ، ص 21 .

(64) المصدر نفسه .

(65) يعارض الشامي بشدة في دراسته : من الأدب اليمني ، ص 108، قول البردوني بأن الزبيري توقف عن الإنتاج الشعري في فترة الجمهورية اليمنية؛ وهذا القول يستشهد به العمراني في بحثه : الزبيري أديب اليمن الثائر، سبق ذكره ، ص 431 . في حين يذهب معظم الدارسين المهتمين بشعر الزبيري ، أنه فعلاً قد توقف عن الإنتاج الأدبي، انظر : الحلوجي: الزبيري شاعر اليمن ، سبق ذكره ، ص 104 ، وعبد الباري طاهر : الزبيري شعره ونثره، سبق ذكره ، ص 72 - 73 ، ومناقشة القرشي لكافة الآراء حول هذه المسألة : شعر الزبيري ، سبق ذكره ، ص 106 - 107.

(66) العمراني : الزبيري أديب اليمن ، سبق ذكره ، ص 413 .

(67) المصدر نفسه ، ص 413 - 421 .

(68) المصدر نفسه ، ص 424 .

(69) الطيب : منهج الزبيري في الإصلاح والحكم ، ص 48 - 49 .

(70) المصدر نفسه ، ص 20 .

(71) حنفي : الدين والثورة في مصر 1952 - 1981 ، (ج1 - الدين والثقافة الوطنية) ، ص 193 .

(72) المقالح : الزبيري ضمير اليمن ، سبق ذكره ، ص 158 .

(73) الخيال الأدبي مسئول أيضاً عن ظاهرة الغلو عند تطرقها لسيرة الزبيري السياسية والثقافية، كما تدل على ذلك كتابات بعض الأدباء والكتاب اليمنيين في تبريرهم لخروج القاضي عن الثوابت الوطنية (أهداف الثورة الستة) التي أبتدت تجلياتها في تحليل أبعاد التدخل المصري في اليمن وردة الفعل المحلية - العقدة اليزنية . راجع المقالح : عبد الناصر واليمن ، سبق ذكره ، ص94، وبعكر : المجاهد الشهيد محمد محمود الزبيري، سبق ذكره، ص239 .

(74) انظر كلاً من عبد الرحمن عبد الواحد الشجاع : تاريخ اليمن في الإسلام حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، ص 151 ، وحسن خضيري أحمد : قيام الدولة الزيدية في اليمن ، ص 96 .

(75) القرآن الكريم : سورة المجادلة ، الآية (19) ، وسورة المائدة ، الآية (56) .

(76) يصدق الكلام على مجمل قصائد الزبيري الهجائية لرموز المؤسسة العسكرية ، كما في قصيدة (الكارثة) ، أو في قصيدة أخرى حيث أنشد قائلاً :

و العسكري بليد للأذى فطن - - - كأن إبليس للطغيان رباه

انظر العمراني : الزبيري أديب اليمن الثائر ، سبق ذكره ، ص 56 .

(77) البردوني : من أول قصيدة ، سبق ذكره ، ص 28 .

(78) انظر نص رسالة القاضي الزبيري الموجهة للسفراء العرب المقيمين بصنعاء ، في كتاب الطيب : الثورة والنفق المظلم ، سبق ذكره ، ص 15 .

(79) المصدر نفسه .

(80) عبد السلام : الجمهورية بين السلطنة والقبيلة في اليمن ، سبق ذكره،ص 100-101 . (81) إيلينا : التطور السياسي للجمهورية العربية اليمنية ، سبق ذكره ، ص 61 .

(82) الصياد : السلطة والمعارضة ، سبق ذكره ، ص 299 وما تليها .

(83) الزبيري : ثورة الشعر ، سبق ذكره ، ص 6.

(84) انظر :

Tom little. South Arabia Arena of conflict, p. 144.

(85) جاءت قرارات وتوصيات مؤتمر خمر (1965) متطابقة تماماً مع قرارات وتوصيات مؤتمر عمران (1963) . وكان القاضي الزبيري يرى بأن انعقاد مثل هذا المؤتمر الشعبي يمكن له أن يضع حداً للحرب الأهلية في البلاد، تمهيداً لانسحاب القوات العربية من اليمن، ويشاركه في هذا الرأي عدد كبير من الساسة اليمنيين المنخرطين في ائتلاف القوى الثالثة . انظر كلٌ من محمد أحمد محجوب : الديمقراطية في الميزان ، ص 159 ، وراجع :

Robert W. Stookey. Yemen The Politics Of the Yemen Arab Republic, p. 284.

النوع الإجتماعي والتنشئة الإجتماعية في اليمن

د. حمود العودي

المفاهيم والمصطلحات المتعلقة بالنوع

1. مدخل

المفاهيم والمصطلحات المتعلقة بالنوع من أكثر المفاهيم حداثة وإثارة ،وبالتالي عـدم الاستقرار والثبات النسبي على الأقل، خصوصاً ما يتعلق من ذلك بوعي وثقافة العـالم

العربي والإسلامي، ذلك أنه بالرغم من قدم وشيوع مفاهيم الجنس والنوع المرتبطة بقدم وجود البشر أنفسهم من ذكور وإناث ورجال ونساء وبنات وأولاد وآباء وأمهات وشباب وشابات وأزواج وزوجات .الخ ،إلا أن الجدل المحتدم حالياً لم يبد إلا مع أواخر سبعينات القرن المنصرم حول المضامين والوظائف والأدوار المتعلقة بمثل هذه المفاهيم ومن منطلق الدعوة للانحياز المباشر أو الضمني لتعزيز موقف المرأة وحقوقها بصفة عامة في المجتمع المعاصر. وباعتبار أن هذه الدعوة المتعلقة بحقوق المرأة ودورها في التنمية قد انطلقت مؤخراً من عمق الحداثة الأوربية الأمريكية بصورة أقرب ما تكون إلى الفرقعة السياسية منها إلى الرؤية الاجتماعية العلمية الرصينة ، فقد عكست نفسها بصورة أكثر حدة وفاعلية في أنشطة الهيئات والمنظمات الدولية والعلاقات الثنائية بين الدول الصناعية والدول النامية وفي سياق مفهوم محوري واحد يختصر في نطاقه كل المسميات والمفاهيم السابقة وهو مفهوم (الجندر gender) الذي يعني لغةً ومفهوماً (الجنس) المتعلق بمكونات الذكورة والأنوثة بالدرجة الأولى . فهذه عزة بيضون وهي من أشهر المهتمين بقضايا المرأة والجندر تؤكد بأن مفهوم الجندر قد استعير من البيلوجيا وأن **"الجندر هو الوجه الاجتماعي الثقافي للانتماء الجنسي"**[1] كما يعرف (BAIRD,D) الجندر بأنه: **"الهوية الجنسية للفرد كذكر أو كانثى ،كما تحددها الثقافة والمجتمع"**، ويتبنى هذا التعريف عبده مطلس في مقدمة بحثه القيم عن الصور النمطية والجندر في كتب القراءة والتربية الاجتماعية والوطنية في مرحلة التعليم الأساسي في اليمن ونقل عنه[2]. وفي الندوة المعمقة التي عقدت في عَمّان في الفترة من 5-7يوليو 1999م حول جندرية السكان قدمت فايزة بن حديد الكثير من تفاصيل مفاهيم الجندر والتي تكرس المفاهيم السابقة التي تنطلق من العوامل البيلوجية والنفسية كمحددات أساسية لمفهوم الجندر ثم العوامل والمحددات الاجتماعية والثقافية كمترتبات لاحقة للجنس والنوع البيلوجي أساساً[3].

ومن هذه التعاريف والمفاهيم تتم عملية اشتقاق كل المضامين والدلالات الاجتماعية الأخرى للوظيفة والدور والمكانة...الخ، من منطلق نفي الفروق أو اختلاف

القدرات بيلوجيا بين الجنسين وبالتالي رفض التمييز والفروق الاجتماعية بصفة عامة ووظائف الدور والمكانة على وجه الخصوص ، بل والميل الأيديولوجي غير المباشر أحياناً لتكريس فروق اجتماعية لصالح المرأة .

وقد قوبل هذا المفهوم في معظم بلدان الشرق النامية والعربية والإسلامية منها على وجه الخصوص بحساسية بالغة ،لا بالنسبة لجوهر الهدف الرامي إلى تعزيز موقف المرأة وحقوقها ودورها في المجتمع والتنمية فقط ، بل بالنسبة لطبيعة هذا المفهوم غير المقبول في منظومة قيم وثقافة المجتمعات الشرقية كمدخل لدراسة ومعالجة هدف مقبول وأصيل في تراث وثقافة هذه المجتمعات ،بل ومطبق أكثر بكثير من أصالته وتطبيقه في تاريخ وتراث وثقافة الغرب الأوربي الأمريكي الذي يطلق اليوم هذه الدعوة الطيبة لصالح المرأة وبهذه الطريقة الأقرب إلى الأيديولوجيا السياسية منها إلى العلم ،وبحسن نية أو غيرها .

وقد تجلى الجدل الثقافي حول هذه المسألة في كل المؤتمرات والفعاليات الدولية المتعلقة بالمرأة، وأهمها مؤتمر بكين عام 1995م ومؤتمر القاهرة 1994م والتي تمخض عنها مفهوم مقابل أو موازٍ (للجندر والجندرة) هو مفهوم (النوع) . إلا أنه بمقدار ما أعتبر مفهوم الجندر كمفهوم للجنس بدلالته البيولوجية أولاً والاجتماعية ثانياً، فقد ظهر كفرقعة سياسية غربية، وأشبه ما يكون بتهمة ثقافية واجتماعية لما دون الغرب الأوربي والأمريكي من مجتمعات البلدان النامية باعتبارها بلداناً تتسم بالتخلف الثقافي الجنسي واضطهاد المرأة. إلا أن مفهوم النوع الذي يتم الترويج له كمفهوم بديل في المجتمعات العربية والإسلامية على الأقل، واليمن واحد منها قد جاء بمثابة رد فعل تجاه الآخر أكثر منه فعلاً علمياً وموضوعياً مكتملاً وذا دلالة واضحة ومختلفة عن مفهوم الجندر أو (شعار الجندرة) بل إنه لا يتعدى بالنسبة للكثير من المهتمين والمعجبين (بالجندرة) أكثر من مجرد ترجمة الكلمة الجندر GENDER الإنجليزية، أو مجرد غطاء شكلي للتستر على ما قد لحق بمفهوم (الجندر من سوء السمعة) في المنطقة العربية والإسلامية بالذات.

وأفضل الاتجاهات انتفاعاً بهذا المفهوم هو الاتجاه الذي يؤكد بأن مفهوم (النوع) هو شيء آخر مختلف شكلاً وموضوعاً عن مفهوم (الجندر). أما ما هو هذا الشكل وما هو هذا المضمون فهو ما لم يتضح بعد، وهو ما نحاول إيضاحه بالنسبة لهذا المفهوم الأكثر دلالة وملائمة في تقديرنا لمقتضيات ثقافتنا وظروفنا وخدمة وتطوير مجتمع النساء والرجال (كنوع اجتماعي) بصفة عامة ،ودراسة قضايا وهموم كل منهما وعلاقته الاجتماعية بالآخر، بدلاً من مفهوم الجندر أو الجنس (كنوع بيلوجي) مع التركيز على مفاهيم النوع الاجتماعي الجزئية من نساء ورجال، وأمهات وأباء وبنات وبنين، وشباب وشابات الخ ويمكن تعريف وتحليل مفاهيم النوع البيلوجي والنوع الاجتماعي كمفاهيم أكثر دقة وموضوعية على النحو التالي:

أولاً : مفاهيم ومصطلحات النوع البيلوجي والنوع الاجتماعي

1. النوع البيلوجي

وهو المعنى اللغوي والموضوعي للذكورة والأنوثة بكل ما تعنيه هذه الكلمات من معنى وخواص بيلوجية وعضوية ،وكل ما يتصل بها من وظائف التناسل والتكاثر الناجمة عن العلاقة الجنسية بين الذكر والأنثى وخواص الاختلاف والتمايز العضوي المتعلق بذلك. وهو المفهوم اللغوي والموضوعي المعترف به والمقر شرعا وقانونا في ثقافتنا العربية والإسلامية، وهو نفس المعنى ونفس الدلالة التي يشير إليها مفهوم (الجندر GENDER) باللغة الإنجليزية والثقافة الأوربية جوهريا[4] رغم كل ما يتم تحميله من خواص ومضامين اجتماعية أخرى في ثقافة الشرق والغرب على السواء هي مصدر الالتباس وسوء الفهم القائم، فلم تكن ثقافة الغرب هي وحدها التي تتجاوز بهذا المفهوم حدود الجنس وخواص ووظائف الذكورة والأنوثة إلى مفاهيم اجتماعية أخرى كالأمومة والأبوة

والدور والوظائف الاجتماعية، فنحن كذلك في ثقافتنا ومجتمعاتنا العربية والإسلامية نستخدم مفهوم الذكر والأنثى كدلالات اجتماعية واقتصادية في مجال العمل والتعليم والصحة والسكان وكل ذلك خطأ، فمفهوم الذكر والأنثى مفهوم بيولوجي خلقي بحت لا علاقة له بالمفاهيم الاجتماعية المكتسبة كمفهوم رجل وامرأة وشاب وشابة ...الخ بما في ذلك مفهوم الأبوة والأمومة والبنوة التي يتم إكتسابها بالنسبة لمولودهما الطبيعي أو بالنسبة لمولود آخر لم يلدانه هما بيلوجياً، وذلك ما ينبغي مراعاته في الاستخدام اللغوي والموضوعي لهذا المفهوم المتعلق بالنوع البيلوجي كمفهوم للدلالة على الأنوثة والذكورة ووظائفهما البيلوجية الثابتة. كما ينبغي التمييز كذلك بين مفهوم النوع البيلوجي الذي ينصرف إلى مجمل الخواص والوظائف المميزة لكل من الذكورة والأنوثة من حمل ورضاعة وتكوين عضوي الخ بخلاف مفهوم الجنس الذي ينصرف فقط إلى إحدى هذه الخواص المتعلقة بالنكاح والعلاقة الجنسية البحتة.

2. النوع الإجتماعي

وهو ما يمكن تحديد دلالته اللغوية ومضمونه الموضوعي بكل ما هو اجتماعي مكتسب من خواص الاتفاق والاختلاف بين الناس من الذكور والإناث وبين والإناث والذكور من تنوع وتعدد الأدوار والوظائف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية،لا من منطلق النوع البيولوجي وبالاستناد إليه قط والذي لا علاقة له البتة بأية محددات اجتماعية مسبقة لأي دور أو وظيفة اجتماعي لاحقة لأي ذكر كذكر أو أنثى كأنثى، بل من منطلق مبدأ تقسيم العمل الإجتماعي بكل ما لهذه الكلمة من معنى ،بما في ذلك مفاهيم الرجل والمرأة والأم والأب والجد والجدة والشاب والشابة...الخ وليس بمجرّد الجدل حول العمل المنزلي والحقلي ...الخ باعتبارها وظائف وأدواراً اجتماعية لا علاقة لها بالوظائف البيولوجية لنوع الذكورة والأنوثة ،وباعتبار أن وظائف الذكورة والأنوثة هي وظائف بيولوجية ثابتة وغير قابلة للتغيير، في حين أن كل ماعداها من

وظائف النوع الاجتماعي هي وظائف وأدوار مكتسبة إجتماعيا وقابلة للتغيير والتبادل بغير حدود وبلا استثناء.

ويوجد لهذا التوصيف المفهومي (للنوع الاجتماعي) رغم ما قد يمثله من مفاجأة جديدة-ما يبرره ويؤصله في عمق ثقافتنا العربية والإسلامية بوضوح لا يحتمل أدنى شك، فكل الآيات القرآنية الكريمة التي ورد فيها ذكر الأنثى والذكر قد اقترنت دلالاتها وأحكامها بالأدوار والوظائف البيولوجية للنوع البيولوجي، قال تعالى: ((إنا خلقناكم من ذكر وأنثى))[5] و لم يقل من رجل وامرأة أو شاب وشابة ،باعتبار الخلق والتكاثر صفة ووظيفة بيولوجية ثابتة للنوع البيولوجي بينما الرجل والمرأة ة والشاب والشابة صفات اجتماعية مكتسبة ومتغيرة. قال تعالى ((يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين))[6]. و لم يقل للرجل مثل حظ المرأتين إمعانا في ربط الحقوق بما هو ثابت وغير متغير لا بما هو مكتسب وقابل للتغيير.

ذلك ما يتعلق بما هو بيولوجي ثابت أما ما يتعلق بما هو مكتسب ومتغير من خواص (النوع الإجتماعي) فالله سبحانه وتعالى يقول في سورة النمل على لسان الهدهد ((إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم))[7]. و لم يقل إني وجدت أنثى تملكهم باعتبار أن السلطة والحكم صفة ووظيفة اجتماعية مكتسبة ومتداولة بين الذكور والإناث كنساء ورجال وليست وظيفة بيولوجية مقتصرة على أي منهما ،وعلى هذا فقس وتدبر لغة القرآن الكريم باعتبار دقتها وبلاغتها هو جوهر الإعجاز فيه ، كما أن الخطاب العام في القرآن الكريم واللغة العربية بصفة عامة للمسلمين والأمة والشعوب والقبائل والمؤمنين والناس والعباد وبني آدم .الخ هو خطاب عام للنوع الاجتماعي بصفة عامة ووظائفه وخواصه الاجتماعية وليس للنوع البيولوجي المتعلق بالذكورة والأنوثة وذلك ما يتضح أكثر في البنود اللاحقة.

توصيف وتحليل تنشئة النوع الاجتماعي

من أجل الوصول إلى رسم صورة توصيفية وتحليلية دقيقة لمظاهر وأشكال النوع الاجتماعي المتعلق بالاختلاف والتمييز الاجتماعي بين الرجال والنساء في الأدوار والوظائف الاجتماعية وصولاً إلى تحليل مضمون هذه الصورة المتعلقة بالنوع الاجتماعي ككل في المجتمع اليمني كان لا بد من اختيار بعض المتغيرات الاجتماعية الأساسية التي يمكن توصيف وتحليل النوع الاجتماعي من خلالها وفي ضوئها ، وقد وجدنا أن متغيري التنشئة الاجتماعية والدور الاجتماعي هما أفضل المتغيرات الاجتماعية وأكثرها قدرة على تمكيننا من الوصول إلى الهدف المنشود من هذه الدراسة ، وباعتبار أن منظومة القيم والمعايير الاجتماعية المتعلقة بأساليب وطرق وآليات تنشئة الكبار للصغار بدءا بالأسرة ومرورا بالمدرسة وانتهاء بالمجتمع هي التي تلعب الدور الحاسم في بناء شخصية الإنسان ذكرا كان أم أنثى، وهي المرحلة الحياتية التي تبدأ منذ اللحظات الأولى للولادة وحتى سن الثامنة عشرة، وهي التي يكتسب فيها جنس الشخص ذكرا كان أم أنثى صفات نوعه الاجتماعي كطفل وطفلة وولد وبنت وشابة وشاب وامرأة ورجل، أويتم إكسابها له على الأصح عن طريق التنشئة الاجتماعية المختلفة والمتمايزة بين الجنسين بيولوجيا كذكور وإناث لتصبح اختلافا وتمايزا غير مبرر لمكونات النوع الاجتماعي الواحد كبشر وهذا ما سيتم عرضه وتحليله في هذه الدراسة.

مؤسسات تنشئة النوع الاجتماعي

يمكن النظر إلى الأسرة والمدرسة ومجتمع الجوار أو البيئة الاجتماعية والثقافية المحيطة باعتبارها، عن يقين علمي، هي المؤسسات الرئيسية لتنشئة النوع الإجتماعي، والتي يتم من خلالها اكتساب الأشخاص إناثا كانوا أم ذكورا هوياقم الاجتماعية المحددة كأولاد وبنات ورجال ونساء بل وتحديد وظائفهم وأدوارهم المستقبلية في الحياة كأزواج

وزوجات وآباء وأمهات وقادة وأتباع بما في ذلك التقسيم الصارم للعمل داخل وخارج المنزل بناء على ذلك . ولذلك فإنه سيكون من المفيد رصد وسائل وآليات تنشئة النوع الاجتماعي وتحليلها في نطاق كل مؤسسة على حدة وحسب الترتيب التاريخي للتنشئة بدءا بالأسرة ومرورا بالمدرسة وانتهاء بالمجتمع وعلى النحو التالي:

أولا :آليات ووسائل تنشئة النوع الاجتماعي في الأسرة

إذا كان المشتغلون في مجال الطب العلاجي يؤكدون أن الأفراد كمواليد صغار أو أناس كبار فيما بعد يكتسبون العديد من الأمراض عن طريق آبائهم وأمهاتهم قبل الولادة فإن الاجتماعيين والنفسيين كذلك يرون بأن الأشخاص يكتسبون ما يدور حول نفس النسبة في بناء شخصيتهم وأساليب تصرفهم اللاحق قبل ولادتهم عن طريق تصرفات وأساليب سلوك آبائهم وأمهاتهم أثناء الحمل وقبل أن يلدوهم بصورة غير مباشرة. أما بعد الولادة ومنذ اللحظات الأولى للولادة فإن منظومة هائلة لا نهائية من آليات وأساليب التنشئة الاجتماعية تبدأ فعلها المباشر في المولود بصورة مباشرة وغير مباشرة بدءا بمشاعر الارتياح أو عدم الارتياح المعلن وغير المعلن الذي يقابل به النوع البيولوجي المولود ذكرا كان أم أنثى مرورا بنوع الملابس والاسم ومفردات لغة التخاطب معه والممارسات السلوكية إزاءه ،والموضحة باختصار فيما يلي:

1. مشاعر استقبال نوع المولود .

المشاعر التي يستقبل بها الكبار من أفراد الأسرة لمولودهم طبقا لنوعه البيولوجي هي بمثابة الدرس الأول والمباشر الذي يتلقاه المولود ضمن السلسلة اللانهائية اللاحقة من وسائل وآليات التنشئة الاجتماعية وبحسب نوعه البيولوجي ذكرا كان أم أنثى ،حيث يتملك الأبوين والمحيطين مشاعر الفخر والارتياح حينما يكون المولود ذكرا خصوصا حينما تكون الولادة لأول مرة،وحتى في حالة تعدد ولادات الذكور دون الإناث فإنها

لا تصاحب قط في ثقافتنا العربية بأية مشاعر من الاستياء أو عدم الرضى وهذا بخلاف استقبال مولود الأنثى الذي لا يتوقف الأمر فيه على التعبير عن المشاعر المباشرة بالاستياء بل إنه في حالة تعدد ولادات الإناث دون الذكور ينتهي الأمر إلى الطلاق أو الزواج من أخرى بحثا عن مولود ذكر. وفي كل الأحوال فإنه لا يقابل بنفس المشاعر التي يقابل بها ميلاد الولد سوى عندما تكون الولادة الأولى أو عندما تكون البنت هي الولادة المطلوبة بعد عدد من ولادات الذكور، والتي يتم فيها استقبال المولودة بدرجة أكثر اهتماما ورضا ولكن ليس بفرحة استقبال الولد في كل الأحوال، رغم أن مشاعر عدم الرضى تجاه ميلاد البنت كثيرا ما تتحول بمرور الوقت الى العكس في اتجاه الاعتدال إلى حد ما.

والغريب في الأمر هو أن مشاعر النساء الكبيرات بدأ بالأم الوالدة نفسها لا يختلف قط في ممارسة هذا الموقف الشعوري غير المنصف وغير المبرر علميا وإنسانيا والذي لا يمكن تفسيره بأقل من كونه بقية من جاهلية قديمة عن موقف الرجال تماما، وربما تتجاوز النساء موقف الرجال في هذه المسالة في كثير من الأحيان. وهذه المشاعر هي بمثابة التأسيس الأول للتنشئة الاجتماعية غير المتكافئة بين الذكور والإناث وأسسها الأولى، مع العلم أن هذا الموقف ككل هو في حالة تراجع تاريخي وثقافي ملحوظ ، حيث تشير الدراسة الحديثة في هذا الصدد الى انه:

> **"فيما يتعلق بنوع الأطفال الأكثر تفضيلا من الذكور أو الإناث فان ((73.7 % من مجموع عينة الدراسة لا يرون فرقا أو أفضلية بين الذكور والإناث مقابل 20.7 % فقط يفضلون الذكور و5.6% يفضلو:، الإناث" [8]**

رغم أن هذا الموقف المعلن قد يكون هـ أكثر مبالغة نحو نزعة المساواة من الموقف العملي غير المعلن بكل تأكيد بدليل أن السؤال غير المباشر عن أسباب تفضيل المولود الذكر على الأنثى في نفس الدراسة قد استجاب له 76.9% من العينة معللين ذلك بأنهم

عزة عند العجز وجاه ومكانة بين الناس ومصدر لمساعدة الأسرة في العمل[9]. وإن كـلن هذا الموقف قد تغير نسبيا في أوساط المتعلمين والمثقفين إيجابيا بالنسبة للأوســاط غــير المتعلمة أو الأقل وعيا وثقافة .

2. الملابس

كما أن الملابس المعدة للمولود ربما يكون قد تحدد نوعها سلفا قبل الولادة وقبــل علم الأسرة بالمولود وعما إذا كان أنثى أم ذكرا وذلك بحسب رغبة الأبوين والأقــارب في نوع المولود المرغوب، فإذا كان الجنين المرغوب أنثى أعدت الملابس المحددة للبنــت وإذا كان الجنين المرغوب ذكرا أعدت ملابس الولد وهو الغالب. وحتى في حالة مجـيء المولود بعكس ما توقعته الأسرة وترغب فيه كأن تأتي أنثى والمرغوب ذكر فإنه ســرعان ما يتم تغيير الملابس بما يتناسب مع النوع البيولوجي للطفل الوليد. هو أول إجراء مباشر للآليات ووسائل تنشئة النوع الاجتماعي وتكريس الاختلاف والتمييز في هذه التنشــئة بين الذكور والإناث كرجال ونساء.وفيما يشبه عملية الإسقاط غير القابل للتفكــير أو المناقشة على عملية اختلاف وتمييز النوع البيولوجي بين الذكر والأنثى بحيث تصبــح عملية التمييز في الملبس كتصرف اجتماعي جزءا لا يتجزاء من الاختــلاف والتمــيز البيولوجي بين الذكر والأنثى، وهذا الأسلوب في التعامل والتفكير تجاه جنس المولــود يعزز أساليب التعامل اللاحق معه كطفل ثقافيا .

3. الاسم ولغة التخاطب.

وكذلك هي الحال بالنسبة لاختيار الاسم خلال الأيام أو الأسبوع الأول أو الثــاني من آلية ومنظومة الأسماء المخصصة للذكور والأسماء المخصصة للإناث وعدم التداخــل فيما بينها.ويتم ذلك على معرفة الأب غالبا أو بموافقته على الأقل كما أن لغة التخاطب مع المولود ومفرداتها المؤنثة أو المذكرة غالبا ما تكون قد بدأت قبــل اختيــار الاســم

ونـــوع الملابس وربما قبل الولادة، فكثيرا ما تخاطب الأمهات و الآباء بل و الأقـــارب الجنين بمفردات النوع البيولوجي الذي يرغبون فيه طوال فترة الحمل، خصوصا عندمـــا يكون هو الحمل الأول أو بعد فترة انتظار طويلة من عدم وقوعه، فكثيرا ما تدعـــي الأم الحامل قدرتها على التمييز بين حركات جنين الأنثى و جنـــين الذكـــر في بطنـــها، أو بمساعدة و خبرة صاحباتها ممن يكبرنها سنا أو معارفها ، ويقوم الجميع باستمرار بمخاطبة الجنين في بطن أمه بالكثير من التعليمات و الأوامر و النواهي و التعبير له عن الرضى، أو عدم الرضى عن حركاته في رحم أمه وغالبا ما يتم هذا الخطاب بالاســـم المباشـــر و المرغوب. سلفا قبل ولادته. كما أن الأم والأب غالبا ما يخاطبان باسم مولودهما المنتظر كالقول "يا أم أحمد" و "أبو حسام". أما بعد الولادة فحدث ولا حرج، حيث لا تتـــم عملية التخاطب مع المولود بكثرة و بلغة المذكر و المؤنث بحسب نوعه البيولوجي وكما لو كان يعي و يدرك كل شئ من حوله فحسب بل يتم تضمين مفردات هذا الخطـــاب العديد من الأوامر و النواهي و منظومات القيم و المعايير الأخلاقية و الاجتماعية المتعلقة بجنسه البيولوجي، وإعطائه فكرة دقيقة عن نفسه كذكر أو أنثى و ما ينبغي عليه الالتزام به من آليات السلوك و التصرف بناء على ذلك كرجل أو امرأة في المستقبل.

و الأمر هنا لا يتعلق بخطأ ثقافة هذا الخطاب اللغوي قبل وبعد الولادة وبعدها فـــهو مهم ومفيد، بل يتعلق الأمر بخطأ قيامه على التمييز الاجتماعي الذي يتجاوز الاختلاف البيولوجي، و لم يكن ليتوقف الأمر على نوع الخطاب اللغوي تجاه المولود قبل و بعـــد ولادته المبني علي التمييز حسب النوع البيولوجي الواقعي و الثابت كأنثى أو ذكر، بـــل و ما يضيفه المجتمع من صفات التمييز الاجتماعي المكتسبة و المتغـــيرة مـــن المعـــاني و الدلالات اللغوية و السلوكية التي يلحقها المجتمع (تعسفا) بالأنثى كبنت وامرأة وزوجة و أم، وبالذكر كولد وشاب وزوج ورجل ، دون أن يكون لمثل هذه الصفـــات ومـــا يترتب عليها من الوظائف والأدوار الاجتماعية اللاحقة أية علاقة موضوعية حقيقيـــة

بنوعه البيولوجي سواء ما يركبه المجتمع عليها من تلك الخواص والصفات الاجتماعية التي يتم إلحاقها بها كالتركيز المكثف على إعطاء المولود فكرة عن نفسه ودوره ووظائفه الاجتماعية المستقبلية المحددة وربطها خطأ بنوعه البيولوجي كذكر أو أنثى بدلا من نوعه الاجتماعي كإنسان رجلا كان أم امرأة بحيث تبدو مثل هذه الأدوار والوظائف الاجتماعية المركبة على نوع الشخص الاجتماعي وكما لو كانت جزءا لا يتجزأ من خواص ووظائف نوعه البيولوجي.

4. السلوك والممارسة المباشرة

إن الأمر لا يتوقف كذلك على مجرد التسمية والخطاب اللغوي بل يتجاوزه إلى آلية السلوك والممارسة الاجتماعية المباشرة وغير المباشرة تجاه الطفل بناء على نوعه البيولوجي، لا في مجرد اختيار نوع اسمه وملابسه فحسب، كما سبقت الإشارة، بل وفي ترتيب جملة من الحقوق والواجبات، فالولد يتم ختانه في الأسبوع الأول أو الثاني من ولادته ويحضر هذا الختان أخواله بهدية كبيرة(رأس غنم) وتقيم أسرة الأب حفلة كبيرة احتفالا بهذا الحدث، في حين أن البنت لا تختن في الغالب، وإذا تم الختان في بعض المناطق فإنه لا يحاط بأي حقوق أو اهتمام مماثل وربما يتم بصورة سرية وأشبه ما يكون بسلوك جنائي غير مشروع[10].

كما أن المحيطين بالطفل من الأم والأب وغيرهم يشددون على عدم بروز الأعضاء التناسلية للأنثى أثناء غسلها وتنظيفها وفي كل الأحوال، وبخلاف الذكر الذي يترك شبة عار معظم الوقت بحجة ضمنية كونه ولدا وتلك بنت كما أن حجم الملابس للأنثى يجب أن تغطى كامل جسمها أو معظمة بخلاف الذكر الذي لا يشترط له ذلك أو يتم التمسك به بنفس الدرجة وبناء على نفس الحجة. أما بعد أن يكبر الأطفال يصبحون قادرين على فهم مفردات هذه المنظومة المتكاملة من آليات ووسائل التمييز المتعلقة بالسلوك والتصرف ابتداء من سن الرابعة أو الخامسة فإن الخروج عليه يقابل بعقوبات

قاسية مادية ومعنوية بالنسبة للبنت بخلاف الولد الأقل عرضة لمثل تلك العقوبات وبنفس الدرجة، إضافة إلى أن الطفل الذكر كثيرا ما يتم اصطحابه إلى خارج المنزل في مثل هذا السن المبكرة من قبل أبويه وإخوانه الكبار من الذكور أيضا، عند استقبال الضيوف والأصدقاء داخل أو خارج المنزل أو خارجه وبنوع من مشاعر الزهو والافتخار الذي يتبادلونه معهم ومع الطفل نفسه بخلاف البنت التي يصعب جدا عمل الشيء نفسه معها، بذلك تتحدد منظومة المعايير المتعلقة بتنشئة النوع الاجتماعية وتحديد الوظائف والأدوار المستقبلية لا بالاستناد الى طبيعة النوع الاجتماعي كبشر أو أناس متكافيء القدرات والفرص كرجال أو نساء، بل من منطلق التمييز الاجتماعي المبني خطأ على الاختلاف البيولوجي كذكور أو إناث. وتثبت دراسات كثيرة أن موقف النساء الكبلو لا يختلف في ممارسة التنشئة تجاه الصغار عن موقف الرجال حيث تقرر أن (55 %) من ممارستهن لعملية التمييز في التنشئة بين الذكور والإناث لصالح الذكور[11].

5. الحقوق والواجبات

ابتداء من سن السادسة أو الخامسة من عمر الطفل ذكرا كان أم أنثى وحتى سن السادسة عشرة أو الثامنة عشرة غالبا ما تنظر السياسات والقوانين والتشريعات القومية والعالمية إلى الطفل بأنه صاحب حقوق يجب أن تعطى له في الغذاء والمسكن والملبس والعلاج والتعليم ...الخ، وليس عليه واجبات أو مسئوليات اجتماعية أو قانونية غير أن منطق الواقع يسير بخلاف ذلك خصوصا في البلدان النامية والمتخلفة، وحيث لا تقترن الحقوق المتواضعة بالواجبات والمسؤليات الشاقة بالنسبة للطفل ذكرا كان أم أنثى فحسب بل بالاستناد الى منظومة اجتماعية متكاملة من آليات ووسائل التمييز الاجتماعي المتعسف والمغلوط بين الأولاد والبنات لا بالقياس إلى ما يطلب من كل منهم من واجبات مقابل ما يحصلون عليه من حقوق في محيط الأسرة بصورة غير

متكافئة، بل وبالربط المغلوط بين نوعهم البيولوجي كذكور أو إناث وبين طبيعة هذه الحقوق والواجبات كما وكيفا.

فالبنت مطالبة في الريف على وجه الخصوص ابتداء من سن الخامسة في بعض الأحيان،بمساعدة الأم في أعمال المنزل وما يتعلق منها بإحضار حطب الوقود والمياه اللازمة للمنزل من مسافات بعيدة والعناية بالحيوانات وطاعة وتنفيذ أوامر الكبار والصغار من الذكور حتى اخوهما الذين يصغرونها سنا ،وأن لا تغادر المترل أو تتأخر عن العودة إليه دون إذن مسبق للقيام بمهمة محددة الخ ،وقد يختلف الأمر نسبيا في الحضر، وذلك مقابل ما تحصل عليه من حقوق الغذاء والكساء والحماية باعتبارها غير قادرة على حماية نفسها بمقتضى آلية التنشئة الاجتماعية التي تكون قد غرست في نفسها سلفا، وعليها أن تتوقع، في بعض الأوساط الأسرية، أقصى العقوبات المادية والمعنوية الأكثر إيلاما عند أدنى حالات التجاوز، في مقابل الطفل الولد الذي لم يكن بأسعد حظا من البنت حيث يتوجب عليه أن يقوم بكل ما يقوم به الرجال من الأعمال الجسدية الشاقة في الأرض والرعي وأعمال البناء والتجارة، والأعمال الحرفية إن وجدت في محيط الأسرة خارج المنزل أو المجتمع المحلي، باعتبار الأولاد في هذه السن مصدرا مهما لطاقة عمل إنتاجية رئيسية في نطاق الأسرة أو مصدرا لمورد اقتصادي هام من خارجها[12].

والمشكلة لا تتوقف عند حدود تشغيل الأطفال بأعمال شاقة في مثل هذه السن غير القانونية للعمل من ذكور وإناث، وآلية تقسيم العمل الصارم فيما بينهم، بل الأسواء أن هذا التقسيم يتعدى مجرد القيام بوظائف وأدوار محددة لكل منهم كأولاد وبنات إلى الربط بين هذا التقسيم وبين نوعهم البيولوجي كذكور وإناث، وكما لو كان هذا التقسيم قد ولد معهم ولا مجال لإمكانية القبول بتغييره إلا بإمكانية القبول بتغيير نوع الذكورة والأنوثة نفسها، وهنا تكمن المشكلة المتعلقة بالخلط والربط غير الموضوعي بين

النوع البيولوجي للذكور والإناث ووظائفه وأدواره الثابتة ،وبين النـــوع الاجتمـــاعي للأولاد والبنات ووظائفه وأدواره المكتسبة والمتغيرة وتركيب الثانية على الأولى خطـــأ وتعسف ،وبصرف النظر عن حدود العد ل والمساواة في ذلك من عدمه بين الطرفـــين فتلك مسالة أخرى قد تكون هي الأقل خطورة وإضرارا بكلا الطرفين .

فعلينا أن نتجاوز النظرة السطحية إلى مجرد أن المرأة محرومة من الحقوق أو مضطهدة من قبل الرجل صغيرة كانت أم كبيرة إلى النظرة الأعمق لحقوق النوع الاجتماعي ككل من الرجال والنساء صغارا أو كبارا، خصوصا ما يتعلق منها بتنظيم الحقوق والواجبات الاجتماعية على أسس مختلفة وبالاستناد إلى اختلاف النوع البيولوجي للذكورة والأنوثة وليس بمجرد تقسيم العمل ،لأن هذا الربط هو منتهى الهدر للحقوق والمسخ لإنســـانية الإنسان بصرف النظر عن نوعه البيولوجي ذكرا أو أنثى أو نوعه الاجتماعي رجـــلا أو امرأة بنتا أو ولدا وعمن هو الظالم أو المظلوم في العملية، إذ أن الخطأ لا يكمن في عـــدم توزيع الوظائف والأدوار فقط بقدر ما يكمن كذلك في ربط هذا التوزيـــع بـــالنوع البيولوجي للذكورة والأنوثة بالدرجة الأولى .

ثانيا :آليات ووسائل النوع في المدرسة

ابتداء من سن السادسة تصبح عملية تنشئة النوع الاجتماعي قسمة بـــين الأســـرة والمدرسة ،حيث تأتي المدرسة كعملية امتداد وتكميل لكل ما تكون قد بدأته وأسسته الأسرة وما تزال تؤديه بجانب المدرسة وتمارسه من وسائل وآليات التنشئة الاجتماعيـــة ،وبمقدار ما تشكله المدرسة والعملية التعليمية الحديثة بصفة عامة من آليـــة تواصـــل وتكامل في اتجاه الأسرة فإنها تمثل في الوقت نفسه حلقة تواصل وتكامل مـــع الحلقـــة الأكبر في اتجاه المجتمع ،ومن أهم ما تتميز به المدرسة والعملية التعليميـــة ككـــل مـــن توصيف وتحليل لوظائفها تجاه تنشئة النوع الاجتماعي من أولاد وبنات وفتيات وفتيـــان تشابها وتمايزا سلبا وإيجابا بدءا بحق التعليم مرورا بنوعيته وانتهاء بنتائجه مايلي :

1. اللا مساواة في الالتحاق بالتعليم والاستمرار فيه

حتى زمن ليس بالبعيد ولا يتعدى الأربعين عاما المنصرمة لم يكن حق تعليم البنات يحتل أدنى اهتمام يذكر إن لم يكن مبدأ الرفض لهذا الحق والاستنكار على من يفعله هو القاعدة السائدة لأسباب كثيرة تتعلق بإرث التخلف الأمامي والرجعي والاستعماري الذي لا مجال للحديث عن تفاصيله هنا. ناهيك عن أن تعليم الولد نفسه لم يكن يشكل ضرورة حياتية بقدر ما كان أشبه بالترف الاجتماعي بالنسبة لقلة المحظوظين . أما وقد تغير هذا الوضع جذريا بتطور حجم العملية التعليمية قبل الثورة 1962م مما لا يتجاوز خمسين ألف تلميذ لطلاب كتاتيب القرى والمدن وثلاث مدارس رئيسية في صنعاء وتعز وذمار لا مكان فيها قط لفتاة واحدة وفي مجتمع كان يزيد تعداده عن أربعة ملايين نسمة ليصبح عدد الطلاب الملتحقين في كل مراحل وأشكال العلمية التعليمية اليوم من مدارس وجامعات ومعاهد مختلفة عامة وخاصة يقترب من خمسة ملايين طالب وطالبة لمجتمع يقارب تعداده العشرين المليون نسمة أي ما يقارب 25% من عدد السكان وهي النسبة الطبيعية لكل من هم في سن العلم تقريبا[13]. وعلى مستوى اليمن الموحد فالمسألة لم تعد قط تناقش وجود هذا الحق من عدمه بالقياس إلى الماضي، بل مدى الحصول على هذا ونوعيته بالدرجة الأولى وبالنسبة للنوع الاجتماعي من البنات تحديدا.

فبالرغم من أن الإجماع شبه العام على التعليم كضرورة، وأحقية الالتحاق فيه للذكور والإناث والقناعة شبة التامة من قبل المجتمع بذلك قد أصبح حقيقة واضحة إلا أن أقل العقبات والمصاعب المختلفة بالكثير من جوانب الأداء في العملية التعليمية كبعد المدرسة عن القرية أو السكن، وعدم وجود المدارس الخاصة بالبنات في معظم المناطق، أو ظروف الأسرة المعيشية، تجعل البنت هي الطرف الأول الممكن التضحية بحقه في التعليم بسهولة سواء بالحيلولة دون التحاقها بالمدرسة أو عدم استمرارها وهوا الأمر الذي قد يطال الأولاد أيضا وإن بفارق كبير حينما لا يعجز الآباء عن الأنفاق عليهم

فحسب بل ولتشغيلهم في الأرض لعدم توفر قوة عمل كافية داخل الأسرة أو مع الغير للحصول على مصدر دخل مكمل لمعيشة الأسرة. وحتى في حالة عدم وجود عوائق ومصاعب حقيقية في نطاق الأسرة أو العملية التعليمية فإن الكثيرين من الأبناء وولاة الأمور كثيرا ما يتعللون بأشياء غير واقعية شكلا ليخفوا وراءها رفضا غير معلن لاستمرار حق البنات في العملية التعليمية اكثر من المرحلة الأساسية.

فقد أكدت دراسة ميدانية حديثة في هذا الصدد أن ما لا يتجاوز 59% من الريفيين أقروا بحقوق متساوية في التعليم للأولاد والبنات مقابل 41% تقريبا يرون أن تعليم الولد أهم مقابل 11.6 لا يرسلون للأولاد ولا البنات للتعليم إلى المدرسة[14] وهو الأمر الذي جعل نسبة الالتحاق والاستمرار بالنسبة للإناث في الريف.لايتعدى15% [15]. وهذا بخلاف ما يبدو من حرص وتضحية من أجل استمرار لأولاد وتفوقهم لدى الغالبية العضمى والأسوأ في الأمر أن هذه التضحية بحق البنت في العملية التعليمية لم يكن ليرتبط بظروفها وظروف أسرها الاجتماعية بقدرها يرتبط بنوعها البيولوجي كأنثى حيث يتم التمييز الاجتماعي بالاستناد إلى العامل البيولوجي بالدرجة الأولى.

2. التعليم يكرس تقسيم العمل على أساس النوع البيولوجي

والأمر لا يتوقف عند بجرد التضحية بحق البنت في التعليم عند أول صعوبة أو عائق حقيقي أو مفتعل بل أن نوعية التعليم نفسها كمفردات ومنهج ومضمون ووسائل وآليات متكاملة في عملية التنشئة الاجتماعية قد كانت و لم تزل مبنية على التميز وعدم المساواة بين الطلاب كنوع اجتماعي كفتيات وفتيان أو أولاد وبنات، بناء على نوعهم البيولوجي كذكور وإناث حيث يتم التركيز في مفردات المفاهيم والمقررات الدراسية على الوظائف والأدوار الراهنة والمتوقعة من كلا من الطرفين باعتبارها وظائف وأدوار مرتبطة بنوعهم البيولوجي لموروث والثابت لا بنوعهم الاجتماعي المكتسب والمتغير كأن يركز على إعداد البنت وواجبها في مساعدة أمها في الأعمال المنزلية والاستعداد

لدور ربة بيت في المستقبل في مقابل مساعدة الولد لوالدة في الحقل وجلب احتياجات المنزل من السوق والمشكلة في هذا التقسيم للعمل ليس في التقسيم نفسه بقدر ما هي الربط بينه وبين جنس كل من الولد والبنت بحيث تبدو صعوبة اكتساب أي منها لوظيفة ودور الآخر كان يقوم الولد بمساعدة أمه في أعمال وتقوم الفتاة لمساعدة أبيها في الحقل هو أشبه ما يكون بصعوبة واستمالة الشاب أي منها للنوع البيولوجي للآخر كأن يصبح الذكر أنثى والأنثى ذكر وهنا يكمن أس المشكلة التي تكرسها العملية التعليمية في اليمن، وغير اليمن من الوطن العربي والإسلامي والبلدان المتخلفة بشكل عام، ولا تسمح أو حتى تفكر في المساعدة على تقبل تغيير هذه الوظائف الأدوار العاجلة والآجلة بالاستناد الى مفهوم النوع الاجتماعي المتغير وبعيدا عن مفهوم النوع البيولوجي الثابت[16].

3. حجم الخطاب التعليمي مختل لصالح نوع الرجال

كما أن مؤسسة العملية التعليمية في المدرسة لا تكرس عملية التنشئة الاجتماعية من منطلق الربط الخاطئ بين خواص ووظائف النوع البيولوجي الوراثية والثابتة وبين وظائف وأدوار النوع الاجتماعي المكتسبة والمتغيرة جريا على ما سبق في مؤسسة الأسرة فحسب، بل إنها قد انبنت على عدم التكافؤ الكمي والكيفي في عدد مفردات الخطاب التعليمي والصور والمواضيع والقصص ، حيث تؤكد أحدث دراسات تحليل المناهج التعليمية في اليمن أن الصيغ اللفظية المذكرة قد تكررت (4212) مرة مقابل (743) كصيغ مؤنثة ، والنماذج المذكرة (42) مقابل (10) نماذج مؤنثة و(205) رسوم وصور مذكرة مقابل (34) مؤنثة فقط في كتب القراءة والتربية الاجتماعية والوطنية في مرحلة التعليم الأساسي في اليمن ، وكما يوضح ذلك الجدول التالي :

جدول رقم (1)

يمثل مؤشرات مفردات الذكور والإناث في محتوى الكتب المدرسية اليمنية[17]

الفئات	الصيغ اللفظية		النماذج		الرسومات	
	مذكر	مؤنث	مذكر	مؤنث	مذكر	مؤنث
التكرار	4212	743	42	10	205	34
النسبة	%85	%15	%81	%19	%86	%14

و لم يكن الأمر يختلف في كثير من البلدان النامية وعلى مستوى العالم عما هو عليه الحال في اليمن ، ففي دراسة لـ(134) كتابا من كتب المرحلة الإبتدائية لبلدان مختلفة بما فيها الولايات المتحدة الأمريكية عام 1972م أظهرت أن : محور القصة هو الولد أكثر من البنت بنسبة (2:7) وأن نسبة الصور والرسومات المذكرة إلى المؤنثة (2:1) ونسبة الوظائف (1:3) والتراجم (1:2) لصاح الأولاد[18]. وعلى مستوى الوطن العربي تؤكد رائدة الزعبي على وجود الكثير من أشكال التمييز في المستويات التعليمية للفتاة العربية والظروف والمصاعب المختلفة في حياتها بشكل عام[19].

ثالثا : آليات ووسائل تنشئة النوع في المجتمع

تشكل آلية المجتمع المتعلقة بالتنشئة المتعلقة بالصحبة والمجورة أو البيئة الاجتماعية إلى جانب الثقافة العامة ووسائل الاتصال التقليدية والحديثة أبرز آليات ووسائل المجتمع في مشاركته في عملية التنشئة الاجتماعية للنوع الاجتماعي ، موضح كل منها في الآتي :

1. الجماعات المرجعية والنوع الاجتماعي

مجتمع الصحبة والمجورة بالنسبة للفرد ذكرا كان أو أنثى طفلا أو طفلة شابا أو شابة هو من أهم مصادر التنشئة الاجتماعية وآلياتها الفاعلة في تكوين الشخصية ومنظومة

قواعد السلوك المحددة للوظائف والأدوار اللاحقة في حياة الإنسان منذ الخطوات الأولى في الحياة حتى نهايتها. والذي يختاره الفرد بنفسه ويتفاعل معه قناعة ولا يتلقاه أو يفرض عليه من الخارج كما هي الحال بالنسبة لدور الأسرة والمدرسة ، وهو الإطار الذي يجد فيه الأطفال والشباب فرصة التعبير المباشر عن أنفسهم وتجاوز الكثير من القيود والحدود التي تفرضها آليات ووسائل الأسرة والمدرسة في عملية التنشئة بدءا بتجمعات اللعب مرورا بتفتح بعض المواهب والهوايات كالغناء والرسوم أو الشعر والرياضة أو ممارسة بعض التصرفات المقبولة وغير المقبولة بل والبدايات الأولى لممارسات اتخاذ القرار. كتقليد الكبار في الملبس وتدخين السجائر، والتصدي لاتخاذ الكثير من القرارات غير العادية كأن يقرر الولد أو البنت ترك المدرسة أو مغادرة المنزل والاعتماد على النفس أو ارتكاب حماقة معينة .. الخ

> **"باعتبار أن الصحبة و المجتمع المحيط هو المتغير الأساسي الأول الذي يتيح للفرد رجلا كان أو امرأة الفرص الأولى لتلمس دوره في الحياة، فإذا كانت الأسرة والمدرسة هما المتغير الأساسي في التنشئة من الخارج فإن الصحبة والمجتمع المحيط هو المتغير الأساسي لهذه التنشئة من داخل الفرد نفسه والإطار الذي يسمح له بتلمس خطواته الأولى نحو دوره اللاحق" [20].**

إلا أن حدود كل هذه المساحات من علاقات الصحبة بدءا باللعب وانتهاء باتخاذ القرار لا يتمتع فيها النوع الاجتماعي من الأولاد والبنات والشباب والشابات بدرجة متكافئة من الفرص كما وكيفما،ففي مقابل ما قد يلاحظ من اتساع النسبة للمساحة الخاصة بالولد في هذا الشأن يمكن أن نلاحظ في المقابل ضيق هذه المساحة بالنسبة للبنت، وقد تضيق كلا المساحتين أو تتسع بالنسبة لهما معا من بيئة اجتماعية لأخرى، فالولد في كثير من الحالات لا يسأل كثيرا عن نوعية أصحابه ولا توجد له مواعيد دقيقة وصارمة لأوقات اللعب وأماكنها ، بل قد لا يسأل إذا ما تأخر عن العودة إلى المنزل إلى ما بعد صلاة المغرب مساء ، أو تأخر عن مواعيد الطعام المحددة سلفا ، وإذا سئل

فلا يتعدى ذلك مجرد التحري واللوم. وهذا بخلاف الوضع بالنسبة للبنت تماما حيث لا يقترن أي من ذلك التصرف بالعقوبة المباشرة كالضرب أو الحرمان فحسب، بل وبما هو أشد من ذلك بكثير عقوبة وإيلاما وهو الشعور بدرجة عالية من القلق على مصير البنت والخوف على شرفها ، ليس في محيط الكبار من الأب والأم والأخوة فقط بل ويتم توجيه ذلك إلى الفتاة نفسها كرسالة اجتماعية ونفسية بالغة القسوة والتأثير المباشر وغير المباشر على نفسية وسلوك الفتاة وشخصيتها وربط كل خطأ في سلوكها كطفلة أو مراهقة باحتمال افتقادها لشرفها ويقين عدم قدرتها على حماية نفسها والقدرة على القيام بالتصرف المناسبين في المكان والزمان المناسب لمجرد أنها بنت أو أنثى على الأصح[21].

أما في حالة الوقوع في الخطيئة الأخلاقية أو حتى مجرد الشك في الوقوع فيها من قبل الكبار بالنسبة للصغار والشباب فإن العقوبة بالنسبة للولد قد لا تتعدى مجرد اللوم المبطن بإشعاره بأنه رجل ولا غبار عليه في إثبات رجولته ، في حين أن عقوبة البنت قد تكلفها حياتها تماما أو سمعتها طوال حياتها على الأقل .

2. الثقافة والنوع الاجتماعي

باعتبار أن الثقافة هي جماع الفعل الإنساني المباشر والنظم لمختلف مظاهر السلوك والتصرف الاجتماعي المادي منه والمعنوي للمجتمع في الوقت الراهن[22] فإنها بالتالي تعني بالنسبة لتنشئة النوع الاجتماعي القاسم المشترك والخلفية المرجعية العامة لكل ما يصدر عن الأسرة والمدرسة في هذا الشأن السابق تحليله من جهة ، وما يصدر عن المجتمع ككل في هذا الصدد من جهة أخرى حيث قد تكون أسرة ما في وسط اجتماعي ثقافي محافظ هي أكثر مرونة وانفتاحا ، كأن تقبل بخروج بناتها بدون حجاب والالتحاق بالوظائف والأنشطة العامة ، لكن الوسط الاجتماعي الثقافي العام يحول دون ذلك أو يعيقه على الأقل. وقد تكون هناك نظم وتشريعات عامة متطورة ومنفتحة بالنسبة

لحقوق النوع الاجتماعي وحقوق الإنسان رجلا كان أم امرأة ، غير أن منظومة الثقافة العامة في المجتمع على خلاف ذلك هي أكثر محافظة ورجعية، حيث تعيق تطبيق القانون وتجعله شكلا بغير مضمون. وهو ما يمكن ملاحظته في مجتمعاتنا سواء بالنسبة للنوع الاجتماعي أو غيره من مجالات الحياة، وقد يحدث العكس تماما حينما ينتقل فرد أو أسرة و جماعة من وسط ثقافي محافظ إلى وسط أخر منفتح ومتحرر ، كانتقال بعض الأفراد والتجمعات من اليمن إلى الولايات المتحدة الأمريكية أو أوروبا أو حتى بمجرد الانتقال من الريف إلى المدينة حيث يجدون أنفسهم محاصرين بمنظومة ثقافية هائلة مغايرة لثقافتهم المرجعية ، ولا يجدون بدا من القبول بإحدى خيارين لا ثالث لهما فإما التكيف مع مفردات الثقافة الجديدة ببطء ومشقة اجتماعية معقدة وإما أن يرفضوا هذه الثقافة فيعتزلونها وتعزلهم هي أكثر[23] .

خلاصة نفس المنوال وبدرجة أكثر صراحة ووضوحا يتحدث دستور الجمهورية اليمنية ومعظم التشريعات والقوانين عن الحقوق المتساوية للنوع الاجتماعي من الرجال والنساء على كل المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، إلا أن المرجعية الثقافية للمجتمع وإن كانت لم تعد ترفض ذلك أو تعارضه علنا إلا أنها ما تزال قادرة على رفضه وإحباطه بالطرق المباشرة وغير المباشرة على صعيد التطبيق العلمي ، ليس من قبل نوع الرجال فحسب كما يتوهم الكثيرون بل ونوع المرأة أيضا ، حيث كثيرا ما تقف المرأة ضد نفسها وحقوقها أكثر من غيرها إستنادا إلى هذه المرجعية الثقافية السلبية التي ترسخت في وعيها وسلوكها عبر الزمن ، حيث تقر نسبة 55 % من النساء مبدأ التمييز بين الذكور والإناث في المعاملات بين أفراد الأسرة لصالح الذكور ، كما يقرر 56% من الناس ككل من رجال ونساء مبدأ حق المرأة في المشاركة السياسية علنا أو نظريا مقابل رفض 70% لممارسته عمليا[24].

3. وسائل الاتصال والنوع الاجتماعي

إذا كانت الأسرة والمدرسة والثقافة هي المصادر الأساسية الأولى في عملية تنشئة النوع الاجتماعي بأبعاده ودلالاته المختلفة فإن الاتصال هو عن حق الوسيلة والآلية المباشرة وغير المباشرة في ذلك ، ذلك أن التنشئة الاجتماعية في الأسرة تتم عبر عملية الاتصال بين الآباء والأبناء منذ ما قبل الولادة وحتى الرشد كما أسلفنا ، وكذلك في المدرسة عبر الكتاب والدرس والمدرس ، وفي المجتمع عبر آليات ووسائل الثقافة المتعلقة بمنظومة القيم الاجتماعية والدينية والأخلاقية المختلفة في المجتمع .

ولقد تجاوزت وسائل وآليات الاتصال أشكالها التقليدية المتعلقة بتعاليم الأب والأم وحكايات الجدة والأستاذ والكبار وعلاقات الصحبة إلى ما هو أكثر تطورا وشمولا من الآليات ووسائل الاتصال الحديثة المكتوبة (الصحافة) والمسموعة والمرئية (الإذاعة والتلفزيون) وأخيرا الإرسال الفضائي والكمبيوتر والإنترنت ، وكل ما يتصل بثورة المعلومات الهائلة الجاري تطبيقها ، وهو ما يهمنا التركيز عليه في هذا البند الختامي من هذا الفصل المتعلق بالتنشئة الاجتماعية والنوع الاجتماعي .

فوسائل وآليات الاتصال الحديثة وبالنظر إلى سعتها وشمولها وتأثيرها البالغ على كل المستويات والأعمال والمجالات تلعب دورا حاسما في كل شيء ، إلا أنها فيما يتعلق بالنوع وبالرغم من مظهرها الديمقراطي والتسووي في هذا الصدد ما تزال مبطنة بكثير من مواقف التمييز ضد المرأة بالنسبة للرجل أو ضد النساء بالنسبة للرجال بصفة عامة ، فكثيرا ما تقوم وسائل وآليات الاتصال هذه في مجتمع نام أو متخلف بالتعبير المباشر عن مجرد مفاهيم المرجعية التقليدية للأسرة والثقافة المتطرفة تقليديا بدءا من حظر حق المرأة في قيادة السيارة والظهور في شاشات التلفزيون وانتهاء بمصادرة حقها في الانتخابات والترشيح في أبسط تشكيلات المجتمع السياسية .

والنقابية والمنظمات غير الحكومية وتكريس كل ما يعيق حقوق النوع الاجتماعي المتعلق بالمرأة ، وفي المقابل نلاحظ في المجتمعات الصناعية المتقدمة كما تسمى نفسها تطرفا من نوع أخر ضد المرأة باسم الحداثة ، أسوأ وأخطر ما فيه تحويل المرأة (كجسد) إلى آلية اتصال مباشرة للترويج التجاري والسياحي بل والسياسي أيضا بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ اضطهاد وامتهان جسد المرأة وجنسها[25].

فلقد شهد التاريخ أشكالا متعددة من مظاهر العبث بحقوق المرأة كجسد وجنس بدءا من زمن الجواري والحريم وانتهاء بالخليلات وأسواق البغاء ، إلا أن كل ذلك العبث وبكل مساوئه قد يبدو أهون شرا بالقياس إلى عبث الحداثة في هذا الصدد ، حيث كان جسد المرأة ومكوناتها كجنس بالنسبة للرجل كجنس أيضا هو محور كل ذلك العبث. ويتوقف وجه الخطأ فيه أنه كان قرارا يقتصر جملة وتفصيلا على طرف واحد فقط هو الرجل على حساب الطرف الأخر ، أما عبث الحداثة الأكثر سوءا فإنه يتجاوز مجرد البحث عن جسد وجنس المرأة لذاته إلى مجرد استخدام ذلك كمجرد وسيلة لغاية أخرى أكثر انحطاطا وإهانة للإنسان في شخص المرأة وهو استخدام المرأة كمجرد آلية مادية للترويج للسلع التجارية والخدمات السياحية وإبرام الصفقات التجارية والاقتصادية ، ومجرد وسيلة وآلية من وسائل وآليات الاتصال النوعي الحديث لهذا الغرض [26]. أما على صعيد التجارة المباشرة بالجنس فإن مركز إعلام الأمم المتحدة يؤكد بأنه

"على نطاق العالم يجري الاتجار كل عام بحوالي 1.2 مليون امرأة وفتاة تحت سن 18 لأغراض البقاء"[27]

والمقصود بالعالم هنا هو عالم (التقدم) الغربي الأمريكي أكثر من غيره باعتباره المشرع والمقنن لهذه التجارة رسميا في نفس الوقت الذي يقدم نفسه داعية ومنقذا للمرأة وتحريرها من ثقافة الشرق والرجل الشرقي واضطهاده لها.

الهوامش

(1) عزة بيضون: مدخل إلى تصحيح موقع المرأة في منهج التعليم العام (مقاربة جندرية) مقال في مجال أبواب، العدد 19 مجلة فصلية عام 1999م بيروت، ص127.

(2) عبده مطلس : الصور النمطية والجندر في كتب القراءة والتربية الاجتماعية والوطنية في مرحلة التعليم الأساسي في اليمن ،مركز البحوث التطبيقية والدراسات النسوية جامعة صنعاء سبتمبر 1999م، ص 6.

(3) أنظر تفاصيل أكثر في :

MS .faiza ben .haded ;key ,concepts and methopods in gender mainstreaming .internal seminar 5-7 july1999amman-jordan, p.5-9.(u.n.f.p.a)

(4) أنظر تفاصيل أكثر في : BAIRD .D,1996.P .

(5) سورة الحجرات الآية (13).

(6) سورة النساء الآية (11) .

(7) سورة النمل الآية (23).

(8) أنظر حمود العودي وآخرون: منظومة القيم والمعارف الاجتماعية بتنشئة ودور المرأة اليمنية، دراسة إستشارية ميدانية لبرنامج الأمم المتحدة للسكان (U.N.F.P.A صنعاء) سبتمبر 1996م، ص 18 و 33.

(9) المرجع السابق، ص 18.

(10) تصل نسبة النساء اللاتي أجريت لهن عملية الختان إلى 23% وتزيد الأعمار الكبيرة بالقياس إلى الأعمار الصغيرة، وتنتشر أكثر في المناطق الساحلية من اليمن بالقياس إلى المناطق الجبلية. أنظر في هذا الصدد في المرأة والرجل في الجمهورية اليمنية، صورة إحصائية، تماني سعيد الخيبة وآخرون، الأمم المتحدة (الاسكوا) ص 54-53.

(11) د. حمود العودي: وضع المرأة في عملية التغير الاجتماعي المعاصر في اليمن، دراسة تطبيقية مقارنة، قسم الاجتماع، وحدة البحوث الاجتماعية ودراسات المرأة، 1997م، ص50.

(12) راجع منظومة القيم والمعارف الاجتماعية المتعلقة بالمرأة اليمنية (U.N.F.P.A صنعاء) مرجع سابق ص 18.

(13) راجع الجهاز المركزي للإحصاء، التقرير العام للمساكن والسكان عام 1994م.

(14) أنظر منظومة القيم والمعارف الاجتماعية المتعلقة بتنشئة ودور المرأة اليمنية، (U.N.F.P.A صنعاء) مرجع سابق، ص 38-41.

(15) قارن وزارة التربية والتعليم: كتاب الإحصاء السنوي، 95/1996م.

(16) منظومة القيم والمعارف الاجتماعية: مرجع سابق، ص12.

(17) أنظر :عبده مطلس : الصورة النمطية والجندر في كتب القراءة والتربية الاجتماعية والوطنية في مرحلة التعليم الاساس في اليمن ، سبتمبر 1999م ، مركز البحوث التطبيقية والدراسات النسوية ، صنعاء ص 7.

(18) THE LAND MARK STUDY : WOMEN ON WORDS AND IMAGES. 1972.

(19) راجع تفاصيل أكثر في :
MS , RAIEDA AL- ZOUBI : ENDING GENDER DISPARTIES IN THE ARAB WORLD , CONSULTANT TO THE (M. E . N . A) UNICEF . P. 10 AND 21 . 1995.

(20) أنظر : منظومة القيم والمعارف الاجتماعية ، (U . N . F . P . A صنعاء) ، مرجع سابق ، ص 54 .

(21) أنظر: حمود العودي وآخرون: منظومة القيم والمعارف الاجتماعية، مرجع سابق، ص 48 وما بعدها.

(22) انظر: تحليل الثقافة والحضارة والمدنية : حمود العودي المثقفون في البلدان النامية دراسة عن المجتمع اليمـــني، عالم الكتب ، القاهرة ، 1980 م ص 19-21.

(23) المرجع السابق، ص 22 وما بعدها.

(24) قارن : عبده مطلس. الصور النمطية والجندر، مرجع سابق، ص 4.

(25) وضع المرأة في عملية التغير الاجتماعي في اليمن : مرجع سابق ، ص50-54

(26) قارن :
I PPE CHARTER ON SEXUAL REPRODUCTIVE RIGHTS , VISION . 2000 , P . 51

(27) وهذا ما يمكن ملاحظته ببساطة من خلال شركات الإعلانات التجارية ، وبيوت وعروض الأزياء ، ووظيفة ودور المرأة المحبب في أعمال السكرتارية والعلاقات العامة والخاصة .

(28) برنامج الأمم المتحدة الإنمائية : تقرير التنمية البشرية لعام 2000م، مركز إعلام الأمم المتحدة ، ص4 .

في الأعداد القادمة

من محور الديمقراطية وحقوق الإنسان

- المؤسسات اليمنية المعنية بحقوق الإنسان.
- حقوق الإنسان مقاربة انثربولوجية.

البعد الذاتي في الشعر الجاهلي

د. رعد أحمد الزبيدي

لا شك أن التجربة الذاتية عند الإنسان تأخذ حيزا مهما في حياته، فهي المقياس الأول الذي يعتمد عليه في تقييم واستيعاب ملامح الحياة المتنوعة من حوله، لأن التجربة الذاتية قد اكتسبت خبرتها الثمينة بمرور الزمان، وكثرة الأحداث التي تفاعلت معها النفس الإنسانية، لذلك فإن هذه التجربة ستكون بشكل أو بآخر احتواء لمفردات الحياة، وجسرا يلتقي به الإنسان مع الآخرين، وهي أيضا لون خاص يتميز به المرء بين

الآخرين، فإذا تشابهت التجارب الإنسانية بملامحها العامة، وموضوعاتها التقليدية فإنها تختلف في تفاصيلها من شخص إلى آخر، ومن عصر إلى غيره، بسبب التطور والتغيير السريع الذي يصيب الحياة باستمرار..

لذلك ستبقى هذه الحياة مرتبطة الوشائح بين أجيالها عبر الزمان الطويل، يعبر عنها مبدعوها من الأبناء في شتى المجالات، ومنهم الشعراء الذين يمارسون فن الكلمة في قصائدهم، لذا سيقف فن الشعر ليصور هذه التجربة الإنسانية باستمرار، فالشاعر ابن بيئته ينطلق منها ويعبر عنها، لذا سنرى التجربة الإنسانية للشعوب من خلال صوت الشاعر، وتجربته الذاتية التي يبثها في نتاجه الشعري، وهو يحاول الكشف عن الحقيقة الإنسانية وإيصالها إلى بني البشر، الأمر الذي يمنحه توحداً، وتجدداً وحضوراً مع الأجيال عبر الزمان، فالتجارب تلتقي مع بعضها البعض، ويغدو الشاعر وكأنه (صاحبنا الحاضر، وصديقنا الذي نراه)[1]

والشاعر أحد المبدعين في الحياة ويصفه علماء النفس بأنه يبدع حين يحس بحالة (النحن) تلح عليه، وتلحق، فهو وإن تكلم بضمير (الأنا) لكن أناه هذه لا حدود تفصلها عن سائر الأنوات الأخرى في محيطه الاجتماعي[2]، مستذكرين في هذا الصدد قولاً لفيكتور هيجو في مقدمة كتابه (التأملات) المنشور عام 1856م في فرنسا، متحدثا عن تجربة الشاعر المعبرة عن تجارب الآخرين، قائلاً: (هل هي حياة إنسان واحد؟ نعم، وحياة الآخرين أيضاً، لا أحد يملك شرف حياته على أنها ملك له. حياتي هي حياتك. وحياتك حياتي. إنك تعيش ما أعيش، والقدر واحد، خذ هذه المرآة وانظر نفسك فيها. يشكو البعض من الكتاب الذين يتحدثون عن ذواقم حدثونا عن أنفسنا.. وأسفا عندما أتحدث عن نفسي، فأنا أتحدث عن نفسك، عجبا، كيف لا تشعر بذلك؟ آه فاقد الإحساس من لا يعتقد بأني أنت!)[3]، لذلك فالشاعر حينما يعبر عن أفكاره وتجربته فإنه يعبر بشكل آخر عن تجارب الآخرين، والمجتمع الذي ترعرع فيه، وتعلم منه.

وحينما نتحدث عن البعد الذاتي للشعر العربي القديم، لا نقول بخاصية هذا الشعر دون سواه من مراحل الشعر العربي الأخرى، أو نميزه عن تجارب الشعر الإنساني في أي مكان، فلا يمكن لأي ناقد موضوعي أن يحصر هذه الخاصية الذاتية في بيئة شعرية دون أخرى، أو عصر دون آخر.. فخاصية التعبير الذاتي، هي النبض الفني الملازم لوجود الشعر في أي مكان وزمان.. بل إن التجربة الذاتية هي ماهية الشعر بكل ما تعبر عنه هذه اللفظة من لون، وشكل، ومفهوم يمكن أن نخص به الشعر عامة. خاصة الشعر الغنائي الذي نحن بصدده في هذا البحث.

إن الخاصية الذاتية أو ما تسمى بالغنائية، هي من أهم أسس التجربة الشعرية، بل يمكن القول: إنها أساس للشعر كله ولا يمكن أن نحصرها بزمن أو مكان محددين، وهو ما نرد به على بعض النقاد الذين يذهبون إلى الخلط بين أسس التجربة الشعرية ودلالات المصطلح النقدي، أو غياب التمايز بين المصطلح النقدي وأفق التجربة الشعرية.

وحينما أتحدث عن البعد الذاتي في الشعر الجاهلي، فهذا لا يعني أنني أتحدث عن مدرسة أدبية، أو مصطلح نقدي له تنظيره، بقدر ما يعني أنني أتحدث بالاهتمام الأول عن خاصية من خصائص التجربة الشعرية، حتى يمكن أن يصدق قولنا في هذه الخاصية على أي شعر آخر غير الشعر الجاهلي.. لذلك فإن التجربة الذاتية في الشعر الجاهلي لها مستوياتها من التعبير والرؤى، المنسجمة مع طبيعتها وظروفها، وكذلك التجربة الذاتية في الشعر الحديث، لها ملامحها الخاصة التي تنسجم مع ظروفها وعصرها.. ولكي نؤكد ذلك، سندرس هذه الخاصية (البعد الذاتي) في الشعر الجاهلي من خلال مضامين الاتجاه الرومانسي الذي ظهر في الشعر الغربي خلال القرن الثامن عشر الميلادي، لأنه أكثر الاتجاهات الحديثة التي اهتمت بالدرجة الأولى بالتعبير الذاتي في نتاجها الأدبي.

وإن دراسة هذا الجانب في الشعر الجاهلي سيمنحنا فرصة في تأكيد إبداعه المستمر في صدق تجربة الشاعر القديم حينما بث قصيدته تلك اللواعج والخلجات الذاتية وعبر

عنها بصدق، ما زلنا نتحسس بدفئها إلى الآن. وكذلك ستتضح أصالة الشعر الجاهلي، حين نلمس هذه المفاهيم، والمناحي الإنسانية التي عبر بها شعرنا القديم عن ذاته، وصور الحياة من حوله، قبل أكثر من أربعة عشر قرنا من مجيء هذه المدارس، والتيارات الأدبية التي شهدها المجتمع الإنساني، والتي دعت وكررت ما قالته التجارب الشعرية الأولى.. الأمر الذي يجعلنا نخطو خطوة مع هذا البحث في تأكيد أصالة الشعر العربي القديم. وقد يبدو للبعض بأن الحديث عن التعبير الذاتي في الشعر الرومانسي، يعني تلك الخصائص المتعلقة بالثورة العالمية التي جاءت بها الرومانسية كامتداد من امتدادات الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر الميلادي[4].

ومع ما قامت به المدرسة الرومانسية من إبراز كبير للاتجاه العاطفي، والذاتي المتحرر، فإن هذا المضمون واتجاهه كان يشكل ظاهرة طبيعية في النتاج الشعري القديم للآداب الإنسانية، قبل ظهورها كاتجاه نقدي في القرن الثامن عشر الميلادي، فهي تمخض طويل للآداب الإنسانية عبر تاريخها البعيد، التي ظلت تعبر عن هاجسها الأول المتمثل بالوجدان الشخصي والعاطفة الجياشة التي تتدفق في ذات الشاعر والفنان، ومحاولة إخراجها بكل ما يستطيع من وسائل فنية مستخدمة في تعبيره الفني، لذلك ذهبت الرؤية الذاتية إلى تحقيق المثال النموذج من خلال انتقاد الواقع الذي يعيشه الشاعر، والذي يمثل في رؤيته نظرة المجتمع، أو يكون ممثلا عن المجتمع في قصيدته، لذا فالشاعر يحاول أن يحقق وجهة نظره، أو ما يكمل نواقص المجتمع نحو الكمال والمثال، لذلك لا نستطيع أن نجعل خصائص التجربة الشعرية ضمن مصطلحات، ومدارس لها تحديد زماني أو مكاني، لأن (لغة الفن تتجاوز الحدود الجغرافية وقيود الزمان والمكان)[5]، لهذا يمكن أن يقول البعض بأن أصول وجذور الاتجاه الرومانسي في مثاليته الذاتية يعود إلى عصر أفلاطون، ودعوته المثالية للحياة[6].

من هذا التصور، سيكون الشعر الجاهلي قد قدم الكثير من مضامين الرومانسية واتجاهات المدارس الحديثة الأخرى، بلغته الصافية، وسذاجته الفطرية بعيداً عن لغة الرومانسي المعاصر، الذي تعرف على نظريات العلم، ومشكلات المجتمع المقعدة، وعلم اللاهوت وغيرها من مشكلات العالم المتفاقمة.

كل تلك التقاطعات والنظريات لم يحفل بها، أو يعرفها الشعر القديم، أو يطلع عليها بهذه التفاصيل، لأنه عاش في فترة بعيدة عن هذا التلوث النفسي، والاجتماعي الحاصل في الحياة، بل إنه عبر عن تجربته من خلال مبادئ عامة، وواضحة في فطرة حياته، تلك الفطرة التي ما تزال تبحث عنها الرومانسية الحديثة كأهم خصائص اتجاهاتها الأدبية بين المذاهب العالمية الأخرى.

إن النبرة الذاتية التي بزغ شعاعها في القصيدة العربية، منذ العصر الجاهلي حتى يومنا هذا، لا تزال تتوافق مع أبرز ظواهر الاتجاه الرومانسي، وأن الدراسات النقدية الكثيرة التي خاضت في الشعر العربي، شخصت هذه النبرة الذاتية (الغنائية)، وأكدت أغلبها هذه السمة التي تتلاقى فيها القصيدة العربية في مراحل عصورها المختلفة، بل من الواضح أن نرى هذه الذاتية أو الغنائية من الإلحاح والكثرة تشوبها بفنون أدبية أخرى كان يفترض أن لا تدخلها هذه الغنائية، وكما نرى في مشكلة المسرح العربي،وظاهرة الغنائية فيه، ونقصد بذلك تدخل كاتب الدراما العربي في حوار شخصيات المسرحية بما يفصح عن ذات الكاتب، وليس ذات الشخصية، أو ما يتناسب معها، وهو ما لا ينبغي، أو التعثرات الفنية التي وقع بها الشاعر الحديث في مسار البناء القصصي في القصيدة[7]. ظلت القصيدة العربية إلى الآن تحمل هموم الأنا متمثلة في ذات الشاعر، وتتغنى بعذاباته، وآلامه، وأفراحه، وأمنياته، حتى أصبحت الفنون عند الإنسان العربي هي المتنفس الأكثر مقدرة على التعبير عن كوامن الذات العربية المكبوتة، يلجأ إليها الفنان للتخفيف من الهموم والأزمات التي تتفجر بها ذاته المعذبة، والشاعر والقصيدة جزء من هذا التعبير

الذي استخدم الغنائية وسيلة من وسائل تخفيف الزخم النفسي، والذي يعاني منه الشاعر في مجتمعه، وأن هذه الذاتية التي تعود عليها، أو اتسم بها الشعر العربي، ما زالت تجد صداها إلى اليوم في الظواهر الفنية الملازمة للآداب العالمية الحديثة، أليس قول فريدرك فون (1772-1801م)، الشاعر الألماني الرومانسي يشابه إلى حد التطابق الرؤية التي انطلق منها الشاعر العربي عموما أو الجاهلي بشكل خاص، قبل أكثر من ألف عام، فالشاعر الألماني يقول: (الشعر نقل للنفس أو للعالم الداخلي بكليته، حتى الألفاظ تثبت ذلك لأنها فيض من العالم الداخلي)[8] وهو ما نجده في الانبثاق الذاتي للقصيدة الجاهلية، وإننا حين نقلب النظر في القصيدة الجاهلية، وأغراضها الشعرية، نجد الذاتية واضحة المعالم وظاهرة البيان لنا، فالمقدمة الطللية، وذرف الدموع، والوقوف على آثارها، ووصف الطبيعة، والتعبير عن مشاعر الحب، والغزل والرثاء، والمديح، والهجاء، والوصف وغيرها من الأغراض، والظواهر الفنية في القصيدة، ما هي إلا مواقف ذاتية، أملاها وأسقطها الشاعر الجاهلي على نتاجه الشعري لتكون القصيدة شاهد صدق على ما يعانيه إنسان ذلك العصر، من إحساس متزايد أمام الحياة بين الحزن والفرح، وبين اليأس والأمل وغيرها من متناقضات الحياة.

فالشاعر الجاهلي حينما بدأ قصيدته بوصف الأطلال، ومعالم الديار، وما تبقى منها، معدداً الأسماء، والأماكن، وغيرها من صور الأحجار المتناثرة هنا وهناك، فإنما أراد أن يعبر عن تعلقه بالذكرى العزيزة، بما انقضى من سنوات الفتوة والشباب، يسترجع بعض الذكريات الجميلة عبر هذا الزمان الطويل، الذي مر عليه وأخذ منه جمال الأشياء. فهذا عميرة بن جُعَل يصف ديار البردان، باثا فيها إحساسه بالوحشة والحزن الشفيف خلف صور الخراب المكتظة في أبياته.

ألا يا ديار الحي بالبردان خلت حجج بعدي لهن ثمان[9]

فَلَمْ يَبْقَ منها غَيْرُ نُؤْيٍ مُهَدَّمٍ وغيرُ أوار كالرَّكيِّ دفان

وغيرُ حَطُوبات الولائِد ذَعْذعـتْ ... بها الريحُ والأمطارُ كلُّ مكـان

قفارٌ مَرَوْراةٌ يحـارُ بهـا القطـا ... يظلُّ بها السبعان يعتر كـان

أو قول عبيد ابين الأبرص في معلقته[10]

أَقْفَـرَ مـن أهلـهِ مَلحُـوبُ ... فالقُطبيَّـاتُ فـالذَّنُوبُ

وبُدّلتْ مـن أهلـها وحوشـاً ... وغـيّرتْ حالهـا الخطـوبُ

أرضٌ توارثتـها شـعوبُ ... وكلُّ مَنْ حلّـها مَحـروبُ

إمـا قتيـلٌ وإمّـا هـالكٌ ... والشَّيبُ شين لمـنْ يَشيبُ

إن هذا الإحساس بالفجيعة الذي بثه الشاعر في مقدمة قصيدته، يعبر عن حالة الحزن والألم التي ملأت نفسه، وهو يرى فعل الزمن المدمر من حوله بالأشياء والطبيعة، ومن ثَمَّ فهو فعل يعني الشاعر نفسه أيضاً، وما هذه الأوصاف في التشويه التي تركته السنين، إلا فعلا يصيب الشاعر مثلما يصيب غيره من الأشياء، لذلك فالشاعر يمسك بالأطلال، لأنه يعبر بها عن ذاته، ومن ثم فهو يعبر عن المجموع من الناس الذين يلمسون هذا الوجع المستمر بمرور الزمن، وتغير الأشياء سلبياً في حياتهم نحو الشيخوخة والهرم، وقد ساعدت الحياة البدوية على إبقاء الأطلال صورة، وتعبيراً أكبر في هذا الهاجس، حتى غدت المقدمة الطللية رحما للقصيدة تتمخض عنها الأغراض الشعرية المتعددة أي نستطيع أن نقول بأن القصيدة الطللية أصبحت قلب القصيدة ومركزها الفني الذي يشكل حضوراً يمتد على جميع مجريات القصيدة[11].

تلفت الشاعر إلى حال نفسه ومن حوله يرسم هذا التغير الذي اسبل جفونه على كل شيء بدءاً بشخصه الذي أحس بثوب الشيخوخة وقد ألبسه الدهر عنوة:

أأزمعتَ من آل ليلـى ابتكـارا ... وشطّتْ على ذي هوىً أن تـزارا[12]

وبـانتْ بهـا غربـات النـوى ... وبُدلـتُ شـوقاً بهـا وادّكـارا

ففاضتْ دموعي كفيض الغُرو ب، وإما وكيفاً وإما انحدارا

فأصبحتُ لا أقربُ الغانيا ت، مزدجراً عن هواي ازدجارا

وإنّ أخاك الذي تعلمين ليالينا إذْ نَحُلّ الجفارا

تبدّل بعد الصّبي حكمةً وقنعه الشيب منه خمارا

احلّ به الشيبُ أثقاله، وما اعترّه الشيبُ إلاّ اعترارا

وهكذا نجد أغلب الشعراء الجاهليين يبثون خواطرهم في هذه الأطلال، متخذين منها وسيلة فنية، للتعبير عن هذا الفيض الذاتي، الذي يكتنز هموم الآخرين أيضاً، فالشاعر ابن بيئته، وعصره، وزمانه ويعاني ما يعانيه الآخرون من الناس، في تقاطعات الحياة ويحس بما يحسون من وطأة الزمن، وهذا الانسحاق الكبير الذي يأتي على الكل متمثلاً بالأطلال، لذلك تشبث الشاعر الجاهلي بالماضي، ليكون كما يقول جلال الخياط: (إحدى لعب الإنسان الجاهلي للابتعاد عن واقعه الذي يبدو له فاقداً معناه بين ما سبق وما سيأتي، ولكن الماضي يعني الفرقة واللوعة والحزن)[13]، وهو إلى حد كبير يشعر بالإحباط النفسي الذي يفقده طعم الحاضر، الأمر الذي يجعله يسترجع الصور الذهنية (الذكريات) التي تتعلق بماضيه الجميل أيام الشباب والفتوة، وإذ هذه الصور من الذكريات تكون قوية وحيوية في مخيلة الشاعر، كلما كانت قريبة من عهد الشباب، لذلك يبعث الشاعر هذه الصور من مرقدها بعد مرور الزمن ويبثها في فنه، لتكون تعويضاً يخفف عنه بعض هذا الحزن، والإحباط الكبير.

يصور المرقش الأصغر بين حالة الحزن، والأسف في حاضره المضاد مع أمله، ورجائه في لقاء المحبوبة.

أمنْ بنت عجلان الخيالُ المطرّح ألَم ورحلي ساقطٌ متزحزح[14]

فلمّا انتبهت بالخيال وراعني إذا هو رحلي والبلادُ توضحُ

ولكنــه زورٌ يـيقــظُ نائمـــاً ويحدث أشجاناً بقلبـك تجـرحُ

بكُلِّ مبيتٍ يعترينــا ومنـــزل فلو أنها إذْ تُدلجُ الليــل تُصبـحُ

فولّتْ وقد بثّتْ تباريح ما تــرى ووجدي بها إذْ تحدرُ الدمعَ أبْـرَحُ

إذا تمنى المرقش الأصغر من طيف محبوبته الذي يمثل عنده الماضي الجميل، والأمـل المرتجى حضوره وتحقيقه، وشكوته من الواقع الحزين الذي يمثل زمن الصرم والابتعاد عن المحبوبة التي تمثل الحلم له، فإن هذا الشعور الذي يحقق نوعاً من نشوب صراع بين الواقع السيء والأمل المرتجى، وهو يقترب كثيراً من الحزن والكآبة التي عانى منـها الشـعراء الرومانسيون في العصر الحديث بشكل كبير، وأصبحت هذه الكآبة (مـرض العصـر) بسبب ما عاشه الشاعر الحديث بين واقعين مختلفين، هما واقع الطموح والأمل، وواقـع الانكسار والفشل[15].

إن الشاعر الرومانسي فيكتور هيجو، كان من أهم مميزاته الشعرية، المزج الخـلاق بين النزعة الفردية والنزعة الجماعية، فكتب بلغة الناس وإحساسهم منطلقاً دائماً مـن ذاته[16].

وهذه الخاصية في التعبير الذاتي، الممتزج بالتجربة والتعبير الجماعي، هي من خاصيـة عموم الشعر الإنساني الناجح، حتى أن الشعراء المحدثين في الساحة العربية، أمثال بـدر شاكر السياب، وخليل حاوي، وعبدالوهاب البياتي، وأدونيس، وصلاح عبدالصبور،.. وغيرهم قد نجحوا حينما مزجوا في تجاربهم الشعرية بين الموضوعي والذاتي، والخـاص بالعام، وهو نفس مضمون النجاح الذي حققه الشاعر الجاهلي وإن اختلف أسـلوب التعبير، وما زلنا نشعر بهذا التقبل الكبير في نفوسنا للشعر الجاهلي رغم البعـد الزمـني الكبير بيننا، وما ذلك إلا نجاح الشاعر في التعبير عن القضايا الإنسانية العامة، والبـوح عن الكبت الذي نشعر به نحن الآن، لذلك كانت المجتمعات ترحب بنتاج شـعرائها،

وفنانيها، لأن ذلك العطاء يعبر عن الكبت الذي يشعر به الفنان نفسه، ومن ثم فهو تعبير عن الكبت الإنساني بشكل أعم، لذلك أحدث فينا الشعر الجاهلي، الدهشة التي تجعل القارئ يحس وكأن هذا الشعر يعبر عن أفكاره هو نفسه، وهذا ما يحقق الهدف الأول من التجربة الشعرية في توفير المتعة للمتلقي من خلال المشاركة الوجدانية بين الطرفين، أي عملية إيثار مشاعر مماثلة للمتلقي شبيهة بالتي عاشها الشاعر لحظة الإبداع[17].

بَلينا وما تبلى النجــــومُ الطّوالــعُ ‏ ‏ ‏ ‏ وتبقى الجبالُ بَعْدنا والمصـــانع[18]

وقد كنتُ في أكناف جار مَضنَّــةٍ ‏ ‏ ‏ ‏ ففــارقني جــارٌ بــأربد نـــافعُ

فلا جزعٌ إنْ فرّق الدهـــر بيننـــا ‏ ‏ ‏ ‏ وكُلُّ فتىً يوماً به الدهـــرُ فــاجعُ

فلا أنا يـــأتيني طريـــف بفرحـــةٍ ‏ ‏ ‏ ‏ ولا أنا مما أحدث الدهـــرُ جـــازعُ

وما الناس إلا كالديـــار وأهلـــها ‏ ‏ ‏ ‏ بها يومَ حلُّوهـــا وغَـــدْواً بلاقِـــعُ

هذا الإحساس بالحزن القابع في الذات، عبر عنه الشاعر بصدق، لأنه يتوجع منـــه، ويتحسس بهواجسه الرقيقة صدى للقلق المتصاعد في ذاته طردياً مع مرور الزمن، راسمـــاً من الحياة مفرداتها الأكثر شراكة، بيه وبين الناس، من خلال موضوعات الموت والحياة، الحب والطبيعة، والجنس.. وغيرها من ثوابت الحياة الإنسانية المستمرة، فصدق المشاعر، وصدق المضمون، جعل الشعر الجاهلي حيّاً في وجدان النفس العربية كل هذا الزمن.

ولعلنا نجد أيضاً مصداقية التجربة الذاتية عند الشاعر الجاهلي في قصائده التي رثـــى بها نفسه، حين حضرته المنية بعيدا عن بيئته وأهله في بادية الجزيرة، وهو تعبير عن حـــزن مضاعف يبثه الشاعر في قصائده، ويغدو الشاعر والمرثي شخصاً واحداً في القصيـــــدة، وهو ما ينقل الإحساس المباشر في الصورة والتعبير.

أجارتنــا إنّ المـــزارَ قريـــــبُ ‏ ‏ ‏ ‏ وإنِّي مقيمٌ ما أقامَ عســـيبُ[19]

أجارتَنـــا إنـــا غريـــان هـــهُنا ‏ ‏ ‏ ‏ وكلُّ غريب للغريب نســـيبُ

لذلك هلع الجاهلي من أمر الغربة، والتغرب، حتى تكرار هذه اللفظة في الشعر يوحي بالفعل الخارق، والمكابدة العظيمة التي يتجشمها الشاعر بعدا عن الأهل والوطن.

هذا الانكسار الوجداني نراه جليا في شعر رثاء الذات الذي كثر في الشعر الجاهلي، ولعل مالك بن الريب خير من يمثل ذلك في أيامه الأخيرة عند الاحتضار، وهو يحن إلى بادية الحجاز، بعد أن نهشته أفعى في خراسان.

ألا ليتَ شعري هل أبيتَن ليلةً ... بجنب الغضا أزجي القِلاصَ النواجيا[20]

فليت الغضا لم يقطع الرَّكبَ عرضه ... وليت الغضا ماشى الركابَ لياليا

فيا صاحبي رحلي دنا الموتُ فاحفرا ... برابيةٍ إني مقيم لياليا

وخُطَّا بأطراف الأسنة مضجعي ... ورُدَّا على عيني فضل ردائيا

تذكرت من يبكي علي فلم أجد ... سوى السيف والرمح الرديني باكيا

وبالرمل مني نسوة لو شهدنني ... بكينَ وفدَّينَ الطبيبَ المداويا

تغنى الشاعر الجاهلي بالطبيعة في جميع مظاهرها التي شاهدها في بيئة واستوحى من هذه الطبيعة أفانين القول وضروب المعاني، وألوان الخيال وصوره، فالشعر الجاهلي وصف فصول السنة المختلفة، والرياح، والمطر والسيل، والرعد، والسحب، والبحر، والأنهار، والنبات، والحيوانات، كالإبل والخيول، والبقر، والثور، والوحوش من أسودها وذئابها، ووصف كل مفردات الطبيعة والبيئة التي عاش فيها بصحرائها، ورمالها، وجبالها، وسهولها ورياضها، وأعطى لكل عنصر من هذه العناصر مكانته، وصورته في الأدب الجاهلي من خلال منظور الرؤية الذاتية للشاعر، وربط في كثير من هذه العناصر مكانته وصورته في الأدب الجاهلي من خلال منظور الرؤية الذاتية للشاعر، وربط في كثير من الأحيان بين صور البيئة وصفات الإنسان الممدوح، أو المهجو في قصائده، كما

في وصف الشتاء متزامناً لذكر الجود والكرم، وذكر البحر دلالة على السخاء والعظمة والعطاء وكذلك بقية الصورة البيئية.

كان الشاعر الجاهلي وليد الطبيعة بكل صدق ووضوح فلا نكاد نعثر على شاعر أو ديوان، أو حتى قصيدة، لم تكن للطبيعة حضورها الكبير فيها، وهو ما يشابه استخدام الشاعر الرومانسي لها وبثوا فيها ما يدور في نفوسهم ويختلج مشاعرهم، فالرمانسيون غالباً ما وصفوا الطبيعة من خلال رؤيتهم الذاتية، ونفوسهم وضميرهم، وخلطوا مع صور الطبيعة حياتهم النفسية اللا منظورة[21].

فالشاعر الجاهلي لم يغفل طرفة عين عن الطبيعة والبيئة التي أحاطت بحياته، بل أصبحت الطبيعة لغة ومفردة يكررها باستمرار في صوره وأخيلته، وذاكرته، وكل شيء في نتاجه الشعري، فهي أهم الموضوعات عنده، وهي الملاذ الأكبر أيضاً عند الشاعر الرومانسي.

ولعل هذا الارتماء في أحضان الطبيعة، والتعامل القوي معها، قد نرى فيه بعض الاختلاف في لغة التعامل بين الشاعر الرومانسي، والشاعر القديم، بسبب اختلاف الأسلوب، والشكل التعبيري الذي سار عليه كلا الطرفين، لكننا لا نختلف في أن الشاعر الجاهلي أسقط الكثير من همومه ومشاعره على طبيعة من حوله ووصل به الأمر أن جعل مفردات الطبيعة (حيواناً ونباتاً) رموزاً مهمة تعكس ما يجول بخاطره من قلق وحيرة، أو فرح وحزن..، وهذا ما يجعل الطبيعة العامل المشترك الأكبر بين الشعراء القدامى وبين شعراء الرومانسية في العصر الحديث، والتفاعل بين الذات والموضوع، والكشف عن العنصر الأسطوري في الطبيعة[22].

وما يؤكد ذلك، ما نراه في قصص الحمار الوحشي، والثور، أو البقرة، وصراعها مع كلاب الصياد، وما عبر عنه الشاعر في هذه الصور بما يتناسب وغرض القصيدة، لهو دليل على إفرازات الشاعر النفسية لهذه القصص، التي سجلت حضورها في الشعر

الجاهلي، وكما نراه في شعر الأعشى الذي فصل في تسجيل صورة البقرة وصراعها مع كلاب الصيد، وكذلك ما وصفه لبيد في معلقته من صورة البقرة، والمشاعر التي أسقطها عليها في فقد فطيمها.

خنساءُ ضيَّعتْ الفرير فلم يرم	عرض الشقائق طوفها وبغامُها[23]
لمعفر قهد تنازع شِلْوَهُ	غُبس كواسب لا يمن طعامها
صادفن منها غرةً فأصبنها	إن المنايا لا تطيش سهامها

ومن وضوح إضفاء عواطف الشعراء في تصوير قصص الحيوانات هذه وغيرها، الأمر الذي جعل الجاحظ يبرر ذلك، بأن الشعراء يجعلون الموت نصيب البقر أو الثور إذا كانت القصيدة في غرض الرثاء، أما إذا كانت القصيدة في عرض المدح فإن الموت يكون نصيباً للكلاب، والثيران هي المنتصرة الغانمة[24].

لذلك نستطيع القول أن خطاب الشاعر الجاهلي للطبيعة في لغته الفطرية، وإحساسه الصادق، بأنه، التعبير الذاتي الصادق، الذي جعل الطبيعة انعكاساً صادقاً للحياة الداخلية أو النفسية له، أي أن الشاعر الجاهلي يقوم بعملية خلق إبداعي في تصوير طبيعته، وليس عملية صنعه مجردة من إفرازات وجدان الشاعر، وهو ما ظهر فيما بعد عند الشعراء الرومانسيين في القرن الثامن والتاسع عشر الميلادي، ولعل الشاعر الرومانسي شاتوبريان Chataeubrian (1768-1848م) أكثر ما عبر في شعره عن هذا التقارب، الذي نراه يقارب الشاعر الجاهلي فيه، إذ أنه يرى (الطبيعة نظاما عضويا رمزيا) [25] وكذلك ما تحقق عند الشاعر فيكتورهيجو من سيطرة الطبيعة على جميع دواوينه الشعرية، وأسكب فيها انفعالاته ومشاعره الوجدانية[26].

ولعل قصيدة النابغة الذبياني، التي همس في مسامعنا هذا الفيض الوجداني الكبير، مستهلا قصيدته بعتاب شفيف منسكباً من نداء موجه إلى ابنته (أميمة)، وكأنه أراد بهذا

اللفظ توجيه لوعته وهمومه إلينا جميعا عبر هذا الزمن المبراح، وما زالت زفرات النابغة تعبر عن آهاتنا المكتظة دوماً وأبداً في نفوس هذه الأمة الحزينة.

كِلِيني لهمٍّ يـا أميمـة نـاصب ... وليل أقاسيه بطيء الكواكب(27)

تطاول حتى قلت ليس بمنقـض ... وليس الذي يرعى النجـوم بـآئب

وصدر أراح الليلُ عـازبَ همّـه ... تضاعف فيه الحزن من كلِّ جـانب

وامرؤ القيس عانى قبل النابغة من ليله الطويل، واجترار الهموم عليه، حتى انعكست هذه الهموم على صورة الليل عند الشاعر

وليل كموج البحر أرخـى سُـدوله ... عليّ بأنواع الهموم ليبتلـي(28)

فقلـت لـه لما تمطـى بصلبـه ... وأردف أعجازاً وناءَ بكلكـل

ألآ أيها الليـلُ الطويـلُ ألا انجـل ... بصبح وما الإصباح منك بـأمثل

فيا لك مـن ليـل كـأنّ نجومـه ... بكل مغار الفتل شُدَّتْ بيذبـل

ويستمر الشعراء في وصف الليل وإسقاط همومهم وأحزانهم عليه،وبث هذه الحيرة التي جعلت سرمدية الليل تتحقق في شكوة الشاعر، دون أن يطول الليل عن زمانه، وإنما هي الأحزان التي حققت بالزمن ضجراً عند الشعراء، فليس غير الليل يناغي ويفجر هذا الشدو الشجي عندهم.

فـأبيت الليـل مـا أرقـده ... وبعيـنيّ إذا نجـم طلـع(29)

وإذا ما قلت ليـل قـد مضـى ... عطـف الأول منـه فرجـع

يسـحب الليـل نجومـاً ظُلّعـاً ... فتواليـها بطيئـاتُ التّبـع

ويزجّيـها علـى إبطائـه ... مغربُ اللّون إذا اللّون انقشـع

بهذه النبرة الفطرية، والسجية البريئة، نادى الشاعر الجاهلي عناصر الطبيعة من حوله، والتقى معها رفيقاً يشكو إليها همومه، ويلتجئ إليها هرباً من ظلم المجتمع، صورها بمشاعره الصادقة، أحس بها، وتحسست به، منحها دفء مشاعره وأعطته سر

إبداعها.. وبهذا الصفاء الصادق، وهذه اللغة المعبرة، صرخ الشاعر الجاهلي حبا للطبيعة، وصورها في قصائده، لذلك انعكست الطبيعة ببرائتها في شعرهم، وصورها بمشاعرهم وكأنها جزء منهم، حتى أصبح هذا الصدق، وتلك السجية نموذجاً لبراءة الإنسان الأول، البدائي في صدق عواطفه، تلك البراءة التي راح الشعراء الرومانسيون في العصور الحديثة، يبحثون عنها في آداب الإنسان البدائي، ليتحسسوا تلك الفطرة التي غابت في عصرهم المزدحم بالثورة العلمية، والقوانين وزحمة النظريات والفلسفة.. فهذا (شاتوبريان) يصف شعوره نحو الفطريين على لسان رينيه، حينما يشاهد جماعة من الهنود يمرون فرحين وسط السهل، إذ ترق أساريره وتسيل الدموع من عينه صائحاً: (ما أسعدكم أيها المتوحشون! آه لو أستطيع أن أتمتع بالسلام الذي لا يفارقكم أبداً وبينما أجوب الأقاليم الكثيرة في قليل من الجدوى، تظلون أنتم جالسين تحت أشجار السنديان، تدعون الأيام تجري دون أن تحصوها، عقلكم مقصور على حاجاتكم. ولذا فأنتم تفضلونني في الوصول إلى ثمرات الحكمة. وحياتكم كحياة الطفل مترددة بين الألعاب والنوم) [30].

هذا الأعشى يصف روضة جادها الغيث، ولبست ثوبها الأخضر بهيَّة بجمالها، وروعة منظرها حتى أثرت هذه الجمالية على عذوبة الألفاظ، وانسكبت فيها هذه الرشاقة، والتناغم الموسيقي مع طرب الذات وجمال الطبيعة، وحضوراً لوصف المحبوبة.

ما روضة من رياض الحـزْن مُعشِبةٌ   خضراء جاد عليها مُسْبل هَطِلُ [31]
يضاحك الشمس منها كوكب شـرق   مؤزرٌ بعميـم النبـت مكتـهلُ
يوماً بـأطيبَ منـها نشـر رائحـةٍ   ولا بأحسن منها إذْ دنا الأصـلُ

وولع عنترة لا يقل عن الأعشى، فهو ه بمحبوبته عبلة، جمالاً وحسناً، بهذه الروضة الجميلة في صورها وشذاها.

أو روضةً أُنفـاً تضمـن نَبْتَـها   غيثٌ قليلُ الدّمن ليس بمَعْلَـم [32]

جادتْ عليها كُلُّ عينٍ ثرَّةٍ فتركن كُلَّ حديقةٍ كالدرهمِ
سِحّاً وتسكاباً فَكُلُّ عشيّةٍ يجري عليها الماءُ لم يتصرَّمِ

فهذه الفطرة، وتلك السجية، من أهم عناصر الجمال التي قام بها الشعر الجاهلي، ويقول الدكتور احمد الحوفي في ذلك: (لست أريد أن أجمد قيمة العلم وأثره في الشعراء، وإنما أذهب إلى أن غناء الشعراء بالطبيعة لم يكن في حاجة إلى علم أو فلسفة، وليس يغض من قدره أنه خالٍ من العلم ومن الفلسفة، بل ربما كان بعده عنهما أحد الأسس التي قام بها جماله وسذاجته وفطريته)[33].

ونود أن نسأل: لماذا يلجأ الشاعر إلى الطبيعة؟ ولربما تتطلب الإجابة عن هذا السؤال أكثر من جواب ووجهة نظر، ألكون الطبيعة نظاماً رمزياً كما يرى شاتوبريان ذلك ويعتبر (الطبيعة نظاماً عضوياً رمزياً)[34]، أو لأنها تعبر عن عالم أعمق، أي أن (قراءة الطبيعة على أنها رموز تشير إلى عالم أعمق وأرحب وراءها، أو إلى شيء كامن فيها لا تمكن قراءته بالطاقة العادية)[35] أو أنها عملية تعويض للشاعر عما يشعر به من خيبة أمل وخسارة وكما يقول الدكتور ياسين الأيوبي:- (الرومنطيقي عندما لجأ إلى الطبيعة، فعل ذلك على أساس التعويض من جهة، والترويح من جهة ثانية، وبناء عالم جديد)[36]، ولربما علاقة الشاعر بالمجمع لها دور في هذا اللجوء إلى الطبيعة إذ يقول جان جاك روسو:- (إن الإنسان خيرٌ بطبعه، ولكن الشرائع والتقاليد والعادات التي وضعها المجتمع هي التي أفسدته، فهو يدعو الإنسان إلى تحطيم هذه القيود والعودة إلى الطبيعة وحريتها)[37]، أو لربما قد توفر الطبيعة للشاعر، أو تحقق له حالة التعويض المثالية عن المجتمع ومشاكله، كما هي في دعوة لا مرتين إلى الشعراء، إذ يقول: (ولكن الطبيعة هناك، إنها تدعوك وتحبك، وإنك لواجد فيها من حسن الفهم وطيب الصحبة ما أخفقت في الحصول عليه في المجتمع)[38].

ولعل أكثر عناصر الطبيعة تمثلاً في الشعر الجاهلي،هو حيوانها الذي رافق الإنسان، ووصفه الشاعر في قصائده، وأملى عليه هالةً من التآلف الوجداني والعاطفي، الذي عبر عن عمق إحساس الشاعر الجاهلي بحياة الحيوان من حوله، وخاصة الإبل والخيل.

وإني لأمضي الهمَّ عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغتدي(39)

أمون كالواح الإران نسأتها على لا حب كأنه ظهر بُرجُد

جماليةٍ وجناء تروي كأنها سفنَّجةُ تبري لأزعر أربدِ

وصل إلينا من الشعر الجاهلي كثير من الأبيات التي وصف بها الشاعر ناقته، و لم يترك صغيرة فيها أو كبيرة إلا وصفها، رفيقةً لحياته وسفره وترحاله، وأسقط عليها همومه وخلجاته، وتحسس مشاعرها وحركاتها.

فقد وصفها طرفة بن العبد، بأفضل ما يكون في معلقته في أكثر من ثلاثة وثلاثين بيتاً، ووصفها لبيد في اثنين وثلاثين بيتاً في معلقته، ووصفها عنترة في ثلاثة عشر بيتاً في معلقته، ووصفها الحارث بن حلزة في ستة عشر بيتاً من معلقته، ووصفها الذبياني في أربعة عشر بيتاً، ووصفها علقمة الفحل، وثعلبة بن صعيد،وبشارة بن عمرو بن هلال، ووصفها ربيعة بن مقرون، وبث المثقب العبدي همومه وأحزانه على لسان ناقته، ولا نكاد نرى شاعراً جاهلياً أغفل صوره الناقة في شعره، بل هي الصورة الأكثر حضوراً في الشعر الجاهلي.

يقول الدكتور الحوفي عن علاقة الناقة بالشاعر الجاهلي: (الناقة صديقته الطيعة في الحل والترحال، صبورة على الجدب الجفاف، يطلقها في البادية فتكتفي بما تجد من عشب، ويندر الماء فتصبر على حر الظمأ أياماً، وهي إلى جانب هذا مصدر من مصادر طعامه وشرابه وكسائه، يأكل لحمها، ويشرب لبنها، ويتخذ من وبرها كساءً وغطاءً وأثاثاً) (40).

فدعها وسلّ الهم عنك بجسرةٍ كهمّك فيها بالرّداف خبيب(41)

وناجيةٍ أفني ركيبَ ضُلوعها وحاركها تهجر فدُؤوبُ
وتصبح عن غُبِّ السُّرى وكأنها مولّعةٌ تخشى القنيص شَبوبُ

تتحول الناقة إلى حيوان محبب عند الشاعر الجاهلي، ليس فقط لما تحمل من صفات جيدة تتلاءم مع طبيعة البادية، بل إنها أصبحت الرمز الأكبر عنده في البطولة والمجازفة، إذ تتحول الناقة رمزاً مهما لكل هذه المغامرات والرحلات البعيدة التي يتجشمها الشاعر، فهي الصورة لهذه الرحلة، ولهذه الطبيعة الصحراوية القاسية التي تتمثل فيها القوة والمجالدة التي يبذلها الشاعر في سفره المستمر على ظهر ناقته، وهي دلالة من دلالات الفتوة والشباب والحيوية، بهذا كله رأى الشاعر صورة الناقة، وأهميتها في حياته، إضافة إلى حضورها الآخر في الجانب الاجتماعي والمعاشي.

والناقة وسيلة من وسائل إزاحة ودفع الهم، وحسم الموقف إلى ما هو أفضل، فكثيراً ما ردد الشعراء مقولتهم في الانتقال من غرض إلى آخر في قصائدهم، متخذين الناقة سبباً لذلك.

وإني لأمضي الهم عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغتدي[42]

وقول المثقب العبدي:

فسلِّ الهمّ عنكَ بذات لوثٍ عذافرةٍ كمطرقةِ القيونِ[43]

وقول بشر بن أبي خازم:

لولا تسلي الهم عنك بحسرةٍ عيرانةٍ مثل الفنيق المكرمِ[44].

وتبين عمق العلاقة بين الشاعر الجاهلي وناقته من خلال الإسقاط النفسي الذي يسقطه الشاعر على ناقته، إذ يتحسس هذا الحيوان بمشاعره وهمومه، وحنينه، ولربما يسقط خلجاته ويعكسها لنا من خلالها، كما نرى في قول المثقب العبدي، واصفاً حال

ناقته، وكأنه يعبر عن (إحساساتها ومشاعرها وأحوالها بعاطفة إنسانية ومشاركة وجدانية لما يعاني هذا الحيوان)[45].

إذا ما قُمتُ أرحلُها بليلٍ ... تأوّهُ آهة الرجُلِ الحزين[46]

تقول إذا درأت لها وضيني ... أهذا دينه أبداً وديني

أكُلُّ الدَّهرِ حلٌّ وارتحالٌ ... أما يبقي علي وما يقيني

ويتخذ الشاعر الجاهلي في هذا الإسقاط النفسي على الحيوان، أن يتحول هذا الحيوان إلى معادل موضوعي، يعبر عن ذات الشاعر وهمومه أكثر من أي شيء آخر، وتتحول عناصر الطبيعة إلى رموز شعرية يكتسب وجودها في القصيدة صفات الشاعر وخصائصه، فتغدو أوصاف الطبيعة بملامح إنسانية غير ملامحها الحقيقية، رغم وجودها الموضوعي في الشعر.

والمثقب العبدي في قصيدته قد حمل الناقة، وأنطقها بما يريد أن يعبر عنه هو، لا بما تريد أن تقوله هذه الدابة، ففي القصيدة يصبح الشاعر هو الناقة، والناقة هي الشاعر من حيث دلالة المعنى في تجربة القصيدة أو على الأقل هي المعادل الموضوعي للشاعر في هذا الموقف من القصيدة، فالشكوى هي من ذات الشاعر، ولكنها بصوت الناقة، الذي أضفى على القصيدة بعداً من الغنائية المباشرة، منحت التجربة شيئاً من مشاركة المتلقي في تقليب الدلالة الشعرية، بسبب الرمزية، والتلميح في الاستخدام الرمزي للناقة، وهذه خاصية فنية كثير من نقادنا اليوم يستكثرونها على شعرنا القديم..!

وقد تحدث الدكتور وهب روميه عن هذه القصيدة بتحليل جميل، في أنه، جعل في هذا المقطع من القصيدة علاقة الرجل الذي شبهه بالشاعر وجعل الناقة ذاتا منفصلة عن الشاعر، حيث يقول: (نحن هنا إمام ناقة تحاور صاحبها وتتأوه وتتوجع مما نزل بها كالرجل الحزين.. وليس هذا الرجل- عند التحقيق- سوى المثقب نفسه. وهي تشكو ظلم صاحبها وعدم إشفاقه عليها..)[47].

ويبدو لنا أن القصيدة قد عبرت عن ذات واحدة، توحد فيها الشاعر بذات الناقة وصوتها، والناقة أيضاً توحدت مع ذات الشاعر، فكلاهما تشابه بالموقف العاطفي المتأزم. وكلاهما يشكو مما حوله من ظلم وقهر.. وهو تعبير عن صورة من صور الاستنكار للحاضر المعاش حينها.

ولعل جرير بن عبدالمسيح (المتلمس) صاحب الصحيفة خير من يؤكد استخدام الناقة معادلاً موضوعياً في قصيدته، تقول المصادر إنه اختلف مع عمرو بن هند ملك الحيرة فأمر هذا الملك بقتله، أو يحرم عليه حب العراق قائلاً: (حرام عليه حب العراق أن يطعم منه حبة ولئن وجدته لأقتلنه)[48]. وينجو الشاعر من القتل، ولكنه يعيش التغرب هارباً إلى الشام، بعيدا عن العراق وأهله مستعتباً دهره في غربته الطويلة التي بثها في أشعاره.

آليت حبَّ العراقِ الدَّهر آكُلُهُ   والحبُّ يأكله في القرية السوس[49]

ويقول المتلمس هاجياً عمرو بن هند:

يا آل بكر ألا لله أمكم   طال الثواء وثوب العجز ملبوس[50]

أغنيتُ شاتي فأغنوا اليوم تيسكمُ   واستحمقوا في مراس الحرب أوكيسوا

ويصف الشاعر في هذه القصيدة ناقته، باثاً فيها حنينه وشوقه إلى العراق، وكأنه يحاور ذاته، ويلقي عليها النصائح والوعظ

حنَّتْ قلوصي بها والليلُ مطرقٌ   بعد الهدوء وشاقتها النواقيس

معقولة ينظر التشريق راكبها   كأنها من هوى للرمل مسلوس

وقد ألاح سهيل بعدما هجعوا   كأنه ضرمٌ بالكف مقبوسُ

وحين نقلب الألفاظ التي تحدث بها عن ناقته، مثل (حنّت، شاقتها النواقيس، معقولة، هوى مسلوس..) نشعر بهذا الفيض المتدفق في عاطفة وحنين الناقة إلى صوب

العراق، وهذا التشخيص الذي أسقطه على ناقته، هو أقرب واقعاً إلى حال الشاعر، فهو وَصْفُ الشاعر لذاته أكثر منه لمشاعر الناقة، فينتقل السرد الخارجي للناقة الذي وصفه الشاعر إلى استبطان ذاتي في حقيقة الأمر، أو لنقل إنه عبر عن الاستبطان الذاتي بالسرد الخارجي في وصف الناقة، ويصبح السرد الخارجي، والاستبطان الذاتي شيئاً واحداً، أو يعبر عن غاية واحدة في القصيدة، وهي شوق الشاعر إلى بلده القريب البعيد.

إني طربتُ و لم تلحي عل طرب ودون إلفكِ أمراتٌ أماليس

أُمّيْ شآميةً إذ لا عراقَ لنا قوماً نودهم إذ قومن شوس

لن تسلكي سبل البوباة منجدةً ما عاش عمرو وما عمرت قلبوس

لذلك نجد في هذه الأبيات، أوصاف الشوق والحنين التي طرحها الشاعر في أوصاف ناقته، فالقصة، والصورة والألفاظ هي بيئة الشاعر وأزمته، وليس من الصعب على القارئ أن يعثر على المتلمس من أوصاف هذه الناقة، فالألفاظ (نخلة القصوى، أمرات أماليس، شامية، لاعراق لنا، عمرو، قابوس) كلها تدل على المتلمس دون غيره، ونحن نتفق مع د. وهب روميه فيما قاله عن هذا التبني بين الشاعر والناقة في هذه القصيدة قائلاً:- (إن النزاع بين الناقة والشاعر هو رمز للصراع المستمر بين- العاطفة- الجامحة التي لا يزيدها الزمن إلا ضراوة وجموحاً وبين- العقل- البصير الذي يقدر ويحسن التقدير) [51]. ولكن مهما ظهر العقل بسيطرته، فإن العاطفة أظهر وأقوى في مثل هذه الحالات، وما تراني حين أتحدث عن المتلمس في محنته إلا ان أقول (ما أشبه اليوم بالبارحة) ولله درك يا متلمس كنت فرداً وصرت اليوم أمة.

و لم يكن هذا الإسقاط مقصورا على الإبل، بل شمل أيضاً الخيل الأصيلة التي تغني بها الشعراء، كصورة من صور البطولة والمجد، والقوة، فهذا عنترة، الشاعر الفارس الذي تغنى ببطولته وشجاعته، يصور لنا بأس الحرب، وشدتها حتى أزور حصانه عنها، ويرسم في قصيدته هذا التحسس في تنحنحه وعبراته.

يدعون عنترَ والرماحُ كأنها ... أشطانُ بئرٍ في لبان الأدهم[52]

ما زلتُ أرميهم بثغرة نحرهِ ... ولبانه حتى تسربل بالدم

فازورَّ من وقع القنا بلبانه ... وشكا إلي بعبرةٍ وتحمحُمِ

لو كان يدري ما المحاورةُ اشتكى ... ولكان لو علمَ الكلامَ مُكلمّي

وهذا عامر بن الطفيل[53]، فارس قيس، وسيد بني عامر، كانت له فرس اسمها المزنوق، يصفها ويحاورها في قصيدته.

وقد علم المزنوق أني أكرهُ ... عشيَّة فيف الريح كرَّ المشهرِ[54]

إذا ازوْرَّ من وقع الرماح زجرته ... وقلت له ارجع مقبلاً غير مدبر

وأنبأته أن الفرار خزاية ... على المرء ما لم يبل عذراً فيعذر

ألستَ ترى أرماحَهُم فيَّ شُرّعاً ... وأنت حصانٌ ما جدُ العِرق فاصبر

وهذا الإسقاط النفسي الذي وضعه الشاعر الجاهلي في أوصاف حيوانه، قد منح الطبيعة بعدا أسطورياً، ورمزيا تنعكس فيه هموم الشاعر، وغاياته، وكأن عالم الشعر حمل في ثناياه الكثير من معالم المعرفة النفسية للشاعر، فغذت الطبيعة في الشعر عالماً جديداً عن حقيقتها الواقعية بسبب إضافات الشاعر الذاتية عليها، فهو يحقق في طبيعته عملية الخلق الجديدة، فالفنان لا يلتقط صور العالم الخارجي ثم يقدمها كما هي إلى الناس،بل الفنان ينشيء صوراً فنية في ذهنه تستمد مقوماتها من الواقع، ولكن التركيب ذاته هو ما يعبر عن إبداعية الفنان ومقدرته على الخلق الفني الجديد[55].

من هذا الفهم، نرى الشاعر الجاهلي قد كُسِيَ شعر الطبيعة عنده بنفحات نفسية واضحة وأخذ يختار من عناصر الطبيعة ما يتناسب أكثر في التعبير عن هذه الخلجات الذاتية، فأصبح وصف الطبيعة ممتزجاً مع ذاته، وأصبحت ذاته منسكبة في وصف الطبيعة، فلذلك لا نذهب مع الذين يقولون بأن الشاعر الجاهلي وصف الطبيعة كما رأتها عينه، وكان وصفه لها لمجرد الوصف، دون تفاعل ذاتي وإنساني مع عناصرها،

وكما قال بذلك كارل برو كلمان: (فهم ما رسوا أيضاً فن وصف الحيوان والطبيعة.. ولكنهم قصدوا هذا الفن لذاته فحسب)[56]، وهذا القول يجعل الشاعر منفصلاً عن إبداعه وجدانياً، وهذا يتنافى مع أسس الإبداع عند الفنان، فإن ما يقدمه الفنان من إنتاج فني يكون موضوعياً، ولكنه يكون في نفس الوقت مصاغا بصياغة ذاتية، أي أن الفنان يعيد تشكيل الأشياء الموضوعية وفق مزاجه الخاص[57].

وفضلاً عما تقدم، نود أن نشير إلى مسألة مهمة أخرى تصب في صور التعبير الذاتي في الشعر الجاهلي، وهي علاقة الفرد المتعددة مع مجتمعه التي يتخذ الصراع فيها وجها من وجوهها فالمعروف أن كل إنسان يمتلك نزعات ورغبات، وميولاً يحب أن يحققها على الواقع، وهي شكل طبيعي من أشكال النفس الإنسانية، وهي دوافع تنشط فيه الحركة والحياة.. وبما أن المجتمع مكون من عدد كبير من الأفراد، كل منهم يروم تحقيق رغباته، وتطلعاته التي لا بد أن تصطدم مع رغبات وأماني الآخرين، لذلك وضع المجتمع الإنساني عبر تاريخه الطويل شيئا من الضوابط والتقاليد والأنظمة للتخفيف أو التقليل من هذه التقاطعات أو الفشل لدى بعض الأفراد في المجتمع، ولا سيما عندما تمتلك هذه النفوس إحساساً مرهفاً، كالذي يمتلكه المبدعون، إذ تتحول في نظرهم أحياناً هذه التقاليد والقوانين والأعراف الاجتماعية.. إلى قيود تعرقل تحقيق الرغبات والتطلعات، أو تفشل في تحقيق العدل. لذلك تذهب هذه النفوس للبحث عن مجالات، ومسارات تستطيع من خلالها أن تحقق ذاتها، ورغباتها التي أصبحت المثال المنشود لديها، وترى عند ذلك أن أحد هذه الاتجاهات التي يمكن أن تحقق فيها ذاتها يتمثل في الطبيعة، واللجوء إليها هرباً من هموم الحياة الرتيبة، وبذلك تصبح الطبيعة النموذج المحبب إلى نفس الفنان بديلاً عن مجتمعه فالطبيعة أكثر هدوءاً، وأوسع حرية، وأصدق مشاعراً، يجد فيها الشاعر ملاذاً له من تلك القيود المتراكمة، فهذا الشنفرى يلجأ إلى الطبيعة وحيوانها، بديلاً عن أهله وناسه الذين أوقعوا الحيف به، فيعلن في قصيدته رفضه لهم، وغضبه عليهم مفضلاً

حياة البرية من الحياة معهم، وذلك في قصيدته التي سميت (لامية العرب) التي سجلت حضوراً كبيراً في تاريخ الشعر العربي[58].

أقيموا بني أمي صدور مطيكم ... فإني إلى قوم سواكم لأميلُ

فقد حمت الحاجات والليل مقمر ... وشدت بطيات مطايا وأرحل

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى ... وفيها لمن خاف القِلى متعزَّلُ

لعمرك ما بالأرض ضيق على امرئ ... سرى راغباً أو راهباً وهو يعقلُ

ولي دونكم أهلون: سيد عملسٌ ... وأرقط زهلول وعرفاء جيئلُ

هم الأهلُ لا مستودعُ السرَّ ذائع ... لديهم، ولا الجاني بما جر يخذل

يقول الأستاذ عيسى بلاطة:- إن الرومنطيقين ينادون بالعودة إلى الطبيعة، وما هذا النداء إلا محاولة فنية لتحقيق (البعد) عن عالم الواقع، لأنهم لا يقصدون من هذه الطبيعة جبالها، ووديانها..، وإنما يقصدون فوق ذلك كله بعدها عن العالم المصطنع الذي خلقه الإنسان، وبعدها عن المجتمع الذي أقامه وكبل فيه نفسه بأغلال التقاليد، والعادات والشرائع والقوانين، فليس في الطبيعة تقليد وعادات.. إنما فهيا الحرية التي تنطلق فيها النفس على سجيتها.. وتتحرر من إصر المخاوف والمحارم، وتحقق ما عجزت عن تحقيقه في المجتمع المقيد[59].

وهناك الكثير من الشعراء الجاهليين الذين وقعوا في هذا الصراع مع مجتمعهم، وقبائلهم، واستنكفوا الحيف والظلم الذي أصابهم من جراء ما تعارف عليه القوم من تقاليد أجزعتهم ونفروا منها، لأن فيها ظلماً وقساوةً.. ولعل ابرز هؤلاء الشعراء عنترة بن شداد بسبب لونه وحبه لعبلة، وطرفة بن العبد الذي أحس الغربة بين أهله وقومه، وتأبط شراً، والكثير من الشعراء الذي تحسسوا حجم التقاطع مع مجتمعهم، فراحوا يصرخون من هذا الظلم ويرفضونه بصور شعرية جميلة، وأساليب تفيض بهذه المشاعر

الجياشة القوية، فهذا عروة بن الورد يعبر عن قساوة الفقر والحاجة، وغياب العدالة الاجتماعية بين الناس، حاملاً سيفه، ومدوياً في شعره هذا الاستنكار.

دعيني للغنى أسعى فإني رأيتُ الناسَ شرهم الفقير[60]
وأبعدهم وأهونهم عليهم وإن أمسى له حسب وخيرُ
ويقصيه الندى وتزدريه حليلته وينهره الصغير
ويُلقى ذو الغنى وله جلال يكاد فؤاد صاحبه يطير
قليل ذنبه والذنب جم ولكن للغنى رب غفورُ

وهكذا نرى الشاعر الجاهلي تغنى بالطبيعة بكل براءة، وارتمى في أحضانها ارتماء الطفل في حضن أمه، بث همومه، واشتكى لها تباريح الهوى، وشجى الأحزان، ولوعة الغربة، ووجد فيها خير أنيس في الزمان، وتحسس رياضها، وتنفس صعيدها، وتلمس جمالها، وكانت متنفسه الكبير، منها يبدأ وإليها يعود، هرب إليها من ظلم أخيه الإنسان، ولم يتخل عنها طرفة عين، توحد بها بفطرته البدائية، وسجيته في طفولة الحضارة، فكان الشاعر الجاهلي المهد الأول لمضمون الرومانسية، وحبه للطبيعة، قال تجربته الشعرية دون أن ينظر إلى تفاصيل المصطلحات التي تعرفنا عليها من اتجاهات المدارس النقدية الحديثة.. إنه قال ما تحسسه، وعبر عما عاناه، وصور ما شاهده بكل عفوية وبراءة، وأكد لنا مساحة الإنسانية الكبيرة في تجربته الشعرية، التي نلتقي بها، ونتعاطف في مضمونها،رغم البعد الزمني، فتجربته تنتقل من جيل إلى آخر، ومن عصر إلى سواه، تترابط بتلاقي الوشائج الإنسانية، مبرهناً في عطائه الشعري، أن التجربة الشعرية هي الأفق الأوسع في حياة الشعر، وهي احتواء لما فيها من مصطلحات ومسميات فنية أو نقدية متجاوزة حدود الزمان والمكان، ففي الشعر ملتقى الإنسانية.

الهوامش

(1) في نقد الشعر، ص97، د. محمود الربيعي، دار المعارف بمصر، ط4، 1977

(2) سيكلوجية الإبداع في الحياة، ص9، د. عبدالعلي الجسماني، الدار العربية للعلوم- بيروت ط1 1416 هـ-1955م.

(3) مذاهب الأدب، ص149-150، د. ياسين الأيوبي، دار العلم للملايين- لبنان

(4) ينظر في نقد الشعر، ص88، وينظر مذاهب الأدب ص121، وينظر الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر ص67،

(5) سيكلوجية الإبداع في الفن والأدب، ص15، يوسف ميخائيل أسعد، دار الشئون الثقافية- بغداد.

(6) مذاهب الأدب، ص121.

(7) يظر دير الملاك د. محسن أطيمش ص71، دار الشون الثقافية العامة- بغداد ص2، 1986م

(8) الرومنطيقية، عيسى بلاطة، ص38، دار الثقافة- بيروت ط1، أيار 1960م

(9) المفضليات، ص258-259

(10) فتح الكبير المتعال، اعراب المعلقات العشر الطوال، الشيخ محمد علي طه الدره، ج511/2

(11) ينظر في الشعر الجاهلي د. رعد احمد الزبيدي، ص87، دار الجيل الجديد- صنعاء 1999م.

(12) ديوان الأعشى، ص80، المكتبة الثقافية- بيروت.

(13) الشعر والزمن د. جلال الخياط، ص19/ منشورات وزارة الإعلام العراقية- بغداد 175م

(14) المفضليات، ص242.

(15) ينظر مذاهب الأدب، ص204

(16) مذاهب الأدب، ص154

(17) في نقد الشعر، ص95-96.

(18) الديوان، ص88، دار صادر- بيروت.

(19) ديوان امرئ القيس، ص23، وينظر شعراء النصرانية ص34

(20) الشعر والشعراء، ص227.

(21) مذاهب الأدب، ص175

(22) في نقد الشعر، ص92، وينظر شعر الطبيعة في الأدب العربي، ص37، د. سيد نوفل.

(23) الديوان، ص171.

(24) الحيوان، 20/2، أبو غثمان عمرو بن بحر الجاحظ

(25) في نقد الشعر ص152.

(26) مذاهب الأدب ص152.

(27) الديوان ص91، شرح وتقديم عباس عبدالساتر، دار الكتب العلمية- بيروت.

(28) الديوان، ص27.

(29) سويد بن أبي كاهلة، المفضليات ص192.

(30) الرومانتيكية ص60.

(31) الديوان ص145، المكتبة الثقافية- بيروت.

(32) الديوان ص119-120، دار الكتب العلمية- بيروت.

(33) أغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي، ص128-219، د. احمد محمد الحوفي، مكتبة نهضة مصر- القاهرة

(34) في نقد الشعر ص91.

(35) في نقد الشعر ص92

(36) مذاهب الأدب ص171.

(37) الرومنطيقية، ص58.

(38) ديوان طرفة بن العبد، المعلقة ص20.

(39) علقمة الفحل، حياته وشعره ص66، عبدالرزاق حسين، المكتب الإسلامي- بيروت

(40) ديوان طرفة بن العبد المعلقة، ص20

(41) علقمة الفحل، حياته وشعره ص66، عبدالرزاق حسين، المكتب الإسلامي- بيروت

(42) ديوان طرفة، ص20

(43) الديوان، ص60، وينظر المفضليات ص290.

(44) المفضليات ص346.

(45) الشعر الجاهلي، د. يحيى الجبوري ص366

(46) الديوان، ص65-66

(47) شعرنا القديم والنقد الجديد، ص193، وقد تناول د. وهبي رومية في هذا الكتاب فصلاً قيما عن الذات العربية في القصيدة الجاهلية في ص179.

(48) ينظر شعراء النصرانية ص332.

(49) الشعر والشعراء، ص106

(50) شعراء النصرانية، ص332

(51) شعرنا القديم ص189.

(52) الديوان ص29--30

(53) شعراء العرب الفرسان، ص76.

(54) الديوان ص61-62.

(55) سيكولوجية الإبداع في الفن ص49-50، وينظر في نقد الشعر ص91، وينظر شعرنا القديم ص152.

(56) تاريخ الأدب العربي 56/1 كارل بروكلمان.

(57) سيكولوجية الإبداع في الفن ص21-23.

(58) ينظر القصيدة في شرح لامية العرب للعكبري، تحقيق د. محمد خير الحلواني.

(59) الرومنطيقية، ص57-58.

(60) شعراء النصرانية ص888.

المصادر والمراجع

1- الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر، د. مفيد محمد قميحة، منشورات دار الآفاق الجديدة- بيروت، 1401هـ-181م.

2- أغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي، د. احمد محمد الحوفي، مكتبة نهضة مصر- القاهرة.

3- تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، ترجمة د. عبدالحليم النجار، دار المعارف بمصر.

4- الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون،ط1 القاهرة 1356هـ-1938م.

5- دير الملاك، دراسة نقدية للظواهر الفنية في الشعر العراقي المعاصر، د. محسن اطيمش، دار الشئون الثقافية العامة- بغداد، ط2، 186م.

6- ديوان الأعشى، المكتبة الثقافية- بيروت، لبنان.

7- ديوان امرئ القيس، دار الكتاب العربي- بيروت.

8- ديوان طرفة بن العبد، مشورات دار مكتبة الحياة- بيروت- لبنان.

9- ديوان عامر بن الطفيل، دار صادر- بيروت 1383هـ-1963م.

10- ديوان عنترة، دار صادر- بيروت.

11- ديوان لبيد بن ربيعة العمري، دار صادر- بيروت

12- ديوان النابغة الذبياني، شرح وتقديم عباس عبدالساتر، دار الكتب العلمية- بيروت، ط2، 1406هـ- 1983م.

13- الرومانتيكية، د. محمد غنيمي هلال، مكتبة نهضة مصر- مطبعة الرسالة.

14- الرومانطيقية، عيسى بلاطه، دار الثقافة- بيروت ط1، 1960م.

15- سيكولوجية الإبداع في الحياة، د. عبدالعلي الجسماني، الدار العربية للعلوم- بيروت، ط1، 1416هـ- 1995م.

16- سيكولوجية الإبداع في الفن والأدب، يوسف ميخائيل أسعد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.

17- شرح ديوان المثقب العبدي، تحقيق د. حسن حمد، دار صادر- بيروت، ط1،1996م.

18- شرح لامية العرب، للعكبري، تحقيق د. محمد خير الحلواني، دار الآفاق الجديدة- بيروت، ط1، 1403هـ-1986م.

19- الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، د. يحي الجبوري، مؤسسة الرسالة- بيروت ط5، 1407 هـ- 1986م.

20- الشعر والزمن، جلال الخياط، وزارة الإعلام العراقية- بغداد 1975م

21- شعر الطبيعة في الأدب العربي، د. سيد نوفل، دار المعارف بمصر، ط2

22- شعراء العرب الفرسان في الجاهلية وصدر الإسلام، د. محمود حسن أبو ناجي، مؤسسة علوم القرآن- دمشق- بيروت، ط1،1404 هـ- 1984م

23- الشعر والشعراء، ابن قتيبه، دار إحياء العلوم- بيروت، ط3،1407هـ-1978م.

24- شعرنا القديم والنقد الجديد، د. وهب رومية، عالم المعرفة- الكويت 1416هـ- 1996م.

25-الشعر اللبناني اتجاهات ومذاهب، د. يوسف الصميلي، دار الوحدة- بيروت ط1،1980م

26-شعراء النصرانية قبل الإسلام، لويس شيخو، دار المشرق- بيروت، ط2 1967م

27-علقمة الفحل، حياته وشعره، عبدالرزاق حسين، المكتب الإسلامي- بيروت، ط، 1406هـ-1986م.

28-فتح الكبير المتعال، إعراب المعلقات العشر الطوال، لشيخ محمد علي طه الدرة، مكتبة السوادي- جدة-، ط2، سنة 1409هـ- 1989م.

29-في الشعر الجاهلي، د. رعد الزبيدي، دار الجيل الجديد- صنعاء، ط1 1420 هـ- 1999م

30-في نقد الشعر، د. محمود الربيعي، دار المعارف بمصر،ط4،1977

31-مذاهب الأدب، معالم وانعكاسات، د. ياسين الأيوبي، دار العلم للملايين- لبنان، ط2، 1984م.

32-المفضليات، المفضل بن محمد الضبي، تحقيق وشرح احمد محمد شاكر وعبدالسلام محمد هارون، دار المعارف بمصر، ط10، سنة 1992م.

الإكليل، عدد 25، ابريل-يونيو 2001

من بنية الصورة الفنية
في القصيدة الجاهلية إلى أنماطها
"داليّة النابغة" نموذجاً

د. عبدالله حسين البار

درج متلقو الشعر الجاهلي على القول بانحصار الصور الفنية فيه في إطار بنية الصورة البيانية ولا غير، ولعله يصح ذلك القول لو نظرنا إليه من جهة الكثرة والشيوع، لكن منطوق الكلام ينبيء عن شيء غير هذا ويزيد عليه، وما ذاك إلا بسبب من أن مخيّلة الشاعر أعمق من أن تحدّ، وأوسع من أن تحصر، فإذا النص يجلو لك صوراً تنساب حرةً لا تتقيد ببنية، فتتعدد عناصرها دون أن يشملها إطار واحد، ولذلك لا تتكرر. غير أنها لا تبعد عن أن تكون في هيئة واحدٍ من الأشكال الآتية، إما أن تكون لوحة، أو أن

تكون لقطة، أو أن تكون مشهداً. ولقد يكون الوصف في بعض المظان متصلاً بهذا المعنى، وإن يكن الجزم في شأنه يتطلب تدبراً أعمق. ولقد تكون الصورة سردية، على نحو ما سيجلوه لنا هذا البحث.

و(اللوحة) و(اللقطة) و(المشهد) مصطلحات مقتبسة من ثلاثة فنون أشتات هي (الرسم) و(السينما) و(المسرح) أو (فن التمثيل خاصة). وأحسب أن اقتراض المصطلحات مشروع ما دامت الغايةُ الكشف عن مستغلقات النص، وبيان أسراره، وجلاء مظان الجمال فيه.

والمقصود باللوحة (ذلك الشكل المرئي المفتقر إلى الحركة وإلى الصوت، أي مجرد تشكيل مفرغ من الزمن، ذي وظيفة ما).[1]

والمقصود باللقطة (ذلك التشكيل المرئي الحركي. ولعلّ الحركة هي التي تميز اللقطة من اللوحة، فاللوحة تشكيل ثابت، بينما اللقطة تشكيل محدد متحرك يتسع أحياناً ليصبح ناطقاً).[2]

والمقصود بالمشهد (ذلك التشكيل المرئي الناطق الذي يقوم أساساً على الحوار المعبر عنه لغوياً، والموزع إلى ردودٍ متناوبة كما هو مألوف في النصوص الدرامية).[3]

ولكل من هذه الأشكال خصائصه التكوينية التي تميزه من سواه. وكلها تشكل ما يمكن تسميته بالصورة الحرة.

وبسبب من ذلك التحديد المعرفي لخصائص كل نوع من أنواع الصورة الحرة نكون بمنجاة من الخلط بينها كما سلف أن رأينا عند بعض الدارسين العرب المحدثين. فتتميز (اللوحة) بالجمود والوصفية وثبات الصورة عند حد مكاني وزماني لا تتجاوزه. أما (اللقطة) فتتميز بالحركة والتجدد، واتساع حدود الصورة في إطاري الزمان والمكان، ولقد تتسع وتتمدد فتمتلئ بالصوت فتصبح (مشهدا) يتجاوز حالة الصمت الشائعة في

مجال (الصورة/اللقطة). وهو يتجاوز حدّ المناجاة والبث الوجداني الهامس أو الضاجّ إلى حدّ المحاورة وتقبّل حالات من (الدرامية) في مفهومها المسرحيّ.

وإن في تحليل أشباهٍ ونظائر من تجليات أنواع الصورة الحرة في القصيدة الجاهلية ما يزيد غموض تعريفات تلك الأنواع جلاءً ووضوحاً.

وأول ما نبدأ به تحليل الصورة الحرة على هيئة (اللوحة). وفيها تتجلى (المرئيات) أعضاءً وألواناً ولكن تنقطع بها الحركة من حيث هي أفعال متوالية، وينعدم الصوت. قال النابغة:

نظرتْ بمقلةِ شادنٍ مُتَرَبِّب	أحوى أحمّ المقلتين مقلّدِ
والنظم في سلكٍ يزيّن نحرها	ذَهَبٌ تَوَقَّدُ كالشهاب المُوْقَدِ
صفراء كالسيراء أكمل خلقها	كالغصن في غلوائه المتأوّد
والبطن ذو عكن لطيف طيّهُ	والنحر تنفجه بثدي مقعدِ
مخطوطة المتنين غير مفاضة	ريّا الروادف بضة المتجرّد[4]

يفتنُّ النص هنا في جلاء صورة (الحسناء) في لوحة تبرز جزيئات جمالها وتكشف عنه ليتجلى أمام باصرتي (المتلقي) كياناً مرئياً. فيرى (نظرة) في العين ساجية يشو بها شيءٌ من الحزن، ويرى نَعْمَةً يدل عليها (الذهب المتوقد) ويبصر لوناً يمثله (الاصفرار) وفيه ما فيه من تمكّن الحال، ولا تغفل العين أعضاءً مترفة أكمل خلقها (البطن ذو عكن/ النحر تنفجه../ مخطوطة المتنين/ غير مفاضة/ روادف ريا بضة../).

وهو يجلو كل ذلك في صور مرئية تنقطع فيها الحركة، وينعدم الصوت. أما الجمل الفعلية التي تتراءى في ثنايا النص (يزين نحرها/ ذهب توقد/ أكمل خلقها/ النحر تنفجه) فهي في مقام اللمسات اليسيرة التي يجلو بها (الرسام) أبعاد لوحته، فتزداد جلاءً، ويعظم

أثرها في النفس، وبها تبرز خفايا دقائق، وتتجمل اللوحة ويعمق في النفس صداهـــا، ولا علاقة لها بحركةٍ ولا ما أشبهها. وفي الفعل الماضي (نظرتْ) من انقطاع الحركة ما فيه.

على أنه قد يكون أساسُ اللوحة فعلاً يشي بالحركة، ولا حركة. فأنت تــــرى في اللوحة ناتجها ولا ترى كيفية إنتاج تلك الحركة، فتخرج من دائرة (اللقطة) لتدخـل إلى دائرة (اللوحة). قال النابغة:

6- ينضحن نضحَ المزاد الوفر أتأقـها   شدّ الرواة بماء غير مشـــروب(5)

وهنا تتجلى اللوحة في قوله: (ينضحن)، وهو فعل مضارع لم ينقطع بجزم، فهو دال على الحركة وتجدد أحوالها، فتراءت (الجياد) والعرق يتصبب منها بعد أن أجهدها الغزو في القيظ. وكأنما انصب اهتمام النص على جلاء صورة العرق المتصبـــب دون اعتنـــاء بكيفية تكونه، ومن هنا تجليها في هيئة (اللوحة) دون سواها من هيئات الصورة الحـــرة. ولقد يبين لك ذلك مدك النظر في ما تلاها من صورة حرة تتجلى في هيئـــة (اللقطـــة) وهي قوله: (أتأقها شد الرواة بماء غير مشروب). فهنا تـــتراءى (المـــزادة) مســـترخية مسترسلة، وتلك حال، وترى (الرواة) يشدونها بالحبال فينقبض بعضها علـــى بعـــض فتمتلئ، وتلك حال أخرى، وتتراءى أمام باصرتيك ضخمة ممتلئة، وهو ما جلاه النـــص وأبان عنه. وتلك هي اللقطة. وفيها تغدو الحركة المحرق المولد للصورة. ولقد تتجلـــى (اللقطة) غير مأسورة في إطار بياني كما في قول النابغة الذبياني:-

يهزون أرماحا طـــوالا متونهـــا   بأيد طوال عاريات الأشاجع.(6)

فتجسيد حركة اهتزاز الرماح ورؤية الرجال الطوال ذوي الأيدي الطويلـــة ذات العصب الظاهر في الأكف لقطة يجلوها النص باستعمال الفعل المضارع، وهو لا يخليـــه من الحدث والزمن كما في الصورة السالفة، ولكنه يولد منه صورة مرئيـــة لا تنقطـــع الحركة فيها، ومن هنا مماثلة المنطوق في الشعر بالمصنوع في (السينما).

على أن (اللقطة) في النص الشعري تقوم على أساس المماثلة بين حركتين متراسلتين غايتهما جلاء أبعاد اللقطة الأولى والكشف عن طبيعة الحركة فيـــها. قـــال المتلمـــس الضيعي:

2- تعدو إذا وقع الممرّ بدفـــها		عَدْوَ النحوص تخاف ضيق المرصـد[7]

هنا تبرز (لقطتان) متماثلتان، في أولاهما تبرز (الناقة) في عدوٍ لا ينقطع (تعـــدو)، وقائدها بيده سوط شديد الفتل يهوي به على دفّها. تماثلها لقطة أخرى تتراءى فيــــها (الأتان الوحشية الحائلّ) تجري جرياً سريعاً حتى لا يحيط بها طريق ضيق لا منجى منه.

وهنا يماثل النص بين حركتي الكائنين الحيّين ليزيد أبعاد اللقطة وضوحاً.

ولقد يجمع النص بين لوحةٍ ولقطة، فتخرج الصورة من دائرة الجمود لتدخـــل إلى دائرة الحركة والتجدد، كما في قول النابغة:

25- رقاق النعال طيبٌ حجزاتهم		يحيّون بالريحان يومَ السباسب.[8]

وقد يصنع العكس، فتتراءى اللوحة، (ديكوراً) تتجمل به (الصورة/اللقطة)، كما في قوله أيضاً:

26- تحييهم بيض الولائـــد بينـــهم		وأكسية الإضريج فوق المشـــاجب.[9]

ولقد تتكثف (اللقطة) فيشتمل عليها بيت واحد أو شطر بيت أو بعض بيت كمـــا في أقوال النابغة:

10- إذا ما غزوا بالجيش حلّق فوقـــهم		عصائب طير تهتدي بعصـــائب[10]

4- ينظرن شزراً إلى مَنْ جاء مِن عــرض		بأوجهٍ منكرات الـــرّقّ أحـــرار[11]

22- بمصطحبات من لصـــاف وثــبرة		يزرن إلالاً ســـيرهنّ التدافـــعُ[12]

أما الصورة في أول الأبيات الثلاثة أعلاه فلقطة تبرز الجيش يتقدم في سيره للغـزو مكتملة عدته وعتاده تحلق فوقه الطيور الكاسرة الجارحة لتفيد من ظفره جثثاً تقتـات عليها، وقد تجلت (اللقطة) كلها في بيت شعر واحد.

أما الصورة في البيت الثاني فلقطة أخرى تتراءى فيها النساء مأسـورات ينظـرن بمؤخرة أعينهن، يتلفتن يميناً وشمالاً ليتعقبن بحدة نظراتهنَّ أعداءهنّ (من جاء من عرض). وقد برزت (اللقطة) في الشطر الأول من البيت.

أما في آخر الأبيات فلقطة ثالثة تبصر فيها النوق وقد أنهكها التعب وأعياها السـير الطويل فهي تتدافع في سيرها تنهض بسرعة وتكلّ. وقد جلا النص اللقطة في بعض بيت ولا غير.

على أن اللقطة قد تنساب في النص فتشتمل عليها جملة أبيات تملؤهـا جزيئـات تفضي بتجمعها إلى إبراز كيان الصورة، وهنا ترى حدثاً وتشهد حركة، ولقد تسـمع صوتاً مفرداً لا يبلغ أن يكون حواراً كما في قول حاتم الطائي:

1- وفتيان صدق ضمّهم دلج السـرى	على مسهمات كالقداح ضوامـر
2- فلمّا أتوني قلـت: خـير معـرّس	و لم أطّـرحْ حاجـاهم بمعـاذر
3- وقمـت بموشـيّ المتـون كأنـه	شهاب غضاً في كفّ ساع مبـلدر
4- ليشقي به عرقوب كومـاء جبلـة	عقيلـة أدم كالهضـاب بهـازر
5- فظلّ عفاتي مكرمـين، وطـابخي	فريقان منهم بين شاو وجـازر(13)

وتبلغ الصورة الحرة ذروتها بتجليها في هيئة (المشهد)، وإنها هيئة تشـتمل علـى الصوت والحركة ولا تخلو من لونٍ وأشباهه مما نجد نظائره في (اللقطة) و(اللوحة)، فهي على هذا جُماع ذلك كله.

و(المشهد) صورة، وإن تضمن حدثاً وشخوصاً، واشتمل على حوار بين الشخوص، وليس بالشرط اللازم اللازب أن نفترض فيه-كما افترض ذلك بعض الدارسين-تَطَلُّبَ حَدَثٍ مرجعيّ تحيل إليه الصورة، فليس ذلك من الشعر في شيء. فهو لا يحيل إلى مرجع كائنة ما كانت سمته، وأنّى له ذلك، وهو تشكيل للعالم باللغة، ومن هنا تراءى (المشهد) في القصيدة صورة تنظر في ذاتها، وتُلتقط دلالاتها وإن تراسل فيه (المرئيّ) (بالمسموع). والمقصود من استعماله في النص ضمن تقنيات أخرى، أو مستقلاً دون سواه، أن يجلو موقفاً ويجسد رؤية، وبهذا يكون له ما (للمعادل الموضوعي) من إبلاغية في النص. ومن هنا تتجاوز الصورة حدّ الصفر في الكتابة لتوغل في التخييل. ومن مظاهر ذلك قول حاتم الطائيّ:

1- وعاذلةٍ هبّت بليل تلومني ... وقد غاب عيّوق الثريا فعرّدا

2- تلوم على إعطائي المال ضلة ... إذا ضنّ بالمال البخيل وصرّدا

3- تقول: ألا أمسكْ عليك. فإنني ... أرى المال عند الممسكين معبّدا

4- ذريني وحالي، إن مالكِ وافر ... وكلّ امرئ جار على ما تعوّدا

5- أعاذل لا آلوك إلا خليقتي ... فلا تجعلي فوقي لسانك مِبْرَدا

6- ذريني يكن مالي لعرضي جنة ... يقي المالُ عرضي قبل أن يَتَبَدَّدا

7- أريني جواداً مات هزلاً لعلني ... أرى ما ترين، أو بخيلاً مخلّدا

8- وإلا فكفّي بعض لومِك، واجعلي ... إلى رأي من تلحين رأيك مسندا[14]

يتجلى في النص بطلان هما (العاذلة)، و(الذات المتكلمة في النص). وإذا كان أحد البطلين قد تجلى في النص بصفته (العاذلة/عاذل)، وببروز (الضمير) الدال عليه، جاء ثماني عشرة مرة، منها أربع مراتٍ بضمير الغائب، وثلاثة عشرة مرة بضمير المخاطب، ومرة بضمير المتكلم، فإن البطل الثاني (الذات المتكلمة في النص) قد تجلى من خلال الضمير

ولا غير، جاء ست عشرة مرة، كلها بضمير المتكلم إلا مرتين جاءتا بضمير المخاطب (تقول: ألا أمسكْ عليك).

حضور البطلين على تلك الصورة في النص يدلّ على تماثل شخصيتيهما في الطغيان والقوة، فهما يتقابلان ضديا، تسعى الأولى إلى كبح جماح الثانية لترعوي عن هيامها بالكرم، وتندفع الثانية لتصدّ رغبات الأولى في حدة وفي حسم، ومن هنا كان (الخطاب) معادلاً (للتكلم)، لكن الرغبة في الانتصار للذات المتكلمة في النص أفضى إلى طغيان هذه على (العاذلة)، يتبين لك ذلك من خلال استخدام أسلوب الأمر، ففي حين لجأت (الأولى) إلى استعماله مرتين، أكثرت (الثانية) من استعماله في الكلام مزدوجاً مع أسلوب النهي، جاء في النص ست مراتٍ متوالية، وفي هذا ما ينبؤك عن قوة الذات المتكلمة وقدرتها على الحسم.

والنص يجلو (المشهد) من خلال تحديد الإطار الزماني (هبك بليلٍ/ قد غاب عيوق الثريا). لكنه لا يكشف عن مكانِه لأنه لم يكن غاية مقصودة.

وفيه نسمع تحاور الأصوات من خلال حكايتها (تقول)، وإن كان هذا غير مانع النص من جلاء الصورة على هيئة مرئية ومسموعة في آن. وتلك بعض خصائص نص الصورة الحرة في هيئة (المشهد).

ولقد يتسع (المشهد) فيشمل النص كاملاً كما في نص حاتم الطائي وقد سلف ذكره، وكما في نص (حاجب بن حبيب الأسدي) في (المفضليات). ولقد يضيق حتى يغدو جزءاً من النص، وتكون دلالته متصلة بدلالة النص كاملاً كما نجد في قول امرئ القيس:

12- ويومَ دخلت الخدر خدر عنيزة ... فقالت: لك الويلات إنك مرجلي

13- تقول: - وقد مال الغبيط بنا معاً ... عقرت بعيري يا امرأ القيس، فانزل

14- فقلت لها سيري وأرخي زمامه ولا تبعديني من جناك المعلل[15]

هنا تسترجع (الذات المتكلمة في النص) مشهداً تم حدثه وانقضى فعله في زمانٍ قديم (يومَ دخلتُ)، في هيئة (الاسترجاع FLASH BACK) لنزرعه في النص لتفيد من ناتجه الدلالي. فتتراءى (الذات) متقحمة غير آبهة بردود فعل الآخرين، يَستحثها طلب (اللذة) على ركوب الأهوال وتقحم المغامرات. تقابلها ذات أخرى هي هنا (عنيزة)، خائفة مذعورة لا تقوى على دفع ذلك المغامر المهتاج فتلجأ إلى الدعاء (لك الويلات)، واستدرار عطفه ورحمته (إنك مرجلي)، وكبح جماح هجمه بإظهار الضعف (عقرتَ بعيري)، وبإظهار التضجّر والضيق الناتج عن تخصيصه بالنداء (يا امرأ القيس)، وبالأمر الصريح (انزل).

وهو مشهد تتعالى فيه أصوات المتقابلين. ثم ينقطع (المشهد) بموسوم ههنا لينتقل النص إلى نمط آخر من أنماط التصوير، لكنه لم يخلِ (المشهد) من دلالة تتسق مع دلالات وحدات النص الأخرى.

وبمثل هذه الطرائق في التشكيل تتجاوز الصورة الفنية في القصيدة الجاهلية كونها (بيانية) محدودة ببنىً محصورة لتوغل في فضاء أوسع وتنساب في تخييل ممتد، وهو ما هيأه لها استعمال الصورة الحرة بكل هيئاتها وسيلة من وسائل التعبير في النص.

على أن في القصيدة الجاهلية نمطاً آخر من أنماط التصوير تمكن تسميته بالصورة السردية.

وهنا يبرز النص الصورة في إطار بنية الصورة التشبيهية ثم يتجاوز ذلك الإطار المحدود بسرد قصة ذات أبعاد رامزةٍ تكون تطويراً للإطار الشكلي الذي افتتحت به الصورة، وتشي بأبعادٍ مضمونية ذات صلة بالتجربة التي انبعثت منها القصيدة، ويتحقق بها للنص نموٌ عضويٌ، وبناءٌ متلاحم الكيان على نحو لا يخفى على عين اللبيب المتوسم.

ولقد تتزين بكثير من الصور البيانية تشبيها واستعارة وكناية، بوصفها وسائل تعبير تجلو الأبعاد وتزيدها وضوحاً.

وهذا النمط من التصوير لا يرد إلا في القصيدة المركبة فتتراءى (الصورة السردية جزءاً من كيان القصيدة، ولبنة في لبنائها يتنامى بها ذلك الكيان. ومن هنا وَجَبَتْ الإشارة إلى صلتها بما سبقها أو لحقها من وحدات لتُستَبان دلالتها في النص.

والشاعر الجاهلي يوظف الصورة السردية في النص معادلاً موضوعياً يقابل طريقة التعبير بالنجوى والإفضاء الوجداني في القصيدة كائنة ما كانت سمة التجربة الشعورية أو الفكرية التي تتخلل النص. فهي ذات وظيفة فنية ولا صلة لها من حيث هي عنصر من عناصر يتشكل منها النص بالتفسير الأسطوري الذي درج عليه بعض الباحثين المحدثين.[16] والملحوظ على تأويلات ذلك المنهج الأسطوري عدم إحكام الصلة بين (بنية الصورة) و(تأويلها)، فجاءت غير عضوية، ولا نابعة من ثنايا النص. فهم يفتعلون ربط الصورة بالتأويل على نحو ظاهر. قال الدكتور علي البطل: (إن صورة الثور الوحشي في الشعر العربي تحكي في عناصرها المتكررة قصة يمكن ربطها بهذه الأسطورة، كما يمكن ربطها بمنبع طقوس آخر هو شعائر السحر المتعلق بالصيد).[17] أفتكون الصورة على هذا التأويل سماويةً قدسيةً تارة، وأرضيةً نفعيةً تارة أخرى؟! لكن نظرهم إلى الينبوع الذي مَتَحَ النصُّ منه الصورة شغلهم عن الاعتناء بطرائق تشكيلها وكيفية إنتاجها للدلالة، وما يحققه ناتجها الدلالي من صلة بينها وبين سواها من وحدات النص، فتراءت (الصورة) في تحليلاتهم مبتورة مستقلة في حين هي مزروعة في النص لتؤدي وظيفةً ما. ناهيك بأن ناتجها الدلالي عند أصحاب هذا المنهج واحدٌ لا يتغير، وهو في الأصل متجدد متنوع بتجدد التجارب الشعرية وتنوعها. والشواهد على ذلك دالة، وهي من الكثرة بمكانٍ، فلا نستطيع استقصاءها في القصيدة الجاهلية عامة، وسنكتفي بضرب أمثلةٍ شوارد وحسبك من القلادة ما أحاط العنق. على أن الحديث عن (الصورة

السردية) يتطلب بحثاً مستقلاً يبين عن بنيتها ونمطها وينبوعها وفاعليتها في بناء النص ودلالتها فيه وعلاقتها بطرائق التعبير الأخرى التي تشتمل عليها (القصيدة الجاهلية). تلك أمانيّ، فلندعها إلى حين لنمض في استقراء نماذج من الصورة السردية في نصوص جاهلية أشتات.

قال بشر بن أبي خازم (يمدح عمرو بن أمّ إياس). [18] :

أطلال مية بالتلاع فمثقب   أضحت خلاءً كاطراد المُذْهَب

وهي تتشكل من عدد من الوحدات المتقابلة المتناظرة تفضي بتشكلها على ذلك النحو إلى استقامة النص واكتمال بناء كيانه. ويمكن تقسيم وحداته على النحو الآتي:

الأبيات (من 1 إلى 4) تجلو صورة الأطلال وقد غدت خلاءً تجر الريح فيها أذيالها فتطرد خطوطها متتابعة بعد أن هجرها أهلها و لم يف لها إلا (الذات المتكلمة في النص) (عادني أشجان نصب للظعائن/ اهل دمعي في الرداء صبابة) وهي نظائر دلالية تمنح وحدة متناظرة هي الارتباط الوجداني الذي يفضي إلى شيء من الاتحاد. ومن هنا يمكن جلاء دلالة الوحدة على نحو من الرسم الآتي:

(الذات المتكلمة في النص U الأطلال) # (الآخرون ? الديار) فتتراءى أمامنا علاقة تضاد بين موقفين أولهما يتصل شخوصه بعضهم ببعض في صلة وجدانية وثقى، وثانيهما مفارق له ينفصل شخوصه بعضهم عن بعض وإن تكن وسائل الاتصال أقوى. ومن هنا تنبع المفارقة بين الموقفين.

تتراسل مع هذه الوحدة ثانية يشكلها بيتان هما قوله:

5- ولقد أسليّ الهمّ حين يعودني   بنجاء صادقة الهواجر ذعلب

6- حرف مذكرة كأنّ قتودها   بعد الكلال على شتيم أحقب[19]

فتتراءى (الناقة) سريعة في السير، قوية عليه لاتمهاب (نجاء صادقة الهواجر ذعلب)، وهي مصقولة نجيبة ذات مضاء كالسيف (حرف مذكرة)، وتلك نظائر دلالية تفضي إلى وحدة متناظرة هي (القوة)، وتشي بعلاقةِ تماهٍ واتحاد بين (الذات المتكلمة في النص) (أسلي/ يعودني) وبين (الناقة)، فتتراءى العلاقة بينهما على نحو من التشكيل الآتي:

(الذات المتكلمة) U الناقة

ثم تتجلى صورة سردية يقص فيها النص حكاية من حكايات الحمار الوحشي مع أتنه في الأبيات الآتية:

7- جون، أضرّ بملمع يعلو بها	حَدَب الإكام وكلّ قاع مجدب
8- ينوي وسيقتها، وقد وسقت له	ماء الوسيقة في وعاء معجب
9- فتصكّ مَحْجرَهُ إذا ما استافها	وجبينه بحوافر لم تنكب
10- وتشجّ بالعير الفلاة كأنها	فتخاء كاسرة هوت من مرقب
11- والعير يرهقها الخبار، وجحشها	ينقضُّ خلفهما انقضاض الكوكب
12- فعلاهما سَبطٌ كأنّ ضبابه	بجنون صارات دواخن تَنْضب
13- فتجاريا شأواً بطيناً ميله	هيهات شأوهما وشأو التولب.[20]

لنا أن ننظر أولاً إلى الصورة في ذاتها من حيث أن لها عناصر تشكلها، ثم نشفع ذلك ببيان صلتها بما تقدمها وتلاها من وحدات النص.

وهنا تتراءى علاقة اتصال حميم بين الحمار الوحشي وأتنه، فهو ينوي الاتصال ويرغب فيه (ينوي وسيقتها)، وقد سبق له شيء من ذلك فهي (ملمع/ وقد وسقت له ماء الوسيقة)، لكنها تباغضه تدللاً (تصك محجره وجبينه إذا ما استافها)، وتحتمل معه مشاق الحياة (تشجّ بالعير الفلاة)، وتشاركه اللهو ليتخففا من عناء السير (فتجاريا شأواً بطينا ميله).. وكلها نظائر دلالية تمنح وحدة متناظرة هي المحبة والاتصال الحميم، ولا

تخلو الصورة ههنا من دلالة الخصوبة والنماء. ويمكن تجسيد العلاقة التي تشف عنها بنية الصورة على نحو من الرسم الآتي:

الحمار الوحشي U الأتن

علاقة الاتصال هذه تتراسل معها علاقة اتصال أخرى بين (الناقة) والحمار الوحشي وأتنه، من حيث ربط النص بينهما بأداة التشبيه (كأن)، فتبدو العلاقة بينهما على الشكل الآتي:

الناقة U الحمار الوحشي وأتنه

على أن هذا لا يعني أن (مدار القصة بدءاً ونهاية هو الإشارة بقوة الناقة وإعظام صبرها على جهد السير)[21] كما ذهب إلى ذلك (علي النجدي ناصيف)، فليس ذلك من عمق التحليل وصوابه في شيء. وفيه ما فيه من انصراف عن تبين مغازي الصورة وأبعادها الدلالية من خلال بنية النص كاملاً، وهو ما نسعى إلى الوصول إليه ههنا، وفي مظانّ أخرى.

ولذلك تتراءى الوحدة الأخيرة من وحدات النص مختصةً بالمديح، وتشكلها الأبيات (من 15 إلى 23)، وفيها تتراءى صورة للممدوح موصوفاً بالكرم (بحر يفيض/ الواهب القينات/ المانح المئة الهجان)، والبسالة والشجاعة (أشجع من هموس أغلب/ رب زحفٍ قد سموت بجمعه)..

وتلك هي جوهر التجربة من حيث بعدها الذاتي المباشر. ولا تخلو من دلالة اتحاد بين الذات المتكلمة في النص والممدوح (أرمي بها الفلوات ضامرة/ حتى حللتُ نسوع رحل مطيتي..)، ومن هنا الحرص على إسباغ الصفات المثلى على الممدوح.

لكن النص لم يعمد على جلاء ذلك مباشرة، وإنما اتكئ على الصور الرامزة الدالة على ذلك (الاتحاد) بين الذاتين مادحة وممدوحة، فكانت صور دالة تتراءى فيها علاقة

اتصال ممتدة بين (الذات المتكلمة والأطلال) وبينها و(الناقة) وبين (الناقة) و(الحمار الوحشي) وبين (الحمار الوحشي وأتنه) وبين (الذات المتكلمة) و(الممدوح).

ولقد جاءت الصورة السردية رابطة بين ماتقدمها من وحدات النص وتلاها، ولذلك مهدت أبياها للانتقال إلى وحدة (المديح).

وعليه تتراءى بنية الصورة السردية وعلاقتها بوحدة المديح على نحو من الشكل الآتي:

(المتكلم U الممدوح) = (حمار الوحش U الأتن) = (الناقة U الحمار) أفلا يشي ذلك بأن العلاقة بين (الناقة) و(الممدوح) لا تبعد عن التماهي والاتحاد؟ ومن هنا يصح وصف الصورة السردية بالبنائية، لأنها تدخل في نسيج النص وتقيم كيانه.

تتماثل مع هذا التوظيف الفني للصورة السردية في القصيدة الجاهلية استخدامها في قصيدة أخرى لبشر بن خازم، ومطلعها:

أمن ليلى وجارتها تروحُ   وليس لحاجةٍ منها مريحُ.[22]

وليس ههنا مديح أو هجاء أو ما شاههما من أغراضٍ مزعومة، ولكن ههنا ذات مكيونة تكابد في ليلها حزناً وألماً وشوقاً وحنيناً، وتبث شكواها، تتخفف من أبخرتها السامة. فنجد الفرقة والوحشة (ليس مبيّنٌ في الدار إلا مبيت ظعائن وصدى يصيح)، ونجد الشؤم والنحس (أتاك به غذافيّ فصيح)، ونجد البكاء (أكفكف العبرات/ دمع العين منهمر/دمعي غَرْبُ شنّ)، ونجد الحنين (ماَقلَبَ الصبابةَ مثلُ شوق..) ونجد الرغبة المكبوتة والألم المدفون في أغوار النفس (أزاحت عليّ حرج مروح). وكلها نظائر دلالية تمنح وحدة متناظرة هي (الضعف). وهو ما تأباه رؤية النص الجاهلي للعالم، إذ يعادل في إحساس الإنسان يومذاك (الموت)، يقابله معنى (القوة) الذي يساوي في إحساس (الحياة)، فتنهض (الناقة) صورةً لمعنى (القوة) تتجاوز به (الذات المتكلمة) ذلك

الإحساس بالضعف، فتقوم علاقة اتصال بينهما مقابلةً علاقة الانفصال بين (الذات المتكلمة في النص وبين (ليلى وجارتها). وهو ما يمكن جلاؤه على نحو من الشكل الآتي:

(ليلى وجارتها ? الذات المتكلمة) # (الذات المتكلمة U الديار) = (الذات المتكلمة U الناقة) ثم يجلو النص صورة الثور الوحشي في صراعه مع الطبيعة والكلاب والصياد ليخرج الثور من ذلك كله ظافراً منتصراً. وهنا تتراءى علاقة انفصال بين الثور الوحشي وبين الصياد وكلابه:

(الثور الوحشي ? الصياد وكلابه).

هذا من حيث النظر إلى الصورة في ذاتها، لكننا حين ننظر إليها في صلتها مع وحدات النص الأخرى نجد أنها تجلو أبعاد التجربة بطريقة رامزةٍ دالة، ويتراءى الصراع النفسي الذي كابدته الذات المتكلمة لحرمانها من الظفر بالمحبوبة والتسلّي بها في ليالي الهمّ والحزن والأسى معادلاً للصراع الحسي الذي كابده الثور في صراعه مع الكلاب الصائدة في الحفاظ على حياته. وعليه تتراءى علاقات (الشخوص) في القصيدة على نحو من الشكل الآتي:

(الذات المتكلمة U الثور = الذات المتكلمة U الناقة) # (ليلى وجارتها U الكلاب والصياد) أو ليس في هذا إشارة رامزة إلى انتصار الذات المتكلمة على بواعث حزنها وأساها كما انتصر الثور على الكلاب والصياد؟

وفي هذا بعض غايات النص الجاهلي من استعمال الصورة السردية فيه.

وتتجلى في رائية النابغة:

عوجوا فحيّوا النعم دمنةَ الدار ماذا تحيّون من نؤي وأحجار[23]

علاقتا انقطاع واتصال على النحو الآتي:

في الأبيات الخمسة الأولى علاقة انقطاع بين (الذات المتكلمة) و(نعم) في الزمن الحاضر، تقابلها علاقة اتصالٍ بينهما ولكن في الزمن الماضي:

7- أيام تعجبني نعم وأخبرها ما أكتم الناس من حاجي وأسراري

تتراسل معها علاقة اتصال أخرى تنبئ عن إعجابٍ بنعم من حيث هي:

12- بيضاءَ كالشمس وافت يوم لم تؤذ أهلاً و لم تفحش على جار

13- يلاث بعد افتضال الدرع لَوْثاً على مثل دعص الرملة الهاري

14- والطيب يزداد طيباً إن يكون في جيد واضحة الخدين معطارِ

تماثلها علاقة إعجاب بقوة الذات المتكلمة وفتوها:

21- ومَهْمَهٍ نازح تعوي الذئاب به نائي المياه من الورّاد مقفار

22- جاوزته بعلنداة مناقِلَةٍ وعث الطريق على الحزّان مضوارِ

ليخلص النص من بعد إلى صورة سردية تقص صراع الثور الوحشي مع الكلاب يخرج منه الثور منتصراً.

هنا يجمل النص أبعاد التجربة فيتراءى الصراع بين الثور والصياد وكلابه، معادلاً موضوعياً للصراع بين (النعمان بين الحرث وبني ذبيان)، وقد نهاهم عن تربع وادي أقر بعد أن حماه وأعلنهم بذلك، ويمكن جلاء الصورة وفق الرسم الآتي:

حمى نفسه ⟵ الثور ⟷ الصياد وكلابه ⟵ دحروا

حمى واديه ⟵ النعمان بن الحرث ⟷ بنو ذبيان ⟵ دحروا

36- فكرّ محميةً من أن يفرّ كما كرّ المحامي حفاظاً خشية العارِ

ولا ضير في أن نختم الحديث عن هذه الصورة السردية بإشارة سريعة إلى قصيدة أوس بن حجر:

حلت تماضر بعدنا ربباً فالغمر فالمرين فالشعبا[24]

حيث تتراءى علاقة انفصالٍ بين الذات المتكلمة و(تماضر) و(الخليل الغادر) و(بني لبينى)، وقد هجاهم بثلاثة أبيات بصورة مباشرة. تقابلها علاقة اتصالٍ بين تلك الذات المتكلمة و(الأطلال) و(الناقة) على نحو من الرسم الآتي:

(الذات المتكلمة ? تماضر = الخليل الغادر = بنو لبينى) # (الذات المتكلمة U الأطلال = الناقة) ثم تأتي وحدة الثور الوحشي الصورة السردية لتحمل أبعاد القصيدة الوجدانية في معادل موضوعي دال:

(الذات المتكلمة U الأطلال = الناقة = الثور) # (تماضر = الخليل الغادر = بنو لبينى = الكلاب) ومن هنا تغدو للصورةِ السردية وظيفتها في جلاء التجربة والكشف عن أبعادها. فمثلما خرج (الثور الوحشي) منتصراً على خصومه الصياد وكلابه خرجت الذات المتكلمة منتصرة على خصومها بني لبينى)، فكان الهجاء دليلاً على ذلك ومشيراً إليه.

أفلا يشي ذلك وأمثاله إلى إحكام الصنعة، وإجادة الأداء، وبراعة التصوير؟

تتجسد الصورة الفنية في القصيدة الجاهلية إذاً في بنية بيانية ذات أنماط متنوعة، وقد تندّ عن ذلك فتنساب حرة، أو تتجلى في إطارٍ سردي. لكن هذا التخالف في التشكيل الأسلوبي للصورة الفنية لا ينفي عنها التماثل في استلهام الينابيع والحقول الدلالية التي تتكون منها عناصرها الأولى. فلقد تكون مستلهمة من بيئة بدوية ذات تقاليد اجتماعية وأعراف حضارية كما في قول النابغة:

11- فبتّ كأني ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السم ناقع

12- يسهّد من ليل التمام سليمها لحلي النساءِ في يديه قعاقع

13- تناذرها الراقون من سوء سَمّها تطلقه طوراً وطوراً تراجع[25]

هنا يجلو النص صورة الوعيد وأهواله متخيراً له صورة من صميم البادية وهي صورة الملدوغ بحيّة بات يعاني آلام لدغتها. ويفيد (الترشيح) في منح الصورة وظيفة تعبيرية تمكن الصورة من جلاء الإحساس وتضخيم المعنوي.

على أنها قد تكون مستلهمة من بيئة صناعية كما في قوله:

5- كأنّ مجرّ الرامسات ذيولها	عليه حصيرٌ نمقته الصوانع
6- على ظهر مبناة جديد سيورها	يطوف بها وسط اللطيمة بائع[26]

ولا تخفى صورة البيئة التجارية ذات الأسواق المحدودة وما تتسم به من بساطة، من النص.

ولقد يزدوج ينبوع الصورة فتزداد خصوبةً وثراء كما في قوله:

14- قامت تراءى بين سجفي كلّه	كالشمس يوم طلوعها بالأسعد
15- أو درة صدفية غوّاصها	بهج متى يرها يهلّ ويسجد
16- أو دمية من مرمر مرفوعة	بنيت بآجرّ يشاد وقرمد[27]

وهنا صورة تشبيهية على بنية التشبيه المجمل يجلوها لنا ظريك الشكل الآتي:

المشبه	الأداة	المشبه به
المحبوبة	الكاف	الشمس الدرّة الصدفية التمثال (الدمية من مرمر)

ويتراءى ينبوع الصورة متنوعاً، فبعضه من الطبيعة الخالصة (الشمس)، وبعضه من الطبيعة التي يتدخل الإنسان في تحسينها (الدرة الصدفية)، وبعضها من البيئة التي يصنعها الإنسان (الدمية من مرمر).

وقد تستلهم الصورة من ثنايا البيئة الاجتماعية ذات النكهة الدينية كما في قول امرئ القيس:

12- فأدركنه يأخذن بالساق والنسا		كما شبرق الولدانُ ثوب المقدّسِ[28]

على أنه لا يمكن حصر الينابيع التي تستلهم منها الصورة الفنية في الشعر فهي من السعة بحيث لا يحاط بها، ومنها ما يجيء من جهة (اللاوعي)، ومنها ما يجيء من جهة الانغمار في (البيئة) المعنية، وللثقافة يد في ذلك، ناهيك بمقدرة المبدع على الانفساح بمخيلته لتشمل ما تستطيع تملكه من عناصر الحياة ومكوناتها المتعددة.

والشعر تعبير بالغ عن المجرد الكامن في النفس شعوراً كان أم فكراً. والمبدع كي يجلو ذلك المخفي يُدثّر لغته بأنماط من التصوير وأجناس من المجاز، ومن هنا ينشأ الغموض، وتنبع الحيرة في تحديد المقصود، ولا يبقى إلا الحدس نقارب به بين المتجلي على مستوى المقولة اللغوية والمقصود الكامن في الأعماق.

والصورة بعض الشعر، وهي نتاج لغوي، ولها في النص وظائف يلجأ إليها، وبها يبلور كثيراً من المواقف، وأشتاتاً من الرؤى. ولذلك تتنوع الصورة في النص لتنوع وظائفها. ولا يوجد الشاعر الذي يمضي على نسق واحد في صياغة مجازه الشعريّ دون أن تتلون صوره وتتعدد وظائفها. وهذا وهم وقع فيه بعض الحداثيين حين قصروا (الشعرية) على وظائف الكلام الشعريّ، وهي واحدة من وظائف الكلام، وليست كل وظائفه.

وإذا كان الإيصال في الشعر غاية لا مهرب للنص منها، أو يقع في التعقيد المشين، وأغرب من حيث رام الألفة ودفء التواصل والاتصال، فإنّ من كمال التحليل للصورة الفنية في القصيدة الجاهلية أن نتبين بعض وظائفها إشارةً لا إحاطة، ودلالة على ما ينبغي أن يكون عليه تحليل الصورة في الشعر.

وأولى تلك الوظائف هي الوظيفة النفسية، والمقصود بها أن تشفّ الصورة في النص عن ملمح نفسيّ يتصل باللاشعور، وتجلو الصورة كوامنه تدل عليه كما نجد في قول امرئ القيس:

فلمّا تدلّى من أعالي هضيبة أبسّت به ريح الصَّبا فتحلّبا[29]

تتجلى الصورة الاستعارية في شطر البيت في المقولة اللغوية (أبست به ريح الصَّبا فتحلّبا)، وهي تنتظم في بنية الاستعارة المكنية، حيث يتجلى (المستعار له) و(المستعار)، ويخفى (المستعار منه) لدلالة (المستعار) عليه. وهو ما يمكن جلاؤه في هذا الرسم:

مستعار له: ريح الصّبا[أ] ⟷ السحاب[ب] ⟷ الماء المنسكب[ج]

مستعار: الراعي يحلب الناقة[أ] ⟷ ضرع الناقة يمسح عليه الراعي[ب] ⟷ اللبن تدربه الناقة[ج]

هنا تتوطد الصلة بين إحساس (الذات المتكلمة في النص) بالمتعة عند رؤية الماء يسقي البقاع التي ترتادها فتأنس بعد وحشةٍ، وتأنس بعد خوف، وإحساس الراعي بحلب ناقته فيدر ضرعها باللبن فيروى بعد ظمأ.

وتتضمن الصورة على ضوء جدلية الخفاء والتجلي إحساساً بالألم كامناً في النفس، ذلك أنّ الجدب الحالّ يهدد الذات بالفناء، وهو ما يتراسل مع الإحساس الممض بألم العظام الذي يكابده الرضيع يحرم من ثدي أمّه، وكأنه شعور كامن في طوايا النفس كشفت عنه الصورة على نحو لا شعوري.

وتلك صورة تتكرر على أشكال في شعر امرئ القيس، ولقد يمكن القول لذلك إن صورة المطر في شعره ترتبط في الأغلب بالحلب وإدرار اللبن، وما يوحي به من دلالة نفسية:

6- راح تمريه الصّبا ثم انتحى فيه شؤبوب جنوبٍ منهمرْ [30]

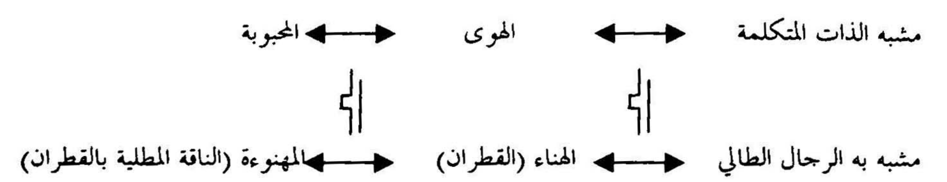
وكأن صورة الماء يروي الأرض يعد ظمأ فتخصب بعد جفاف، تتماثل مع صـــورة الإدرار والحلب، وكلتاهما تَهَبُ معنى الخصوبة والنماء واستمرار الحياة. وكما أن الطفل ينمو بالرضاعة، وتستمر بها حياته، فكذلك يَرْوَى الأعرابيّ في صحرائه بلـــبن ناقتـــه، وتستمرّ به حياته، وكذلك الأرض تخصب وتنمو بالمطر، وفي هذا ما فيه مـــن معـــنى التماهي بين عناصر الأشياء والأحياء، ومن هنا تجلت الصورة في بنية الاستعارة المكنية.

ولقد تكون وظيفة الصورة إيحائية، وهي التي تجسد المعنى في صـــورة، أو توحـــي للمتلقي بالمعنى المقصود دون أن تصرح به.

وهو ما نجده في قول امرئ القيس:

30- أيقتلني وقد شـــغفتُ فؤادهـــا كما شغف المهنوءةَ الرجلُ الطالي[31]

تعبر الصورة عن العلاقة الآتية:



وفيها يقيم النص علاقة مشابهة بين (معنوي مجرد) و(عيني محسوس)، وذلك ليوحـــي للمتلقي بمدى ما أحس به من هوى، وما سكن في فؤاده من هيام. ومـــن هنـــا جـــلا المجهول في هيئة المعلوم، وتراءى المستتر الذي لا يعلم في هيئة المكشوف بواسطة العناصر المعلومة التي يدركها الحس.

ولقد تكون وظيفة الصورة انفعالية غايتها استثارة انفعال المتلقي من خـــلال مـــا يتخيره المبدع من عناصر ذات دلالات وقرت في أفئدة البشر وتداول إحساسهم بهـــا. كما نجد في قول امرئ القيس:

28- أيقتلني والمشـــرفيُّ مضـــاجعي ومسنونة زرقٌ كأنياب أغـــوال[32]

تشف الصورة عن علاقة مشابهة يجلوها الشكل الآتي:

المشبه	الأداة	المشبه به
السهام المحددة الأزجة	الكاف	أنياب الأغوال

تتراءى السهام وهي معلومة مدركة في هيئة أنياب الأغوال وهي مجهولة لا يدركها الحس ولا تحيط بها الصفة -، ولقد تخيرها النص (لِماَ شاع من عظيم أمرهم، وكثرة نكرهم، وثبت في النفوس من شناعة خلقهم).[33] وذلك بغية استثارة غريزة الخوف والفزع في نفس المتلقي، وللدلالة على القوة والقدرة على الظفر بالمشتهى.

وهذه الوظيفة تمكن (النص) من تفجير لغة الخيال فيوغل شططاً، ويَتراءى المعقول في هيئة (اللامعقول) كما في قول امرئ القيس:

3- أصدَّ نشاص ذي القرنين حتى تولى عارضُ الملكِ الهمام[34]

تعبر الصورة عن علاقة مماثلة يجلوها الشكل الآتي:

مستعار له	مستعار
الجيش	نشاص (ما ارتفع من السحاب).
الجيش	عارض (السحاب المعترض في السماء).

لا تخلو بنية الصورة من بساطة وسذاجة، لكنّ عمق الصورة كامن في وظيفتين فإذا نظرت إلى الجيشين وقد بارحا الأرض واحتلا الفضاء، ونشبت بينهما الحرب، ودار صراع عنيف تتساقط شهبه، وتتهاوى نيازكه، وتصرع أبطاله فتهوي من عل (كجلمود صخر)، هزتك الصورة، وأثارت في نفسك انفعالاً لا يخفى أثره. ومن هنا صحّ قول أحدهم إن (هذه الوظيفة تسمح للاستعارة بمنح التعبير طاقة أكبر).[35]

ولقد تكون وظيفة الصورة اجتماعية تجلو أبعاداً اتسم بها مجتمع في دورٍ من أدوار تاريخه، أو عادة من عادات بداوة أو حضارة تدل على صورة نظام اجتماعيّ ما. كما نجد في قول النابغة الذبياني:

25- لكلفتني ذنبَ امرئٍ وتركته كذي العُرّ يكوى غيره وهو راتع[36]

وهنا تبرز علاقة مشابهة بين حالين يجلوها الشكل الآتي:

المشبه	الأداة	المشبه به
يكابد البرئ عقابَ المذنب	الكاف	يكابد البعير الصحيح الكي وينجو الأجرب منه

وهي تشف عن عادة من عادات البداة يلجأون إليها إذا أرادوا علاج قرح يصيب البعير، فيعمدون إلى كي البعير الصحيح فيبرأ البعير الأجرب.

ومثلها قوله:

8- فلا تتركنّي بالوعيد كأنني إلى الناس مطليٌّ به القار أجربُ[37]

فقد جلا النصُّ حالَ (الذات المتكلمة) من خشية الوعيد، والخوف من النبذ في هيئة بعير مطليّ بالقطران بسبب (الجرب) فتخافه الناس اتقاء شرّه.

وتلك صورة تشفّ عن عادة من عادات البداة في حماية بعرانها من الجرب بنبذ الأجرب عن الصحيح بواسطة طلائه بالقطران.

ولقد تشفّ الصورة عن عادة حضارية يدلّ عليها النص كما في قول النابغة:

31- وإذا طعنتَ طعنتَ في مستهدف رابي المجسّة بالعبير مُقَرْمَدِ[38]

على أن وظيفة الصورة في النص تجيء إعلامية غايتها (نقل معلومات إلى المتلقي، ومن سماها الوضوح). [39] ومن ذلك قول امرئ القيس:

50- مكرّ مفرّ مقبل مدبر معاً كجلمود صخر حطّه السيل من عل[40]

ليست الغاية من الصورة الإيحاء بقوة الفرس ولا سرعته في العدو إقبالاً وإدباراً كرّاً وفرّاً، فقد أشار النص إلى ذلك وأبرزه، ولكن الغاية منها إعلام المتلقي بطبيعة ذلك كله فيتهيأ لإدراكه واستيعاب ملامحه، لأنّ (المشبه به) مما تدركه الباصرة، ويحيط به الفعل والإحساس، أما صورة (المشبه) على الهيئة التي جلاها النص فهي غريبة معمّاة، تتطلب ما يزيدها وضوحاً في خيال المتلقي ليعيها ويقربها من الإدراك.

وتتراءى للصورة الفنية في الشعر أنماط تتنوع بتنوع عناصرها المكونة، فيكون منها نمط حسيّ، وآخر تخييلي، وثالث رمزي، وغير هذا وذاك من الأنماط.

ولقد أكتفي بهذه الإشارة عنها وأدع التمثيل عليها لما يعرض من أنماطها في (قصيدة النابغة) موضوع التحليل.

على أني أودّ القول إن تحليل الصورة على مثل هذه الطريقة يمكننا من التمييز بين صورةٍ وصورة، والكشف عن خصائص التشكيل المرئي في نصوص الشعر. ولا بدّ في الشعر من وجود فرق بين نصّ ونصّ على أيّ مستوى من مستويات التحليل. وشأن الحال في الصورة كذلك سواء بسواء. فلابدّ من وجود الفرق على أيّ مستوى من مستويات تحليل الصورة بنيةً وينبوعاً ونمطاً ووظيفة.

ولقد تتماثل صورتان في واحد من هذه المستويات، لكنهما تتفارقان في سواها.

حدّث أبو يعقوب الخزيميّ الشاعر أن بشاراً قال: لم أزل منذ سمعت قول امرئ القيس في تشبيهه شيئين بشيئين في بيتٍ واحدٍ حيث يقول:

كأنّ قلوبَ الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي

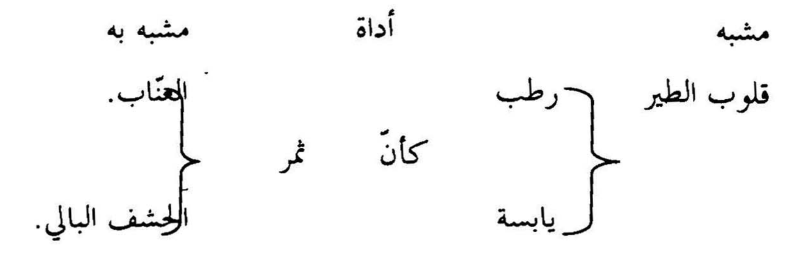
أعمل نفسي في تشبيه شيئين بشيئين حتى قلت:

كأنّ مثارَ النقع فوق رؤوسنا وأسيافَنا.. ليلٌ تهاوى كواكبه أ.هـ

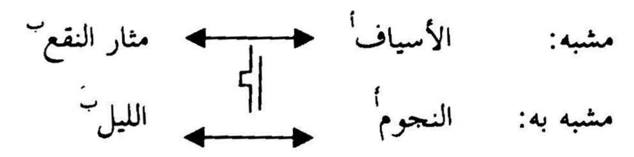
فهل الصورتان في البيتين متشابهتان؟ أو أنّ بينهما اختلافاً تمتاز به صورة من صورة؟

أما إذا نحن أخذنا باعتراف بشار نفسه فسنقول: إنهما يمتحان من بئر واحدة. لكننا حين نمعن النظر في بنيتيهما فسنجد اختلافاً.

حقاً، كلتا الصورتين من بنية واحدة هي بينة الصورة التشبيهية المجملة، وكلتاهما تستعملان (كأن) أداةً للتشبيه فنمطها على ذلك واحد وهو النمط (التخييلي)، غير أننا لا نجد بعد هذا ما يمكن أن يجمع بينهما. فالصورة في بيت امرئ القيس ذات بينة إفرادية، ينهض بها مشبه ومشبه به مفردان، على نحو من الشكل الآتي:-



أما الصورة في بيت بشار بن برد فأساسها التركيب حيث تتشكل بنيتها من عناصر عدة، فنجد السيوف تلمع، والغبار يتعالى، والصخب يشتدّ، وخيول تكر، وأخرى تفر، فهنا صورة حرة في هيئة (اللقطة)، تتراسل معها صورة بيانية هي الصورة التشبيهية المجملة، ولها بنية غير التي تجلت عليها الصورة في بيت امرئ القيس، ولعلّ الرسم الآتي يوضح ذلك:



أفلا تتراءى الصورتان مختلفتين وإن تشابهتا في ظاهر القول؟

والمجال متسع لموازنات أخر يضيق بها المقام ههنا فلندعها لمقامٍ آخر، وحسبنا الإشارة وكفى.

وهنا تكون المقدمات قد قاربت بيننا وبين المضيّ في تحليل الصورة الفنية في (دالية النابغة) في ضوء هذا التصور النقدي لدراسة الصورة الفنية في الشعر.

3- تحليل الصورة الفنية في (دالية النابغة):

أعمد إلى تحليل الصورة الفنية في القصيدة الجاهلية من خلال نموذج بعينه هو "دالية النابغة الذبياني، ومطلعها:

يــادار ميّــة بالعليــــاء فالســـــند   أقوت وطال عليها سالف الأبـدِ[41]

وهي إحدى (اعتذار ياته) المشهورات، وواحدةٌ من القصائد التسع الطوال الموسومة بالمعلقات كما ذكر (النحاس).

ومن الممكن تقسيم التحليل إلى الأجزاء الآتية:

تجليات بنية الصورة الفنية في النص. ولها ثلاثة أنماطٍ هي:

أ- الصورة البيانية:

وفي النص من بناها الثلاثة (تشبيهية واستعارية وكنائية)

ما يلي:

الصورة التشبيهية: ويستخدم النص من بناها بنيتين، هما: بنية التشبيه المجمل، وبنيــة التشبيه المؤكد.

وقد تكرر ورود بنية التشبيه المجمل في النص ستَّ مرات في حين لم ترد بنية التشبيه المؤكد إلاّ مرّة واحدة، وما ذاك إلا لما اتسمت به بنية التشبيه المجمل من رقيّ في درجــة الإيغال في الصنعة على بنية التشبيه المفصّل من جهة حذف وجه الشبه مما يسمها بشيء من الغموض باعثه تحفيز المتلقي على تلقط أبعاد ذلك الوجه المحذوف الذي يقارب بــين طرفي الصورة. فالعلاقة بين ذينك الطرفين قائمة، وإن خفيت والنص لا يجهر بها ليتيــح

للمتلقي معاناة الإبداع، والتمتع بالخلق الفني، وإدراك الغاية من تشكيل الكلام. أما وجود الأداة فلا يزيد على كونها رابطاً لفظياً يقرّب بين متباعدين، ويشبكها في إطار واحد.

ومظانّ الصور المنسوجة في بنية التشبيه المجمل هي:

3-	والنؤي كالحوض بالمظلومة الجَلَدِ
10- من وحش وجرة موشى أكارعه	طاوي المصير كسيف الصيقل الفردِ
16- كأنه خارجاً من جنب صفحته	سفّود شربٍ نسوه عند مفتأدِ
30- والراكضات ذيول الربط فنّقها	برد الهواجر كالغزلان بالجرد
31- والخيل تمزع غبراً في أعنتها	كالطير تنجو من الشؤبوب ذي البرد
33- تحفّه جانبا نيق، وتتبعها	مثل الزجاجة لم تكحل من الرمدِ.

وهو هنا يستخدم هذه البنية على الترتيب الأصلي لعناصرها، وهي:

(المشبه + الأداة + المشبه به)

لكنه ندّ عن ذلك وخرج عليه في البيت السادس عشر، حيث تقدمت (الأداة)، وتلاها (المشبه والمشبه به)، وذلك لما ينبغي أن يكون للأداة (كأن) من صدارة وتقديم، وفيها شبهةُ تعظيمٍ لشأن (المشبه). ومن هنا كان تخير الأداة (كأن) دون سواها، وذلك لما تتضمنه من معاني التخييل والإيهام والمبالغة.

على أن استخدام (الكاف) في النص كثر لتحقيق عملية مشابهة محضة، ولما لها من إسهام في إظهار براعة المتخيل.

أما الأداة (مثل) فشبيهة بالأداة (كأنّ) في إفادة توكيد معنى الافتراض والوهم والظن.

ولقد استخدمت (مثل) و(كأن) كلّ واحدة منهما مرة واحدة لا غير، في حين استخدم (الكاف) أربع مرّاتٍ متفرقات.

ويستخدم النص بنية التشبيه المجمل في إطار الصورة البسيطة غير المركبة، ومن هنا انتفى التعقيد منها، وذلك على النحو الآتي:

مشبه	أداة	مشبه به
النؤي	الكاف	الحوض
الثور	الكاف	سيف مصقول
قرن الثور	كأن	سفود
الجواري	الكاف	غزلان
الخيل	الكاف	الطير
العين	مثل	الزجاجة

وجميعها صور بسيطة المبنى تشي بعزوف النصّ عن استخدامها، وإيثاره سواها من بنى الصورة البيانية. ولذلك لا يتجاوز وجودها في النص الاستخدام المألوف إلى مرحلة التفنن والإبداع، ولهذا دلالته.

وفي هذا يتمايز نصّ (النابغة) من نص (امرئ القيس)، وإن عدّهما أهل العلم والمعرفة في طبقة واحدة. فامرؤ القيس (أحسن أهل طبقته تشبيهاً)، بل هو (أحسن أهل الجاهلية تشبيهاً) لإجادة صنعته بنية وتركيباً وتنوعاً في التشكيل.[42]

على أن هذا لا ينفي قدرة (النابغة) على تجويد الصورة وإحكام صنعتها. يتراءى لك ذلك من خلال إدراكه ما (للمشبه به) من أثر في جلاء هيئة (المشبه)، وإيضاح المعتم من خفايا النفس. قال:

16- كأنه خارجاً من جنب صفحته   سفود شرب نسوه عند مفتأدِ

هنا يشبه قرنُ الثور وقد شكّ في جنب أحد الكلاب المهاجمة بالسفود الذي تركه الشرّاب ومضوا عنه. وجاءت (الأداة) (كأن) لتلج بك إلى عالم تتخيل فيه مشابهة بين متباعدين،ثم تتجاوز علاقة المشابهة إلى تجسيد غوامض النفسي الذي لا يدرك بالباصرة من خلال استحضار المشبه به (سفود)، فإذا به يمثل لك حالاً من النشوة والسرور. شرّاب وخمر وشواء وما يتبع ذلك من أنس ومسرة. فهل كانت للثور حين شكّ الكلبَ المهاجمَ بقرنه نشوة وسعادة كالتي يحسّ بها أولئك الشراب؟ هذا أمر جائز. وبه تكون الصورة في النص قد جلت حالاً نفسياً يدرك بالوعي ولا تحيط به الباصرة.

وفي النص من بنى الصورة التشبيهية ما يسمى ببنية التشبيه المؤكد. وقد وردت فيه مرة واحدة يمثلها قوله:

44- فما الفرات إذا هبَّ الرياح لـه		ترمي غواربه العبرين بالزبدِ

45- يمدّه كلّ واد مترع لجب		فيه ركامٌ من الينبوت والخضد

46- يظلّ من خوفه الملاح معتصماً		بالخيزرانة بعد الأين والنجد

47- يوماً بأجود منه سيب نافلةٍ		ولا يحول عطاء اليوم دون غدِ

وهي تتجلى في هيئة (الاستعادة التشبيهية). وتلك طريقة في تشكيل بنية الصورة تميزت من طرائق أخرى في تشكيلها. فهي هنا (تعتمد على شكل لغوي يبدأ بما النافية ويتلوها اسم هو بمثابة الطرف الآخر (المشبه به) في الصورة، فتسرد صفاته، وهي في ذروة الكمال، ويصل في طرف الاستعادة إلى صيغة (أفعل) التفضيلية ومعها المشبه).(43)

ومن هنا يتراءى لك (المشبه به) ذا حُظْوة باهتمام النص وعنايته، لا من حيث انه هو الذي يحدد الصفة المشتركة التي تسوّغ المشابهة بين طرفي الصورة وحسب، بل من حيث إبراز أن (المشبه) أعلى منزلة وأرفع شأناً من (المشبه به)، على ما اتسم به هذا من صفاتٍ وخصائص.

الصورة الكنائية: وقد وردت في النص محدودة، فجـــاءت في موضعـــين بنســـبة (10.5%):

31- والخيـــل تـــمزع في أعنتهـــا كالطير تنجو من الشؤبوب ذي الـــبرد

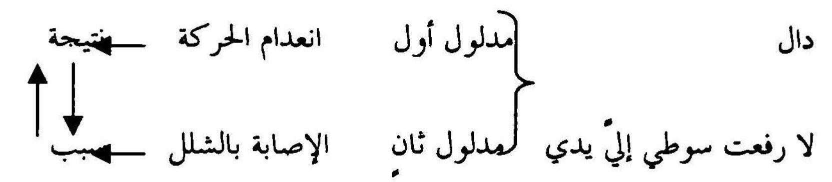
32- ما قلت من سيئ مما أتيت بـــه إذاً فـــلا رفعـــت ســـوطي إليّ يـــدي

وهو يستخدم الكناية لعلّةٍ فنية، وذلك من باب (أن الكناية أبلغ مـــن الإفصـــاح، والتعريض أوقع من التصريح). ومن هنا صحّ قولهم: إن الكناية (تكسب المعـــني نبـــلاً وفضلاً وتوجب لها شرفاً).(44)

والكنايتان هنا تجريان عن صفة، فهي السرعة في العدو في البيت الواحد والثلاثـــين، ويجلوها الشكل الآتي:

دال			
	مدلول أول	الحدة والنشاط	← سبب
تمزع الخيل في الأعنة	مدلول ثانٍ	السرعة في العدو	← نتيجة

وهي الدعاء بالإصابة بالشلل في البيت التاسع والثلاثين، ويجلوها الشكل الآتي:



وجميعهما صفاتٌ يشخصها النص في هيئاتٍ محسوسة يرسمها لتشي بالمعنى المقصود، وفي هذا وعي بما للكناية من يدٍ في إنتاج الدلالة وتوليد المعنى.

الصورة الاستعارية: ولها في النص حضور ظاهر. فقد استخدمت عشر مرات بمعدل (52.6%). وجاءت على بنى متنوعة فتعددت علاقاتها فنجد:

علاقة المماثلة: وتجلوها في النص بنيتان، هما:

بنية التشبيه البليغ: ومظان تجليها في قوله:

8- مقذوفة بدخيس النحض بازلهـــا له صريفٌ صريفَ القعـــو بالمســدِ

14- وكان ضمران منه حيث يوزعـــه طعنَ المعارك عند المحجـــر النجـــد

15- شكّ الفريضة بالمدرى فأنفذهـــا طعنَ المبيطر إذ يشفي من العضـــدِ

إلا لمثلك أو مـــن أنـــت سابقُـــهُ سبقَ الجواد إذ استولى على الأمـــدِ

إلاّ مقـــالـــة أقـــوام شـــقيت بهـــا كانت مقالتهم قرعاً على كبدي

وهي تبنى على هيئات، منها:

هيئة المفعول المطلق في الأبيات (26/15/14/8).

هيئة المبتدأ والخبر في البيت (40).

ولقد غلبت هيئة المفعول المطلق للرغبة في تحقيق (المماثلة) في إطارٍ غـــير جـــامدٍ ساكن، فحققها النص في شيء من الحركة المتنوعة، فنجد الصوت (لها صريف صريـف القعو بالمسد)، ونجد الحركة الهادئة (طعن المبيطر)، والحركة العنيفة (طعـــن المعـــارك)، والحركة السريعة (سابُقَهِ سبق الجواد) وهكذا.

وهو يجسد الألم النفسي من خلال هيئة المبتدأ والخبر في قوله: (كانت مقالتهم قرعاً على كبدي).

- بنية الاستعارة التصريحية: وهي البنية الثانية التي تشف عن علاقة المماثلة. وهـــي تقوم على (الإضمار)، حيث يخفى (المستعار له) على المستوى السطحي للمقولة اللغوية، لكنه يتجلى في عملية التفكير، ومن هنا مست الحاجة، إلى وجود قرينة تجلوه وتحدده.

وجاءت هذه البنية في قصيدة النابغة في قوله:

انبئت أنّ أبا قابوس أوعدني ولا قرار على زأر من الأســـدِ

وهي تتجلى على نحو من الشكل التجريدي الآتي:

المستعار له ∴ المستعار

الممدوح = أسد.

وهنا تتشكل الصورة في هيئة جار ومجرور (من الأسد)، وإنما أمكن الكشف عن طبيعة (الصهر الاستعاري) في الصورة من خلال استخدام لفظة (قرار) التي وشت بمضمون الصورة.

علاقة التماهي: وتجلوها بنية واحدة هي بنية الاستعارة المكنية.

وهي ترد هنا على زمرتين، أولاهما بسيطة، وثانيتهما مركبة.

أما البسيطة فتتجلى في قوله:

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت، وطال عليها سالف الأبد

وهنا يستعير النص (للدار) صفة الكائن الحي الذي (ينادى)، ثم يُحْذَف (المستعار منه)، ويستعاض عنه بواحدةٍ من صفاته وهي هنا (المناداة)، وهي (المستعار). وتلك صورة استعارية تشخيصية تجلو الجماد في هيئة كائن بشري وتمنحه بعض خصائصه وصفاته.

أما الزمرة المركبة فتتجلى في قوله:

11- أسرت عليه من الجوزاء سارية تزجي الشمالُ عليه جامد البود

وتتمثل الصورة في الذهن وفق الشكل الآتي:

المستعار لـه: الشمالُ[أ] ⟷ جامد البرد[ب]

المستعار منه: راعٍ[أ] ⟷ قطيع من الماشية[ب]

ويقوم الفعل (يزجي) بوظيفة العنصر المولّد للصورة الاستعارية. لكن النظر إلى الجار والمجرور (عليه) يقوم بدور مولّد آخر للصورة، ويغدو للفعل (يزجي) معنى أرسل أو أطلق، وتتمثل الصورة وفق الشكل الآتي:

المستعار لـه: الشمال[أ] ⟷ جامد البرد[ب] ⟷ الثور[ج]

المستعار منه: رامٍ[أ] ⟷ سهام ونبال[ب] ⟷ أغراض[ج]

ولذلك يتأذى الثور من المطر وقد احتشدت الشمالُ به له. هذا إذا وقفنا عند ظاهر الصورة، أما إذا تجاوزنا ذلك إلى المستوى الرمزي لها، فإن البنية تصبح على النحو الآتي:

مستعار منه (1) الشمال ⟷ جامد البرد ⟷ الثور

|| ||

مستعار له الأعداء ⟷ قوارص الكلام ⟷ الذات المتكلمة

|| ||

مستعار منه (2) رامٍ ⟷ سهام ونبال ⟷ أغراض.

وفي هذا ما يدل على براعة التصوير، وعمق التخيل، وترامي أبعاده.

وعلى ذلك تتراءى الصورة البيانية متنوعة بناها في القصيدة، متعددة علاقاتها. فمن علاقة مشابهة تشفّ عنها الصورة التشبيهية، إلى علاقة لزوم تشف عنها الصورة الكنائية، إلى علاقتي مماثلة وتماهٍ تشفّ عنها الصورة الاستعارية. وهذا كله مما يخصب الصورة، ويدل على تفننٍ في تشكيلها وبراعةٍ في إنتاجها.

فهل الصورة الحرة، والصورة السردية على ذلك النحو من البراعة والتفنن؟

هذا ما سيكشف عنه التحليل الآتي لهما.

ب- تجليات الصورة الحرة:

مرّ بنا في ما سلف أن الصورة الحرة تتشكل من أنماط متنوعة، فلقد تكون لوحة، ولقد تكون لقطة، ولقد تكون مشهداً، وقد تكون سوى هذا وذاك. والحقّ أننا لا نستطيع أن نقع على ذلك التقسيم مكتملاً في تنوعه إلا إذا قمنا بتمريغ كيان القصيدة، وتجزئة كلها المكتمل، فتتراءى الصورة أشتاتاً مبعثرة يضيع فيها مغزى الشاعر، وتتلاشى غايته من التصوير، ويقل حظه من إظهار البراعة والتفنن في الرسم بالكلمات. من هنا آثرنا أن ننظر في الصورة مكتملة حتى يظهر لنا ما لدى الشاعر من قدرة على التصوير، ونكتشف جمال الفن في ما صنع، وإن كان هذا لا ينفي صحة التقسيم أعلاه بحال من الأحوال.

فلنقرأ الآن الأبيات الآتية:

1- يا دار ميــة بالعليــاء فالسـند	أقوت وطال عليها سالف الأبـد
2- وقفت فيها أصيلانــاً أسـائلها	عيت جواباً وما بالربع من أحـد
3- إلا الأواريّ لأيــاً مــا أبينــها	والنؤي كالحوض بالمظلومة الجلـد
4- ردت عليــه أقاصيــه ولبــده	ضرب الوليدة بالمسحاة في الثـأد
5- خلّت سبيل آت كــان يحسبه	ورفّعته إلى السـجفين فـالنضد
6- أمست خلاء وأمسى ألها احتملوا	أخنى عليها الذي أخنى على لبـد

هنا يقدّم لنا الشاعر لقطة اشتملت على عناصر التشكيل المرئي والمسموع في آن، وتداخل فيها الزمن بين حاضر وماضٍ، وتجلى الإطار المكاني، ناهيك بجزيئات صغيرة تسهم في استكمال أبعاد اللقطة.

تصل الذات المتكلمة في النص إلى الديار الكائنة في أماكن مرتفعة من الأرض، وعلى مستند ضخم صلب، فلا يمسها عدو، ولا يحيط بها خطر ليأوي إليها، فوجدها

مقفرة جرداء، ووقف فيها عند الأصيل حين يعود الرعاة من مراعيهم مع أنعامهم لينعموا بهدوء الليل، ويخففوا من عناء النهار، حين تلوذ النفس إلى مسكن آمنٍ من ليلٍ يروعها بظلمته ووحشته وأخطار لا تدري أين تكمن لها، حين يحلو السمر ويطيب اللهو مع الأحبة في تلك الديار.

هذان الإطاران المكاني والزماني يفجران في نفس الذات المتكلمة أحاسيس الحسرة والألم والفجيعة والفقد، فتتفتح عيناها لتتأمل ما بقى من حياة أحبتها في تلك الديار فلم تجد إلا بقايا أشياء (الأواري/ النؤي)، وبعض ذكرياتٍ (الوليدة تضرب وتليد أقاصي النؤي بالمسحاة وتخلي سبيل سيلٍ محجوب فينساب الماء في الأرض).

وهنا تتجمع المرائي في دائرة مكتملة تفضي إلى بعد مضموني أساسه تجسيد الإحساس بانقطاع التواصل بين الذات المتكلمة في النص ومن تحب من الناس كالنعمان ومية وآخرين سواهما. وهو إحساس ممتلئ مرارة وأسى لفناء الديار ومن فيها على الرغم من علوها وصلابتها. وهنا يتضح لنا لم افتتح الشاعر مناجاته بذكر المواضع (العلياء والسند)، ولم اختتمها بذكر الخلاء والفناء والموت (أمست خلاءً وأمسى أهلها احتملوا، أخنى عليها الذي أخنى على لبد).

يتراسل مع هذه اللقطة لقطة أخرى يجلوها النص في الأبيات (44/45/46)، حيث يريك النهر وقد هاجت أمواجه.والريح تعصف به عصفا، والزبد تتطاير به الأمواج إلى الشطآن، والمياه تتدفق على جانبي النهر من روافد متعددة، والغثاء تحمله تلك الروافد وترمي به في ثنايا النهر، والملاح في وسط هذا الهياج العظيم صامدٌ يعتصم بسكان سفينته منهكاً مجهداً لكنه لا يستسلم ولا يهاب، ولا تزال إرادته على الصمود قوية.

وهنا تتراءى الصورة بسيطة مسطحة إذا نظرنا إليها في بعدها التشبيهي، حيث يشبه (الممدوح) (بالفرات)، وتظهر بنية الصورة علاقة مشابهة بين الطرفين. لكنها تبدو مركبة معقدة حين ننظر إليها في بعدها الرمزي. فيغدو الفرات غاضبا مهتاجاً رمزاً

(للنعمان) في لحظات غضبه وثورته، وتتراءى الروافد التي تغذي مياه النهر فيزيد هياجه رمزاً (للخصوم) الذين يملأون صدر (النعمان) بالكيد ويوغرونه على الذات المتكلمة في النص ويصبح الملاح الصامد في وجه الطوفان رمزاً لتلك الذات تتحدى الأخطار وتتمسك بالوسائل التي تنجيها من كل تلك المهالك المحدقة بها.

وعلى ذلك تصبح للصورة فاعليتها، وتتعمق صلتها بأجزاء القصيدة الأخرى.

على أن من صور القصيدة ما جاء زينة وإن أظهر النص براعة في رسمها كقوله:

28- الواهب المئة المعكاء زينها	سعدان توضح في أدبارها اللبد
29- والأدم قد خيّست فتلاً مرافقها	مشدودة برحال الحيرة الجدد
30- والراكضات ذيول الربط فنّقها	برد الهواجر كالغزلان بالجرد
31- والخيل تمزع غُبْراً في أعنتها	كالطير ينجو من الشؤبوب ذي البرد

فهو يلجأ إلى الصفة ليجسد لك لوحة (المعكاء)، (فتل مرافقها)، أو إلى الحركة ليجسد لك مشهداً (الراكضات ذيول الربط/ الخيل تمزع/ الطير تنجو من الشؤبوب..). وهي صور حرة أحسن الشاعر رسمها لكنه أخلاها من الدلالة العامة للنص، ولعلّ للمدح يداً في ذلك، فتراءت كالزخرف القشيب تتزين به الأبيات.

على أن هذا لا يضعف قدرة النص على التصوير فما يزال الحكم عليها بأنها عالية قائمة، وما يزال تمكنه من الرسم بالكلمات لا يحد.ولعل في تحليل بنية الصورة السردية التي تمثلها الأبيات من البيت التاسع إلى البيت التاسع عشر ما يؤكد ذلك ويبين عنه.

والحديث عن الصورة السردية ههنا لا ينفصل عما سبقها من وحدات النص، وأعني حديثه عن الأطلال في الأبيات الستة الأولى، وحديثه عن الناقة في البيتين السابع والثامن. ففي الوحدة الأولى وحدة الأطلال تتجلى علاقة انقطاع بين الذات المتكلمة والديار الخربة، فالموت مما لا تحبذه تلك الذات، وهي قد أتت لتتلمس الحياة في ديارها،

ولما لم تجده انقطعت عنها. أما في الوحدة الثانية وحدة الناقة فتتجلى علاقة اقتران بين (الذات المتكلمة) وناقتها، فهي وسيلتها للظفر بالحياة وخلاصها مما تركته في ذلك المكان:

فعدّ عما ترى إذ لا ارتجاع له وانم القتود على عيرانةٍ أجد

ثم يعمد النص إلى سرد حكاية الثور الوحشي. وهو يختم القصيدة بالمدح وفيه يكشف عن علاقتين متضادتين أولاهما علاقة اقتران بين الذات المتكلمة في النص وبين الممدوح، وثانيتهما علاقة انفصال بين الذات المتكلمة وخصومها الذين كادوا لها عن الممدوح:

40- إلا مقالة أقوام شقيت بها كانت مقالتهم قرعاً على كبدي

هذا الوصف السريع للعلاقات التي نسجها النص بين الشخوص ذو صلةٍ وثقى (بالصورة السردية) التي يجسدها النص.

وهي تفتتح بذكر الزمان (زال النهار)، وبذكر الثور وقد أقبل نحيلاً ضامراً كالسيف تأمل ما في هذه الصورة من مفارقة حيث القوة كامنة في الضعف-، فبات في ليلة شاتية ممطرة لم يهنأ بأمن فيها، حتى إذا تبلّج الفجر راعه صوت الصائد وكلابه يهبون نحوه للظفر به، فهبّ للمجالدة، والدفاع عن نفسه، فكان صراعا عنيفا: طعن، ودماء تسيل، وفرحة تملأ النفس كلما استطاع الخلاص من واحد من مهاجميه، وصراخ يتعالى من ألم تكابده الكلاب، وبداية انخذال وتراجع، ثم استسلام وانسحاب، وخروج الثور منتصراً على أعدائه.

وهنا يشابه النص بين الناقة، والثور، ثم ينقذف إلى مدح النعمان بن المنذر:

20- فتلك تبلغني النعمان إن له فضلاً على الناس في الأدنى وفي البعد

وفي هذا ما يشي بطبيعة الرموز المستكنة في ثنايا الصورة، ويدلك على زرع النص فيها من دلالات ومغازٍ. وهي تتجاوز أبعادها الأسطورية كما حاول بعض الدارسين الإشارة إلى ذلك وتغدو وسيلة فنية يتوسل بها النص لجلاء مقاصده ومغازيه، وتتراءى لها وظيفة فيه متعددة الصفات.

وإذا نحن عدنا إلى هذه الصورة السردية تبين لنا أن ثمة علاقة انفصالٍ بين الثور الوحشي والصياد وكلابه، تقابلها علاقة اقتران بين الثور والناقة، حيث شبهت الناقة بالثور، وغدت وسيلة الذات المتكلمة للوصول إلى من تحب. وهنا تتجمع الأشباه لتكتمل أبعاد الصور. فنجد أن المماثلة قائمة بين (الذات المتكلمة، والناقة، والممدوح)، ولكن الانقطاع حاصل بينهم جميعاً وبين (الأطلال) حيث الموت، والخصوم الذين كادوا للذات المتكلمة وباعدوا بينها وبين من تحب). وهي على ما فيها من تناقض توضح الغايات وتجلو الدلالة.

فالثور الوحشي يرمز للذات المتكلمة، والصائد وكلابه يرمزون للخصوم الذين كادوا لها عند الممدوح،ومثلما نشب صراع بين الثور وصائديه،فقد نشب صراع بين تلك الذات وخصومها، وكما خرج الثور منتصراً، وجب خروجها منتصرة على خصومها، ونستطيع أن نجسد هذه الصورة في الشكل التجريدي الآتي:-

الذات المتكلمة ←—— الخصوم ←———— الظفر بالنعمان

الثور الوحشي ←—— الصياد وكلابه ←———— الظفر بالنصر على الكلاب.

وفي هذا تكمن دلالة الصورة السردية، فهي معادل موضوعي للتجربة في بعدها الوجداني المباشر. ومن هنا يتسق كيانها مع نسيج النص مكتملاً، وتغدو ذات صلة وثقى به.

وبهذا يتضح لنا ما للصورة من حضور طاغٍ على نص النابغة هذا. فليس بــــالقليل على ذلك أن يعد رابع أربعة من شعراء الجاهلية، عدّهم ابن سلام الجمحي أو الطبقـــة الأولى من طبقات فحول الشعراء.

لكن الحديث عن بنية الصورة وطرائق تشكيلها المتنوعة لا يغني عن الحديث عـــن أنماط الصورة ولا عن الكشف عن فاعليتها في النص.

2- أنماط الصورة:

ومن أنماط الصورة التي تجلت في هذا النص:

النمط الحسي: حيث يقيم الشاعر صلات بين عنصرين حسيين كما في قوله:

10- من وحش وجرة موشى أكارعــه   طاوي المصير كسيف الصيقل الفـــرد

تقوم الصورة هنا على علاقة مشابهة بين (المصير) و(السيف)، وكلاهما مما يـــدرك بالحس ويستقل بخصائص وصفات. لكن الصورة تتجاوز وجه الشبه لتتصـــل بنفســية الذات المتكلمة في النص، فقد اختار المشبه به (السيف) دالاً على الحدّة والمضاء. وذلـك رغبة منه في تأكيد قوة الثور وقد رأيناه معادلاً موضوعياً للذات المتكلمة وحتميـــة انتصاره على الكلاب التي تتهدد حياته بالفناء.

ومثلها قوله:

31- والخيل تمزع غـــبراً في أعنتـــها   كالطير تنجو من الشؤبوب ذي الـبرد

وهنا تشبه الخيل في سرعتها بالطير تسرع طلباً للنجاة من الشؤبوب البارد، وكلاهما شيء حسيّ يستقل بخصائصه وأبعاده.

ودلالة الصورة هنا تتجاوز وجه الشبه لتتصل بنفسية الذات المتكلمة كســـابقتها. فالسرعة إنما هي وسيلة للنجاة. والنجاة لا تكون إلا من خوف. وما تزال الذات علـــى

شيء من الرهبة الخوف يتملكها من جهة النعمان، فاختارت من الصفات الجامعة بين الأشياء المتباعدة ما يتراسل مع حالتها النفسية في تلك اللحظة من لحظات زمانها.

النمط التخييلي: ويقصد به ما يقوم على الافتراض والتوهم والتخييل. كما في الأبيات الآتية:

9- كأن رحلي وقد زال النهار بنا	عند الجليل على مستأنس وحد
16- كأنه خارجاً من جنب صفحته	سفّود شرب نَسَوْهُ عند مفتأد

وهنا يعمد النص إلى استعمال الأداة (كأن)، لجلاء إحساسٍ خفيّ تملكه الذات المتكلمة، وجوهره أن تصوًّر الذهن علاقة المشابهة بين (الثور) و(الناقة) أو بين (القرن) و(السفود) أمر لا يقدر عليه ذهن، ومن هنا استغرقنا في التخييل لنقارب بين المتباعدين، وفيهما ما فيهما من المبالغة والتعظيم.

النمط الرمزي: وإذا نحن بعدنا عن الدلالات الرمزية كما جلوناها في النص، تبين لنا نمط رمزي آخر استخدمه الشاعر ممثلاً في الكنايات كقوله:

يعجم أعلى الروق منقضباً" وهي ترمز إلى الألم.

زينها سعدان توضح" وهي ترمز إلى السمنة.

فانقها برد الهواجر" وهي ترمز إلى النعمة.

3- ينابيع الصورة:

وبقليل من التأمل في الصور السالفة نستطيع أن نتبين طبيعة الينابيع الدلالية التي استقى منها الشاعر صوره فنجدها تتقسم على النحو الآتي:

بيئة الشاعر البدوية، فنجد الطلول، الأواري، والنؤي، والحوض، صريف القعو المسد،

بيئة الممدوح، وتتمثل في صورة الفرات وقد هاج وأزبد، فليست من طبيعة الصحراء وجود الأنهار، ولكنها من طبيعة البيئة التي عاش بها الممدوح واكتنفته.

المصدر المصنوع: كالسيف/ السفود/ الزجاجة..

الطبيعة في إطلاقها، ومنها ما يتصل بالحيوان كالغزلان/ الجواد/ ومنها ما يتصل بالطير كما في (الطير ينجو من الشؤبوب..)

الصفات الإنسانية: كالمعارك/ والمبيطر..

وظائف الصورة

وللصورة في القصيدة وظائف متنوعة، منها ما غايته إثارة الانفعال في نفس المتلقي فهي صورة ذات وظيفة انفعالية كما في الصورة الحرة التي تمثلها الأبيات (47/46/45/44) ومنها ما غايته الإعلام والتوضيح، ومن هنا يغلب عليها التقريب بين الأشياء كما في الصورتين في البيتين (15/14). ولقد تكون الصورة ذات وظيفة نفسية يجلو بها النص خاطراً نفسياً أو عقدة مكبوتة أو ما سوى ذلك كما في الصورة في البيت العاشر. وقد سلفت الإشارة إلى ذلك من قبل.

خاتمة

ومن هذا كله نخلص إلى أن للصورة أثراً عظيماً في تحديد عبقرية النص، وتحديد منزلته الشعرية. ولقد أحكم المبدع صوره،واتخذها جسراً لجلاء رؤيته وتجسيد موقفه الشعوري. وقد استخدم من أنواعها ما هو بياني وما هو حر وما هو سردي، ولم يخل صوره من وظائف ودلالات، كما أنه لم يعزلها عن الدلالة العامة للنص. وفي هذا ما فيه من القدرة على الرسم بالكلمات.

الحواشي

(1) الشعبي، مهند محمد: اللقطة والمقولة المضمونية. مجلة جذور العدد الأول عام 1998م صـ260.

(2) نفسه:- صـ260 261.

(3) نفسه:- صـ259.

(4) ديوانه:- صـ91 0 92.

(5) نفسه:- صـ87.

(6) نفسه:- صـ136.

(7) ديوانه:- صـ47.

(8) ديوانه:- صـ

(9) نفسه:- صـ42.

(10) نفسه:- صـ76.

(11) نفسه:- صـ36.

(12) نفسه:- صـ

(13) ديوانه:- صـ85.

(14) نفسه:- صـ74.

(15) ديوانه:- صـ 11 12.

(16) مثل الدكتور عبدالجبار المطلبي، والدكتور أحمد كمال زكي، والدكتور إبراهيم عبدالرحمن، والدكتور مصطفى الشوري، والدكتور علي البطل.

(17) البطل، د. علي:- الصورة في الشعر العربي صـ124.

(18) ديوانه:- صـ79 83.

(19) نفسه:- صـ80.

(20) نفسه:- صـ81 82.

(21) ناصف، علي النجدي: القصة في الشعر العربي صـ147.

(22) ديوانه:- صـ92-95.

(23) ديوانه:- صـ202.

(24) ديوانه صـ1.

(25) ديوانه:- صـ 33-34.

(26) نفسه:- صـ92-93.

(27) ديوانه:- صـ340.

(28) نفسه:- صـ145.

(29) نفسه:- صـ33.

(30) نفسه:- صـ33.

(31) نفسه:- صـ33.

(32) نفسه:- صـ140.

(33) عكّام، د. فهد: مجلة التراث العربي عدد 21 عام 1985م صـ114.

(34) ديوانه:- صـ37.

(35) عكام، د. فهد: نفسه صـ 103

(36) نفسه:- صـ73.

(37) نفسه:- صـ97.

(38) نفسه:- صـ

(39) عكام، د.فهد: نفسه/ صـ103.

(40) ديوانه:- صـ19.

(41) ديوانه:- صـ14-28.

(42) راجع للباحث أطروحة الدكتوراه بعنوان (شعر امرئ القيس دراسة أسلوبية).

(43) الدالة، د. فايز: الصورة الفنية صـ100.

(44) الجرجاني: عبدالقاهر: دلائل الإعجاز طـ رشيد رضا: صـ55.

مصادر البحث ومراجعه

(1) الاتجاه الوجداني في الشعر المعاصر، الدكتور عبدالقادر القط، ط1، عام 82م دار النهضة العربية ، بيروت.

(2) الأدب وفنونه، الدكتور عز الدين إسماعيل، ط6، عام 76م، دار الفكر العربي، القاهرة.

(3) أشعار الشعراء الستة الجاهليين، اختيارات الأعلم الشنتمري، ط1، عام 82م، عالم الفكر، بيروت.

(4) الأصمعيات/ عبدالملك بن قريب الأصمعي، تحقيق أحمد شاكر وعبدالسلام هارون، ط3، عام 67، دار المعارف، القاهرة.

(5) التبيان في البيان، شرف الدين بن الحسين بن محمد بن عبدالله الطيبي، تحقيق الدكتور توفيق الفيل والأستاذ عبداللطيف لطف الله، ط1، عام 86م، دار السلاسل، الكويت.

(6) جدلية الخفاء والتجلي، الدكتور كمال أبو ديب، ط3، عام 84م، دار العلم للملايين، بيروت.

(7) جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، تأليف أبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، حققه وضبطه وزاد في شرحه علي محمد البجاوي، د/ت، د/م.

(8) دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، طبعة محمد رشيد رضا.

(9) ديوان أبي داؤد الإيادي، تحقيق غوستاف فون غرنباوم، ترجمة د/ إحسان عباس، ط1 عام 1959م، مكتبة الحياة، بيروت.

(10) ديوان الأعشى الكبير، تحقيق الدكتور محمد محمد حسين ط1 د/ت، مكتبة الآداب، القاهرة.

(11) ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة.

(12) ديوان أوس بن حجر، تحقيق وشرح الدكتور محمد يوسف نجم، ط3، عام 79م، دار صادر، بيروت.

(13) ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق الدكتور حسين نصار، ط1، عام59م.

(14) ديوان عمرو بن كلثوم، تحقيق أيمن ميدان، ط1، عام 93م، النادي الأدبي، جدة.

(15) ديوان النابغة الذبياني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة.

(16) شرح شعر زهير بن أبي سلمى، صنعة أبي العباس ثعلب، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، ط1، عام 82م، منشورات دار الآفاق الجديدة.

(17) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري، تحقيق عبدالسلام هارون، ط5، د/ت، دار المعارف، القاهرة.

(18) الشعر الجاهلي قضاياه الفنية والموضوعية، الدكتور إبراهيم عبدالرحمن محمد، ط1، عام ؟، دار الشباب، القاهرة.

(19) الشاعر الجاهلي الشاب طرفة بن العبد، تحقيق ودراسة لشعره وشخصيته، علي الجندي، د/ط، د/ت، دار الفكر العربي.

(20) الصورة والبناء الشعري، الدكتور محمد حسن عبدالله، د/ط، عام 1981م، دار المعارف، القاهرة.

(21) الصورة في شعر بشار بن برد، الدكتور عبدالفتاح صالح نافع، د/ط، عام 83م، دار الفكر، عمان.

(22) الصورة الفنية عند النابغة، خالد محمد الزاواوي، ط1، عام 92م، الشركة المصرية العالمية للنشر.

(23) الصورة في الشعر العربي، الدكتور علي البطل، ط3، عام 83م، دار الأندلس، بيروت.

(24) الصورة الفنية في الأدب العربي، الدكتور فايز الداية، ط2، عام 90م، دار الفكر المعاصر، بيروت.

(25) طبقات فحول الشعراء، تأليف محمد بن سلاّم الجمحي، قرأه وشرحه محمود محمد شاكر، د/ط، د/ت، مطبعة المدني، القاهرة.

(26) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لابن رشيق القيرواني، تحقيق محيي الدين عبدالحميد، ط4، عام 72م، دال الجيل، بيروت.

(27) في النص الأدبي، الدكتور سعد مصلوح، ط1، عام 91م، النادي الأدبي بجدة.

(28) قراءات نقدية في الأدب العربي، الدكتور عناد غزوان إسماعيل، ط1، عام 98م، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء.

(29) القصة في الشعر العربي إلى أوائل القرن الثاني الهجري، علي النجدي ناصف، د/ط، د/ت، دار نهضة مصر، القاهرة.

(30) الكامل للمبرد، طبعة محمد أبو الفضل إبراهيم.

(31) كتاب الاختيارين للأخفش الأصغر، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، ط2، عام 84م، مؤسسة الرسالة.

(32) كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، تحقيق د/ مفيد قميحة، ط2، عام 1984م، دار الكتب العلمية، بيروت.

(33) كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق المجاز، يحي بن حمزة العلوي، تحقيق عبدالسلام شاهين، ط1، عام 95م، دار الكتب العلمية، بيروت.

(34) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، تحقيق د/ أحمد الحوفي، د/ بدوي طبانة، ط1، عام 1959م، مطبعة نهضة مصر، القاهرة.

(35) المفضليات للمفضل الضبي تحقيق أحمد شاكر وعبدالسلام هارون، دار المعارف القاهرة.

المجلات

(1) الآداب البيروتية العدد 8 عام 1960م.

(2) التراث العربي العدد 21 عام 1985م.

(3) جذور العدد الأول عام 1998م.

(4) مواقف العدد 7 عام 1974م.

وكالات الأنباء العالمية الانجلوساكسونية

بقلم: هنري بيجيا *
ترجمة: عبد الرحمن السريحي
مراجعة: الدكتور فايزة القاسم

وكالة رويترز

أُسست وكالة (رويترز) في عام 1851م، وهُددت كثيراً بالإغلاق، بيد أنها بعد ذلك بقرن،في نهاية الخمسينات بالتحديد، عرفت هذه كيف تتحول إلى واحدة من المجموعات الأولى للاتصالات المتعددة الوسائل في العالم . أما اليوم و بعد أن أدرجت في

• فصل من كتاب وكالات الأنباء :
Henri Pigeat , *Les agences de presse* 1997, pp.71-84

البورصة ، فقد تجاوز نفوذ (رويترز) في السوق، نفوذالوكالتين العالميتين (أسو سيتد برس) (AP) ،الأمريكية ،ووكالة الأنباء الفرنسية(AFP). فقد كان يمثل رقم مبيعات (رويترز) 17 ضعفا مما كانت عليه عام1995 رقم مبيعات الوكالة الفرنسية . ويرجع نجاح وكالة (رويترز) المذهل إلى بيعها الأنباء العامة ،والمعلومات الاقتصادية، والمالية خارج القطاع الإعلامي. فبيع الأخبار لهذا القطاع بات لا يمثل سوى 6% من نشاطها.

ماض تراوح بين المجد والأفول

كان جوليوس رويتر (Julius Reuter) ،إبنا لأحد الحاخامات ،و كان ألماني الجنسية ليبراليا يعيش في المنفى. عمل فيما مضى، في وكالة هافاس (Havas) في باريس. بدأ حياته المهنية في لندن حيث كان يزود القطاع الخاص بمعلومات البورصة، أما الصحف فلم تصبح من عملائه إلا في فترة متأخرة . وهكذا بدأت تظهر موهبة (رويترز) في نقل أخبار المال التي أصبحت شغل الوكالة الشاغل . فأصبحت وكالة (رويترز) مؤسسة كبيرة فعلا، ولكن دون أن يكون لها أدنى وضع رسمي، لأنها ظلت دائما مؤسسة خاصة.

بعد أن منح أمير هانوفر (رويترز) لقب "نبيل"، أصبح البارون رويترز كسابقه تشارل هافاس (Charles Havas)، مقاولا بارعا عرف كيف يجنى المال من الصحافة و من خارجها كلما سنحت له الفرصة.

الابتعاد عن الحكومة

في عام 1920م، بعد اختفاء إبن جوليوس رويترز ، تنتقلت الوكالة إلى يد (رودريك جونس) (Roderick Jones)، أحد مدراء الوكالة الذي أصبح المساهم الأكبر

في الوكالة، و اضطر إلى الحصول على مساعدة حكومية لكي يتمكن من مواجهة خسائر الوكالة . إلا أن الصحافة البريطانية اعتبرت هذه الوكالة جزءاً من مسئوليتها الأمر الذي سيدفع بكل من، المنظمتين البريطانيتين "الجمعية الوطنية للناشرين(NPA) وأسوسيتد برس (PA) " لشراء أكثر من 60% من أسهم الوكالة في عام 1926م.

وأمام تهديدات تدخل الحكومة الدائم الذي طالما استنكره البريطانيون، فقد قام كل من جو تشانسلور المدير الجديد لرويترز في عام 1941م، والصحافة البريطانية، بتعيين لجنة مراقبة سُميت بـ" رويترز تروست" (Reuters Trust)، لتصبح هذه اللجنة حامية لميثاق ينص على الالتزامات الأساسية لاستقلال رويترز عن كل سلطة حكومية أو اقتصادية . كما يحدد هذا الميثاق أهدافا للوكالة على المستوى العالمي.

و لا يزال هذا النص أهم خطوة في تاريخ وكالات الأنباء، و الميثاق التأسيسي لوكالة رويترز. فنجد أن بيان التعهدات لوكالة الأنباء الفرنسية (AFP)، في قانون عام 1957م الذي يحدد نظامها الأساسي، قد استُوحي مباشرةً من ميثاق رويترز .

التحول الاستراتيجي سنة 1963م

كانت فترة ما بعد الحرب صعبة ، وبدا مستقبل رويتر مهددا بشكل جدي قبل أن يحصل تحول جذري. ففي عام 1963م، قام جيرالد لونغ (Gerald Long)،المدير العام الجديد لرويترز، بتحديد خيارات إستراتيجية تتعارض مع خط سير الوكالة التي كانت تستهدف حتى الآن بشكل أساسي، سوق وسائط الأعلام رغم تجربتها التقليدية في تزويدها .بمعلومات ذات صلة بالبورصة و ساحة لندن المالية.

كان (جيرالد لونغ) يرى أن الوكالة في خطر، وقد لا تستطيع البقاء دون الحصول على مصادر دخل جديدة . و اعتبر (جيران لونغ) الذي يرفض رفضا باتا

الاستعانة بالسلطات الحكومية، "أن المستقبل يكمن في نقل الأخبار" بمساعدة الوسائل الإلكترونية الجديدة والأقمار الصناعية. ولذا خلال بضع سنوات، جهزت (رويتر) مكاتبها بأنظمة المعلوماتية، و جددت خدماتها المالية تحت اسم (رويترز) للخدمات الاقتصادية (RES). و ألغت الوكالة اتفاقية تبادل المعلومات مع وكالات أُخرى كوكالة داوجونس (Dow Jones) ووكالة أسوسيتد برس (AP)، و فتحت مركزا في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث أصبحت واحدة من أوائل موزعي أسعار البورصة و المواد الأولية.

انفجار أخبار المال

لابد من أن نُقر ، دون التقليل من حكمة مدراء رويترز و رؤيتهم الصائبة، أن الحظ كان يبتسم لهذه الوكالة. ففي الخامس عشر من أغسطس لسنة 1971م ، وضع الرئيس الأمريكي نيكسون حدا لتحديد قيمة الدولار بالذهب، مما أدخل العالم في حقبة تعويم عام لأسعار العملات. فقد أصبحت أسعار العملة الصعبة القابلة للتغير في أي لحظة معلومات ملحة وأساسية لا يمكن لأي بنك، أو مؤسسة اقتصادية ،أكانت حكومية، أم خاصة أن تتجاهلها، إلا أنه لم يكن هناك أي هيئة قادرة على التزويد بها.

إلا أن الوسائل التقنية التي كانت تتمتع بها رويترز كانت تؤهلها لتصبح (البورصة العالمية للعملات)، ومنذ ذلك الوقت، توجب على محلات الصرافة، والبنوك، وإدارت العالم بأسره أن تشترك في الخدمات الإلكترونية الأكثر سرعة، والأكثر مصداقية التي تقدمها رويترز: كخدمة ستوك ماستر،(Stockmaster) ،التي أسست في عام 1964م، وفيديو ماستر،(Videomaster)، في عام 1968م، وهي خدمة تقدم لأول مرة عبر الشاشة ؛ وموني مونيتر،(Money Monitor) في عام 1972م. وفي عام 1981م قدمت رويترز خدمة ديلنج، (Dealing Service)، التي أصبحت خدمة تفاعلية.

هذا و استطاع الزبائن أن يتصلوا ببعضهم البعض، ويعقدوا صفقاتهم آنيا. ففي عام 1994م ، قدر أن سوق العملات اليومي قد تجاوز الألف مليار دولار، وأن أكثر من ثلث الصفقات المبرمة "آنيا" (SPOT)، تمت عن طريق وكالة رويترز. و عند نهاية السبعينات أخذت اشتراكات وأرباح الوكالة بالتزايد بشكل ملحوظ فخلال الفترة مابين عامي 1974م و 1984م، ارتفع رقم مبيعات الوكالة إلى 14ضعفا.

فاليوم، تمثل رويترز مجموعة من الخدمات للفاعلين و المتداولين في اسواق المال. إن النظام الجديد ديلنج 2000 ،(Dealing 2000)، عبارة عن محطة عمل ملائمة تستخدم الذكاء الاصطناعي لإنجاز صفقات نقدية عديدة دفعة واحدة. وفي عام 1995م حلت خدمة (Money 2000) محل خدمة (Money Monitor)، التي كانت تخص أكثر من 200000 طرف في العالم، و أصبحت خدمة (Globex) لتسعير الأسواق الأجلة (بورصة عالمية افتراضية). وفي سنة 1991م ، استرجعت وكالة رويترز لخدمة أنستينت (Instinet) ، و تزودت بالتالي بخدمة تسمح بإجراء صفقات البورصة آنيا في عدد من الساحات المالية .

مجموعة خاصة بالتكنولوجيا متعددة الوسائط

استخدمت رويترز هذه الموارد الجديدة و الهائلة لكي تعزز وكالة الأنباء بالذات، ولكي تفتح مكاتب جديدة تزودها بالأنظمة المعلوماتية الأكثر كفاءة. وفي علم 1985م، أخذت رويترز، التي لم تكن متخصصة في إنتاج الصور بشكل مباشر، تدير خدمة الصور الذي كان تابعا لشركة يونايتد برس أنترناشيونال (UPI)، التي كان مالكوها بصدد تقسيمها، وذلك قبل أن تملكها كليا. فتعيد تجهيزها بأحسن الأجهزة الإلكترونية ليصبح لدى وكالة رويترز، إحدى الخدمات الخاصة بالصور عن بعد في العالم، إلى جانب وكالتي أسوسيتد برس (AP)، ووكالة الأنباء الفرنسية(AFP .

خاصت رويترز مجال التلفزيون في عام 1960م عندما سيطرت علـــى 11% مـــن (فيزنيوز)، وهي وكالة للصور التلفزيونية الإخبارية. التي تعتبر فرعـــا لهيئـــة الإذاعـــة البريطانية (BBC). ثم زادت رويتر تدريجا من أسهمها حتى ملكت مجموع الأسهم عـــام 1992م، و أنشأت "تلفزيون رويترز" .

في السنة التالية، أصبحت العمليات رقمية و تم تطوير الريبورتاجات التليفزيونيـــة التي قد تجذب اهتمام المتداولين الماليين و إدراجها الأطراف الخدماتية لزبائن القطـــاع البنكي والاقتصادي وقطاع البورصة على شكل أخبار مكتوبة .

أما اليوم فتضم رويترز 118 مكتبا في العالم، و 400 فريق تصوير، وشبكة عالمية لتوزيع الصور بواسطة الأقمار الصناعية . و يمكننا أن نعتبر أن تليفزيون رويترز قد حقق نجاحا . ففي عام 1993م وقع اتفاقيات شراكه مع القناة البريطانية (GMTV)، والشـــبكة الأمريكية (CNN)، ثم وقع، في عام 1994م، اتفاقية مـــع تليفزيـــون (FOX)، وشـــبكة التليفزيون عبر القمر الصناعي (BSKYB). كما سيطرت رويترز أيضا على 33% مـــن وكالة الصور التليفزيونية البريطانية (ITN)، التي تزود بالمعلومات المحطـــات الإقليميـــة للشبكة البريطانية الثانية الخاصة، والتي تملك هي أيضا 10% من وكالة الصور التليفزيون الأمريكية (WTN). و مع ضم خدمات معالجة الصورة عبر المعلوماتية، (رسوم و صـــور أخبارية)، أصبحت وكالة رويترز من الآن فصاعدا حاضرة في كل مجـــالات الأخبـــار "تبث على شكل نص ،و صورة ، وصور فيديو". إنها في وضع ملائم جدا لكي تستغل الإمكانيات المتاحة من خلال " طريق المعلومات السريع"، وبنوك المعلومات للجمـــهور العام .

قوة اقتصادية ضخمة

أدرجت الشركة القابضة المعروفة باســـم رويـــترز هولنيـــج ب..ل.ك (Reuters Holding P.L.C)، في سوق البورصة في لندن، ونيويورك سنة 1984م، ومنذ ذلك الحـــين

ظل سهمها قويا بحيث كان عليه إقبال شديد وذلك لوضعه الجيد ولمردوده القـــوي . فمنذ عشرين سنة تنامى رقم مبيعات رويترز بشكل مستمر وقوى. ليبلغ في عام 1995م 2.7 مليار جنية، (إي ما يعادل 24مليار فرنك) في حين كان يبلغ في عـــام 1991م 1.4 مليار جنية. و كان الرقم المحقق في عام 1995م قبل اقتطاع الضرائب يمثل 599 مليـــون جنية، أي ما يعادل (5.3مليار فرنك) ، مقابل 340 مليون جنية في عام 1991م.

وتبعا لما أوردته وكالة رويترز ، فإن رقم المبيعات يقسم كالتالي : 69.5% قيمـــة خدمات الأخبار الخاصة بالمتداولين الماليين، و 25% للخدمات الخاصـــة بالصفقـــات الموجهة للزبائن أنفسهم ، و 5.5% خدمات الأخبـــار العامـــة الموجهـــة للصحافـــة والتلفزيون.

أما على الصعيد الجغرافي ، فتمثل أوربا والشرق الأوسط وأفريقيـــا 54.5% مـــن مجموع رقم مبيعات الوكالة بينما تمثل آسيا والمحيـــط الهـــادئ 8% ، والأمريكيتـــان 15.5% . أما الـــ12% الباقية فيتم تحقيقها من الخدمات العالمية دون تميـــيز جغـــرافي (كخدمات انستينت (Instinet)، و خدمة البورصة العالمية عـــبر الشـــبكة تكنكـــرون (Tecknekron)، وخدمة برامجيات قاعات الأسواق المالية).

في عام 1994م، تجاوز عدد الأطراف الخدماتية لرويترز في العالم الـــ(300.000) أي بزيادة تقدر بـــ (100.000) على ما كان عليه قبل سنتين. أي أن تزويـــد المعلومـــات لـــ(4000) مكتب مقارنة بـــ(29000) مكتب قبل ذلك بسنتين.

ضمانات الاستقلال

منذ تأسيسها سنة 1951 ، كانت رويترز على التوالي شركة أسرية. ثم أصبحـــت شركة محدودة الأسهم ثم شركة شبه تعاونية تحت إدارة وكـــالتي الجمعيـــة الوطنيـــة

للناشرين(NPA)، وأسوسيتد برس (PA)، ووكالات تعاونية أسترالية ونيوزلندية. بعد أن أدارها الصحافة مدة أربعين عاما أصبحت رويترز في عام 1984م شركة قابضة معروفة باسم (رويتر هلدنج ب.ل.ك) و تم إدراجها في البورصة.و هذا بالذات ما أثار مشكلة أخلاقية رغم أنه يعتبر أمرا منطقيا مادام عملاء الوكالة الأساسيون يعملون في قطـاعي التجارة و المالية.فاستقلالية، النبأ الإخباري قد لا تهدده السلطات الحكوميةهذه المرة ، و لكن السلطات الاقتصادية الخاصة. و كانت هذه المسألة موضوع نقاش واسع لـدى الصحافة البريطانية.إلا أنها حلت بفضل مجموعة من الإجـراءات : فقـد خصصت للصحافة وبصورة مؤقتة وحتى عام 1990م، أسهم امتياز من فئـة (A) مـع حـق في التصويت يفوق أربع مرات حق التصويت لحصص للسهم العادي و بالتالي اسـتطاعت الصحافة أن تملك 20% من حق التصويت و بحيازة 5% من الحصص . كما أن إجـراء آخر حدد بصفة دائمة الحد الأقصى للأسهم التي يمكن حيازتها أي 12% وأخيرا، ظل ميثاق استقلال رويترز تروست لعام 1941م ساري المفعول، ولكن تولت شركة خاصـة هي رويترز فوندر شير كمباني، (Reutres Founder Share Company) مهمـة مراعـاة مبادئ الميثاق محل بجلس الإدارة. تملك هذه الشركة الخاصة أسهم المؤسس، بمعنى أنهـا تتمتع بمفردها بالقدرة على عرقلة أي قرار لمجلس الإدارة يناقض مبادئ الميثاق .كمـا أن هذه الشركة هي الوحيدة التي تستطيع معارضة أي شخص أو أي مجموعة لها مطامع في السيطرة على رويترز.

إن إداريي وكالة(رويترز فوندر شير كمباني) الذين يجددون عن طريق التعيين هـم شخصيات شغلت مراكز هامة في عالم الصحافة و الجامعة.

تمثل مبادئ الميثاق التي تقوم هذه الشخصيات بمراقبة التقيد الدقيق بهـا ، تعريفـا واضحا لمبادئ أخلاقيات المهنة بالنسبة للوكالة " أنظر الفقرة المؤطرة أدناه " .

مبادئ رويتر تروست

- يتوجب على رويترز أن لا تقع في أي وقت من الأوقات تحت سيطرة أي شخص،أو أي مجموعة،أو أي زمرة.
- يجب أن تصان نزاهة وحيادية واستقلالية رويتر بصرامة .
- على رويترز أن تزود بخدمات المعلومات المحايدة و الموثوق بها كلا من : الصحف، ووكالات الأنباء، والإذاعات، ووسائل الإعلام المشتركة كذلك الهيئات، والسلطات الحكومية، والمؤسسات، والأشخاص، وغيرهم ممن وقعت معهم عقدا بذلك.
- ينبغي على رويترز أن تعير نفس الاهتمام للمصالح العديدة التي تقوم بخدمتها علاوة على وسائل الأعلام.
- يجب على رويترز أن لا تدخر وسعها في توسيع وتطوير وتكييف خدماتها لكي تحافظ على المكانة المهيمنة لمجموعتها على السوق العالمية للأنباء .

و فضلا عن تحليها بالواقعية العملية، و بضمير مهني ، أسست رويترز إطارا شرعيا يسمح لها بالاستمرار في طريق التطور المتميز و الإخلاص في نفس الوقت لمبادئها في جمع وتسليم الخبر المستقل والموثوق به.

وكالة الأنباء اسوسيتد برس (AP , Associated press)

إن وكالة اسوسيتد برس (AP) هي عبارة عن اتحاد لا يجني الأرباح ، يضم غالبية الصحف والإذاعات، والتلفزيونات الأمريكية ، فهي تملك (1000صحيفة أي ما يعادل 84% من إجمالي الصحف الأمريكية التي تمثل 96% من المطبوعات ، وتملك 1550إذاعة وتلفزيون). في عام 1995م كانت اسوسيتد برس حاضرة في 112بلدا ، ظلت اسوسيتد

برس دائما مواكبة لأحدث التطورات التقنية فضلا عن تأمينها للأنبـــاء ذات القيمـــة العالية.

الشريك الأمريكي لاتحاد شركات القرن التاسع عشر

يرجع أصل وكالة اسوسيتدبرس إلى أقدم اتحاد في عالم الصحافة يسمى، (جمعية تبعا للتعبير القانون الإنجلوساكسوني)،أسس في عام 1848م بمبادرة من جمس غوردن بنـــت، (James Gordon Benett)، لحساب ست صحف من نيويورك، كانت ترغب في أن تجمع النفقات الضرورية لإنتاج ربيورتاجات ذات مستوى عال جدا. وقبل إنشاء كابل عابر للمحيط ، كان يتم إستئجار زوارق لكي تذهب إلى أمام السفن القادمة من أوربـــا و تحصل منها على الأخبار في أسرع وقت ممكن. و قد كتب الكاتب الهزلى الأمريكـــي مارك تون (Mark Twain)، في نهاية القرن التاسع عشر في هذا الصدد يقـــول: "القوتـــان الوحيدتان اللتان كانتا تنيران أرجاء المعمورة هما : الشمس في السماء وأسوستيد بـــرس هنـــا علـــى الأرض" الأمر الذي كان يعتبر في ذلك الوقت مجرد تباهي.

و اضطرت أسوستيد برس التفاهم عام 1872م، مع اتحادالوكالات الأوربية الكبـيرة الثلاث، وولف، ورويترز، وهافاس، لتقاسم الأسواق. لأن أحد أهداف هذا الاتحـــاد في الواقع هو تحاشي دخول الوكالات الأوربية سوق أمريكا الشمالية.

التوسع العالمي

بدأت اسوسيتد برس توسعها الدولي أولا في كوبا، والفيلبين، في عام 1898م بعـــد الحرب مع إسبانيا ، ثم في أمريكا الوسطي في عام 1902م . توغلت الوكالة في أســـواق أمريكا الجنوبية سنة 1919م بطلب من صحف هذه المنطقة. ففي الواقع كانت هـــذه

المنطقة من نصيب وكالة هافاس الفرنسية وفقا لاتفاق اتحاد الوكالات الأوربية الثلاث. إلا أن هذه الأخيرة كانت قد ارتكبت خطأ و ذلك بأمر من الرقابة الفرنسية في ذلك الوقت عندما بثت أخبارا تستبعد منها الأخبارذات المصدر الألماني. و منذ ذلك الوقت لم تنفك اسوسيتد برس تتوسع عالميا.

اتحاد دون أهداف ربحية

ليس هدف اتحاد أسوسيتد بس الربح, فقوانينه الحالية تعود إلى عام 1900م . إن عدد الحصص التي تمتلكها كل جريدة عضو في الاتحاد يخضع لرقم مبيعاتها و ليس لتوزيعها.فقد ظل هذا الاتحاد و لوقت طويل متمسكا بتعيين أعضائه من الداخل وظل يرفض دخول الصحافة المرئية والمصورة التي كان يعتبرها منافسا غير مرغوب فيه. إلا أنه لم يعدل عن هذه السياسة إلا تحت إيعاز المحكمة العليا للولايات المتحدة الأمريكية.

هذا و تدير هذه الوكالة و مقرها الرئيسي في مركز روكفيلر سنتر في نيويورك لجنة تنفيذية تتألف من 18 مالك مجلة، وثلاثة ممثلين للإذاعة، والتلفزيون يتم انتخابهم لفترة 6 سنوات ويتم تجديد ثلثهم كل سنتين. ينتخب مجلس الإدارة رئيسه، والمدير العام، ونائب الرئيس . ويملك كل عضو عدد من الأصوات تتناسب مع حصته. كما يعاد توظيف أرباح الإيرادات .

أكبر وكالة أنباء في العالم

تستقبل أكثر من 15 ألف جريدة، وم ط إذاعة،وتلفزيون في العالم يوميا خدمة أسوسيتد برس التي تغطي شبكتها أيضا مليار شخص بخدمتها. تملك هذه الوكالة 223 مكتبا توجد 141 منها في الولايات المتحدة لأمريكية . كما تملك 82 مكتب تصوير ،

يوجد 45 منها في الولايات المتحدة الأمريكية . كما يعمل في هذه الوكالة 3030 شخصا، منهم 1600 صحفي ومصور في الولايات المتحدة الأمريكية، وأربعمائة وثمانون يعملون في باقي أنحاء العالم، وخمس مائة تقني في الاتصالات وخدمات المعلوماتية وغير ذلك.

تنتج اسوسيتد برس خدماتها باللغة الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والأسبانية، والبلجيكية، والسويدية. إنها الوكالة الوحيدة فضلا عن وكالة الأنباء الفرنسية (AFP)،التي تزود الإعلام الفرنسي بخدمات إخبارية عامة تنتج في باريس و تبث عبر التلكس.

تقنيات حديثة وابتكارات

تتباهى اسوسيتد برس بأنها كانت السباقة لأعمال عديدة في تاريخ وكالات الأنباء فهي من اخترع أول دائرة برق ترسل النباء من نيويورك إلى واشنطن في عام 1875م. وهي أول من سلم الخدمات الصحفية عبر التلكس منذ عام 1914م . كما أنها أول من أنشأ خدمة مستمرة لنقل الصور عبر الأسلاك في الأول من يناير من عام 1935م . وهي أول من قام بأتمتة البرقيات للكتابة المطبعية . كما أنها أول من نقل الأسعار والإحصائيات المالية بسرعة تتجاوز الألف كلمة في الدقيقة، و أول من استخدم الليزر (طرق الصور الليزرية، والفاكس الليزري)، لاستقبال الصور المسافية. كذلك هي أول من ادخل معالجة الصور بالحاسوب.

لقد لعبت اسوسيتدبرس دورا رائدا عندما طرحت في العشرينيات خدمة الريبورتاجات،و المقالات التي ترد على شكل مجلات أسبوعية، متخلصة بذلك من ضغوط أخبار الساعة الفورية. كما أنها هي أول من تخلى عن القاعدة التقليدية التي تكمن في إخفاء سم المراسل وبدأت تنشر أخبارا ومواضيع تمل توقيعات كاتبيها.

إدخال المعلوماتية

ابتدأ من سنة 1971م أدخلت وكالة اسوسيتد برس المعلوماتيـــة علـــى خدماتهـــا التحريرية. فالآلات الكاتبة والأوراق قد اختفت لتحل محلها ألحوا سيب . كما اختفت أيضا مهن عديدة كالتلكس والكتابة المختزلة وحامل الأخبار. إد كانت أتمتة الوكالـــة تواكب المستخدم .

وظلت اسوسيتد برس على رأس التطور التقني في بث الأخبار من حاســـوب إلى حاسوب بسرعة 56000 كلمة في الدقيقة، و اختارت ايقاعات بمعدل1200كلمة في الدقيقة في الوقت الذي كانت فيه الوكالات الأخرى لا تتجاوز بالكاد 60 كلمـــة في الدقيقة.

تشكلية كاملة من الخدمات

إن اسوسيتد برس، التي كانت دائما تبذل قصار جهدها لكـــي تقـــدم تشـــكيلة خدمات متكاملة ، قد استفادت من المعلوماتية والطابعات الحديثة والســـريعة لتعيـــد التفكير في هذه الخدمات على ضوء التسهيلات الضخمة لنقل واختيار الخبر التي تقدمها المعلوماتية . ثم تسليم خدمتها الأساسية (Data Stream)، التي تعني (تدفق المعلومـــات) أولا عبر طابعات بسرعة 9000 بود ما يعادل(1200كلمة في الدقيقة)، قبل أن تدخـــل مباشرة إلى حوا سيب العملاء. , إلى جانب أخبار عامة مشتركة للجميع هناك مواضيع خاصة عند الطلب كـــ(الأنبـــاء الإقليميـــة، والمحليـــة، والرياضيـــة، والاقتصاديـــة، والإحصائيات الرياضية، والإحصائيات الاقتصادية، وألعاب الفروسية، والعروض الخ منذ عام 1970م والوكالة تسلم معلوماتها على أنماط قابلة للاستخدام المباشر من خلال نظام الصور التركيبي للصحف.

أما اليوم فالتقنيات الحديثة في تسليم الأخبار تفاعلية بمعنى أن المستخدم اليوم لم يعد يستلم سوى العنوان و يختار الأخبار التي تهمة فقط.

إن خدمة اختيار الأخبار(Select news) تسمح باستدعاء الأخبار وو المواضيع التي يتم تحديدها مسبقا . كما تدرس اسوسيتد برس طرق الاختيار هذه مستخدمة الذكاء الاصطناعي. بحيث تصبح قادرة على تحديد اهتمامات المستخدم الخاصة مسبقا.

أما خدمة الأخبار المصورة التي يتم معالجتها عبر المعلوماتية فهي تصور الأخبار اليومية، وتزود بخرائط توقعات الأحوال الجوية. كما تقدم الوكالة خدمة متنوعة (كمواضيع المجلة التي تغطي كل العناوين التي تستخدمها الصحافة ك:الشباب و أوقات الفراغ والرياضة والموضة وفنون الطبخ والكلمات المتقاطعة الخ..)، المخصصة لصحف معينة كصحف، ومجلات يوم الأحد الأمريكية ذات الصفحات العديدة جدا.

القطاع الاقتصادي : اسوسيتد برس ودوجونس

في مجال الاقتصاد والمال، تقترح الوكالة تشكيلة مت تسع خدمات جديدة فيما يخص الأسعار(أسعار البورصة، والخامات) و خدمات الإعلام مع عدة أنظمة للحصول عليها مثل: محطة العمل ،أو الحاسوب الشخصي ،أو التلفون.

في سنة 1966م قررت اسوسيتد برس أمام نجاح وكالة رويتر ز، أن تتصدى لبعض الأسواق خارج بمجال الإعلام عبر اتحادها مع مجموعة الصحافة دوجونس الناشرة لصحفية (ول ستريت جورنال).

فبدلا من أن تجد لها موارد من خلال تنظيمها الذاتي ، آثرت اسوسيتد برس أخيرا الاتحاد مع شريك اتسعت دائرة نفوذه وكان يشغل المركز الأول في الولايات المتحدة الأمريكية، وينافس وكالة رويترز في السوق العالمي. لقد أسس مجموعة الصحافة

دوجونس في عام 1882م، صحفيان هما شـــارل ه. داو (Charles H. Dow) وإدوار د. جونس، (Edward D. Jones) ، مؤسسا أول صحيفة يومية اقتصادية هي (ول ستريت جورنال)، في عام 1889م. لقد ابتكرا أول مؤشر بورصة في العالم الذي أدى إلى نشوء مؤشرات دوجونس الشهيرة، التي مازالت قيد الاستعمال. كما أسست دوجونس خدمة على الخط لكي توزع أسعار البورصات الأمريكية. و قد تمخض عن تحالف مجموعة دوجونس مع وكالة اسوسيتد برس، خدمة الأخبار الاقتصادية والمالية (AP.DJ) التي دخلت في منافسة مباشرة مع وكالة رويترز، وتعد اسوسيتد برس و رويترز أول وكالتي أنباء في العالم تصممان "إستراتيجية سوق غير إعلامية" في قطاع مربح جدا. ومنذ ذلك الوقت و اسوسيتد برس في وضع جيد، والإيرادات أتت في وقتها لتعوض خسائر قطاع الإعلام.

و مع ذلك تحالف مجموعة دوجونس، ووكالة اسوسيتد برس لم يكن ليغطي السوق الداخلي لأمريكا، حيث لا تزال الوكالتان تحافظان على استقلالهما. ففي عام 1988م ، أصبحت وكالة دوجونس خدمة (Telerate)، وتابعت توسعها سواء من خلال لنموها الداخلي أو من خلال اقتنائها لوكالات اقتصادية في الخارج، كوكالة راديوكور، (Radiocor) في إيطاليا. وقامت وكالة دوجونس ببث خدماتها عبر الإذاعة في أكثر من خمسين بلدا، ومنذ سنة 1993م، و هي تبثها عبر التلفزيون . وفي نفس السنة قدمت خدمة الأخبار المالية عبر الهاتف في الولايات المتحدة الأمريكية بالتعاون مع شركة الاتصالات (Bell South) ومن ثم قدمت خدمات الأرصاد الجوية والرياضية.

خدمات الصور

الصور المسافية

كانت وكالة اسوسيتد برس، وحتى عام 1985م الوكالة الوحيدة، إلى جانب وكالة يونايتد برس انترناشيونال (UPI)، التي توزع خدمة الصور المسافية في العالم. لقد

استخدمت اسوسيتد برس في عام 1973م تقنية نقل واستقبال الصور الليزرية و التي تعرف ايضا بـ "بالليزر فاكس" صممت في معهد ماسشوست للتكنولوجيا (MIT). في سنة 1977م أنجز تقنيو الوكالة أول معمل إلكتروني، " مزود بالتجهيزات اللازمة لمعالجة واختيار ونقل الصور، والتعليق عليها و نقل صور ذات التقنية الرقمية عبر الحاسوب.

التلفزيون

في المقابل ، تأخرت وكالة اسوسيتد برس في خوض مجال التلفزيون مقارنة بوكالتي يونايتد برس انترناشيونال، ورويتر ز. فبعد محاولة فاشلة في عام 1949م، قررت اسوسيتد برس في عام 1994م، إنشاء فرعها (APTV) في لندن لتقدم خدمة عالمية لصور تلفزيونية عن أخبار الساعة. و بالتالي التحقت الوكالة الأمريكية بناد محصور جدا لم يكن يضم سوى تلفزيون رويترز (المتحد مع الشبكة الأمريكية ABC) وتلفزيون العالم للأخبار (WTB)المتحد مع الشبكة الأمريكية (CBS)، والاتحاد الأوربي للتلفزيون (UER).

عندما أعلنت اسوسيتد برس عن ولادة هذه الخدمة التلفزيونية أشارت أن هدفها كان بالتأكيد تلبية احتياجات قنوات التلفزيون في العالم بأسره موضحة في آن معا أن التعاون في مجال الأخبار التلفزيونية العالمية، كان بالنسبة لها مكملا طبيعيا لمهمتها الأخبارية نحو وسائط الإعلام الأخرى .

بدت هذه الاستراتيجية وكأنها استراتيجية مؤسسية أكثر منها اقتصادية تجارية لاسيما أمام المنافسة القوية لوكالة رويترز . كذلك فإن منطق اتحاد اسوسيتد برس يصب نوعا ما في منطق مؤسسة وطنية لا تمثل بالتأكيد الحكومة إنما تمثل الصحافة، والإذاعة، ومحطات التلفزيون الأمريكية، بمعنى أنه يقترب بما فيه الكفاية من مفهوم

الوكالة الفرنسية للأنباء (AFP) حينما أنشأت هذه الأخيرة خدمة الصور المسافية الخاصة بها في عام 1985م .

مشاكل مالية

على الرغم من تفوق اسوسيتد برس، وعلى الرغم من صفتها اتحادا لمجموعة وسائط الأعلام الأكثر ثراء في العالم، فإنها لم تتخلص من مشاكلها المالية . ففي عام 1993م سجل رقم مبيعاتها 341 مليون دولار، أي ما يعادل حوالي ضعف مبيعات الوكالة الفرنسية وأقل بثمان مرات من مبيعات وكالة رويتر ز. لقد تكبدت الوكالة ذاتها عجزا وصل إلى 19مليون دولار (5.5% رقم المبيعات). فلم تكن اسوسيتد برس قادرة على تسجيل فائض إلا بفضل فرعها للأخبار المالية (AP-DJ) . و بدا من المؤكد أن بيع الأخبار العامة لوكالات الإعلام وحدها هو نشاط يصعب غير مدر للربح، حتى بالنسبة لاتحاد وكالات الصحافة اسوسيتد برس الذي يستفيد من دعم السوق الداخلي.

تمثل اسوسيتد برس صورة لاتحاد الشركات النموذجي الذي يكفل الأمان بشكل أساسي. فبكونها اتحادا لا يجني الأرباح يظل هذه الاتحاد في مأمن من النفقات الطائلة. ومع ذلك فأن اتحادات الوكالات التي يمكن أن تطور نشاطا دولاي تظل نادرة، لأن نظام السوق لا يشجع دائما الديناميية التجارية كما أن الإدارة التعاونية غالبا ما تحث على بالحذر والتوفيق بين مصالح المتعاونين أكثر من المخاطرة .

يونايتد برس انترناشيونال (UPI)

أسست وكالة يونايتد برس (UP) في عام 1907م. و أصبحت اتحاد الصحافة الدولية يونايتد برس انترناشيونال (UPI) في عام 1958م ، في مجموعة تضم أربع وكالات عالمية

هي الأكبر خلال أكثر من نصف قرن. كانت يونايتد برس انترناشيونال وكالة خاصة وتجارية بحتة.و فضلا عن نشاطها و فعاليتها كانت تثبت يوميا مزايا المبادرة الحرة و قواع السوق في مجل حرية الصحافة، و ذلك مقارنة بنظام التعاونية أو النظام المختلط الذي يخضع له منافسوها.

في سنة 1982إحتفلت الوكالة بعيد ميلادها الخامس والسبعين، إذ كانت في ذلك الوقت توظف أكثر من 2000صحفي، وكانت قد انتهت قبلها بوقت ليس ببعيد من افتتاح إثناء عشر مكتبا في الولايات المتحدة الأمريكية. كانت هذه الوكالة حاضرة في كل مكان في العالم بخدماتها الكاملة التي تغطي احتياجات وسائل الأعلام الأكثر تنوعا . كما كانت قد أسست أول وأحسن خدمة للصور المسافية في العالم وكان تجهيزها الرقمي الجديد يسمح لها بإرضاء احتياجات 75000 مشترك في هذه الخدمة. لقد كانت هذه الوكالة تخاطر بالتأكيد، ولكن أخبارها كانت أكثر سرعة وهجومية، و كانت ريبورتاجاتها أكثر تميزا من ريبورتاجات الوكالات المنافسة الثلاث. أما في المجال التقني فكانت قد أنشأت مركزا حديثا جدا للنقل الأخباري المعلوماتي في ولاية تكساس على مقربة من المطار الدولي الجديد لـ(دلاس فورت ورث). إنها الوكالة التي كانت قد سنت قاعدة أصبحت فيما بعد تتداول كأسطورة. فوفقا لهذه القاعدة يجب على الصحفي أن يكتب " لبائع الحليب في مدينة أوماها "(the Omaha City Milkman) بمعنى لكل فرد .كما أن "كل دقيقة تعتبر ساعة الإقفال" (deadline every minute) بالنسبة لكل وكالة، أي أن كل خبر يعتبر ملحا جدا.

بعدها بـ15عاما ، تم بيع اسم الوكالة أرع مرات و انخفضت قيمته كثيرا ثم حصلت بمجموعة إذاعية سعودية على حق الامتياز . فلم تعد الوكالة تظهر بين الوكالات العالمية، ويمكن في هذا الصدد ان نقول مثل بول فاليرى فنقول: هذه الوكالة علمتنا أن "الوكالات العظيمة فانية لا محالة".

الحرية والسوق

في الــ15 من يوليو لسنة 1907م تم تدشين وكالة جديدة ، إنهــا " United Press Association " التي أنشأها الصحفـــي إدوارد .ويليـــس ســـكرايبس (Edward Wyllis Scripps)، مؤسس جرائد المساء الذي كان يريد أن يثأر من وكالة اسوسيتد بـرس القوية التي حاولت إغراقه عندما رفضت خدماته. فقد كان يسمح نظام اتحاد الوكالات في ذلك الوقت لأعضائه بمنع انضمام أي قادم جديد قد ينافس الاتحاد في نفس المدينـة. إلا أن إدوارد .ويليس سكرايبس عرف كيف يدافع عن جرائده مكونا وكالات تعاونية صغيرة هي جميعه (Scripps-McRac Press Association) في الميـــدل و يســت (وســط الغرب)، وجمعية الأخبار(Scripps News Association) في الفار ويست (أقصى الغرب). كما اشترى جمعية الناشرين (Publishers Association) علـــى الســاحل الشـرقي . و أبصرت وكالة يونايتد برس النور بعد انصهار هذه الجمعيات الثـــلاث. و لم يخـف إدوارد .ويليس سكرايبس مشاعرة تجاه اسوسيتد برس، فقد قال " أعتقد أن وجود اتحاد احتكاري كبير لا يخدم مصلحة الصحافة في هذا البلد".، باعت يونـــايتد بـــرس أخبارها، منذ أن أسست، لــ 369 زبون في الولايات المتحدة الأمريكية دون تمييز ، بمـا فيهم منافسي سكرايبس.

ضد الاتحاد الاحتكاري

خاضت الوكالة الجديدة يونايتد برس معركة جديدة: إذ أرادت أن تتطور فـــورا مستخدمة كل الوسائل بما فيها الأسواق الأجنبية و إن كلفها ذلك الاصطدام بالاتحـــاد الاحتكاري هافاس، و رويترز، و وولف، و اسوسيتد برس. فتحالفت مع وكالة (دمبو) اليابانية. و كانت يونايتد برس الوكالة الأولى التي تغلبت على احتكار وكالة هافاس في

أمريكا اللاتينية من خلال تحالفها الامتيازي مع الصحيفة الكبرى (La Prensa الصادرة في بيونس ايرس في سنة 1919م.

لو كانت الحرب العالمية الأولى فرصة لوكالة يونايتد برس، لتقدم خدمة تنافس خدمة لوكالات الاحتكار. إلا أن رغبتها في الاستعجال كلفها خطأ تاريخيا شهيرا في سجل الوكالات إذ أعلنت عن الهدنة قبل موعدها بيومين، الأمر الذي دفع الجماهير إلى شوارع باريس. ولكن بالرغم من هذا الخرق فقدكانت خدمة يونايتد برس محل إعجاب الجميع، وكان قد تزايد عدد عملائها متجاوزا الألف مشترك في أكثر من 36 بلدا في عام 1923م.

في سنة 1958م، اندمجت وكالة يونايتد برس مع وكالة International News Service خدمة الأخبار الدولية (INS) التي تعتبر خامس وكالة أنباء عالمية تملكها مجموعة الصحافة (هيرست) لو هكذا نشأت يونايتد برس انترناشيونال (UPI) .وفي الوقع كان الأمر يتعلق باقتناء جديد للشركة، لأن هيرست لم تعد تملك سوى 5% من الشركة الجديدة.

استراتيجية الوسائط المتعدد

منذ ذلك الوقت احتلت يونايتد برس المرتبة الثانية على الدوام بعد وكالة اسوسيتد برس و بالتالي كانت مضطرة إلى اثبات تتجارتها و ديناميتها .

وهكذا كانت وكالة سكرا يبس الوكالة الأولى التي اهتمت بالإذاعة الناشئة و اضطرات وكالة اسوسيتد برس التي كانت ترفض مساعدة أي وسيط إعلامي منافس إلى أن تلتحق بالركب في هذا المجال. في سنة 1958م أسست وكالة يونايتد برس انترناشيونال شبكة سمعية دائمة. كما أن وكالة يونايتد برس أول من اهتمت بالصور

المسافية وذلك من خلال تعاونها منذ عام 1925م مع وكالة (أكم)، التي تعتبر عضـوا في مجموعة سكرايبس. وفي تلك السنة نقلت وكالة (أكم) صور الاتفاقية الجمهورية مـن مدينة كليفلاند و نقلت صور ثوران بركاني في جزيرة هاواي عبر الـبرق. وفي عـام 1952م أصبحت (أكم) خدمة للصور المسافية لدي وكالة يونايتد برس انترناشيونال.

وفي نفس السنة بذلت جهدا حقيقيا في مجال تعدد الوسائط، فأخذت بدئت وكالـة يونايتد برس انترناشيونال بتوزيع أفلام لأخبار الساعة مخصصة للتلفزيون. كما اشتهرت وكالة يونايتد برس انترناشيونال أيضا عندما قدمت في عـام 1973م خدمـة الأفـلام الإخبارية الموجهة لقنوات التلفزيون التي تبث عبر الكابلات.

في سنة 1957م ضمت وكالة(UPI News Films Operation) وسائلها إلى وسـائل تلفزيون بريطانيا المستقل (British Independent Television)، ليكونا تلفزيـون يونـايتد برس انترناشيونال للأخبار(UPITN)، الذي أصبح البـائع الأمريكـي الثـاني للصـور التلفزيونية بعد الـCBS. مازالت هذه الوكالة (UPITN) قائمة تحـت أسـم (WIN) وتملكها عدة شبكات تلفزيونية أمريكية. لابد أن نقول أنه لم يكن قد سبق لأي وكالـة أن أثبتت هذه النظرة التنبؤية فيما يخص تطور وسائط الإعلام الذي كان لا بد منـه. أما بالنسبة لوكالتي رويتر واسوسيتد برس، فستجدا نفسيهما مجبرتين على خوض مجـال التلفزيون بعد يونايتد برس انترناشيونال بسنتين.

جهد تقني مستمر

كانت وكالة يونايتد برس انترناشيونال دائما في قمة التحديث التقـني لخدماتهـا النصية التي كانت توزع باللغة الإنجليزية، والإسـبانية، و البرتغاليـة. في سـنة 1951م وضعت الوكالة نظاما لنقل البرقيات، المركبة على أشرطة سينمائية مثقبـة مخصصـة

لتشغل آليا السطريات في الطابعات. منذ عام 1965م، ثم أتمتة البث للأخبار واستخدم صحفيوها أجهزة الحاسوب منذ عام 1972م.

في نهاية السبعينيات بدأ البث عبر الأقمار الصناعية. وفي عام 1981م، كانت توزع خدماتها لكل مشتركيها الأمريكيين مباشرة عبر القمر الصناعي. في سنة 1979م استثمرت الوكالة 10 مليون دولار في مركزها الجديد الذي جهز بأنظمة المعلوماتية في مدينة دالاس فورت ورث. في نفس السنة دشنت الوكالة مقرها الجديد في نيويورك، و " غرفتها الرقمية السوداء"، و تجهزت بأنظمة المعلوماتية الكاملة بالنسبة لصورها المسافية العالمية.

الأخبار الاقتصادية

قامت وكالة يونايتد برس انترناشيونال في سنة 1963م، بماقتحام مجال الأخبار الاقتصادية. وأنشأت خدمة (Unistok) المعلوماتية لتوزيع أسعار البورصة وأخبار المال، وهى خدمة مخصصة أساسا للصحافة. و تم تطوير المنشآت التي تسعى لتلبية حاجات الزبون خارج وسائط الإعلام كـ(المؤسسات، والبنوك، و متداولي البورصة، و المنشآت إلخ....) و تضم خدمات الأسعار كـ(سوق الصرف، والبورصة، والخامات الأولية)، تطورت تحت اسم يونيكم (Unicom) بالتعاون مع مجموعة الصحافة نايت ردير (Knight Ridder).

الانهيار

من المؤكد أن وكالة يونايتد برس انترناشيونال قد أحرزت عدة نجاحات في مجال الصحافة، وفي تقنياتها إلا أنه لم يكن لها أبدا أي نجاح تجاري. فالبرغم من أنها كانت قد تأسست لجني الأرباح و توجه أنشطته باتجاه أكبر سوق له وسائل الإعلام فإنها لم

تحقق الشفافية المطلوبة من حيث نتائجها. فلم تنشر نتائجها المالية بعد الحرب العالمية الثانية. لقد كان هدف اندماجها مع وكالة خدمة الأخبار الدولية (INS) في سنة 1958م، هو الحد من خسائر الوكالتين المتحدتين، إلا أننا قد نتساءل عن جدوى تحالفها مع وكالة خدمة الأخبار الدولية التي كانت هي أيضا في ورطة مالية. في الواقع لقد سندت وكالة يونايتد برس انترناشيونال من قبل مجموعة سكرايبس هوارد، التي قامت بهذه المساعدة وفاء لرغبة مؤسسها من جهة، فضلا عن السمعة الجيدة التي كانت تحظى بها.

منذ عام 1975م تغيرت سياسة مجموعة يونايتد برس انترناشيونال، فقد بدأ المساهمون المنتمون إلى عائلات يتضايقون من العجز السنوي الذي سجلته. وبالرغم من أن تغطية حرب فيتنام في الستينيات، أعتبرت شيئا إيجابيا فأنها كانت مكلفة جدا. بعد ذلك اختارت الوكالة سياسة للتطور باهضة الثمن تشبه الهروب إلى الأمام: أي أنها أسست مركز أنباء جديد في دالاس بتكلفة 10 مليون دولار، ومقرا جديدا في نيويورك بتكلفة 2,5 مليون دولار، كما أن تكلفة النظام المعلوماتي، و الأقمار الصناعية على خدمات النص والصورة قدرت بأكثر من 21 مليون دولار. فضلا لذلك نشطت وكالة اسوسيتد برس، و عرفت كيف تتكيف مع الوضع و ظلت وكالة يونايتد برس انترناشيونال دائما في المرتبة الثانية في الولايات المتحدة الأمريكية. فلكي تحافظ على مكانتها في العالم توجب على وكالة يونايتد برس انترناشيونال اللجوء إلى إغراق السوق بخدماتها. و فشلت محاولاتها الإدماج مع عدد من الصحف اليومية الأمريكية التي بالرغم من تأكيدها على التمسك بحرية المنافسة فإنها لا تتمنى توسيع أعبائها، أو الوقوف أمام اتحادها اسوس. وقد تكون ترددت أيضا أمام حجم العجز الحقيقي لوكالة يونايتد برس. ففي نهاية عام 1981م ، علم أن خسائر هذه الوكالة وصلت إلى حوالي 29مليون دولار ، منها 10 ملايين وقعت خلال السنة الأخيرة من هذا التاريخ .

في الواقع، كانت قد قررت أسرة سكرايبز طرح وكالة يونايتد برس انترناشيونال للبيع . ففي سنة 1979م ، ابتاعت وكالة نيت ردير(Knight Ridder) خدمة يونيكم (Unicom) كاملة . وفي سنة 1980م انفصلت خدمة (UPITN) عن وكالة يونايتد برس انترناشيونال و انقسمت بين تلفزيون العالم للأخبار (WIN)، والتلفزيون الدولي للأخبار (ITN) وهي وكالة بريطانية للصور الموجهة نحو محطات التلفزيون الإقليمية. وبعد نقاشات سرية مع وكالة الأنباء الفرنسية (AFP) عام 1980م، حول بيع الوكالة أو انتهاج إدارة موحدة لدائرة الصور الدولية التي تعتبر واحدة من أفضل ما لدى وكالة يونايتد برس انترناشيونال. و تم بيع هذه الأخيرة لوكالة رويترز في عام 1985م فيما كان عدد كبير من مصوري وزبائن هذه الدائرة قد فضلوا بالدائرة الجديدة للصور المسافية العالمية التي كانت قد انتهت الوكالة الفرنسية من إنشائها لحسابها قبل هذا التاريخ بفترة وجيزة.

وأخيرا تم بيع دوائر الوكالة الأخرى بمبلغ يتراوح بين الـ(17) والـ(20) مليون دولار في الثاني من يونيو لعام 1982م ، إلى شركة (ميديانيوزكوربوريشن) وهي شركة وأسستها لهذا الغرض مجموعة من الشباب يعملون في الكابلات .

إخفاقات متوالية

بدأ الشك في هذه الأثناء في مصدر الأموال الجديدة، و بالتالي في مصداقية الوكالة، لا سيما عندما اكتشف أن اثنين من الشركاء الجدد يعتنقان الديانة البهائية، واستمرت الكارثة حين اشترى أحد مالكي صحف ناشفيل ، ثلث وكالة ميديانيوز، التي اختلف ما لكوها فيما بنيهم ومن ثم اتهموا بالاختلاس . ثم بيعت الوكالة لمالك مجموعة الصحافة المكسيكية ، رجل الأعمال فازكيز راناء (Vasquez Rana)، الذي حاول عبثا تنشيط أعمال الوكالة في واشنطن بعدد أقل من الموظفين. و ارتفعت الديون في ذلك

الوقت، لتصل إلى أكثر من 65 مليون دولار . كما خفض الكادر الوظيفي من 2000 إلى 500 شخص .

في مايو من عام 1992م ، فاز الواعظ الديني بـــات روبرتســـون (Pat Robertson) المشهور لبرنامجه على الشاشة الصغيرة في المزاد العلني المفتوح، واشترى وكالة يونـــايتد برس انترناشيونال بـــ(6 مليون دولار) قبل إخفاق جديد .

أخيرا و أثناء المزايدة الجديدة، اشترت المجموعة السعودية مركز تلفزيون الشـــرق الوسط (MBC)، ما تبقي من وكالة UPI بمبلغ 3.95 دولار، وتبث هذه المجموعة براجمها الإذاعية والتلفزيونية باللغة العربية من لندن.

أصبحت البنية الأساسية لوكالة UP هزيلة في حد ذاتها و أغلقت كل مكاتبـــها في الخارج شيئا فشيئا، بينما حاول صحفيوها البحث عن وظيفة في أماكن أخـــرى . و لم تستطع مصداقية الوكالة أن تترسخ مع توالي الملاك ذوي المصالح المتغايرة.

أسباب الفشل

إن ضيق السوق الداخلي، ليس السبب الوحيد في انهيار وكالـــة يونـــايتد بـــرس انترناشيونال. لأن عدد وسائل الإعلام الأمريكية وكفاءتها المالية يســـمحان بوجـــود وكالات أنباء عديدة.

إذ سمح اختفاء وكالة يونايتد برس انترناشيونال، بانطلاقة جديدة لدائرة الأنبـــاء الموجهة للصحف. صحيح أن هذه المنافسة قد ضللها جزئيا وجود اتحاد اسوسيتد بـــرس و طبيعته القانونية ، إذ أنه ، الذي يستفيد من زبائن غير ثابتين، والذي أصبح مؤسســة لا يمكن تجاوزها في الصحافة الأمريكية. زد على ذلك أن اتحاد اسوسيتد برس عـــرف

كيف يحد من نفقاته ويمارس سياسة التقشف مزودا السوق بخدماته ذات الميزة الأخبارية والتقنية العالية.

في الواقع، يبدو أن ضعف إستراتيجية وكالة يونايتد برس انترناشيونال كان سببا أساسيا في كارثتها . فالبرغم من أن الوكالة قد عرفت كيف تنوع خدماتها، فإن كل هذه القطاعات التجارية لم تستطع أن تعوض خسائر الخدمة العامة . لا شك أنه كان ينبغي على يونايتد برس انترناشيونال أن تبحث عن منتجات جديدة خارج نطاق الأعلام، كما فعلت وكالة رويترز. أما اختيارها اقتحام سوق الاتصالات، من خلال إنشاء مركز نقل في دالاس، فقد جاء متأخرا جدا. إذ كانت هذه الإستراتيجية تتطلب وجود ملاك يعملون وفق أهداف محددة و هذا ما افتقدته الوكالة حين كان عليها اتخاذ قرارات حاسمة .

وكالة بلومبرغ (Bloomberg) "القادم الجديد"

لم يكن أحد ليتوقع نجاح و كالة بلومبرغ في سوق الأخبار القتصادية و إن كانت هذه الأخيرة تمتاز بطاقة اقتصادية و مالية هائلة منذ أن ظهرت في عام 1980م. يعود اسم هذه الوكالة، كما هو في تقليد وكالات القرن التاسع عشر، لمؤسسها ميكائيل بلومبرغ (Michael Bloomberg)، المدير القديم للمحافظ المالية النيويوركي سالومون بروثرز (Salomon Brothers). لم يأت ميكائيل بلومبرغ من مجال الصحافة كما كان الحال بالنسبة لمؤسسي وكالتي رويترز و هافاس.

فهو لم ينشئ خدمات مخصصة لوسائل الإعلام، بل للمعنيين بالبورصة، وللمساهمين في سوق المال. فخلال 15عاما، عرف تطورا مذهلا في هذا القطاع، ووصل رقم مبيعاته إلى 550 مليون دولار في عام 1993م.

في نهاية 1995م كانت الوكالة تستخدم 2300 موظف منهم 350 صحفيا، كما كانت تملك 60 مكتبا في العالم، و كذلك أمنت التواصل لـ55000 طرف متعامل معها، الأمر الذي كان يضعها بالتأكيد بعيدا وراء 300000 طرف متعامل لدى وكالة رويتر، إلا أن ما لدى وكالة بلومبرغ يكفي لإظهارها في منافسة قوية مع وكالتي رويتر و دوجونس .

منذ ذلك الحين، تتطور وكالة بلومبرغ بثقة و اقتدار، بإنشاء خدمات جديدة، وباتجاهها نحو وسائل الإعلام. كما أنها تسير شبكة إذاعات متخصصة بأخبار المال تضم المحطة النيويوركية (WBBR)، وتلفزيون بلومبرغ للأخبار، وتعمل هذه الشبكة على مدار الساعة. كما تنتج الوكالة صحف تلفزيونية لأكثر من 200 محطة تنتمي إلى الشبكة الحكومية الأمريكية. وبهذا تصبح وكالة بلومبرغ وسيط إعلامي متعدد الخدمات.

تستمر الوكالة في توسعة حقل أخبار الساعة، الذي تقوم بتغطيته ليشمل الأخبار العامة، و الرياضية المكتوبة منها، والمتلفزة.

وأخيرا، دخلت وكالة بلومبرغ سوق وسائط الإعلام من أوسع أبوابه لتصبح المراسل المميز للعناوين المدهشة كصحف نيويورك تايم و واشنطن بوست ، و انترناشيونال هيرلاد تريبون، ولوموند الفرنسية إلخ.... كما توزع الوكالة أيضا مجلة شهرية مطروحة على الجرائد كملحق بلومبرغ بيرسونال (Bloomberg personal)، بواقع ما يقارب 6 مليون نسخة في الولايات المتحدة الأمريكية. من المؤكد أن وكالة بلومبرغ لازالت بعيد عن أن تعتبر وكالة ضخمة، إلا أنها أثبتت أن أي وكالة جديدة يمكنها أن تؤسس نفسها منذ الآن وتحتل مكانة في السوق الدولي معتمدة على قطاعات يسيرة.

كتاب "اليمن في بلاد ملكة سبأ" ملاحظات وتعليقات

قراءة ومناقشة:
د. محمد عبدالله باسلامه

البدء من المدخل

أوجز الأستاذ الدكتور يوسف محمد عبدالله، وبأسلوبه العلمي المعهود، في الحديث عن البلد والسكان، فاليمن "بلاد الجنوب" والشام "شأم" حيث قسمت (جزيرة العرب) إلى (جنوب وشمال). وقد حدد تعبير يمن الهوية السياسية-الثقافية لجنوب الجزيرة، وأهميتها لدى الكتاب الكلاسيكيين ومسمياتها لديهم منها (العربية السعيدة) وتجارتها من

اللبان والطيوب. وحقيقة أن التاريخ القديم لليمن هو قبل كل شيء تاريخ السبئيين الذين وصفوا بأنهم أكثر عدداً وأكثر رخاءً من العرب. وأثّر التكوين الجغرافي لليمن بصورة كبيرة على تطور الحضارة. من سلاسل جبلية وقيعان ووديان وسهول ساحلية وصحراء، ومحاولة البحث عن سبل الاستفادة من عمل السدود، والزراعة ومن مميزات استراتيجية لطرق التجارة القديمة بحراً وبراً.

أما الهوية السبائية لليمن القديم منذ استخدام الجمل الذي بدأ خلال الألف الثاني قبل الميلاد والزيارة التاريخية لملكة سبأ إلى النبي سليمان في نحو القرن العاشر قبل الميلاد فإنها توحي بوجود وازدياد العلاقات التجارية بين شمال وجنوب الجزيرة العربية، وقد أشير إلى القوافل التجارية السبئية في الحوليات الآشورية منذ القرن الثامن قبل الميلاد. وكما كان لسبأ سبق الذكر في القرآن الكريم والحوليات الآشورية، فإن الممالك اليمنية الأخرى قد نشأت وازدهرت جنباً إلى جنب مع مملكة سبأ طوال الألف الأول قبل الميلاد.

على أن اكتشاف حضارة اليمن القديم، دأب به الباحثون من خلال الدراسات النقشية، والكشف الأثري المتواصل ولئن كان الأوربيون أصحاب الجهود العلمية في ذلك، فإن علامة اليمن الهمداني في القرن العاشر الميلادي، يمكن اعتباره أول مكتشف لثروات بلاده الأثرية، (الجزء الثامن موسوعة الإكليل)، وكان لابد من البحث الأثري للعلماء من بداية القرن السادس عشر، وخلال القرون التالية (السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر والعشرين)،حيث استمرت الرحلات بين فترة وأخرى وانصبت على الكشف والدراسة واستطلاع موقع الوثائق والنشر. وإجراء الحفريات العلمية بجهود البعثات الأثرية لمواقع مختلفة وتغطية نتائج الجهود العلمية دولياً مما يبين الاهتمام الجديد بالآثار في اليمن ا لذي لم يعد بلداً مجهولاً كما أن حضارته القديمة بدأت تحتل مكانها بين حضارات الشرق القدم.

كتاب اليمن في بلاد ملكة سبأ في سطور

بمناسبة إقامة معارض الحضارة اليمنية في بلدان أوروبية (باريس، فينا، برلين، روما) بداية في عام 1997م يأتي هذا الكتاب كثمرة هامة لهذا النشاط الثقافي ومنشوراً باللغات الفرنسية والألمانية، والنسخة العربية كانت نتيجة لجهود العلماء والمهتمين من اليمنيين والأجانب، في مقدمتهم الأستاذ الدكتور يوسف محمد عبدالله رئيس الهيئة العامة للآثار وأستاذ التاريخ واللغة اليمنية القديمة.

تقع النسخة العربية في 234 صفحة من القطع الكبير، طباعة معهد العالم العربي، باريس، ودار الأهالي، دمشق (الطبعة العربية) 1999م، ترجمة د. بدرالدين عرودكي ومراجعة د. يوسف محمد عبدالله.

قسمت مواضع الكتاب في صفحاته إلى عناوين رئيسية وفرعية مع أسماء الكتاب وما يزيد الكتاب أهمية هو نشره أعداداً من الصور التوضيحية للنماذج المختارة من القطع الفنية المشاركة في معرض الحضارة اليمنية، التي جاءت من متاحف اليمن ومن جهات أخرى، وتنتمي إلى فترات التاريخ القديم، بالإضافة إلى نشر الخرائط والمخططات والنقوش المكتوبة بخط المسند.

ومع أن الكتاب جاء كتغطية لمناسبة معرض الحضارة، فقد وزعت مواده بين التتبع الزمني لثقافة الإنسان منذ ما قبل التاريخ، والعصر الحجري الحديث، والعصر البرونزي، ومع فجر التاريخ. وبداية التاريخ بمملكة سبأ ونشوء الممالك الأخرى خلال الألف الأول قبل الميلاد حتى توحد جنوب الجزيرة العربية تحت راية حمير في القرون الميلادية الخمسة الأولى. تخلل هذا الترتيب مواضيع مختلفة حضارية (لغوية، كتابية، تجارية، زراعية، عمرانية، حياة يومية، دينية، مواقع مدن وموانئ، اقتصادية، حياة ثقافية وفنية...).

أي أن المواضيع كتبت ورتبت بحسب أهميتها وما تمثله من دراسات وأبحاث وتقارير الكشف الأثري وغطت فجوات من مراحل التاريخ والحضارة اليمنية القديمة. ونظراً لكثرة المادة العلمية وأهميتها، فقد رأيت الوقوف عند كل جملة تتطلب إعادة النظر فيها واقتضت الضرورة قراءة المعلومات العلمية وفحص الصور والأشكال التوضيحية والتعريف بها، ومن ثم إبداء الملاحظات والتعليقات المؤيدة بأدلة.

الحديث عن العصر الحجري الحديث الذي يحدد أقدم الأعمال تاريخياً إلى الألف السابع وتحدد على وجه خاص برسوم حيوانات سجلت على الصخر من قبل الفنانين. ومنها الجواميس والثيران البرية. مع ذلك يعلق على الصورة ذات المنظر الكبير على الصخر، للبقرات متعددة الألوان وشخصيات رمزية تعود إلى عصر البرونز. فيما يحدد عصر البرونز إلى نهاية الألف الثالث وبداية الألف الثاني (عصر البرونز في المرتفعات- الساندرو دي ميغرية ص34).

عند استعراض مميزات العصر الحجري الحديث بثقافته وأدواته وتقنياته بأدلته الأثرية من أدوات طحن ورؤوس رماح يتضح أنها دون شك تعود إلى الألف السادس قبل الميلاد وليس إلى القرن السادس كما جاء في التعليق على صور هذه الآثار ص24.

عند الحديث عن بعثة وندل فيليس الأمريكية ذكر خطأ أنها منذ عام 1961م. ومن المعروف أن بعثة المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان American foundation for the study of man. التي عنيت بدراسة الموقع القتباني تمنع في وادي بيحان (1951-1952) وفي المعبد السبئي محرم بلقيس في مأرب (راجع د. يوسف محمد عبدالله من ص 30-33).

في موضوع نهاية ما قبل التاريخ في حضرموت يورمهارت فوكت (تنوع الأبنية القبورية) يتكرر وصف شواهد القبور الدائرية بأنها نصب (للمحاربين) في القبلى التي تعود إلى النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد. وكذلك النصب التي تمثل (محارباً ملتحياً) والمعروضة في متحف المكلا التي تعود إلى نهاية الألف الثالث وبداية الألف

الثاني، ما يميزها هو نقش شكل الخناجر الحادة ذات المقابض برؤوس هلالية الشكل فكان أن أطلق اسم (المحاربين) لمجرد وجود الخناجر عليها. وفي تقديري أنه ليس بالضرورة القول كذلك خاصة وأن الخنجر يرافق الإنسان اليمني في فترات ما قبل التاريخ والفترات التأريخية القديمة مختلفة في شواهد أثرية سبئية (أنظر لوحة المتعبد في القرن الأول قبل الميلاد القرن الأول الميلادي، ص306). ومما يؤكد ذلك العثور على خناجر برونزية من الجوف، معروضة في المتحف الحربي بصنعاء. ويتميز كلا الخنجرين في اللوح الذي يمسكه شخص واقف والمعروض في المتحف بأنه طويل حاد ومقبضه برأس هلالي الشكل، ويحتمل أن له علاقة بالناحية الدينية. خاصة وأن هناك لوحات النصب القبورية يظهر فيها الأشخاص ممسكين برماح طويلة أو أن يحمل القوس وحراب النشاب (أنظر: لوحات نصب قبورية من الجوف، القرن الثالث الميلادي، ص208).

ثقافة صبر على الشاطئ اليمني (بوركهار دفوكت والكسندر سيدوف، ص42).

يبدأ الموضوع من أنه جرت السنة التاريخية على أن يعتبر أن أي إنسان يتكلم لغة سامية، ربما قدم من الشمال يحتمل أنه قد غزا طوال النصف الثاني من الألف الثاني الجنوب الغربي من الجزيرة العربية. ومن ثم فقد استنتج أن ثقافة جنوب الجزيرة العربية كانت تحت تأثير بلدان الهلال الخصيب ومصر. والواقع أنه لم يدرس إلا القليل من عصور ما قبل التاريخ التي سبقت ظهور الكتابة (؟) ولاسيما مرحلة تكون أول ممالك جنوب الجزيرة العربية (ويتساءل) هل غزا القادمون الجدد صحراء ثقافية؟ وماهي الحالة التي كانت عليها المنطقة محليا قبل ظهورهم إذا ما كان الجواب سلبيا؟ يتفق علماء اللغة والمؤرخون (من سياق الموضوع) على القوب بأن جماعات "كوشية" كانت تسكن في الأزمنة السحيقة الجنوب الغربي من الجزيرة العربية. عند أكبر تجمع للمواقع الأثرية في ضواحي عدن، هناك تقوم صبر وهي بلا شك أوسع المواقع الأثرية وأكثرها تعرضا

للتنقيب. ونظراً لافتقارنا إلى نصوص مصدرها المنطقة ذاهّا، فقد أطلق على أسلوب معاش جماعاهّا إسم "ثقافة صبر" وربما كان سكاهّا الذين امتلكوا وسائل عيش متنوعة يتكلمون اللغة الكوشية (؟).

من خلال العرض الموجز للموضوع، فإنه يركز على القول بغزو أقوام سامية من الهلال الخصيب ووصولهم إلى جنوب غرب الجزيرة والتأثر بثقافتها، إلى جانب جماعات "كوشية" في صبر والتكلم بلغتها. ونحن نتساءل، هل فعلاً جاءت موجات من الأقوام السامية في الهلال الخصيب ومن مصر إلى جنوب غرب الجزيرة العربية وأثرت خلال عدة أجيال ببروز قوى سياسية شهدت ثقافتها على مستوى حضارهّا: كتابة، تنظيم اجتماعي، تنظيم سقاية، عمارة ضخمة..إلخ.

وللإجابة عن ذلك يمكن التذكير بأن الكثير من المصادر التاريخية تخرج على القول بأن الهجرات عكسية من الجنوب إلى الشمال، وحيث عرف عن اليمنيين تنقلهم ووصولهم إلى أماكن بعيدة لغرض التجارة وغيرها طوال الفترات التاريخية. وتشهد بذلك الكثير من ا لمواقع والشواهد التاريخية والأثرية وإذا كان الحديث عن أقوام سلمية حملت معها الكتابة والحضارة طوال النصف الثاني من الألف الثاني ق.م. فما هي تلك اللغة ومفرداهّا وحروفها غير خط المسند، وما هو الشاهد على نظامها الأصلي والمعماري الذي يمكن إثباته بالأدلة المقارنة، ومن هي الجماعات الكوشية الذين تكلم بلغتهم جماعة "ثقافة صبر" وما هي لغتهم ومفرداهّا أو حروفها، بل يمكن القول بأن نظام السقايه أو إقامة منشآت الري كالسدود والحواجز المائية المختلفة قد عرفتها اليمن واعتمدت عليها في حياة سكاهّا كون مواقع المدن والوديان تقع عند مخارج الوديان فاقيمت السدود والسواقي وأكبر مثال على ذلك سد مأرب وبناؤه الأسطوري الذي لم تشهد أي منطقة أخرى مثيلا له ولهندسته وتوزيع المياه منه أو التحكم بها بوسائل محكمة، كما أن العمارة المنوعة في أبنية الأسوار والمدن والمعابد والقصور قد دلت وما

تزال على تفرد اليمن بأجزائها الطبيعية، على نماذج معمارية وهندسية غاية في الاتقان والأسلوب الديكوري الزخرفي لقطع الأحجار واختلاف العناصر والمخططات المعمارية عن سواها من المباني في مواقع الهلال الخصيب ومصر. ذلك أن كل منجز معماري واجتماعي وكتابي ونظام اجتماعي خلال رحلة الحضارة اليمنية لزمن طويل، ظل مترابطاً ومؤثراً ومتأثراً بالعوامل البيئية ودواعي الاستجابة لمعطيات التطور والازدهار وإن حدثت تغيرات طفيفة، إنما ترجع إلى التنوع البيئي ووسائل حاجة الإنسان اليمن الممكنة.

وإذا كانت ثقافة جنوب الجزيرة العربية، تحت تأثير بلدان الهلال الخصيب مصر، فأين موقع هذا التأثير في تحديد وظهور القوى السياسية ومن ثم الكتابة أو بمعنى آخر بدء التاريخ، الأمر الذي لم تثبته الشواهد والأدلة الأثرية والتاريخية. خاصة وأن هناك من يرى وجود اختلاف عميق بين الثقافة المادية في حقبة الألف الثالث-الألف الثاني قبل الميلاد وثقافة حقبة جنوب الجزيرة العربية التي تليها (الألف الأول قبل الميلاد-الألف الأول بعد الميلاد) وأن التاريخ بالمعنى الحقيقي للكلمة قد بدأ في بلاد العرب الجنوبية مع ظهور النقوش الكبيرة (اليساندرو دي ميغريه- فجر التاريخ مناطق اليمن الداخلية/ص50).

كما أن (دي ميغرية) ينكر على من ظنوا بالرأي القائل "بتاريخ قصير" وتأثير اليونان الكلاسيكي على صنعه أقدم النقوش (جاكلن بيرين) وجددوا تاريخ هذا الظهور نحو عام 500 ق.م.) مؤكداً أن أكثر الاكتشافات أهمية وأشدها مفاجأة، هو اكتشاف كتابات قصيرة بحروف جنوب الجزيرة العربية مخزوزة على جدران مجموعة من الأواني. وتلك هي أقدم الشهادات على الكتابة التي اكتشفت حتى الآن في جزيرة العرب، وبداية هذه الكتابة قبل القرن العاشر أو القرن الحادي عشر قبل الميلاد (دي ميغرية-فجر التاريخ في مناطق اليمن الداخلية-ص51). وإن كان هناك من يرى أن

ثمة قرابة بين أبجدية خط المنسد مع الأبجدية الفينيقية في تشابه بعض الحروف واختلاف بقية الحروف. لكنهما يمثلان (بالرغم من اشتراكهما أبجديتين تقليديتين مستقلتين. باعتبار أن كلا منهما يملك نسقه الخاص من الحروف الذي استمر حتى اليوم. (فرانسوا برون، نشوء وصيرورة أبجدية جنوب الجزيرة العربية، ص55).

في موضوع (التسلسل التاريخي ومشكلاته، ص60، كرستيان روبان)

إذا كان اليمن، أي مملكة سبأ قديماً، مذكوراً في التوراة فلم يكن ذلك إلا بصورة عارضة دون أي دلالة قاطعة بالحجة. (هكذا) وهل التوراة هي المصدر الوحيد لذكر اليمن ومملكة سبأ مع أن البرهان بيّن وواضح مما جاء في القرآن الكريم عن سبأ بلداً وشعباً وملكة وسداً وجنات. في سورتين من سور القرآن الكريم (النمل وسبأ) وأن سبأ قد جاءت إسم واحدة من السور.

وفي معرض الحديث عن نقوش المسند كمصدر هام لمعرفة تاريخ وحضارة اليمن القديم وجهود العلماء عن الكشف عن المزيد من النقوش والمكتوبة بخط المسند والذي عرف في جميع الممالك اليمنية، وفهم نصوص اللغة اليمنية القديمة خاصة ما عرف منها في المناطق السبئية. وإن كانت النقوش في الممالك الأخرى (المعينية، الحضرمية، القتبانية) إلا أنها لم تكن لغات كما وصفت، ولو كانت كذلك لاختلف فيها الحرف والمعنى والنطق. بل هي لهجات محلية ولغة رسمية يعرفها الجميع. كما أن اليمن بممالكه وشعبه وأرضه ما يصفها الأستاذ الدكتور يوسف محمد عبدالله،أشبه بالوعاء في الجنوب الغربي للجزيرة، يتفاعل الناس فيه عبر آلاف السنين بلغة واحدة يكتبونها بأحرف المسند ومقومات الحضارة فيها متشابهة أي شهادات شخصية معروفة لا تحتاج إلى اللغات وتنتمي هذه اللغة إلى عائلة اللغات السامية (العربية القديمة) والمحتوى العام بها يدور

حول مجالين، الحياة العامة، والحياة الخاصة. ويكتنف ذلك إطار عام هو إطار الحياة الدينية وعالم الآلهة (أوراق من تاريخ اليمن وآثاره، الطبعة الثانية، 1990م، ص47).

وما جاء لنفس الكاتب (روبان، ص83، عن لغات الجزيرة العربية ليؤكد ما ذهب إليه سابقا من أنه:

> **"إذا كان جنوب الجزيرة العربية يستخدم كتابة واحدة معبرا بذلك عن وحدة ثقافية حقيقية، فإنه يستخدم خمس لغات على الأقل متباينة تمام التباين. وهذه اللغات هي من الغرب إلى الشرق، المذابية (أو المعينية) والسبئية، والقتبانية، والحضرمية، هذه اللغات التي يطلق عليها "اللغات العربية الجنوبية".**

ومع ذلك يجب التأكيد أنها ليست لغات وإنما لهجات، والتي تعود لتنوع البيئة من جبال وقيعان ووديان وسهول وصحارى. لكن تجمع الناس في مدن رئيسية، وتعاملهم بلغة واحدة ووثائق وكتابات مفهومة يتعارف عليها الناس، والدليل على ذلك مثلا "قانون شمر يتمتع" في سوق قتبان الذي حددت بنوده من قبل الملك "شهر هلال" وعني بها كل من يأتي إلى "تمنع" من التجار من هم فيها وما لهم وما عليهم...إلخ. أي أن نصوص القانون أو التشريع لا يختلف في كتابته ومفهومه فقد كتب بخط المسند وبلهجة قتبان. وهي وإن كانت تتميز عن اللهجة السبئية إلا أنها ذات وشائج أصلية وقربى حميمة مع اللهجتين المعينية والحضرمية (راجع د.يوسف محمد عبدالله، المصدر السابق، ص238. نص قانون شمر، ص240،241).

الناحية الفنية

مع كثرة الصورة لشواهد أثرية مختلفة ووضوح هذه الصور فإننا نجد التعليق أو التوصيف لنماذج أثرية كثيرة قد جاء بعيداً عن المعنى الصحيح الذي يجب أن توصف

به، نظرا لاختلاف وظائفها أو مدلولها الذي هيئت من أجله، ويمكن تتبع هذا الموضوع وفقا لتسلسل الصور في صفحات الكتاب.

مذبح

وردت كلمة مذبح كثيرا كإسم لمباخر طويلة وصغيرة وقد يكتب "مذبح في شكل مبخرة" ص70،72،74، أو مبخرة، مذبح (ص75). وكلها صور لمباخر متفاوتة الأحجام ومن مواد مختلفة (أحجار، طين، برونز) جميعها عملت في شكل مباخر بل أن بعضها قد كتب عليها أسماء للطيوب والبخور مثل "ضرو، كم كم" (مبخرة من قتبان صغيرة بأربعة أوجه تقوم على أربعة أرجل، ص76، وقد شاهدت مبخرة من الجوف شبها لهذه المبخرة مكتوبا على أوجهها الأربعة منها الأسمين السابقين بالإضافة إلى "رند، حذك". فما هو مبرر إطلاق كلمة مذبح على مباخر واستثناء القليل، ومبلغ العلم أن المذابح تختلف اختلافاً كبيراً في شكلها وحجمها فهي ذات أقسام متدرجة مستطيلة أو مربعة يتقدمها شكل رأس ثور، ولها حافة بارزة في قسمها الأعمق. وتنصفها ساقية أو قناة تشق منتصف رأس الثور. وهي مذابح رمزية وهي تختلف عن الموائد الحجرية ذات الإطار المستطيل أو المربع الذي يتقدمه رأس الثور.

يتكرر وصف القطع الحجرية ذات النحت الهندسي بأنها مذابح أيضاً منها:

(ص 90: "مذابح للعطور"، وهو عبارة عن كتلة حجرية مرتفعة ذات أربعة أوجه يزخرفها جانبياً أشكال أعمدة وفي الواجهة كتلة أمامية يقف عليها ثلاثة وعول بأرجلها ورؤوسها مع القرون الملتوية للداخل، يتوسط الجزء العلوي حفرة غير منتظمة، فهل كانت تصب فيها العطور؟

(ص142: "مذبح (؟) في شكل معبد" ويقف يكون مذبحاً وعلامة الاستفهام قـــد وضحت، مبلغ الحكم في حالة أنه شكل معبد. فالأمر لا يحتاج إلى إيضاح. إذ أن كتلـة الحجـــر مـــن المـــرمر ذات أربعة أوجه مزخرفة بوحدات هندسية بوابـــة، نوافـــذ، مسننات مربعة.

(وفي ص 144) كتب عنوان "مذابح معبد بران في مأرب" يقصد بالمذابح ثلاثة قطع حجرية بها زخارف هندسية قوامها مصاطب وأعمدة وبوابات وشـــبابيك ومســـننات تعلوها كتابات بخط المسند أسطحها العلوية مستوية، فكيف يمكن أن تكون مذابح.

والمبخرة الطويلة ذات القاعدة الإنسيابية المتسعة في الأسفل والجزء العلوي المؤلـــف من طابقين: أسفل ذي أربعة أوجه تطل منها ثلاث نوافذ غائرة يعلوها شبابيك، مـــن أعلى أبراج على الأركان ذات نوافذ غائرة بين الأبراج وسطران بخط المسند وصفـــت هذه المخبرة (149) بأنها مذبح؟

صورة لمبخرة من الحجر الكلسي من السوداء (الجوف) ذات قاعدة إنسيابية وجـــزء علوي بارز بأربعة أوجه قمة المبخرة والجانب الأيمن مع الحافة مفقود وكسر تطـــوف. وصفت بأنها "مذبح"ومن جهة أخرى ترجم النص المكتوب بخط المسند على الواجهـــة، أن "هعلل" أهدى إلى عثتر ذي وصف المبخرة "يعود"...إلخ. وهذا دليـــل واضـــح أن الإهداء مبخرة وليس مذبح (ص186).

نحت الزخارف الهندسية

سبق الحديث حول بعض النماذج الهندسية بتفاصيلها المجسدة للمباني العامة والدينية بصورة تجريدية، وبأنها ليست مذابح كما وصفت.

فقد حفلت المنحوتات الهندسية بعناصر معمارية بأسلوب نحتها الدقيق وسطوحها المصقولة والمحافظة على تقسيماتها الهندسية التي عملت كنماذج مصغرة لتمثل هياكل معابد قديمة محورة، اهتم النحات في معظمها بإبراز أهم مكوناتها مثل: بوابات ونوافذ وشبابيك وشرفات وأعمدة وعقود... وأحياناً بعض المجسمات أو التكوينات، رموز دينية، حيوانية، آدمية، والهلال والقرص، بالإضافة إلى كتابات بخط ا لمسند.

إن تسمية النوافذ في هذه التكوينات الهندسية، بأنها "كاذبة" يجعلنا نتساءل لماذا هذا المسمى، طالما أن النحت لكل العناصر المعمارية الهندسية تجريدية تمثل أشكالاً مصغرة لأصول معمارية لا تزال هياكل بعضها قائمة في مواضعها.

استخدم بعض الكتاب مسميات لأشكال هندسية داخل مقابر الملوك في مصر القديمة. منها الأبواب الوهمية المنقوشة على جدران المقبرة لتضليل من يحاول الوصول إلى الغرفة الرئيسية في المقبرة. وقد أطلق كلمة "كاذبة" على مجموعة التماثيل لنفس الشخص، وقد ظهرت هذه المجموعات الحجرية-كعنصر هندسي أيضاً- في المقابر الصخرية ابتداءً من عصر الأسرة الرابعة. ويطلق على هذه المجموعات اصطلاحاً المجموعات الكاذبة لأنها تمثل الشخص نفسه أكثر من مرة. ولعل الهدف منها هو ضمان الحفاظ على تمثال واحد أو أكثر- كاملاً سليماً في المقبرة حتى تتعرف عليه-الروح في حالة ما إذا لم تلق أو كسر أو تشويه بالتمثال الأساسي في المقبرة.

من هذه المجموعات، مثل صاحب المقبرة مرتين واقفا مع زوجته وطفيلة داخل الباب الوهمي (راجع: سيد توفيق، تاريخ الفن في الشرق الأدنى القديم، مصر والعراق، 1987م، ص210).

استخدمت كلمة "كاذبة" و "مزيفة" كصفة خاصة بالنوافذ فقط دون بقية التكوينات المعمارية، مثل البوابات والشبابيك؟ ص108، 1356، 141. وقد ظهرت

لوحات هندسية تزين جدران غرف في معبد المقه بعل أوام "بمأرب، عندما نقبت فيه البعثة الأثرية الأمريكية عام 1952م. (راجع Phillips W. Qataban and Sheba. 1995).

تشكيل ونحت التماثيل واللوحات للأشخاص

عند استعراض صورٍ لتماثيل ولوحات آدمية نواجه بوصف وتعليق على بعضها يبدو غريباً وتستحق معها الوقوف على حقيقتها منها: تمثال معدي كرب (ص88) الذي كشفت عنه البعثة الأمريكية في معبد أوام بمأرب. وصف بأنه (أكبر وأكثر التماثيل البرونزية المكتشفة اكتمالاً، وأنه أحد أهم وأجمل الآثار التي عثر عليها حتى الآن في اليمن. لكنه (كما وصف) أيضاً أكثرها غموضاً وأكثرها موضوعاً للخلاف، شاهداً بذلك على حدود التفسيرات في مجال الآثار وتاريخ الفن والكتابة.

إن وصف التمثال بهذا الإعجاب إنما يرجع مبررة إلى تشابه (كما وصف أيضاً) بأنه مع ما عرف من تماثيل قبرصية واغريقية أو فينيقية أو مع الإله الاغريقي هيرا كليس وعلى الرغم من الميل بصورة عامة لاختيار المشابهات القبرصية (القرن السابع ق.م) والاغريقية (القرن ا لرابع ق.م) والفينيقية على الصعيد الأسلوبي (الرابع الثاني من الألف الأول قبل الميلاد) فإنه يبدو أكثر تأثراً بالشرق. وهو ما يصفه في نهاية "المرحلة المشرقية".

كل ذلك الإعجاب والانبهار من كون التمثال أهم وأجمل الآثار اليمنية المكتشفة، لكنه كما سبق وصفه قد ذهب به إلى، مواطن وتواريخ بعيدة بينها مسافات مكانية وزمنية بالإضافة إلى حالات من الآلهة الاغريقية. وفي الأخير بأنه أكثر تأثراً بالشرق (إجمالاً) وفي نهاية المرحلة "المشرقية" التي لم تحدد اسماً لها وفترتها.

فالمقصود في أن هذا التمثال أكثر التماثيل غموضاً وأكثرها موضوعاً للخلاف؟ ففي مجال الآثار يعتبر تمثال "معدي كرب" واحداً من أهم الآثار اليمنية، شاهداً على أصالة الفن اليمني القديم منذ القرن السابع أو السادس قبل الميلاد، وما قصد الغموض، إن كان معروفاً وواضحاً من خلال ملامحه اليمنية المعبر عنها في تقاسيم الوجه المعهودة في التماثيل البرونزية الأخرى كذلك الحال في الملبس "المئزر" والخنجر المغروس في وسط الحزام كتقليد كان ولا يزال مرافقاً للإنسان اليمني وإن اختلفت حالته. وتتفق النظرة الثاقبة والهادئة ومسحة الرجولة والهيبة إلى الأمام الملبية لحالة التعبير، وهو ما يمكن إدراكه في كثير من التماثيل البرونزية.

يأتي نص خط المسند المكتوب على واجهة جسم التمثال ليفسر سبب عمله أو وجوده. حيث يعتبر تمثال معدي كرب واحدا في ثلاثة تماثيل لأخوته قدمت من والدهم. إلى معبد المقه بعل أوام، وأنه واحد من قادة الدولة السبئية "الأسد" المحاربين. وكانت علامة هذه المكانة هو اتشاح التمثال لجلد الأسد، برأسه المنكفئ على الرقبة، وأطرافه، العلوية المتقاطعة فوق الصدر والسفلية الموضوعة فوق الفخذين.

وهناك تشابه مع بعض فنون الشرق الأدنى القديم، منها تقديم القدم اليسرى على القدم اليمني حتى يوحي أنه في حالة حركة من شمال حلب بسوريا تمثال برونزي مشابه من حيث الوقفة ووضع الأيدي للإمام مع قبض الأصابع وارتداء المئزر من الخصر إلى الركبتينن ويوصف بأنه تمثال للإله "بعل" (عدنان الجندي، تمثال من مقتنيات المتحف الوطني، دمشق، الحوليات الأثرية، المجلد الثامن والتاسع، 1958، 1959م، ص14). كما أن هناك تماثيل مصرية لها نفس وضعية الأرجل للتعبير عن الحركة (عبدالمنعم عبدالحليم سعيد، الأصول المصرية القديمة لبعض المظاهر الحضارية في الجزيرة العربية قبل الإسلام، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، 1979م، ص286).

يؤكد بعض الباحثين، رجوع فترة تمثال معدي كرب للقرن الثامن أو السابع قبل الميلاد (Daum, Werner . from the Queen- of sheba.. yemen 3000 years.. 1988. 18.19).

إن أقدم التماثيل الحجرية تلك التي تعود إلى فترة العصر البرونزي (الألف الثاني قبل الميلاد (دي ميغريه-عصر البرونز في المرتفعات ص 34،38) تأتي بعدها التماثيل ذات النحت التكعيبي الحالة ذات الأيدي، والأرجل الثقيلة ملامح الوجوه غليظة تمتد مستوية مع الصدر والبطن حددت أصابع اليدين والقدمين بخطوط محزوزة. على بعضها ثقوب تظهر عند الساعدين والقدمين، وقد وصفت هذه الثقوب حسب ما جاء في (ص158) بأنها "فجوات على مستوى الذراعين والفخذين كانت تستخدم لتثبيت أشياء معدنية).

وجه الاستغراب، كيف أن تماثيل حجرية أعدت لها ثقوب لتثبيت أشياء معدنية، هل الغرض تعليقها أو ربطها لوضعها في مكان ما؟ إذا لم تظهر على بقية التماثيل الحجرية مثل هذه الثقوب من أجل هذا الغرض؟مع أن التماثيل ذات الثقوب المقصورة جالسة على مقاعد من نفس كتلة التمثال. والحقيقة أن عمل الثقوب لم يقصد بها تثبيت أي شيء، وإنما هو التعبير عن الفجوات أو الفراغ المفروض أن يترك بين اليدين والجسم والأرجل القاعدة وقد تحقق ذلك في العديد من النماذج التي توسعت فيها الثقوب المستديرة إلى فراغ أكبر، واستقلت فيها الأرجل عن كتلة المقعد (ص160،161) وأبرز مثال على ذلك ما وجد على تماثيل حجرية من تل الصوان بالعراق، تعود إلى الألف الخامس قبل الميلاد (راجع: خرج بصمن جي، كنوز المتحف العراقي، بغداد).

تمثال مرأة تدعى برأت، وهو من البرونز وجد في "تمنع" عاصمة قتبان عام 1950م جالسة على قاعدة حجرية صغيرة موضوعة مع أقدام التمثال فوق مصطبة حجرية مكعبة على واجهتها نقش بخط المسند، يذكر اسم "رأت" واهداءها التمثال للآلهة ذات حميم. ووصف أنه من صنع محلي لكنه يستوحي أيضا نموذجا إغريقيا رومانيا.

هذا ما اعتادت عليه الباحثة جاكلين ببرين عند وصفها لأي قطعة فنية يمنية حين تصادفها وتكتب عنها، لأنها مولعة أو لنقل مبهورة بالآثار الرومانية واليونانية والشرقية الأخرى الكثيرة والمنوعة راجع مؤلفها: Prienne: J. Corpus. Le Musee .1986

وبحسب الوصف "ترى جاكلين ببرين أن التمثال، المهدى من قبل كاهنة عم- كان يمثل الآلهة ذات حميم، إلا أنه يظهر أن من الأرجح أنه صورة المرأة المهدية. سيدة برأة". هذا التناقض يثبت صحة المعلومات السابقة.

وكيف أمكن الحكم على تمثال رأت أنه جزء من مجموعة مستوحية من النماذج الاغريقية الرومانية كإحدى أفضل الأمثلة عليها في اليمن. وأنه يرتبط ببساطة أكثر بمجموعة من المنحوتات التي عثر عليها في سورية الجنوبية حيث تستخدم "الثياب المبلولة" التي تلبس الصدر بصورة معتادة مع جل الآلهة (ص 199).

ما يكتب عن تمثال برأت بهذا الأسلوب دليل على تقصير في النظرة الواقعية، ذلك بشخصية برأت ووضوح ملامح الوجه وتركيبة الشعر والثياب الفضفاضة المألوفة في تماثيل تصفية حجرية ترفع اليد للتحية هي من خصائص الفن اليمني والذي أوضح السمات والمميزات الدقيقة للشخصية اليمنية، خاصة عند تمثلها حالة التعبد أو الإهداء للمعبد.

والحال لا يزال منطبقاً على تماثيل ملوك أوسان الثلاثة الأب والابن والحفيد، التي يظهر فيها التطور وتدريجياً من النحت التكعيبي عند نحت الأيدي والأرجل الثقيلة والملابس القصيرة وكتلة الرأس في حالة التمثالين الأولين، وصار النحت أفضل في التمثال والثالث الذي حافظ على تقسيم نسب أجزاء الجسم وشرعة الشعر واسترسال الثياب بعطف أعلى الكتف الأيسر ونحت اليد اليمن فضفاضاً. وهو الأمر المخالف لما ذهب الوصف عنه بأنه يذكر بالثوب الروماني الفضفاض (ص200، 201).

وفي خاتمة الكتاب كان الحديث عن الوحدة الثقافية لبلاد اليمن ومن أن الرابطة الملكية كلها لا تكفي لضمان بقاء الإمبراطورية (يقصد بها الحميرية) كانت الحاجة ماسة إلى إيديولوجية رسمية يشترك فيها العدد الأكبر، وفي بداية سنوات 380 أي بعد أقل من قرن على الوحدة السياسية (عهد شمر يهرعش) ثبتت الأسرة المالكة الحميرية (؟) رسمياً عقيدة التوحيد واعتنقت بصورة شخصية الديانة اليهودية. منذئذ كان لليمن كل مظاهر الأمة مع سلطة مركزية قوية، ولغة واحدة (السبئية) والكتابة واحدة (اليمنية القديمة) وتعبير فني مشترك ودين سائد (اليهودية) ذلك هو ما صار عليه مآل ألف وأربعمائة سنة من التاريخ (226).

هذه الخاتمة لموضوعات الكتاب قيد البحث، أوضحت معها كيف أن بعض العبارات لا تنسجم مع الحقيقة التي تؤكد أن الديانة اليهودية لم تكن السبب الرئيسي في إبراز مظاهر الأمة والسلطة المركزية القوية واللغة الواحدة والكتابة اليمنية القديمة وبأنها الديانة السائدة. بل كانت كل هذه العوامل بدون الديانة اليهودية موجودة وثابتة ومتماسكة بين أبناء اليمن في كل المراحل التاريخية بالرغم من القلاقل أو النزاعات السياسية والتي لم تغير منها شيئاً لأكثر من ألف وأربعمائة سنة مضت من التاريخ قبل سنة 380م إلا أن التدخل الخارجي والفتن الداخلية كانت مؤثرة على مجرى التاريخ إلى أن ظهر الإسلام ودخل فيه أهل اليمن كافة وطواعية.